الخلاصة

في أحاديث الطائفة المنصورة

جمع وإعداد

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

((بهانج – دار المعمور))

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فيقول الله تعالى : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤)} آل عمران/١٠٤

لِتَكُنْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ جَمَاعَةٌ مُتَخَصِّصَةٌ مُتَمَيِّزَةٌ تَعْرِفُ أَسْرَارَ الأَحْكَامِ ، وَحِكْمَةَ التَّشْرِيعِ وَفِقْهَهُ ، تَتَوَلَّى القِيَامَ بِالدَّعْوَةِ إلى الدِّين ، وَتَأمُرُ بالمَعْروفِ ، وَتُحَارِبُ المُنْكَرَ ،وَتَنْهَى عَنْهُ ، وَمِنْ وَاجِبِ كُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يُحَارِبَ المُنْكَرَ مَا اسْتَطَاعَ إلى ذَلِكَ ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الفَائِزُونَ فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ .

وفي صحيح مسلم (٤١٢) عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِى أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -ﷺ- فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ ».

وقد تواتر هذا الحديث عن النبي ﷺ ، وروي بطرق كثيرة ، وقد ذكره جميع علماء الحديث ، وكتبت فيه أبحاث عديدة .

وقد اختلف أهل العلم في تعيين هذه الطائفة ، وبيان أوصافها ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية : " إنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . " وَطَرِيقَتُهُمْ " هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ مُحَمَّدًا . لَكِنْ لَمَّا { أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً كُلُّهَا فِي النَّارِ إلَّا وَاحِدَةٌ - وَهِيَ الْجَمَاعَةُ - } وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : " { هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي } صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ : هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ؛ وَفِيهِمْ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى ؛ وَمَصَابِيحُ الدُّجَى ؛ أُولُوا الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ ؛ وَفِيهِمْ الْأَبْدَالُ : الْأَئِمَّةُ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ وَهُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ

الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ النَّبِيُّ ﷺ : " { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ } . فَنَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ"[1] .

وقد قمت بجمع جميع روايات الحديث من مظانها ، وقمت بتخريجها باختصار ، وشرح غريبها ، وبيان معناها .

هذا وقد قسمته إلى المباحث التالية :

المبحث الأول = ذكر الروايات وتخريجها

المبحث الثاني= تواتر خبرهم

المبحث الثالث= معنى هذه الأخبار

المبحث الرابع= من أصحاب هذه الطائفة المنصورة ؟

المبحث الخامس= مكان وجودها

المبحث السادس= أهم صفات الطائفة المنصورة

المبحث السابع= الراجح في شأن الطائفة المنصورة

وقد فصَّلت القول في هذه المسائل ،بما يبين معناها ، ويجلي مبناها .

قال تعالى : {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (٧٤) سورة النساء

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، وأن ينفع به جامعه وناشره وقارئه والدال عليه .

جمعه وأعده

الباحث في القرآن والسنة

علي بن نايف الشحود

في ٢٢ ربيع الثاني ١٤٣٠هـ الموافق ١٧/٤/٢٠٠٩م

❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋❋

[1] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (ج ٣ / ص ١٥٩)

المبحث الأول

ذكر الروايات وتخريجها

١-عَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « لاَ يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ » رواه البخاري[٢].

٢- وعَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ أَخْبَرَنِى أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ -ﷺ - يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -ﷺ- فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ » رواه مسلم. [٣].

٣- وعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ »رواه مسلم [٤].

٤- وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ - أَنَّهُ قَالَ « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » رواه مسلم[٥].

٥- وعن أبي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »رواه مسلم[٦].

٦- وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ حَدَّثَهُ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ » رواه مسلم[٧]..

---

[٢] - صحيح البخارى (٧٣١١) وصحيح مسلم (٥٠٦٠)

[٣] - صحيح مسلم (٤١٢)

[٤] -صحيح مسلم (٥٠٥٩)

[٥] -صحيح مسلم (٥٠٦٢)

[٦] -صحيح مسلم (٥٠٦٣)

[٧] -صحيح مسلم (٥٠٦٤)

٧– وعن يَزِيدَ بْنِ الأَصَمِّ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ ذَكَرَ حَدِيثًا رَوَاهُ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – لَمْ أَسْمَعْهُ رَوَى عَنِ النَّبِىِّ –ﷺ – عَلَى مِنْبَرِهِ حَدِيثًا غَيْرَهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ – « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَلاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » رواه مسلم[8].

٨– وعَنْ أَبِى عَبْدِ اللَّهِ الشَّامِىِّ، قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الشَّامِ، حَدَّثَنِى الأَنْصَارِىُّ، قَالَ – قَالَ شُعْبَةُ: يَعْنِى زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ –: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ: لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ، وَإِنِّى لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا هُمْ يَا أَهْلَ الشَّامِ.رواه أحمد[9].

٩– وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ حَدَّثَهُ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ عَلَى هَذَا الْمِنْبَرِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ – يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ ». فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ السَّكْسَكِىُّ فَقَالَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ َهُمْ أَهْلُ الشَّامِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ وَرَفَعَ صَوْتَهُ هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ َهُمْ أَهْلُ الشَّامِ. رواه أحمد[10].

١٠– وفي مسند أبي عوانة قَالَ عُمَيْرُ بْنُ هَانِئٍ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى الْمِنْبَرِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، قَالَ الْوَلِيدُ: وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ، وَقَالَ عَبَّاسٌ: أَوْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ، لَفْظُ الْوَلِيدِ، وَقَالَ عَبَّاسٌ: أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ، حَدَّثَنَا الْعَسْقَلانِيُّ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِشْرُ بْنُ بَكْرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي ابْنُ جَابِرٍ، بِمِثْلِهِ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ، فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يَخَامِرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، سَمِعْتُ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ وَهُمْ بِالشَّامِ: قَالَ مُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَذَا مَالِكُ بْنُ يَخَامِرَ وَبِهِ النَّسَمَةُ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا، يَقُولُ: وَهُمْ بِالشَّامِ"[11].

---

[8] –صحيح مسلم (٥٠٦٥)

[9] –غاية المقصد فى زوائد المسند ٢ – (ج ٢ / ص ٢٣٦) (٤٣٨١) ومسند أحمد (١٧٣٤٤) صحيح لغيره

[10] –مسند أحمد(١٧٣٩٥) صحيح

[11] – مسند أبي عوانة (٦٠٣٨) صحيح

١١- وعَنْ عَامِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْيَحْصَبِىِّ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ قَالَ أَبِى كَذَا قَالَ يَحْيَى بْنُ إِسْحَاقَ وَإِنَّمَا هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَامِرٍ الْيَحْصَبِىُّ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى عَلَى الْحَقِّ لاَ يُبَالُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ أَوْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ». رواه أحمد[١٢].

١٢- وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ قَالَ : كُنْتُ عِنْدَ مَسْلَمَةَ بْنِ مُخَلَّدٍ ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ الْخَلْقِ ، هُمْ شَرٌّ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِشَيْءٍ إِلَّا رَدَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ ، فَقَالَ لَهُ مَسْلَمَةُ : يَا عُقْبَةُ ، اسْمَعْ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ ، فَقَالَ عُقْبَةُ : هُوَ أَعْلَمُ ، وَأَمَّا أَنَا فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ : " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَجَلْ ، " ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ ".رواه مسلم[١٣].

١٣- وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِى وَقَّاصٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » رواه مسلم[١٤].

١٤- وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَعَدُوِّهِمْ قَاهِرِينَ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، إِلاَّ مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لأْوَاءَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ: بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ. رواه أحمد[١٥].

١٥- وعَنْ كُرَيْبٍ السَّحُولِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي مُرَّةُ الْبَهْزِيُّ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ، وَهُمْ كَالإِنَاءِ بَيْنَ

---

[١٢] -مسند أحمد(١٧٣٤٤) صحيح

[١٣] -صحيح مسلم (٥٠٦٦)

[١٤] -صحيح مسلم (٥٠٦٧)

[١٥] -غاية المقصد فى زوائد المسند ٢ - (ج ٢ / ص ٢٣٧) (٤٣٨٤) ومسند أحمد (٢٢٩٨٠) صحيح لغيره

الأَكَلَةِ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيْنَ هُمْ؟ قَالَ:بِأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَ: أَنَّ " الرَّمْلَةَ هِيَ الرَّبْوةُ ، ذَلِكَ أَنَّهَا مُغَرِّبَةٌ وَمُشَرِّقَةٌ " رواه الطبراني [١٦].

١٦- وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ نُفَيْلٍ أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَتَى النَّبِىَّ -ﷺ- فَقَالَ إِنِّى سَئِمْتُ الْخَيْلَ وَأَلْقَيْتُ السِّلاَحَ وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا قُلْتُ لاَ قِتَالَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِىُّ -ﷺ- « الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ يَرْفَعُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيُقَاتِلُونَهُمْ وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَلاَ إِنَّ عُقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِى نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » رواه أحمد[١٧].

١٧- وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيَنْزِلَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ ». رواه أحمد[١٨].

١٨- وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ أَنَّ النَّبِىَّ -ﷺ- قَالَ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ ». رواه أحمد[١٩].

١٩- وعَنْ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أُحَدِّثُكَ حَدِيثًا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، قَالَ مُطَرِّفٌ: فَنَظَرْتُ فِي هَذِهِ الْعِصَابَةِ، فَإِذَا هُمْ أَهْلُ الشَّامِ." أبو عوانة[٢٠].

٢٠- وعَنْ عُمَيْرِ بْنِ الأَسْوَدِ ، وَكَثِيرِ بْنِ مُرَّةَ ، قَالا : إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَابْنَ السِّمْطِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كَانَا ، يَقُولانِ : لا يَزَالُ الْمُؤْمِنُونَ فِي الأَرْضِ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ

[١٦] -غاية المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٥ / ص ٢٥٠) (١٧١٣٩) و(١٦٥٣٤) صحيح لغيره

[١٧] -مسند أحمد (١٧٤٢٨) صحيح

[١٨] -مسند أحمد (٢٠٣٨٤) صحيح

[١٩] -مسند أحمد (٢٠٤٥٥) صحيح

[٢٠] -مسند أبي عوانة (٦٠٤٧) صحيح

خَالَفَهُمْ ، تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا كُلَّمَا ذَهَبَ حِزْبُ قَوْمٍ تَسْتَحْرِبُ قَوْمَ أُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قُلُوبَ قَوْمٍ لِيَرْزُقَهُمْ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ" رواه ابن أبي عاصم [٢١].

٢١- وعَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ ، قَالَ : انْطَلَقْتُ أَنَا وَزُرْعَةُ بْنُ ضَمْرَةَ مَعَ الْأَشْعَرِيِّ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، فَلَقِينَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، فَجَلَسْتُ عَنْ يَمِينِهِ وَجَلَسَ زُرْعَةُ عَنْ يَسَارِهِ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو : يُوشِكُ أَلَّا يَبْقَى فِي أَرْضِ الْعَجَمِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا قَتِيلٌ ، أَوْ أَسِيرٌ يُحَكَّمُ فِي دَمِهِ . فَقَالَ لَهُ زُرْعَةُ بْنُ ضَمْرَةَ : أَيَظْهَرُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ؟ قَالَ : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا مِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ . قَالَ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَتَدَافَعَ مَنَاكِبُ نِسَاءِ بَنِي عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَةَ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ – وَثَنٍ كَانَ يُسَمَّى فِي الْجَاهِلِيَّةِ – فَذَكَرْنَا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثَلَاثَ مِرَارٍ : عَبْدُ اللَّهِ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُ . قَالَ : فَخَطَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَوْمَ جُمُعَةٍ قَالَ : فَقَالَ : " إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ " ، قَالَ : فَذَكَرْنَا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَوْلَ عُمَرَ فَقَالَ : صَدَقَ نَبِيُّ اللَّهِ ، إِذَا جَاءَ ذَاكَ كَانَ الَّذِي قُلْتُ " .رواه الطبري والحاكم [٢٢].

٢٢- وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : " إِنَّكُمْ تَتَحَدَّثُونَ ، أَنِّي مِنْ آخِرِكُمْ وَفَاةً ، وَأَنِّي مِنْ أَوَّلِكُمْ وَفَاةً ، وَتَتْبَعُونِي أَفْنَادًا " ثُمَّ نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ : {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)} [الأنعام/٦٥-٦٧].

ثُمَّ قَالَ : " لَا تَبْرَحُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ بِهِ [حَتَّى] يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " ثُمَّ نَزَعَ بِهَذِهِ الْآيَةِ : {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ

[٢١] – الآحاد والمثاني (٢٧٨١) صحيح

[٢٢] -المستدرك للحاكم (٨٦٥٣) وتَهْذِيبُ الْآثَارِ لِلطَّبَرِيِّ(٩٢٠) صحيح

فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (٥٥) سورة آل عمران * رواه الطبراني. [٢٣].

٢٣- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ:"لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهُ، وَعَلَى أَبْوَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهُ، لا يَضُرُّهُمْ خِذْلانُ مَنْ خَذَلَهُمْ، ظَاهِرِينَ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ". رواه الطبراني [٢٤].

وفي رواية وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَعَلَى أَبْوَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهُ ، لَا يَضُرُّهُمُ مَنْ خَذَلَهُمْ ، ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ " الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ[٢٥]

٢٤- وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ فَلاَ خَيْرَ فِيكُمْ لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى مَنْصُورِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ». قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ قَالَ عَلِىُّ بْنُ الْمَدِينِىِّ هُمْ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ.[٢٦].

٢٥- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةٌ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا ، تُقَاتِلُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ، كُلَّمَا ذَهَبَتْ حَرْبٌ نَشِبَتْ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةَ."رواه الطبراني[٢٧].

٢٦- وعمر بن عمرو بن عبد قال : سمعت أبا عمرو الأنصاري ، يقول : قال النعمان على المنبر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين لا يبالون من خالفهم حتى يأتي أمر الله » ، قال النعمان : فيمن قال إني أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل ؟ فإن تصديق ذلك في كتاب الله ، قول الله عز وجل : {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي

---

[٢٣] - المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٤ / ص ٣١٣) (١٦٢٧٠-١٦٢٧٣) ومُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ لِلطَّبَرَانِيِّ (٢١٤٣) صحيح لغيره

[٢٤] - المعجم الكبير للطبراني - (ج ١٩ / ص ٩٨) (٢٢٠) والْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (٤٥٩٧) ضعيف

[٢٥] - الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ (٤٣٠٩) ضعيف

[٢٦] -سنن الترمذى(٢٣٥١) وقال :هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٢٧] -مسند الشاميين(١٥٦٣) حسن

مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } آل عمران/٥٥
رواه ابن أبي حاتم[٢٨].

٢٧- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " لَا تَزَالُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عِصَابَةٌ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " تهذيب الآثار للطبري [٢٩].

٢٨- وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَظْهَرُونَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ " تهذيب الآثار للطبري [٣٠].

٢٩- وعَنْ مُطَرِّفٍ ، قَالَ : قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ : اعْلَمْ أَنَّ خِيَارَ ، عَبَّادِ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْحَمَّادُونَ ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ يُقَاتِلُونَ عَنِ الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلُوا الدَّجَّالَ " نفسه [٣١].

٣٠- وعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ : أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ نُفَيْلٍ الْحَضْرَمِيَّ ، أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي سَيَّمْتُ الْخَيْلَ وَأَلْقَيْتُ السِّلَاحَ ، وَقُلْتُ : لَا قِتَالَ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " الْآنَ جَاءَ اللَّهُ بِالْقِتَالِ ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ ، يُزِيغُ اللَّهُ بِهِمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ فَيَقْتُلُونَهُمْ ، وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " نفسه [٣٢].

٣١- وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ حَتَّى كَادَتَا رُكْبَتَاهُ تَمَسَّانِ فَخْذَهُ قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، سُيِّبَتِ الْخَيْلُ وَأُلْقِيَ السِّلاحُ ، وَقَالُوا وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، وَقَالُوا لا قِتَالَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : كَذَبُوا الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ لا تَزَالُ أُمَّتِي أُمَّةٌ ظَاهِرَةٌ عَلَى النَّاسِ يُزِيغُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنِّي لأَجِدُ نَفَسَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَا هُنَا ، وَهُوَ

---

[٢٨] -تفسير ابن أبي حاتم (٣٦٣٩) صحيح

[٢٩] -تهذيب الآثار للطبري(٩٢٩) صحيح

[٣٠] -تهذيب الآثار للطبري (٩٣٠) صحيح

[٣١] - تهذيب الآثار للطبري(٩٣٤) صحيح

[٣٢] - تهذيب الآثار للطبري (٩٣٥) صحيح

مُوَلِّي ظَهْرَهُ إِلَى الْيَمَنِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَكْفُوتٌ ، ثُمَّ سَتَخْلُفُونِي أَفْنَادًا ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "[٣٣]

٣٢–وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : " لَا تَبْرَحُ هَذِهِ الْأُمَّةُ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ مَنْصُورِينَ أَيْنَمَا تَوَجَّهُوا ، يُقْذَفَ بِهِمْ كُلَّ مَقْذِفٍ ، لَا يَضُرُّهُمُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ " سعيد بن منصور [٣٤]

٣٣– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " لَا يَزَالُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عِصَابَةٌ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمُ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ "الخطيب[٣٥]

٣٤– وعَنْ نَصْرِ بْنِ عَلْقَمَةَ ، أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ الْأَسْوَدِ ، وَكَثِيرَ بْنَ مُرَّةَ ، قَالَا : إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ ، وَابْنَ السِّمْطِ كَانَا يَقُولَانِ : لَا يَزَالُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ قَوَّامَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا " معرفة الصحابة[٣٦]

٣٥– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا كُلَّمَا ذَهَبَتْ حَرْبٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ ، يَرْفَعُ اللَّهُ أَقْوَامًا وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ " ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " هُمْ أَهْلُ الشَّامِ " الحلية [٣٧]

٣٦– وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَوَّامَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا ، تُقَاتِلُ أَعْدَاءَ اللَّهِ ، كُلَّمَا ذَهَبَتْ حَرْبٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ " الطبراني[٣٨]

---

[٣٣] – الآحاد والمثاني(٢٤٦٠) صحيح

[٣٤] – سُنَنُ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢١٩٧) حسن لغيره

[٣٥] – الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (١١٦) صحيح

[٣٦] – مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِيِّ (٣٢٩٥) صحيح موقوف ، ومثله لا يقال بالرأي

[٣٧] – حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ (١٤٤٦٩) و الْمُعْجَمُ الْأَوْسَطُ لِلطَّبَرَانِيِّ (٨١٧٧) صحيح

[٣٨] – مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ لِلطَّبَرَانِيِّ (٢٤٣٩) صحيح

٣٧- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " لَا يَزَالُ لِهَذَا الْأَمْرِ - أَوْ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ - عِصَابَةٌ مِنَ النَّاسِ لَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ "الإبانة[٣٩]

٣٨- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، قَالَ : " لَا يَزَالُ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ عِصَابَةٌ عَلَى الْحَقِّ ، لَا يَضُرُّهُمْ خِلَافُ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " ابن حبان[٤٠]

٣٩- وعَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " لَا تَزَالُ بِدِمَشْقَ عِصَابَةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ " الطبراني [٤١]

٤٠- وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي عِصَابَةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مُعَادَاةُ مَنْ عَادَاهُمْ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " وفي رواية عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ شِمَاسَةَ حَدَّثَهُ ، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ " فَذَكَرَ نَحْوَهُ " الطبراني[٤٢]

٤١- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : " لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَبْوَابِ دِمَشْقَ وَمَا حَوْلَهَا ، وَعَلَى أَبْوَابِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَمَا حَوْلَهُ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ، ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ " المطالب العالية [٤٣]

وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرَةً عَلَى الدِّينِ عَزِيزَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ " ابن بطة [٤٤]

٤٢- وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تَبْرَحُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يُبَالُونَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَخْرُجَ الْمَسِيحُ الدَّجَّالُ فَيُقَاتِلُونَهُ " سعيد بن منصور[٤٥]

۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞۞

[٣٩] - الْإِبَانَةُ الْكُبْرَى لِابْنِ بَطَّةَ (٣٥) صحيح

[٤٠] - صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ (٦٩٦١) صحيح

[٤١] - مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ لِلطَّبَرَانِيِّ(٢٤٩٨) حسن

[٤٢] - الْمُعْجَمُ الْكَبِيرُ لِلطَّبَرَانِيِّ (١١٤٩٦٧) صحيح

[٤٣] - الْمَطَالِبُ الْعَالِيَةُ لِلْحَافِظِ ابْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ(٤٣٠٩) ضعيف

[٤٤] - الْإِبَانَةُ الْكُبْرَى لِابْنِ بَطَّةَ (٣٦) صحيح

[٤٥] - سُنَنُ سَعِيدِ بْنِ مَنْصُورٍ (٢٢٠٠) صحيح مرسل

المبحث الثاني

تواتر خبرهم

قال الكتاني رحمه الله :

أورده في الأزهار في كتاب الأدب من حديث (١) معاوية بن أبي سفيان (٢) والمغيرة بن شعبة (٣) وجابر بن سمرة (٤) ومعاذ بن جبل (٥) وجابر بن عبد الله (٦) وزيد بن أرقم (٧) وأبي أمامة (٨) وعمر (٩) وأبي هريرة (١٠) ومرة البهوي (١١) وشرحبيل بن السمط أحد عشر نفسا.

(قلت) ورد أيضا من حديث (١٢) عقبة بن عامر (١٣) وثوبان (١٤) وسعد بن أبي وقاص (١٥) وسلمة بن نفيل الحضرمي (١٦) وعمران بن حصين.

وله ألفاظ متقاربة المعنى، ونص على تواتره أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم في أوائله أثناء كلام ونصه [٤٦]:

"فأخبر أنه سيكون في أمته مضاهاة لليهود والنصارى وهم أهل الكتاب ، ومضاهاة لفارس والروم ، وهم الأعاجم" .

وقد كان ﷺ ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء ، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمة ، بل قد تواتر عنه أنه : « لا تزال طائفة من أمته ظاهرة على الحق حتى تقوم الساعة » ، وأخبر ﷺ : « أن الله لا يجمع هذه الأمة على ضلالة ، وأن الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته » .

فعُلم بخبره الصدق : "أنه في أمته قوم مستمسكون بهديه الذي هو دين الإسلام محضًا ، وقوم منحرفون إلى شُعبة من شُعب اليهود ، أو إلى شُعبة من شُعب النصارى ، وإن كان الرجل لا يكفر بكل انحراف ، بل وقد لا يفسق أيضًا ، بل قد يكون الانحراف كفرًا ، وقد يكون فسقًا ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطيئة" [٤٧]

---

[٤٦] – اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم – (ج ١ / ص ٣٦)

[٤٧] – نظم المتناثر – (ج ١ / ص ١٤١) (١٤٥) (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله).

وهذا أمر مما لا شك فيه له أثره الطيب على نفوس المؤمنين المستضعفين في الأرض؛ حيث يبعث في نفوسهم الأمل واليقين بنصر الله تعالى ووعده، وأن العاقبة للمؤمنين الصادقين ــ ولو بعد حين ــ مهما انتفش الباطل وتعاظم جنده وأمره.

وفيه كذلك بشرى سوء لجميع طواغيت الأرض الذين يناصبون الإسلام والمسلمين الحرب والعداء .. بأن كيدهم وحربهم لا يجدي لهم نفعاً .. وأنه مردود عليهم وفي نحورهم .. وأنهم مهما حاولوا فإن النصر لكلمة الله وجنده .. ولو بعد حين.

قد ناصب الإسلام والمسلمين الحرب والعداء ــ عبر مدار الأزمان ــ آلاف الطواغيت والجبابرة .. وسُيرت لحربه آلاف الجيوش الكافرة .. فأين هم .. وأين أموالهم الطائلة التي أنفقوها للصد عن سبيل الله .. وأين دين الله .. لو كانوا يُبصرون؟!

قد ذهبوا وهلكوا جميعاً حطباً لنار جهنم وبئس المصير .. ودين الله تعالى في ازدياد ورفعة وتوسع وانتشار في الأمصار وبين العباد .. رغم أنف الذين كفروا!

ألا يدل ذلك على أن يداً قادرة قد تكفلت بحفظ ورعاية ونصرة هذا الدين ..؟!

بلى .. لو كانوا يعلمون!

قال تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ التوبة:٣٢.

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ الأنفال:٣٦.



المبحث الثالث

معنى هذه الأخبار

ففي تهذيب الآثار للطبري[48]:

" الْقَوْلُ فِي الْبَيَانِ عَمَّا فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ إِنْ سَأَلَنَا سَائِلٌ فَقَالَ : مَا مَعْنَى هَذِهِ الْأَخْبَارِ ، وَمَا وَجْهُهَا ؟ وَمَا الصَّحِيحُ مِنْهَا ، الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ طَائِفَةً مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَنْ تَزَالَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، أَمِ الَّتِي وَرَدَتْ بِأَنَّهُ ﷺ قَالَ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً عَلَى عَدُوِّهَا ، إِلَى أَنْ يَأْتِيَهَا أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ " ؟ أَمْ كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ غَيْرُ صَحِيحٍ شَيْءٌ مِنْهُ ؟ أَمْ كُلُّ ذَلِكَ صَحِيحٌ غَيْرُ فَاسِدٍ شَيْءٌ مِنْهُ ؟ فَإِنْ زَعَمْتَ أَنَّ الصَّحِيحَ هُوَ الْوَارِدُ مِنَ الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّهُ قَالَ : " لَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهَا إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، فَمَا أَنْتَ قَائِلٌ فِيمَا رويَ عَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ : اللَّهُ ، اللَّهُ "

وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يَقُولَ أَحَدٌ : اللَّهَ ، اللَّهَ "

وعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ : اللَّهَ ، اللَّهَ "

وعَنْ أَنَسٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى رَجُلٍ يَقُولُ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ "

وعَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُعْبَدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ ذَلِكَ بِمِائَةِ سَنَةٍ "

وعَنْ مِرْدَاسٍ الْأَسْلَمِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : " يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا ، وَيَفْنَى الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ ، حَتَّى لَا يَبْقَى إِلَّا مِثْلُ حُثَالَةِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ ، لَا يُبَالِي اللَّهُ بِهِمْ "

---

[48] - (٩٣٧ - ٩٤٨)

وعَنْ مِرْدَاسٍ الْأَسْلَمِيِّ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ : " يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ ، وَيَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوِ التَّمْرِ ، لَا يُبَالِي اللَّهُ بِهَا "

وعَنْ مِرْدَاسٍ الْأَسْلَمِيِّ ، قَالَ : " يُقْبَضُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ ، حَتَّى تَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ التَّمْرِ أَوِ الشَّعِيرِ ، لَا يُبَالِي اللَّهُ بِهَا شَيْئًا "

وعَنْ عِلْبَاءَ السُّلَمِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ "

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ الْحَضْرَمِيِّ ، قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ النَّوَّاسَ بْنَ سَمْعَانَ الْكِلَابِيَّ ، يَقُولُ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ وَهَلَاكَهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : " فَبَيْنَا النَّاسُ كَذَلِكَ ، إِذْ بَعَثَ اللَّهُ رِيحًا طَيِّبَةً أَخَذَتْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبِضُ رُوحَ كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَيَبْقَى سَائِرُ النَّاسِ يَتَهَارَجُونَ كَمَا يَتَهَارَجُ الْحَمِيرُ ، فَعَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ "

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ ، فَإِنَّهُ يُنْبِئُ أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ عَلَى رَجُلٍ مُوَحِّدٍ " كَمَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : الدُّنْيَا جُمُعَةٌ مِنْ جُمَعِ الْآخِرَةِ ، سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ ، فَقَدْ مَضَى سِتَّةُ آلَافِ سَنَةٍ وَمِائَةُ سَنَةٍ ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ لَيْسَ عَلَيْهَا مُوَحِّدٌ . فَهَذَا خِلَافُ الْخَبَرِ الَّذِي ذَكَرْتُ عَنْهُ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " لَنْ تَزَالَ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَلَى الْحَقِّ فَهُوَ لِلَّهِ مُوَحِّدٌ وَلِأَمْرِهِ مُتَّبِعٌ " وَعَمَّا نَهَاهُ عَنْهُ مُنْزَجِرٌ ، وَهُوَ مِنْ خِيَارِ النَّاسِ ، لَا مِنْ شِرَارِهِمْ . وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَقُولَ ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ " " وَلَا تَقُومُ عَلَى أَحَدٍ ، يَقُولُ : اللَّهَ ، اللَّهَ ، ثُمَّ يَقُولُ : تَقُومُ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةٌ عَلَى مَنْ عَادَاهَا لَا فِي مَوْطِنٍ وَلَا فِي مَوَاطِنَ مُخْتَلِفَةٍ ، لِأَنَّ لِذَلِكَ خَبَرٌ ، وَالْخَبَرُ لَا يُنْسَخُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا نَاسِخًا صَاحِبَهُ إِذَا اخْتَلَفَتِ الْأَوْقَاتُ وَالْأَحْوَالُ ؟ وَإِنْ قُلْتَ : كُلُّ ذَلِكَ بَاطِلٌ لَا يَصِحُّ شَيْءٌ مِنْهُ دَخَلْتَ فِيمَا أَنْتَ عَائِبُهُ مِنْ قَوْلِ مُبْطِلِي أَخْبَارِ الْآحَادِ الْعُدُولِ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ مَذْهَبِكَ . فَإِنْ أَنْتَ قُلْتَ بِتَصْحِيحِ جَمِيعِ ذَلِكَ ، قُلْنَا لَكَ : وَمَا وَجْهُ صِحَّتِهِ وَبَعْضُهُ يُبْطِلُ مَعْنَى بَعْضٍ ، وَبَعْضُهُ يُحِيلُ صِحَّةَ بَعْضٍ ، لِتَدَافُعِ مَعَانِيهِ وَتَنَاقُضِ مَخَارِجِهِ ؟ قِيلَ لَهُ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ :

قَوْلُنَا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِتَصْحِيحِ جَمِيعِهِ عَلَى مَا يَصِحُّ مِنْ مَعَانِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا خَبَرَ مِنْ ذَلِكَ يَدْفَعُ صِحَّةَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَخْبَارِ ، بَلْ يُحَقِّقُ بَعْضُهُ مَعْنَى بَعْضٍ ، وَيَدُلُّ بَعْضُهُ عَلَى صِحَّةِ بَعْضٍ ، وَلَكِنْ بَعْضُهُ خَرَجَ عَلَى الْعُمُومِ وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخُصُوصُ . فَأَمَّا الَّذِي خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ مَخْرَجَ الْعُمُومِ وَالْمُرَادُ مِنْهُ الْخُصُوصُ ، فَقَوْلُهُ ﷺ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ " ، وَقَوْلُهُ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ " ، وَقَوْلُهُ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ ، يَقُولُ : اللَّهَ ، اللَّهَ " ، وَقَوْلُهُ : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُعْبَدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ ذَلِكَ بِمِئَةِ سَنَةٍ " ، فَإِنَّ مَعْنَى كُلِّ ذَلِكَ الْخُصُوصُ ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ : لَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ بِمَوْضِعِ كَذَا دُونَ مَوْضِعِ كَذَا ، وَإِلَّا عَلَى حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ خَلَا مَوْضِعِ كَذَا ، فَإِنَّ بِهِ طَائِفَةً مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُعْبَدَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ قَبْلَ ذَلِكَ بِمِئَةِ سَنَةٍ ، إِلَّا فِي مَكَانِ كَذَا ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ ، يَقُولُ : اللَّهَ ، اللَّهَ إِلَّا بِمَكَانِ كَذَا ، فَإِنَّ فِيهِ طَائِفَةً مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ . فَإِنْ قَالَ : فَمَا الْبُرْهَانُ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ مَعْنَاهُ ؟ قِيلَ لَهُ : مَا قَدْ بَيَّنَّا قَبْلُ مِنْ أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَبَرِ نَاسِخٌ وَمَنْسُوخٌ ، وَأَنَّ النَّاسِخَ وَالْمَنْسُوخَ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَفِي الْحَظْرِ وَالْإِطْلَاقِ ، وَإِنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَقُولَ : " يَكُونُ فِي زَمَانِ كَذَا كَيْتَ وَكَيْتَ ، ثُمَّ يَقُولُ بَعْدُ : " لَا يَكُونُ الَّذِي قُلْتُ إِنَّهُ يَكُونُ فِي زَمَانِ كَذَا " . وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ غَيْرَ جَائِزٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، وَكَانَ قَدْ وَرَدَ عَنْهُ الْقَوْلَانِ اللَّذَانِ ذَكَرْنَا قَبْلُ : مِنْ " أَنَّ مِنْ أُمَّتِهِ طَائِفَةً عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرَةً عَلَى مَنْ نَاوَأَهَا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ " ، وَ " أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَى شِرَارِ النَّاسِ " ، بِالْأَسَانِيدِ الصِّحَاحِ ، وَكَانَ غَيْرَ جَائِزٍ أَنْ تُوصَفَ الطَّائِفَةُ الَّتِي هِيَ عَلَى الْحَقِّ بِأَنَّهَا شِرَارُ النَّاسِ ، وَأَنَّهَا لَا تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُوَحِّدُهُ ، عُلِمَ أَنَّ الْمَوْصُوفِينَ بِأَنَّهُمْ شِرَارُ النَّاسِ الَّذِينَ تَقُومُ عَلَيْهِمُ السَّاعَةُ غَيْرُ الْمَوْصُوفِينَ بِأَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ مُقِيمُونَ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ ، إِذْ كَانَتْ صِفَاتُهُمْ مُخْتَلِفَةً اخْتِلَافًا لَا يُشْكِلُ . وَإِذْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَمَعْلُومٌ أَنَّ الطَّائِفَةَ الَّتِي وَصَفَهَا ﷺ بِأَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ مُقِيمَةٌ عِنْدَ قِيَامِ السَّاعَةِ غَيْرُ دَاخِلَةٍ فِي الشِّرَارِ الَّذِي أَخْبَرَ ﷺ أَنَّ السَّاعَةَ لَا تَقُومُ إِلَّا عَلَيْهِمْ . وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ أَبُو أُمَامَةَ فِي خَبَرِهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ أَنَّهُ قَالَ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ، لِعَدُوِّهِمْ

قَاهِرِينَ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ، إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ ، وَهُمْ كَالْإِنَاءِ بَيْنَ الْأَكَلَةِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ . قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَأَيْنَ هُمْ ؟ قَالَ : " بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ " ، فَبَيَّنَ ﷺ فِي هَذَا الْخَبَرِ خُصُوصِيَّةَ سَائِرِ الْأَخْبَارِ الَّتِي وَصَفْنَا أَنَّهَا خَرَجَتْ مَخْرَجَ الْعُمُومِ ، بِوَصْفِهِ الطَّائِفَةَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا أَنَّهَا عَلَى الْحَقِّ مُقِيمَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ، أَنَّهَا بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ وَأَكْنَافِهِ ، دُونَ سَائِرِ الْبِقَاعِ غَيْرِهَا عَلَى مَا بَيَّنَّا قَبْلُ . فَقَدِ اتَّضَحَ إِذًا مَا وَصَفْنَا وَجْهُ صِحَّةِ الْخَبَرَيْنِ ، وَأَنْ لَيْسَ أَحَدُهُمَا دَافِعًا صَاحِبَهُ.

الْقَوْلُ فِي الْبَيَانِ عَمَّا فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ مِنَ الْغَرِيبِ

فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ : " لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ إِلَّا مَا أَصَابَهُمْ مِنْ لَأْوَاءَ " يَعْنِي النَّبِيُّ ﷺ بِاللَّأْوَاءِ الشِّدَّةَ ، إِمَّا فِي الْمَعِيشَةِ مِنْ جَدْبٍ وَقَحْطٍ أَوْ حِصَارٍ ، وَإِمَّا فِي الْأَبْدَانِ مِنَ الْأَمْرَاضِ وَالْعِلَلِ أَوِ الْجِرَاحِ . يُقَالُ مِنْ ذَلِكَ : أَصَابَتِ الْقَوْمَ لَأْوَاءُ ، وَلَوْلَاءَ ، وَشَصَاصَاءُ ، وَذَلِكَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْجَدْبُ . وَكَذَلِكَ يُقَالُ أَيْضًا : أَصَابَتْهُمْ لَزْبَةٌ ، وَأَزْمَةٌ ، وَحَطْمَةٌ ، وَسِنَةٌ ، كُلُّ ذَلِكَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ ، وَذَلِكَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ شِدَّةٌ وَجَدْبٌ ، يُقَالُ مِنْهُ : أَسْنَتِ الْقَوْمُ ، وَأَجْدَبُوا ، وَأَمْحَلُوا . وَمِنَ اللَّأْوَاءِ الْخَبَرُ الْآخَرُ الَّذِي رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَبِي بَكْرٍ حِينَ قَالَ لَهُ لَمَّا نَزَلَتْ : مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ : أَنَحْنُ مُجَازَوْنَ بِكُلِّ مَا نَعْمَلُ ؟ " أَلَسْتَ تَمْرَضُ ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ ؟ " . وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ : " يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ ، حَتَّى تَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ " ، فَإِنَّهُ يَعْنِي بِالْحُثَالَةِ : السَّفَلَةَ مِنَ النَّاسِ . وَأَصْلُ الْحُثَالَةِ ، مَا تَفَتَّتَ وَتَسَّاقَطَ مِنْ قُشُورِ التَّمْرِ وَالشَّعِيرِ وَغَيْرِهِمَا ، وَهُوَ حُفَالَتُهُ ، وَحُشَافَتُهُ . وَمِنَ الْحُشَافَةِ قَوْلُ أَسْلَمَ مَوْلَى عُمَرَ : كُنْتُ أَحْشِفُ لِعُمَرَ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ فَيَأْكُلُهُ بِحَشَفِهِ ، يَعْنِي بِقَوْلِهِ أَحْشِفُ لَهُ : كُنْتُ أُخْرِجُ لَهُ مِنْ رَذَالِهِ وَرَدِيئِهِ فَأَنْفِيَهُ مِنْهُ . وَمِنَ الْحُثَالَةِ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو : " كَيْفَ بِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ إِذَا بَقِيتَ فِي حُثَالَةٍ مِنَ النَّاسِ ، وَقَدْ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ وَأَمَانَاتُهُمْ " يَعْنِي بِالْحُثَالَةِ ، مَا وَصَفْتُ مِنْ سَفِلَةِ النَّاسِ . وَيُقَالُ أَيْضًا : هُوَ مِنْ خُشَارَتِهِمْ ، يَعْنِي بِهِ مِنْ رَذَالِهِمْ ،

وَأَصْلُ الْخُشَارَةِ مَا سَقَطَ عَلَى الْخِوَانِ مِنْ فُتَاتِ الْخُبْزِ . وَهُوَ مِنْ جَمَّائِهِمْ ، وَزَعَانِفِهِمْ ، وَقَمْزِهِمْ ، وَنَقَزِهِمْ وَغَمْزِهِمْ . وَمِنَ الْغَمْزِ ، وَالنَّقَزِ قَوْلُ الرَّاجِزِ :

أَخَذْتُ بِكْرًا نَقَزًا مِنَ النَّقَزِ

وَنَابُ سُوءٍ قَمَزًا مِنَ الْقَمَزِ

هَذَا وَهَذَا غَمْزٌ مِنَ الْغَمْزِ

وَأَمَّا قَوْلُ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ : " إِنِّي سَيَّمْتُ الْخَيْلَ " ، فَإِنَّهُ يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ أَرْسَلَهَا فِي مَرَاعِيهَا لِلرَّعْيِ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلْإِبِلِ الرَّاعِيَةِ : السَّائِمَةُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : " فِي كُلِّ خَمْسٍ مِنَ الْإِبِلِ سَائِمَةٍ حِقَّةٌ " ، وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ذِكْرُهُ : فِيهِ تُسِيمُونَ ، يَعْنِي بِهِ : فِيهِ تَرْعَوْنَ مَوَاشِيَكُمْ ، يُقَالُ مِنْهُ : أَسَامَ فُلَانٌ خَيْلَهُ وَمَاشِيَتَهُ ، وَسَيَّمَهَا ، وَسَوَّمَهَا ، وَمِنَ الْإِسَامَةِ قَوْلُ الْأَخْطَلِ : مِثْلِ ابْنِ بَزْعَةَ أَوْ كَآخَرَ مِثْلِهِ أَوْلَى لَكَ ابْنُ مُسِيمَةِ الْأَجْمَالِ وَسَامَتِ الْمَاشِيَةُ ، إِذَا رَعَتْ ، فَهِيَ سَائِمَةٌ . وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : سَامَ فُلَانٌ فُلَانًا ضَيْمًا ، فَإِنَّهُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْمَعْنَى ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ : أَنَّهُ أَلْزَمَهُ وَأَوْصَلَهُ إِلَيْهِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ : إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُهُ تَرَبَّدَا وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

وَطَعْنُهُمُ الْأَعْدَاءَ شَزْرًا وَإِنَّمَا يُسَامُ وَيَقْنَى الْخَسْفَ مَنْ لَمْ يُطَاعِنِ

وَمِنْهُ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ . وَأَمَّا السَّوْمُ فِي الْبَيْعِ ، فَغَيْرُ هَذَيْنِ الْمَعْنَيَيْنِ ، وَهُوَ الْمُرَاوَضَةُ فِي السِّلْعَةِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَى الْبَيْعِ عَلَى الثَّمَنِ ، يُقَالُ مِنْهُ : سَاوَمَ فُلَانٌ فُلَانًا بِسِلْعَتِهِ ، فَاسْتَامَ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا " .

وقال الحافظ ابن حجر :

" قال ابن بطال: هذا الحديث وما أشبهه ليس المراد به أن الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى منه شيء، لأنه ثبت أن الإسلام يبقى إلى قيام الساعة، إلا أنه يضعف ويعود غريبا كما بدأ. ثم ذكر حديث: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق " الحديث قال: فتبين في هذا الحديث تخصيص الأخبار الأخرى، وأن الطائفة التي تبقى على الحق تكون ببيت المقدس إلى أن تقوم الساعة. قال فبهذا تأتلف الأخبار. قلت: ليس فيما احتج به تصريح إلى بقاء أولئك إلى قيام الساعة، وإنما فيه: "حتى يأتي أمر الله " فيحتمل

أن يكون المراد بأمر الله ما ذكر من قبض من بقي من المؤمنين، وظواهر الأخبار تقتضي أن الموصوفين بكونهم ببيت المقدس أن آخرهم من كان مع عيسى عليه السلام، ثم إذا بعث الله الريح الطيبة فقبضت روح كل مؤمن لم يبق إلا شرار الناس. وقد أخرج مسلم من حديث ابن مسعود رفعه: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس " وذلك إنما يقع بعد طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة وسائر الآيات العظام، وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تناثر الخرز بسرعة، وهو عند أحمد وفي مرسل أبي العالية " الآيات كلها في ستة أشهر " وعن أبي هريرة في " ثمانية أشهر " وقد أورد مسلم عقب حديث أبي هريرة من حديث عائشة ما يشير إلى بيان الزمان الذي يقع فيه ذلك ولفظه: "لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى " وفيه: "يبعث الله ريحا طيبة فتوفى كل من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم " وعنده في حديث عبد الله بن عمرو رفعه: "يخرج الدجال في أمتي " الحديث وفيه: "فيبعث الله عيسى بن مريم فيطلبه فيهلكه، ثم يمكث الناس سبع سنين، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام فلا يبقى على وجه الأرض أحد في قلبه مثقال حبة من خير أو إيمان إلا قبضته " وفيه: "فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، فيتمثل لهم الشيطان فيأمرهم بعبادة الأوثان، ثم ينفخ في الصور " فظهر بذلك أن المراد بأمر الله في حديث: "لا تزال طائفة " وقوع الآيات العظام التي يعقبها قيام الساعة ولا يتخلف عنها إلا شيئا يسيرا، ويؤيده حديث عمران بن حصين رفعه: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم الدجال " أخرجه أبو داود والحاكم، ويؤخذ منه صحة ما تأولته، فإن الذين يقاتلون الدجال يكونون بعد قتله مع عيسى، ثم يرسل عليهم الريح الطيبة فلا يبقى بعدهم إلا الشرار كما تقدم. ووجدت في هذا مناظرة لعقبة بن عامر ومحمد بن مسلمة، فأخرج الحاكم من رواية عبد الرحمن بن شماسة أن عبد الله بن عمرو قال: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق هم شر من أهل الجاهلية، فقال عقبة بن عامر: عبد الله أعلم ما يقول، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله ظاهرين لا يضرهم من

خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك " فقال عبد الله " أجل، ويبعث الله ريحا ريحها ريح المسك ومسها مس الحرير فلا تترك أحدا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس فعليهم تقوم الساعة " فعلى هذا فالمراد بقوله في حديث عقبة " حتى تأتيهم الساعة " ساعتهم هم وهي وقت موتهم بهبوب الريح والله أعلم.""[49]

وقال أيضاً :

"وقد استشكلوا على ذلك حديث: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله " فإن ظاهر الأول أنه لا يبقى أحد من المؤمنين فضلا عن القائم بالحق، وظاهر الثاني البقاء، ويمكن أن يكون المراد بقوله: "أمر الله " هبوب تلك الريح فيكون الظهور قبل هبوبها، فبهذا الجمع يزول الإشكال بتوفيق الله تعالى، فأما بعد هبوبها فلا يبقى إلا الشرار وليس فيهم مؤمن فعليهم تقوم الساعة، وعلى هذا فآخر الآيات المؤذنة بقيام الساعة هبوب تلك الريح" [50].

وقال أيضاً :

" وفيه: "ويرفع العلم " فسمعه عمر فقال: "أما أنه ليس ينزع من صدور العلماء ولكن بذهاب العلماء " وهذا يحتمل أن يكون عند عمر مرفوعا، فيكون شاهدا قويا لحديث عبد الله بن عمرو، واستدل بهذا الحديث على جواز خلو الزمان عن مجتهد، وهو قول الجمهور خلافا لأكثر الحنابلة، وبعض من غيرهم لأنه صريح في رفع العلم بقبض العلماء، وفي ترئيس أهل الجهل ومن لازمه الحكم بالجهل، وإذا انتفى العلم ومن يحكم به استلزم انتفاء الاجتهاد والمجتهد، وعورض هذا بحديث: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله " وفي لفظ: "حتى تقوم الساعة – أو – حتى يأتي أمر الله " ومضى في العلم كالأول بغير شك. وفي رواية مسلم: "ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله " ولم يشك وهو المعتمد، وأجيب أولا بأنه ظاهر في عدم الخلو لا في نفي الجواز، وثانيا بأن الدليل للأول أظهر للتصريح بقبض العلم تارة وبرفعه أخرى بخلاف الثاني، وعلى تقدير التعارض فيبقى

---

[49] – فتح الباري لابن حجر – (ج ١٣ / ص ٧٦)

[50] – فتح الباري لابن حجر – (ج ١٣ / ص ٨٥)

أن الأصل عدم المانع. قالوا الاجتهاد فرض كفاية، فيستلزم انتفاؤه الاتفاق على الباطل، وأجيب بأن بقاء فرض الكفاية مشروط ببقاء العلماء، فأما إذا قام الدليل على انقراض العلماء فلا لأن بفقدهم تنتفي القدرة والتمكن من الاجتهاد، وإذا انتفى أن يكون مقدورا لم يقع التكليف به، هكذا اقتصر عليه جماعة: وقد تقدم في باب: تغير الزمان حتى تعبد الأوثان، في أواخر " كتاب الفتن " ما يشير إلى أن محل وجود ذلك عند فقد المسلمين بهبوب الريح التي تهب بعد نزول عيسى عليه السلام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من الإيمان إلا قبضته ويبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة، وهو بمعناه عند مسلم كما بينته هناك فلا يرد اتفاق المسلمين على ترك فرض الكفاية والعمل بالجهل لعدم وجودهم، وهو المعبر عنه بقوله: "حتى يأتي أمر الله " وأما الرواية بلفظ: "حتى تقوم الساعة " فهي محمولة على إشرافها بوجود آخر أشراطها، وقد تقدم هذا بأدلته في الباب المذكور، ويؤيده ما أخرجه أحمد وصححه الحاكم عن حذيفة رفعه: "يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب " إلى غير ذلك من الأحاديث، وجوز الطبري أن يضمر في كل من الحديثين المحل الذي يكون فيه تلك الطائفة، فالموصوفون بشرار الناس الذين يبقون بعد أن تقبض الريح من تقبضه، يكونون مثلا ببعض البلاد كالمشرق الذي هو أصل الفتن، والموصوفون بأنهم على الحق يكونون مثلا ببعض البلاد كبيت المقدس لقوله في حديث معاذ " إنهم بالشام " وفي لفظ: "ببيت المقدس " وما قاله وإن كان محتملا يرده قوله في حديث أنس في صحيح مسلم: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله " إلى غير ذلك من الأحاديث التي تقدم ذكرها في معنى ذلك والله أعلم. ويمكن أن تنزل هذه الأحاديث على الترتيب في الواقع فيكون أولا: رفع العلم بقبض العلماء المجتهدين الاجتهاد المطلق ثم المقيد، ثانيا: فإذا لم يبق مجتهد استووا في التقليد لكن ربما كان بعض المقلدين أقرب إلى بلوغ درجة الاجتهاد المقيد من بعض، ولا سيما إن فرعنا على جواز تجزئ الاجتهاد ولكن لغلبة الجهل يقدم أهل الجهل أمثالهم، وإليه الإشارة بقوله: "اتخذ الناس رءوسا جهالا " وهذا لا ينفي ترئيس بعض من لم يتصف بالجهل التام، كما لا يمتنع ترئيس من ينسب إلى الجهل في الجملة في زمن أهل الاجتهاد، وقد أخرج ابن عبد البر في " كتاب العلم " من طريق

عبد الله بن وهب سمعت خلاد بن سلمان الحضرمي يقول حدثنا دراج أبو السمح يقول: "يأتي على الناس زمان يسمن الرجل راحلته حتى يسير عليها في الأمصار يلتمس من يفتيه بسنة قد عمل بها، فلا يجد إلا من يفتيه بالظن " فيحمل على أن المراد الأغلب الأكثر في الحالين، وقد وجد هذا مشاهدا ثم يجوز أن يقبض أهل تلك الصفة ولا يبقى إلا المقلد الصرف، وحينئذ يتصور خلو الزمان عن مجتهد حتى في بعض الأبواب بل في بعض المسائل، ولكن يبقى من له نسبة إلى العلم في الجملة، ثم يزداد حينئذ غلبة الجهل وترئيس أهله، ثم يجوز أن يقبض أولئك حتى لا يبقى منهم أحد، وذلك جدير بأن يكون عند خروج الدجال أو بعد موت عيسى عليه السلام، وحينئذ يتصور خلو الزمان عمن ينسب إلى العلم أصلا، ثم تهب الريح فتقبض كل مؤمن، وهناك يتحقق خلو الأرض عن مسلم فضلا عن عالم فضلا عن مجتهد ويبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة، والعلم عند الله تعالى. "[٥١]



[٥١] - فتح الباري لابن حجر - (ج ١٣ / ص ٢٨٦)

المبحث الرابع

من أصحاب هذه الطائفة المنصورة ؟

قال الإمام النووي رحمه الله :

"وَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَة فَقَالَ الْبُخَارِيّ : هُمْ أَهْل الْعِلْم ، وَقَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل : إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْل الْحَدِيث فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ ؟ قَالَ الْقَاضِي عِيَاض : إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَد أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة ، وَمَنْ يَعْتَقِد مَذْهَب أَهْل الْحَدِيث ، قُلْت : وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَة مُفَرَّقَة بَيْن أَنْوَاع الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ شُجْعَان مُقَاتِلُونَ ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاء ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ ، وَمِنْهُمْ زُهَّاد وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَر ، وَمِنْهُمْ أَهْل أَنْوَاع أُخْرَى مِنَ الْخَيْر ، وَلَا يَلْزَم أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَقْطَار الْأَرْض . وَفِي هَذَا الْحَدِيث مُعْجِزَة ظَاهِرَة ؛ فَإِنَّ هَذَا الْوَصْف مَا زَالَ بِحَمْدِ اللَّه تَعَالَى مِنْ زَمَن النَّبِيّ ﷺ إِلَى الْآن ، وَلَا يَزَال حَتَّى يَأْتِي أَمْر اللَّه الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث . وَفِيهِ دَلِيل لِكَوْنِ الْإِجْمَاع حُجَّة ، وَهُوَ أَصَحّ مَا اُسْتُدِلَّ بِهِ لَهُ مِنْ الْحَدِيث ، وَأَمَّا حَدِيث " لَا تَجْتَمِع أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَة " فَضَعِيف . وَاللَّهُ أَعْلَم ." [٥٢].

وفي البدر المنير :

"فامتثلت الصَّحَابَة حينئذٍ – الَّذين هم خير قُرُون هَذِه الْأمة ، بِشَهَادَتِهِ عَلَيْهِ أفضل الصَّلَاة وَالسَّلَام – فحفظوا عَنهُ أَحْوَاله (وأقواله) وأفعاله ، امتثالًا لأَمره ، وابتغاء ثَوَابه وأَجره .

ثمَّ فعل ذَلِكَ بعدهمْ التابعون وتابعوهم ، قبيلًا بعد قبيل ، وجيلًا بعد جيل ، تلقوا ذَلِكَ عَنْهُم ، واستفادوه مِنْهُم – رَضِيَ اللَّهُ عَنَّا وعنهم .

لَكِن دخل فِي ذَلِكَ قوم لَيْسُوا من أهل هَذَا الشَّأْن ، وَلَا جَرْيَ لَهُم فِي هَذَا الميدان ، فأخطئوا فِيمَا نقلوا وحَرَّفوا ، وَرُبمَا وضعُوا ، فَدخلت الآفة من هَذَا الْوَجْه ، وَاخْتَلَطَ الصَّحِيح بالسقيم ، والمجروح بالسليم ، فَحِينَئِذٍ أَقَامَ الله سُبْحَانَهُ – وَله الْحَمد والمِنَّة – طَائِفَة كَبِيرَة من هَذِه الْأمة ، هم نُجُوم للدِّين وعَلَمٌ للمسترشدين ، فدوَّنوا التصانيف

---

[٥٢] –شرح النووي على مسلم – (ج ٦ / ص ٤٠٠)

(المبتكرة) ، المبسوطة والمختصرة ، ونظروا فِي رجالها - جرحا وتعديلًا ، وانقطاعًا ووصلًا - بِالنّظرِ التَّام ، وبذلوا وسعهم فِي ذَلِكَ ، وَقَامُوا بِهِ أحسن قيام ، أعظم الله أَجرهم ، وَلَا خَيَّب سعينا وسعيهم .

وهم (مستمرون) عَلَى ذَلِكَ مدى الدهور والأعوام ، من زَمَنه عَلَيْهِ أفضل الصَّلَاة وَالسَّلَام إِلَى انْقِضَاء الدُّنْيَا والذهاب ، بإخباره عَلَيْهِ أفضل الصَّلَاة وَالسَّلَام حَيْثُ قَالَ : «لَا تَزَالُ طائفةٌ من أُمَّتِي ظاهِرِينَ عَلَى الحقِّ ، لَا يَضُرُّهُم مَنْ خَذَلَهُم ، حتَّى تَقُومَ السَّاعةُ» .

فَكَانَت هَذِه الطَّائِفَة كَمَا وَصفهم عَلَيْهِ أفضل الصَّلَاة وَالسَّلَام فِي الْخَبَر الْمَرْوِيّ عَنهُ ، (مُرْسلا من جِهَة إِبْرَاهِيم بن عبد الرَّحْمَن العذري) ، وَمُسْندًا من جِهَة أبي هُرَيْرَة ، وَعبد الله بن عَمْرو - كَمَا رَوَاهُمَا الْعقيلِيّ .

قَالَ عبد الْحق : وَالْأول أحسن . ونَازَعَه ابْن الْقطَّان ، وَفِيه وَقْفَة ، فقد سُئل أَحْمد عَنهُ ، فَقَالَ صَحِيح : «يَحْمِلُ هَذَا العِلْم مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُه ، يَنْفُون عَنْه تَحْرِيف الغالين ، وانْتِحَالَ الْمُبْطِلِيْن ، وَتَأْوِيل الجاهِلِيْن» .

وَمَنَّ الله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَله الْحَمد والمِنَّة - عَلَى هَذِه الطَّائِفَة بِالْحِفْظِ الوافر ، كالبحر الزاخر" [٥٣] .

وقال الحافظ ابن حجر :

"وقال ابن المبارك في حديث: "لا تزال طائفة من أمتي على أمر اللَّه... " الحديث: "هم عندي أصحاب الحديث".

وقد صدق هؤلاء فيما قالوه: إن أصحاب الحديث خير الناس وكيف لا يكونون كذلك، وقد نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة وسحرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلوقهم "أي طيبهم الذي يتطيبون به" المداد، ونومهم السهاد يصطلون الضياء، ويتوسدون الحصى، الشدة عندهم مع علو الإسناد رخاء، أولئك هم العلماء الحكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء." [٥٤]

---

[٥٣] - البدر المنير - (ج ١ / ص ٢٥٧)

[٥٤] - التلخيص الحبير - (ج ١ / ص ١٤)

وقال أيضاً :

" وَأُمَّتُهُ مَعْصُومَةٌ لَا تَجْتَمِعُ عَلَى الضَّلَالَةِ هَذَا فِي حَدِيثٍ مَشْهُورٍ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ لَا يَخْلُو وَاحِدٌ مِنْهَا مِنْ مَقَالٍ مِنْهَا لِأَبِي دَاوُد عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ مَرْفُوعًا "إنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ من ثلاث خلال أن لا يَدْعُوَ عَلَيْكُمْ نَبِيُّكُمْ لِتَهْلَكُوا جَمِيعًا وَأَلَّا يَظْهَرَ أَهْلُ الْبَاطِلِ عَلَى أَهْلِ الْحَقِّ وأن لا يَجْتَمِعُوا عَلَى ضَلَالَةٍ" ، وَفِي إسْنَادِهِ انْقِطَاعٌ.

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَالْحَاكِمِ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا "لَا تَجْتَمِعُ هَذِهِ الْأُمَّةُ عَلَى ضَلَالٍ أَبَدًا" ، وَفِيهِ سُلَيْمَانُ بْنُ شَعْبَانَ الْمَدَنِيُّ وَهُوَ ضَعِيفٌ وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ لَهُ شَوَاهِدَ.

وَيُمْكِنُ الِاسْتِدْلَال لَهُ بِحَدِيثِ مُعَاوِيَةَ مَرْفُوعًا "لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ" أَخْرَجَهُ الشَّيْخَانِ.

وَفِي الْبَابِ عَنْ سَعْدٍ وَثَوْبَانَ فِي مُسْلِمٍ وَعَنْ قُرَّةَ بْنِ إيَاسٍ فِي التِّرْمِذِيِّ وَابْنِ مَاجَهْ وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي ابْنِ مَاجَهْ وَعَنْ عِمْرَانَ فِي أَبِي دَاوُد وَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ عِنْدَ أَحْمَدَ.

وَوَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ مِنْهُ أَنَّ بِوُجُودِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْقَائِمَةِ بِالْحَقِّ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَحْصُلُ الِاجْتِمَاعُ عَلَى الضَّلَالَةِ."[٥٥]

وقال أيضاً :

" قوله: "باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق" هذه الترجمة لفظ حديث أخرجه مسلم عن ثوبان، وبعده " لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك " وله من حديث جابر مثله، لكن قال: "يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة " وله من حديث معاوية المذكور في الباب نحوه. قوله: "وهم أهل العلم" هو من كلام المصنف وأخرج الترمذي حديث الباب ثم قال سمعت محمد ابن إسماعيل هو البخاري يقول، سمعت علي بن المديني يقول هم أصحاب الحديث، وذكر في " كتاب خلق أفعال العباد " عقب حديث أبي سعيد في قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً} هم الطائفة المذكورة في حديث: "لا تزال طائفة من أمتي " ثم ساقه وقال وجاء نحوه عن أبي هريرة ومعاوية وجابر وسلمة بن نفيل وقرة ابن إياس انتهى. وأخرج الحاكم في علوم الحديث بسند

---

[٥٥] – التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير – (ج ٣ / ص ٢٩٩)

صحيح عن أحمد إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، ومن طريق يزيد بن هارون مثله " وزعم بعض الشراح أنه استفاد ذلك من حديث معاوية لأن فيه: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين " وهو في غاية البعد. وقال الكرماني يؤخذ من الاستقامة المذكورة في الحديث الثاني أن من جملة الاستقامة أن يكون التفقه، لأنه الأصل قال وبهذا ترتبط الأخبار المذكورة في حديث معاوية، لأن الاتفاق لا بد منه، أي المشار إليه بقوله: "وإنما أنا قاسم ويعطى الله عز وجل".

قوله: "حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون" أي على من خالفهم أي غالبون، أو المراد بالظهور أنهم غير مستترين بل مشهورون والأول أولى، وقد وقع عند مسلم من حديث جابر بن سمرة " لن يبرح هذا الدين قائما تقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة " وله في حديث عقبة بن عامر " لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة " وقد ذكرت الجمع بينه وبين حديث: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس " في أواخر " كتاب الفتن " والقصة التي أخرجها مسلم أيضا من حديث عبد الله بن عمرو " لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم " ومعارضة عقبة بن عامر بهذا الحديث فقال عبد الله أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من إيمان إلا قبضته " ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة " وقد أشرت إلى هذا قريبا إلى الكلام على حديث: "قبض العلم " وأن هذا أولى ما يتمسك به في الجمع بين الحديثين المذكورين، وذكرت ما نقله ابن بطال عن الطبري في الجمع بينهما، أن شرار الناس الذين تقوم عليهم الساعة يكونون بموضع مخصوص، وأن موضعا آخر يكون به طائفة يقاتلون على الحق لا يضرهم من خالفهم، ثم أورد من حديث أبي أمامة نحو حديث الباب، وزاد فيه: "قيل يا رسول الله وأين هم؟ قال ببيت المقدس " وأطال في تقرير ذلك وذكرت أن المراد بأمر الله: هبوب تلك الريح وأن المراد بقيام الساعة: ساعتهم وأن المراد بالذين يكونون ببيت المقدس: الذين يحصرهم الدجال إذا خرج فيترل عيسى إليهم فيقتل

الدجال، ويظهر الدين في زمن عيسى، ثم بعد موت عيسى تهب الريح المذكورة، فهذا هو المعتمد في الجمع، والعلم عند الله تعالى.

رواية عمير بن هانئ " لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله " وتقدم بعد بابين من باب علامات النبوة من هذا الوجه بلفظ: "لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك " وزاد قال عمير فقال مالك بن يخامر قال معاذ " وهم بالشام " وفي رواية يزيد بن الأصم " ولا تزال عصابة من المسلمين ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة " قال صاحب المشارق في قوله: "لا يزال أهل الغرب " يعني الرواية التي في بعض طرق مسلم وهي بفتح الغين المعجمة وسكون الراء، ذكر يعقوب بن شيبة عن علي بن المديني قال: المراد بالغرب، الدلو أي الغرب بفتح المهملتين لأنهم أصحابها لا يستقي بها أحد غيرهم لكن في حديث معاذ وهم أهل الشام فالظاهر أن المراد بالغرب البلد لأن الشام غربي الحجاز كذا قال: ليس بواضح، ووقع في بعض طرق الحديث: "المغرب " بفتح الميم وسكون المعجمة وهذا يرد تأويل الغرب بالعرب، لكن يحتمل أن يكون بعض رواته نقله بالمعنى الذي فهمه أن المراد الإقليم لا صفة بعض أهله، وقيل المراد بالغرب أهل القوة والاجتهاد في الجهاد، يقال في لسانه غرب بفتح ثم سكون أي حدة، ووقع في حديث أبي أمامة عند أحمد أنهم ببيت المقدس، وأضاف بيت إلى المقدس، وللطبراني من حديث النهدي نحوه، وفي حديث أبي هريرة في الأوسط للطبراني " يقاتلون على أبواب دمشق وما حولها، وعلى أبواب بيت المقدس وما حوله، لا يضرهم من خذلهم ظاهرين إلى يوم القيامة". قلت: ويمكن الجمع بين الأخبار بأن المراد قوم يكونون ببيت المقدس، وهي شامية ويسقون بالدلو، وتكون لهم قوة في جهاد العدو وحدة وجد. "تنبيه" اتفق الشراح على أن معنى قوله: "على من خالفهم " أن المراد علوهم عليهم بالغلبة وأبعد من أبدع فرد على من جعل ذلك منقبة لأهل الغرب أنه مذمة لأن المراد بقوله: "ظاهرين على الحق " أنهم غالبون له وأن الحق بين أيديهم كالميت، وأن المراد بالحديث ذم الغرب وأهله لا مدحهم، قال النووي فيه أن الإجماع حجة، ثم قال يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين. ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه

ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولا فأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد فإذا انقرضوا جاء أمر الله، انتهى ملخصا مع زيادة فيه، ونظير ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها " أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعي ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها؛ ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده فالشافعي وإن كان متصفا بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا كل من كان متصفا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا "[٥٦] .



[٥٦] - فتح الباري لابن حجر - (ج ١٣ / ص ٢٩٣)

المبحث الخامس
مكان وجودها

١. **عامة في كل مكان** :

دلت معظم الأحاديث الشريفة على العموم ،أي موجودون في كل مكان ، ولا يحصرهم قطر واحد ، وهذا هو الأصل ،فالخير موجود في كل بلاد الإسلام ، ولا نستطيع حصره في مكان واحدٍ .

وهذا الذي ينبغي الذهاب إليه ، وما ذكر أُنهم ببعض الأمكنة ليس له مفهوم مخالف ، وإنما جاء للتغليب ليس إلا .

====================

٢. **خاصة بالغرب** :

وقد ورد هذا ببعض الأحاديث ، ولكن اختلف العلماء ما المراد بالغرب في هذا ، هل هو الشام أم غيره من الأمصار ؟ أم المقصود الغرابة ؟[٥٧]

====================

٣. **بالشام عامة** :

وقد ورد ذلك ببعض الأحاديث ، ولاسيما التي يرويها أهل الشام ،وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الشام ، وهذا منها .

ولكن الذي يمكن قوله: أن الشام [٥٨] لا تخلوا أثراً من وجود للطائفة المنصورة، وذلك للأحاديث والآثار الصحيحة الواردة في فضائل الشام وأهله، والدالة على أن الشام لا تخلو من وجود للطائفة المنصورة، منها:

عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ أَنَّهُ خَطَبَهُمْ فَقَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " لَا تَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ

---

[٥٧] – انظر شرح النووي على صحيح مسلم ٦٠/٥ وفتح الباري ٣٦١/١٣ .

[٥٨] –المراد بالشام: الشام الكبرى؛ وتضم سورية، وفلسطين، ولبنان، والأردن، حتى تبوك من أراضي الجزيرة العربية.

خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ " ، قَالَ عُمَيْرٌ : قَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ السَّكْسَكِيُّ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ : وَهُمْ بِالشَّامِ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : هَذَا مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ وَلَهُ النَّسَمَةُ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا ، يَقُولُ : هُمْ أَهْلُ الشَّامِ "[٥٩]

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا فَسَدَ أَهْلُ الشَّامِ ، فَلاَ خَيْرَ فِيكُمْ ، وَلاَ يَزَالُ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ ، لاَ يُبَالُونَ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ." [٦٠]

وعَنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ ، لَا يَضُرُّهُمُ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ "[٦١]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:"لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، لا يَضُرُّهَا مَنْ خَالَفَهَا، تُقَاتِلُ أَعْدَاءَهَا، كُلَّمَا ذَهَبَتْ حَرْبٌ نَشَبَتْ حَرْبُ قَوْمٍ آخَرِينَ، يَرْفَعُ اللَّهُ قَوْمًا وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ"، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:"هُمْ أَهْلُ الشَّامِ"[٦٢]

وعَنْ مُطَرِّفٍ ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ ، وَكَانَ مُطَرِّفٌ يَقُولُ : هُمْ أَهْلُ الشَّامِ "[٦٣]

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ ، قَالَ : كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : " يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَثٍ وَإِنَّكُمْ مُتَّبِعِيَّ أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ ، وَلَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي نَاسٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ وَيُزِيغُ اللَّهُ بِهِمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى

---

[٥٩] - مُسْنَدُ أَبِي يَعْلَى الْمَوْصِلِيِّ (٧٢١٨) صحيح

[٦٠] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٣٦٨)(١٥٥٩٦) ١٥٦٨١- صحيح

[٦١] - معرفة الصحابة لأبي نعيم - (٥ / ٢٥٨٥) (٦٢٣٠) صحيح

[٦٢] - المعجم الكبير للطبراني - (١٩ / ٤٨٠) (١١٤٥) صحيح

[٦٣] - تَهْذِيبُ الْآثَارِ لِلطَّبَرِيِّ (٩٣٣)صحيح

تَقُومَ السَّاعَةُ وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعَدُ اللَّهِ ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّامِ "[٦٤]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا وَقَعَتِ الْمَلاَحِمُ خَرَجَ بَعْثٌ مِنْ دِمَشْقَ مِنَ الْمَوَالِي هُمْ أَكْرَمُ الْعَرَبِ فَرَسًا ، وَأَجْوَدُهُمْ سِلاَحًا ، يُؤَيِّدُ اللَّهُ بِهِمُ الدِّينَ "[٦٥]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ لَنَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يَوْمٍ : إِنِّي رَأَيْتُ الْمَلائِكَةَ عَلَيْهِمُ السَّلامُ فِي الْمَنَامِ أَخَذُوا عَمُودَ الْكِتَابِ ، فَعَمَدُوا بِهِ إِلَيَّ الشَّامِ ، فَإِذَا وَقَعَتِ الْفِتَنُ فَإِنَّ الإِيمَانَ بِالشَّامِ "[٦٦]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ الأَزْدِيِّ ، أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ خِرْ لِي بَلَدًا أَكُونُ فِيهِ فَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ تَبْقَى لَم اخْتَرْ عَلَى قُرْبِكَ قَالَ : عَلَيْكَ بِالشَّامِ ثَلاثًا . فَلَمَّا رَأَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَرَاهِيَتَهُ إِيَّاهَا قَالَ : هَلْ تَدْرِي مَا يَقُولُ اللَّهُ فِي الشَّامِ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : يَا شَامُ أَنْتِ صَفْوَتِي مِنْ بِلاَدِي أُدْخِلُ فِيكِ خَيْرَتِي مِنْ عِبَادِي ، أَنْتِ سَوْطُ نِقْمَتِي وَسَوْطُ عَذَابِي ، أَنْتِ الَّذِي لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرْ ، أَنْتِ الأَنْدَرُ وَإِلَيْكِ عَلَيْكِ الْمَحْشَرُ ، وَرَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَمُودًا أَبْيَضَ كَأَنَّهُ لُؤْلُؤَةٌ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ قُلْتُ : مَا تَحْمِلُونَ ؟ قَالَ : عَمُودُ الْإِسْلاَمِ أَمَرَنَا أَنَ نَضَعَهُ بِالشَّامِ وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُ الْكِتَابَ اخْتُلِسَ مِنْ تَحْتِ وِسَادَتِي ، فَظَنَنْتُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَخَلَّى مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي فَإِذَا هُوَ نُورٌ بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى وُضِعَ بِالشَّامِ ، فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ وَلْيَسْتَقِ مِنْ غُدُرِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ "[٦٧]

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَوَالَةَ ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : سَيَكُونُ جُنْدٌ بِالشَّامِ ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : فَخِرْ لِي يَا رَسُولَ اللهِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

---

[٦٤] – مُسْنَدُ الشَّامِيِّينَ لِلطَّبَرَانِيِّ (٥٢) صحيح لغيره

[٦٥] – مسند الشاميين (١٦٠٧) حسن

[٦٦] – الآحاد والمثاني – (٧٥٣) صحيح لغيره

[٦٧] – مسند الشاميين (٦٠١) صحيح

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، ثَلاَثًا ، عَلَيْكَ بِالشَّامِ ، فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ ، وَلْيَسْقِ مِنْ غُدُرِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ."[٦٨]
وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَوَالَةَ الْأَزْدِيِّ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " إِنَّكُمْ سَتُجَنِّدُونَ أَجْنَادًا جُنْدًا بِالشَّامِ ، وَجُنْدًا بِالْعِرَاقِ ، وَجُنْدًا بِالْيَمَنِ " ، فَقُلْتُ : خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : " عَلَيْكَ بِالشَّامِ فَمَنْ أَبَى فَلْيَلْحَقْ بِيَمَنِهِ ، وَلْيَسْقِ مِنْ غُدُرِهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ تَكَفَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ " . فَسَمِعْتُ أَبَا إِدْرِيسَ يَقُولُ : مَنْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِهِ فَلَا ضَيْعَةٌ عَلَيْهِ "[٦٩]

فجميع هذه الأحاديث وغيرها تدل على أن الطائفة المنصورة لها وجودها في الشام، وأنه مهما تضاءل أثرها وحجمها إلا أنها لا تعدم كلياً من الشام .. وأن الخير باق في الشام رغم أنف الطواغيت الظالمين!

====================

٤. ببيت المقدس وما حوله :

وهذا جزء من الشام ، ففيه تخصيص مكان منها ، ولا شك أن بيت المقدس يعتبر أحد عناصر الصراع بين المسلمين واليهود والنصارى ، فمن الطبيعي أن يكون لهم تواجد هناك للدفاع عن بيت المقدس .
ولكنه لا يدلُّ على حصرهم ببيت المقدس وما حوله فقط ، وإنما يشير للأغلبية فقط.

==================

٥. من حيث المكانة أهل الحديث ، وسبب ذلك :

وقد حصرهم كثير من أهل العلم ، بأنهم أهل الحديث خاصة ، قَالَ أَبُو عِيسَى الترمذي: قَالَ سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ يَقُولُ سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْمَدِينِىِّ يَقُولُ وَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ ». فَقَالَ عَلِىٌّ هُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ.

---

[٦٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٨١٠)(٢٠٣٥٦) ٢٠٦٢٥- صحيح

[٦٩] - دَلَائِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٢٥٩٤) صحيح

يعني أهل السنة والجماعة ، وليس أهل الحديث بالمفهوم الضيق .
قَالَ عُمَيْرُ بْنُ هَانِئٍ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ « لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِى أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ » . قَالَ عُمَيْرٌ فَقَالَ مَالِكُ بْنُ يُخَامِرَ قَالَ مُعَاذٌ وَهُمْ بِالشَّأْمِ . فَقَالَ مُعَاوِيَةُ هَذَا مَالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا يَقُولُ وَهُمْ بِالشَّامِ ."[٧٠]

ويلاحظ أن هذا الحديث الذي سمعه مالك بن يخامر من معاوية بهذا اللفظ، وبمناسبة سماعه أورد قول معاذ : ((وهم بالشام)) : أنه ليس فيه لفظ (المنصورة) ولا لفظ (ظاهرين)، بل فيه : (قائمة بأمر الله)، وقد تكرر هذا بهذا اللفظ في حديث معاوية رضي الله عنه من طريق حميد بن عبد الرحمن[٧١] ومن طريق عمير بن هانيء[٧٢].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " " لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بني إسرائيل حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ بني إسرائيل تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً " " ، قَالُوا : وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " " مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي " "[٧٣].

وعَنْ أَبِي عَامِرٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى ، قَالَ : حَجَجْنَا مَعَ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا مَكَّةَ ، أُخْبِرَ بِقَاصٍّ يَقُصُّ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ مَوْلًى لِبَنِي فَرُّوخٍ ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ فَقَالَ : أُمِرْتَ بِهَذِهِ الْقِصَصِ ؟ قَالَ : لاَ ، قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ تَقُصَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ ، قَالَ : نُنْشِئُ عِلْمًا عَلَمَنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : لَوْ كُنْتُ تَقَدَّمْتُ إِلَيْكَ لَقَطَعْتُ مِنْكَ طَائِفَةً ، ثُمَّ قَامَ حِينَ صَلَّى الظُّهْرَ بِمَكَّةَ ، فَقَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : إِنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ تَفَرَّقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ، وَتَفْتَرِقُ هَذِهِ الأُمَّةُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ

---

[٧٠] – صحيح البخارى– المكتر – (٣٦٤١)

[٧١] – انظر : " صحيح البخاري " (كتاب العلم، حديث ٧١) .

[٧٢] – انظر : " صحيح البخاري " (كتاب المناقب، حديث ٣٦٤١)، (كتاب التوحيد، حديث ٧٤٦)، و " مسلم " (كتاب الإمارة، حديث ١٠٣٧) .

[٧٣] – سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ ـــ الْجَامِعُ الصَّحِيحُ (٢٦٨٨) صحيح لغيره

كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلاَّ وَاحِدَةً وَهِيَ الْجَمَاعَةُ ، وَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَتَجَارَى بِهِمْ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ ، فَلا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلا مَفْصِلٌ إِلاَّ دَخَلَهُ ، وَاللَّهِ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ لَئِنْ لَمْ تَقُومُوا بِمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وسلم لَغَيْرُ ذَلِكَ أَحْرَى أَنْ لاَ تَقُومُوا بِهِ "[٧٤]

فهذا من الأدلة الواضحة على أن الفرقة الناجية والطائفة المنصورة هي طائفة واحدة؛ إذ القيام بأمر الله وعلى أمر الله هو عين المعنى الذي شابهوا فيه أصحاب رسول الله وكان عليه رسول الله وأصحابه .

وكذلك قول رسول الله عليه الصلاة والسلام في حديث الفرق : ((هي الجماعة))؛ فإن هذا الوصف يحمل معنى القيام على أمر الله والثبات على منهج الله والاعتصام بحبله، وهو ذلك الأمر الذي شابهوا فيه أصحاب رسول الله ﷺ، فكانوا مثلهم في الثبات على الحق واجتماع قلوبهم عليه[٧٥].

وهذا أمر واضح، وهو الذي دفع أئمة الإسلام وعلماء الأمة إلى تفسير أحاديث ((لا تزال طائفة ...)) المتواترة، وأحاديث الافتراق، وفيه : ((إلا واحدة وهي الجماعة))، أو : ((هم من كان على ما أنا عليه وأصحابي))، بطائفة واحدة هم أهل الحديث سابقاً[٧٦]

قال ابن تيمية رحمه الله في آخر الواسطية : ((لَكِنْ لَمَّا « أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً ؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ ؛ إلَّا وَاحِدَةً ، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ » ، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي » ؛ صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالْإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ .وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ ، وَالشُّهَدَاءُ ، وَالصَّالِحُونَ ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى ، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ ، وَفِيهِمُ الْأَبْدَالُ ، وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ

---

[٧٤] – المستدرك للحاكم (٤٤٣) صحيح لغيره

[٧٥] – وكذلك ورد في حديث : " لا تزال الطائفة ... " : أنها على حق؛ في رواية معاوية وثوبان وغيرهما، وهذا كله يؤكد أنها واحدة .

[٧٦] – انظر كتاب أهل الحديث هو الطائفة المنصورة ص ١٠٥

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » .نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا ، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .))[٧٧] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " وَإِذَا تَدَبَّرَ الْعَاقِلُ وَجَدَ الطَّوَائِفَ كُلَّهَا كُلَّمَا كَانَتْ الطَّائِفَةُ إلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَقْرَبَ كَانَتْ بِالْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ أَعْرَفَ وَأَعْظَمَ عِنَايَةً وَإِذَا كَانَتْ عَنْ اللَّهِ وَعَنْ رَسُولِهِ أَبْعَدَ كَانَتْ عَنْهُمَا أَنْأَى حَتَّى تَجِدَ فِي أَئِمَّةِ عُلَمَاءِ هَؤُلَاءِ مَنْ لَا يُمَيِّزُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ بَلْ رُبَّمَا ذُكِرَتْ عِنْدَهُ آيَةٌ فَقَالَ : لَا نُسَلِّمُ صِحَّةَ الْحَدِيثِ وَرُبَّمَا قَالَ : لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَذَا وَتَكُونُ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ . وَقَدْ بَلَغَنَا مِنْ ذَلِكَ عَجَائِبُ وَمَا لَمْ يَبْلُغْنَا أَكْثَرُ . وَحَدَّثَنِي : ثِقَةٌ أَنَّهُ تَوَلَّى مَدْرَسَةَ مَشْهَدِ الْحُسَيْنِ بِمِصْرِ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ رَجُلٌ يُسَمَّى شَمْسَ الدِّينِ الأصبهاني شَيْخَ الأيكي فَأَعْطَوْهُ جُزْءًا مِنْ الرَّبْعَةِ فَقَرَأَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ { المص } حَتَّى قِيلَ لَهُ : أَلِفٌ لَامٌ مِيمٌ صَادٌ .

فَتَأَمَّلْ هَذِهِ الْحُكُومَةَ الْعَادِلَةَ لِيَتَبَيَّنَ لَك أَنَّ الَّذِينَ يَعِيبُونَ أَهْلَ الْحَدِيثِ وَيَعْدِلُونَ عَنْ مَذْهَبِهِمْ جَهَلَةٌ زَنَادِقَةٌ مُنَافِقُونَ بِلَا رَيْبٍ . وَلِهَذَا لَمَّا بَلَغَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ عَنْ " ابْنِ أَبِي قتيلة " أَنَّهُ ذَكَرَ عِنْدَهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ بِمَكَّةَ فَقَالَ : قَوْمُ سَوْءٍ . فَقَامَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ – وَهُوَ يَنْفُضُ ثَوْبَهُ وَيَقُولُ : زِنْدِيقٌ زِنْدِيقٌ زِنْدِيقٌ . وَدَخَلَ بَيْتَهُ . فَإِنَّهُ عَرَفَ مَغْزَاهُ .

وَعَيْبُ الْمُنَافِقِينَ لِلْعُلَمَاءِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ قَدِيمٌ مِنْ زَمَنِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ فَكَانُوا يَقُولُونَ : هُمْ " الْأَبْدَالُ " لِأَنَّهُمْ أَبْدَالُ الْأَنْبِيَاءِ وَقَائِمُونَ مَقَامَهُمْ حَقِيقَةً لَيْسُوا مِنْ الْمُعْدَمِينَ الَّذِينَ لَا يُعْرَفُ لَهُمْ حَقِيقَةٌ كُلٌّ مِنْهُمْ يَقُومُ مَقَامَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقَدْرِ الَّذِي نَابَ عَنْهُمْ فِيهِ : هَذَا فِي الْعِلْمِ وَالْمَقَالِ وَهَذَا فِي الْعِبَادَةِ وَالْحَالِ وَهَذَا فِي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا . وَكَانُوا يَقُولُونَ : هُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ إلَى قِيَامِ السَّاعَةِ الظَّاهِرُونَ عَلَى الْحَقِّ . لِأَنَّ الْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ مَعَهُمْ . وَهُوَ الَّذِي وَعَدَ اللَّهُ بِظُهُورِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاَللَّهِ شَهِيدًا ." [٧٨] .

---

[٧٧] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٣ / ١٥٩) وشرح العقيدة الواسطية – (١ / ٣٦٠)

[٧٨] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٤ / ٩٦)

وقال رحمه الله: " وَإِذَا كَانَتْ " سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ " هِيَ بِاتِّبَاعِ الْمُرْسَلِينَ . فَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَحَقَّ النَّاسِ بِذَلِكَ : هُمْ أَعْلَمُهُمْ بِآثَارِ الْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَعُهُمْ لِذَلِكَ فَالْعَالِمُونَ بِأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ الْمُتَّبِعُونَ لَهَا هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ وَهُمْ الطَّائِفَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . فَإِنَّهُمْ يُشَارِكُونَ سَائِرَ الْأُمَّةِ فِيمَا عِنْدَهُمْ مِنْ أُمُورِ الرِّسَالَةِ وَيَمْتَازُونَ عَنْهُمْ بِمَا اُخْتُصُّوا بِهِ مِنْ الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنِ الرَّسُولِ ؛ مِمَّا يَجْهَلُهُ غَيْرُهُمْ أَوْ يُكَذِّبُ بِهِ ."[٧٩] .

فانظر كيف يذكر أهل الحديث تارة بالطائفة الناجية وتارة بالطائفة المنصورة وتارة بأهل السنَّة وتارة يجمع لهم كل هذه الصفات .

وقال الشيخ حمود التويجري :[وقد اختلف في محل هذه الطائفة :

فقال ابن بطال :[إنها تكون في بيت المقدس ، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة – رضي الله عنهم – :(قيل : يا رسول الله أين هم ؟ قال :(ببيت المقدس) ، وقال معاذ – رضي الله عنهم – : هم بالشام . وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً ، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة . قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله تعالى :" ويشهد له الواقع ، وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن ، فإنهم في زمانهم على الحق ، يدعون إليه ، ويناظرون عليه ، ويجاهدون فيه ، وقد يجيء من أمثالهم بَعْدُ بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق ، والتمسك بالسنة ، والله على كل شيء قدير .

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنَّة في زمن الأئمة الأربعة وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده لم يكونوا في محل واحد ، بل هم في غالب الأمصار ، في الشام منهم أئمة ، وفي الحجاز ، وفي مصر ، وفي العراق واليمن ، وكلهم على الحق يناضلون ويجاهدون أهل البدع ، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنة ، وحجة على كل مبتدع .

[٧٩] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٤ / ٢٦)

فعلى هذا ، فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تفترق ، وقد تكون في الشام وقد تكون في غيره ، فإن حديث أبي أمامة وقول معاذ لا يفيد حصرها بالشام ، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها " .

قلت : الظاهر من حديث أبي أمامة وقول معاذ أن ذلك إشارة إلى محل هذه الطائفة في آخر الزمان عند خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، ويدل على ذلك ما تقدم ذكره من حديث أبي أمامة الذي رواه ابن ماجة وفيه:(فقالت أم شريك : يا رسول الله ! فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل وجلهم يومئذ ببيت المقدس وإمامهم رجل صالح ...) .

ويدل على ذلك ما رواه الإمام أحمد وأبو داوود والبخاري في تاريخه والحاكم في مستدركه من حديث عبد الله بن حوالة الأزدي – رضي الله عنهم – ، قال : وضع رسول الله – ﷺ – يده على رأسي – أو على هامتي – ثم قال :(يا ابن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام والساعة يومئذ أقرب إلى الناس من يدي هذه من رأسك) ، قال الحاكم صحيح الإسناد و لم يخرجاه ووافقه الذهبي في تلخيصه .

وفي المسند أيضاً وجامع الترمذي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله – ﷺ – :(ستخرج نار من حضرموت أو من نحو بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس قالوا : يا رسول الله ! فما تأمرنا ؟ فقال : عليكم بالشام) . قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح غريب من حديث ابن عمر رضي الله عنهما .

وفي المسند أيضاً وسنن أبي داوود ومستدرك الحاكم عن أبي الدرداء – رضي الله عنهم – أن رسول الله – ﷺ – قال : (فسطاط المسلمين يوم الملحمة الكبرى بأرض يقال لها : الغوطة فيها مدينة يقال لها : دمشق . خير منازل المسلمين يومئذ) ، قال الحاكم صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، ووافقه الذهبي في تلخيصه .

قال المنذري في " تهذيب السنن " قال يحيى بن معين ، وقد ذكروا عنده أحاديث من ملاحم الروم ، فقال يحيى : ليس من حديث الشاميين شيء أصح من حديث صدقة بن خالد عن النبي – ﷺ – أنه قال :(معقل المسلمين أيام الملاحم دمشق) انتهى .
ففي هذه الأحاديث دليل على أن جل الطائفة المنصورة يكون بالشام في آخر الزمان ، حيث تكون الخلافة هناك ، ولا يزالون هناك ظاهرين على الحق ، حتى يرسل الله الريح الطيبة ، فتقبض كل من في قلبه إيمان كما تقدم في الأحاديث الصحيحة أن النبي – ﷺ – قال :(حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك) وقال معاذ : وهم بالشام .
فأما في زماننا وما قبله ، فهذه الطائفة متفرقة في أقطار الأرض ، كما يشهد له الواقع من حال هذه الأمة منذ فتحت الأمصار في عهد الخلفاء الراشدين إلى اليوم وتكثر في بعض الأماكن أحياناً ، ويعظم شأنها ويظهر أمرها ببركة الدعوة إلى الله تعالى وتجديد الدين][٨٠]

===================

٦. الطائفة المنصورة والفرقة الناجية :

المعيار الذي تعرف فيه الفرقة الناجية :

" إن الفرقة الناجية هم من عصمهم الله تعالى من الاختلاف في أصول الدين وكلياته وقطعياته، هم القائمون على الحق، الآخذون بالكتاب والسنة، السائرون على ما كان عليه النبي ﷺ وصحابته في الاعتقاد والسلوك والعمل، وباختصار هم أهل السنة والجماعة الذين بيَّن النبي ﷺ أنهم الفرقة الوحيدة الناجية من النار الموصوفة بقوله ﷺ لما ذكر افتراق الأمة على ثلاث وسبعين فرقة وبين أن جميع الفرق في النار إلا واحدة: ما أنا عليه اليوم وأصحابي. رواه الحاكم وغيره.
وهذا هو المعيار الذي تقاس عليه أي جماعة أخرى، سواء كانت التبليغ أو غيرها، فما وافق ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه وسلف الأمة فهو الحق، بغض النظر عمَّن قام به.[٨١]

---

[٨٠] – إتحاف الجماعة ١/٣٣٢-٣٣٤ .

[٨١] – فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (ج ٤ / ص ٥١٦٦) رقم الفتوى ٢٥١٠١ المعيار الذي تعرف فيه الفرقة الناجية –تاريخ الفتوى : ١٤ رمضان ١٤٢٣

كيف تتعرف على الطائفة المنصورة؟ :

"كل من التزم منهج السلف الصالح الذي يعتمد على العمل بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، فهو على خير مهما كان اسمه، فإن الاسم لا يغني عن المسمى شيئاً،..."[82]

المسلم الحقيقي :

"إن الإسلام هو إسلام القلب والوجه لله تعالى، والاستسلام لأحكام الشريعة والانقياد لأوامره سبحانه، قال الأزهري : فالإسلام: إظهار الخضوع والقبول لما أتى به سيدنا رسول الله ﷺ .

وفي قصة إبراهيم وإسماعيل على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، قال تعالى: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ* وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ {الصافات:١٠٣: ١٠٥} ، قال الحافظ ابن كثير : أسلما، يعني: استسلما وانقادا، إبراهيم امتثل أمر الله، وإسماعيل طاعة لله ولأبيه، قاله مجاهد وعكرمة وقتادة والسدي وابن إسحاق وغيرهم . انتهى. ومعنى: وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ أي: أكبه على وجهه، فلا يشاهده عند ذبحه فيكون أهون عليه، وقال سبحانه وتعالى مادحاً إبراهيم عليه السلام: إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ {البقرة:١٣١}، قال الحافظ ابن كثير : أي أمره الله بالإخلاص والاستسلام والانقياد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً . انتهى.

فالمسلم الحقيقي المستقيم على أمر الله، فيعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً، قال تعالى على لسان نبيه: قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ {الأنعام:١٦٢-١٦٣}، والمسلم الحقيقي ينقاد لله، فيمتثل أمره ويجتنب نهيه، ولا يقدم عقله وهواه على ما بلغه من شرع ربه، قال تعالى: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا {النساء:٦٥}.

[82] - فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٦ / ص ١٢٣٢) رقم الفتوى ٤١٥٦٦ كيف تتعرف على الطائفة المنصورة تاريخ الفتوى : ٢٣ شوال ١٤٢٤

قال الحافظ ابن كثير : وقوله: فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ : يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطناً وظاهراً، ولهذا قال: لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا. أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجاً مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن، فيسلمون لذلك تسليماً كلياً من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة . انتهى.

هذا، وإن من أراد السلامة في دينه والنجاة في الآخرة، فعليه أن ينهج نهج أهل السنة والجماعة، وأن يقتفي أثر السلف الصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، فإنهم الفرقة الناجية، وهم الطائفة المنصورة، وهم الوسط بين سائر فرق الإسلام " [٨٣].

هل صحيح أن هناك فرق بين الطائفة المنصورة والفرقة الناجية ؟

" لا فارق بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ، فالطائفة المنصورة لا يلزم أن تكون من المجاهدين فقط ولكنها منهم ومن غيرهم كالعالم والعابد والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، قال الإمام النووي في شرح مسلم عن قوله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . فقال البخاري : هم من أهل العلم، وقال أحمد بن حنبل: إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم، قال عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث، قلت ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين منهم شجعان مقاتلون ومنهم فقهاء ومنهم محدثون ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أهل أنواع أخرى ولا يلزم أن يكون مجتمعين بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض .اهـــ.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ..صار المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوائب هم أهل السنة والجماعة وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون ومنهم أعلام الهدى ومصابيح الدجى... وفيهيم الأبدال: الأئمة الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم

[٨٣] – فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (ج ٨ / ص ٥٦٢٧) رقم الفتوى ٥٦٧٧٦ المسلم الحقيقي تاريخ الفتـــوى : ٠١ ذو القعدة ١٤٢٥

وهم الطائفة المنصورة الذين قال فيهم النبي ﷺ : لاتزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى تقوم الساعة ."[٨٤]

"وكذلك إذا كان المسلمون في ظروف جهادية فعلاً، فتقاسموا العمل الإسلامي : قوم نفروا للجهاد في سبيل الله، ونفر آخرون لطلب العلم، وقعد آخرون للتعليم وتربية الأمة وإعداد العلماء الربانيين وتربية الأمة على العلم والعبادة والجهاد والقيام بسائر شؤون الإسلام؛ فإن جميع هذه الأصناف مجاهدون في سبيل الله، مشاركون في رفع راية الإسلام وقمع الشرك والبدع والضلال، ولن يخرج صنف من هذه الأصناف المجاهدة عن الطائفة الناجية المنصورة القائمة على أمر الله ".

وهناك قول آخر بالتفرقة بينهما على أساس العموم والخصوص :

كل فرد من الطائفة الظاهرة المنصورة هو من الفرقة الناجية ولا يستلزم أن يكون كل واحد من الفرقة الناجية هو من الطائفة الظاهرة المنصورة .. والذي يقرر ذلك، أمران:

أولاً: النصوص الشرعية التي تدل على هذا الفارق بين الفرقة الناجية والطائفة المنصورة .. كما في قوله تعالى:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾آل عمران:١٠٤. فهذا خطاب موجه لمجموع الأمة المتمثلة بـــ " الفرقة الناجية " بأن ينفر منهم طائفة معينة ومتخصصة ـــ وهو المراد هنا بالأمة ـــ تتفرغ وتتخصص للنهوض بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فالنص فرق بين " الفرقة الناجية " وهي مجموع الأمة المعنية بالخطاب، وبين الطائفة المنصورة .. وهم المجموعة من الأمة العامة ينهضون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال ابن كثير في التفسير: يقول تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ } أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعني: المجاهدين والعلماء. ا- هـــ[٨٥].

[٨٤] - فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (ج ٩ / ص ٧٨٧) رقم الفتوى ٦٠٩٠٦ الفرقة الناجية والطائفـــة المنـــصورة تاريخ الفتوى : ٠١ ربيع الأول ١٤٢٦

فهم خاصة الخاصة .. وهذا يستحيل أن يكون أو يتحقق في كل واحد من الفرقة الناجية الشاملة لمجموع أمة التوحيد .. بما فيهم العجزة .. وغيرهم من الفساق والعصاة ..!

وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾آل عمران:١٤٦.

فالربيون هنا هم صفوة الطائفة المنصورة الذين يُجاهدون في سبيل الله، ولا يخشون في الله لومة لائم ..!

ومن قال بأن الربيين الوارد ذكرهم في الآية يراد بهم الفرقة الناجية؛ وهم كل من استجاب وآمن من النساء، والشيِّب، وغيرهم .. فقد أخطأ خطأً فادحاً .. لا يليق بمبتدئي طلاب العلم!

وكذلك قوله تعالى:﴿ لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً ﴾النساء:٩٥.

ففرق الله تعالى بين القاعدين من المؤمنين غير أولي الضرر الذين يدخلون في الفرقة الناجية، وبين المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم الذين يدخلون في الطائفة المنصورة الظاهرة؛ فهما لا يستويان صفة ومهمة كما أنهما لا يستويان من حيث الأجر والدرجات يوم القيامة، وإن كانا يشتركان بصفة النجاة من العذاب بدليل قوله تعالى:﴿ وكلاً وعد اللهُ الحسنى ﴾ ولكن ﴿ فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾.

وفي الحديث، فقد تقدم معنا قوله ﷺ:" لا تزال طائفة من أمة ظاهرين على الحق .. ". " لن يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس ..". " لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين ..". " لا تزال طائفة من أمتي منصورين لا يضرهم من خذلهم .. " وغيرها من النصوص.

---

[٨٥] – تفسير ابن كثير – دار طيبة – (٢ / ٩١) وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة – (٢ / ٤٥٩٢) رقم الفتوى ٩٣٥٨ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ضوابطه وشروطه

فقوله ﷺ:" من أمتي .. عصابة من المسلمين " تفيد التبعيض؛ أي الطائفة المنصورة .. من الفرقة الناجية الشاملة لمجموع أمة التوحيد والإجابة ..!

ثانياً: من حيث دلالة صفات كل من الطائفة المنصورة والفرقة الناجية .. فالنصوص الشرعية قد ميزت بين صفات الطائفة المنصورة وبين صفات الفرقة الناجية **مما يحملنا بالضرورة على القول بأن الطائفة المنصورة شيء آخر زائد عن الفرقة الناجية ..**

فالفرقة الناجية تتصف بسلامة الاعتقاد وحسن الاتباع، لذلك عندما سُئل النبي ﷺ عنها .. وعن صفاتها، فأجاب بأنها هي التي تكون على " ما أنا عليه وأصحابي ".

بينما الطائفة المنصورة ــ بدلالة النصوص الآنفة الذكر ــ هم إضافة إلى صفة سلامة الاعتقاد وحسن الاتباع .. فإنهم يجاهدون في سبيل الله .. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. ظاهرون بالحق على من ناوأهم أو خالفهم .. يصدعون بالحق لا يخشون في الله لومة لائم .. إلى آخر الصفات التي تقدم ذكرها في بحثنا هذا.

وهذه صفات يستحيل أن تتحقق في مجموع أفراد الطائفة الناجية على اختلاف أعمارهم ومستوياتهم، وقدراتهم .. من الشيوخ والنساء، والولدان، والعوام وغيرهم ..!

ــ خلاصة القول: أن كل فرد من الطائفة المنصورة هو من الفرقة الناجية، ولا يستلزم العكس؛ لاستحالة أن تتوفر صفات الطائفة الظاهرة المنصورة في كل فرد من أفراد الفرقة الناجية .. فلزم القول بالتفريق ولا بد.

الطائفة المنصورة بالنسبة للفرقة الناجية تعتبر الصفوة أو الطليعة التي تتصدر المهام العظام .. وتنوب عن الأمة في الذود عن الحقوق والحرمات. بينما الفرقة الناجية بالنسبة للطائفة المنصورة، تعتبر القاعدة الشعبية العريضة التي منها تستمد عناصرها ..!

الطائفة المنصورة الفرقة الناجية يشتركان في صفة سلامة الاعتقاد وحسن الاتباع والاقتداء .. ويفترقان في بقية الصفات كما تقدم.

فإن قيل ما الفائدة من هذا التقسيم والتفصيل ..؟!

أقول: أولاً هو نزول عند العمل بنصوص الشريعة التي ميزت بين العالم العامل وبين الجاهل من عوام الناس .. وبين المجاهد وبين القاعد .. وما أعد لكل منهما من الأجر والثواب.

ثانياً: حتى لا يتشبع كل امرئ بما لم يُعط .. فيقول: أنا من الطائفة الظاهرة المنصورة .. وهو في حقيقة أمره لا يعدو أن يكون من الفرقة الناجية .. هذا إذا لم يكن من هذه ولا تلك![٨٦]

====================

٧- هل يلزم أن يكونوا في مكان واحدٍ ؟:

هل يلزم أن تكون الطائفة المنصورة مجتمعين في جماعة واحدة، بحيث يكون كل واحد خارج هذه الجماعة ليس من الطائفة المنصورة؟

رغم أن الغالب في الطائفة المنصورة تعمل بصورة جماعية منظمة كما تقدم، إلا أن هذا لا يلزم أن يكون جميع أفراد الطائفة المنصورة مجتمعين في تجمع واحد وفي قطر واحد، بحيث يعتبر كل واحد خارج هذا التجمع ليس من الطائفة المنصورة.

والذي يقرر ذلك أن الطائفة المنصورة ــ كما تقدم ــ لها صفاتها تعرف بها لا بغيرها، فمن توفرت فيه هذه الصفات فهو منها وهي منه سواء تسمى باسمها أو لم يتسم باسمها، وأيا كان موقعه ومكانه ..!

قال النووي رحمه الله: يحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين؛ منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض[٨٧].

==================

٨- هل يلزم أن كل من كان من الطائفة المنصورة أن يبقى منها طيلة حياته .. ولا يخرج منها ؟!

---

٨٦ - انظر كتاب صفة الطائفة المنصورة

٨٧ شرح صحيح مسلم:١٣/٦٧.

الجواب: الحمد لله رب العالمين. العصمة ليست لأحد بعد الأنبياء .. فقد يكون المرء اليوم من الطائفة المنصورة بحكم ما يتحلى من صفات تجعله منها أو قريب منها .. وغداً قد يطرأ عليه من التقلبات والأحوال ما يُخرجه عن صفات الطائفة المنصورة .. وعن كونه واحداً منها .. والعاصم من عصمه الله تعالى وثبته .. نسأل الله تعالى الثبات وحسن الختام.

وعليه نقول: كما أن المرء يقوى إيمانه ويضعف .. بحسب ما يؤتي من الطاعات أو المعاصي والآثام .. كذلك تراه يقترب ويبتعد ــ وبشكل مستمر ــ عن الطائفة المنصورة بحسب ما يعتريه من تقلبات أو تغيرات وأوصاف، ومواقف .. تقربه أو تبعده.

==================

٩-أي الجماعات الإسلامية المعاصرة أقرب إلى الطائفة المنصورة .. أو ينطبق عليها مسمى الطائفة المنصورة؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين. أكثر الجماعات الإسلامية المعاصرة قرباً للطائفة المنصورة المرضية، وينطبق عليها مسمى الطائفة المنصورة .. أكثرها تحلياً والتزاماً بصفات الطائفة المنصورة الآنفة الذكر .. والقارئ الواعي أصبح لديه الميزان الدقيق الذي به يزن الجماعات والأفراد، والأحزاب .. ويعرف مدى قربها أو بعدها عن الطائفة الناجية المنصورة، وذلك من خلال معرفته بصفاتها الواردة في هذا البحث.

والجماعات المجاهدة في سبيل الله لرفع راية الإسلام خفاقة هم الأقرب للطائفة المنصورة .

١٠- كيف نوفق بين كونهم ظاهرين وقاهرين لعدوهم، وبين واقع المسلمين في هذا الزمان ..؟!

نقول لمن يسأل هذا السؤال: أمعن النظر جيداً بما يجري على الساحة الإسلامية، فسوف تدرك أن لهذه الطائفة وجوداً في زماننا وفي كل زمان، فإن خانك بصرك، ولم تر إلا الوجه القاتم من واقع المسلمين، نستسمحك عذراً في أن نقول لك: كذب بصرك، وخاب ظنك .. وصدق رسول الله ﷺ، حين قال:" لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة ".

ولكن الذي يمكن قوله هنا: أن حجم الظهور من حيث الكم والسعة .. وكذلك من حيث نوع الظهور .. قد يتضاءل أو يزيد في زمن دون زمن، وفي مكان دون مكان .. بحيث يظن البعض بأن الطائفة المنصورة لم يعد لها وجود أو أثر .. والحقيقة تكون أنه يجهل واقع المسلمين على وجه التفصيل، وما يجري على الساحة من أحداث ..!

===================

٧- صفات الطائفة المنصورة أهل السنّة والجماعة[٨٨] :

الواجب على المسلم اتباع الحقّ والسير في ركاب الطائفة المنصورة أهل السنّة والجماعة أتباع السَلف الصالح يحبهم في الله أينما كانوا في بلده أو في غير بلده ويتعاون معهم على البرّ والتقوى وينصر معهم دين الله تعالى .

أما أوصاف هذه الطائفة المنصورة

فقد ورد في شأنها عدة أحاديث صحيحة عن النبي ﷺ منها :

عن معاوية رضي الله عنه قال : (سمعت النبي ﷺ يقول: لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم ، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك)

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة) .

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : (لا يزال من أمتي قوم ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله) .

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ، ظاهرين على من ناوأهم ، حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال).

ويؤخذ من هذه الأحاديث عدة أمور :

الأول :

---

[٨٨] - فتاوى الإسلام سؤال وجواب - (١ / ١٧٤٦) سؤال رقم ٢٠٦- صفات الطائفة المنصورة أهل السنّة والجماعة -ما هي شروط الجماعة التي يجب أن يتبّعها المسلم شرعا ؟

قول النبي ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي) . فيه دليل على أنّها فئة من الأمّة وليست كل الأمّة ، وفيه إيماءة إلى أن هناك فئات أخرى ، وطوائف أخرى .

الثاني :

قول النبي ﷺ (لا يضرهم من خالفهم) . يدلّ على أن هناك فرقاً أخرى تخالف الطائفة المنصورة فيما هم عليه من أمر الدين ، وهذا كذلك يوافق مدلول حديث الافتراق حيث إن الفرق الثنتين والسبعين تخالف الفرقة الناجية فيما هم عليه من الحق .

الثالث :

كلا الحديثين يحمل البشرى لأهل الحق ، فحديث الطائفة المنصورة يبشّرهم بالظفر والنصر والظهور في الدنيا .

الرابع :

والمراد بقوله ﷺ ((حتى يأتي أمر الله)) أي الريح التي تأتي فتأخذ روح كل مؤمن ومؤمنة .

ولا ينافي هذا حديث : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة . لأن معنى هذا أنهم لا يزالون على الحق حتى تقبضهم هذه الريح اللينة قرب القيامة وعند تظاهر أشراطها .

صفات الطائفة المنصورة

يؤخذ من مجموع الأحاديث المتقدمة والروايات الأخرى الصفات التالية للطائفة المنصورة:

١- أنها على حق:

فجاء الحديث بأنهم (على حق) . وأنهم (على أمر الله).وأنهم (على هذا الأمر).وأنهم (على الدين) .

وهذه الألفاظ تجتمع في الدلالة على استقامتهم على الدين الصحيح الذي بعث به محمدﷺ

٢ - أنها قائمة بأمر الله:

وقيامهم بأمر الله يعني:

أ ــــ أنهم تميزوا عن سائر الناس بحمل راية الدعوة إلى الله.

ب ـــــ وأنهم قائمون بمهمة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) .

٣ – أنها ظاهرة إلى قيام الساعة:

وقد وصفت الأحاديث هذه الطائفة بكونهم :(لا يزالون ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون) .

وبكونهم (ظاهرين على الحق) أو (على الحق ظاهرين) .

أو (ظاهرين إلى يوم القيامة) .

أو (ظاهرين على من ناوأهم) .

وهذا الظهور يشمل

ـــ : الوضوح والبيان وعدم الاستتار فهم معرفون بارزون مستعلون.

ـــ : ثباتهم على ما هم عليه من الحق والدين والاستقامة والقيام بأمر الله وجهاد أعدائه .

ـــ : الظهور بمعنى الغلبة

٤ – أنها صابرة مصابرة:

عن أبي ثعلبة الخشني –رضي الله عنه – أن النبي – ﷺ – قال:(إن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيه مثل قبض على الجمر .)

من هم أهل الطائفة المنصورة ؟

قال البخاري : (هم أهل العلم) .

وذكر كثير من العلماء أن المقصود بالطائفة المنصورة هم : (أهل الحديث)

وقال النووي : (ويحتمل أن هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين : منهم شجعان مقاتلون ، ومنهم فقهاء ، ومنهم محدّثون ، ومنهم زهّاد ، وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر ومنهم أنواع أخرى من الخير .)

وقال أيضا : (يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقيه ومحدّث ومفسّر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد) .

وقال ابن حجر رحمه الله – مفصّلاً القول في المسألة (ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض ، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض ، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولاً فأولاً ، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد فإذا انقرضوا جاء أمر الله)

وكلام العلماء يدور على أن هذه الطائفة ليست محصورة في فئة معينة من الناس كما أنها ليست محددة ببلد معين ، وإن كان آخرها يكون بالشام وتقاتل الدجال كما أخبر النبي ﷺ .

ولا شك أن المشتغلين بعلم الشريعة – عقيدة وفقها وحديثا وتفسيرا وتعلما وتعليما ودعوة وتطبيقا – هم أولى القوم بصفة الطائفة المنصورة وهم الأولى بالدعوة والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والرد على أهل البدع إذ أن ذلك كله لابد أن يقترن بالعلم الصحيح المأخوذ من الوحي .

نسأل الله أن يجعلنا منهم ، وصلى الله على نبينا محمد .[٨٩]



[٨٩] – فتاوى الإسلام سؤال وجواب – (١ / ١٧٤٦) سؤال رقم ٢٠٦– صفات الطائفة المنصورة أهل السنّة والجماعة

المبحث السادس

أهم صفات الطائفة المنصورة

وهذه الصفات هي بشكل مختصر :

الأول– أنهم طائفة وليسوا كل الأمة .

والثاني –أنهم ظاهرون على الحق بالحجة والبرهان وظاهرون على الناس.

والثالث –مقاتلون في سبيل الله .

والرابع – قائمون بأمر الله أي بشريعة الله .

قال تعالى : {وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} (١٨١) سورة الأعراف

والخامس – لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ ،فلا يلتفتون إلى تثبيط المثبطين ولا إلى تخذيل المخذلين ،فهم كأصحاب رسول الله ﷺ الذين قال الله تعالى فيهم { وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا} (٢٢) سورة الأحزاب.

فالطائفة المنصورة ليست حكراً لأحد دون أحد، أو لجماعة دون جماعة، تخضع لأهواء ورغبات وتقسيمات أرباب الجماعات أو الأحزاب .. وإنما هي طائفة ربانية تُعرف بصفات وخصائص دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، فمن اتصف بها فهو من الطائفة الظاهرة المرضية المنصورة رضي من رضي وأبى من أبى، ومن لم يتصف بتلك الصفات فهو ليس من الطائفة المنصورة وإن زعم ـــ بلسانه ألف مرة ـــ أنه منها، ومن أهلها ..!

فالعبرة فيمن يكون من الطائفة المنصورة ممن لا يكون منها تكون بقدر التحلي بما تتصف به الطائفة المنصورة من صفات وخلال .. وليس بمجرد زعم الانتماء أو الانتساب .. والتشبع بما لا يُعطاه المرء .. وبما ليس عنده ولا فيه!

قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ الصف:٢-٣.

والدعاوى إن لم يقيموا عليها بيناتٍ فصحبُها أدعياء

والمرء يمكن أن يتصف ببعض صفات الطائفة المنصورة .. ويُعرف بصفة أكثر من الأخرى .. فحينئذٍ يُقال عنه: فيه بعض صفات الطائفة المنصورة .. وعلى قدر تحليه بتلك الصفات.

فعناصر الطائفة المنصورة يتفاوتون فيما بينهم قرباً أو بعداً عن كمال صفات الطائفة المنصورة بقدر تحلي كل أحدٍ منهم بتلك الصفات .. وعلى قدر هذا التفاوت فيما بينهم يتفاوتون من حيث قوة الإيمان أو ضعفه.

١- الصفة الأولى: الاتباع لا الابتداع .. والاهتداء بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة[٩٠].

\من أخص صفات الطائفة الظاهرة المنصورة أنهم يسيرون على منهاج النبوة؛ صراط الله المستقيم .. لا تستلفت أنظارهم الأهواء والسبل المتفرقة التي أحدثها المشركون والمبتدعون، وهم في جميع شؤون حياتهم الدينية والدنيوية يقتدون بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ـــ رضوان الله تعالى عليهم ـــ فشأنهم دائماً الإتباع والإقتداء بخير من سلف، وليس الابتداع والإحداث في الدين.

تجد هذه الصفة بارزة في وصفه ﷺ إياهم أنهم " على الحق"، وأنهم " قائمين بأمر الله"، والحق وأمر الله محصوران في الكتاب والسنة على فهم صالحي سلف الأمة، وهو الدين الصحيح الذي يجب أن يتبع، وما سوى ذلك فهو من المشاققة للرسول ﷺ واتباع لغير سبيل المؤمنين.

كما قال تعالى:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ الأنفال:١٣.

أي من يخالف الله ورسوله؛ فيكون في شقٍّ، وشرع الله تعالى ـــ المتمثل في حكم الله ورسوله ـــ في شق آخرن فإنه لن يفلت من عقاب الله الشديد .. وسيطاله العذاب في الدنيا والآخرة.

---

[٩٠] السلف الصالح: هم الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ ومن كان على طريقتهم ونهجهم من التابعين لهم في القرون الثلاثة الأولى، والمشهود لها بالخيرية.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾.

وأولى الناس بصفة " المؤمنين" الواردة في هذه الآية الكريمة هم الصحابة ـــ رضوان الله عليهم ـــ فهم الذين اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ، ونصرة دينه، والجهاد مع رسوله .. وعن طريقهم نقل الدين لمن بعدهم، فكانوا الأمناء الأوفياء لما استأمنهم الله ورسوله عليه؛ حيث أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة، وجاهدوا في سبيل الله حق جهاده ..!

وهم كذلك أفقه الناس بمراد الشارع، لقربهم من النبي ﷺ، ولدرايتهم بأسباب نزول آيات الذكر الحكيم، لذا كان من يخالفهم ويتبع غير سبيلهم، يستحق من الله هذا الوعيد الشديد؛ وهو أن يصلى نار جهنم وساءت مصيراً.قال ابن تيمية: فَإِنَّهُمَا مُتَلَازِمَانِ ؛ فَكُلُّ مَنْ شَاقَّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى فَقَدْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ وَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ شَاقَّ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى . فَإِنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ سَبِيلَ الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ مُخْطِئٌ ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِلرَّسُولِ وَهُوَ مُخْطِئٌ .

وَهَذِهِ " الْآيَةُ "تَدُلُّ عَلَى أَنَّ إجْمَاعَ الْمُؤْمِنِينَ حُجَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّ مُخَالَفَتَهُمْ مُسْتَلْزِمَةٌ لِمُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَأَنَّ كُلَّ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ نَصٌّ عَنْ الرَّسُولِ ؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ يُقْطَعُ فِيهَا بِالْإِجْمَاعِ وَبِانْتِفَاءِ الْمُنَازِعِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّهَا مِمَّا بَيَّنَ اللَّهُ فِيهِ الْهُدَى ، وَمُخَالِفُ مِثْلِ هَذَا الْإِجْمَاعِ يَكْفُرُ كَمَا يَكْفُرُ مُخَالِفُ النَّصِّ الْبَيِّنِ .وَأَمَّا إذَا كَانَ يُظَنُّ الْإِجْمَاعُ وَلَا يُقْطَعُ بِهِ فَهُنَا قَدْ لَا يُقْطَعُ أَيْضًا بِأَنَّهَا مِمَّا تَبَيَّنَ فِيهِ الْهُدَى مِنْ جِهَةِ الرَّسُولِ ، وَمُخَالِفُ مِثْلِ هَذَا الْإِجْمَاعِ قَدْ لَا يَكْفُرُ ؛بَلْ قَدْ يَكُونُ ظَنُّ الْإِجْمَاعِ خَطَأً .وَالصَّوَابُ فِي خِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ وَهَذَا هُوَ فَصْلُ الْخِطَابِ فِيمَا يَكْفُرُ بِهِ مِنْ مُخَالَفَةِ الْإِجْمَاعِ وَمَا لَا يَكْفُرُ .[٩١]

ونحو ذلك قوله تعالى:﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾يوسف:١٠٨.

---

[٩١]- مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٧ / ٣٨)

فالصحابة هم الذين تتحقق فيهم صفة الاتباع والانقياد للنبي ﷺ أكثر من غيرهم، وهم أولى الناس دخولاً في قوله تعالى:﴿ أنا ومن اتبعني ﴾ وبالتالي فهم أولى الناس بصفة الدعوة إلى الله على بصيرة وعلم وفقه، ومن كان كذلك فإنه لحري بمن جاء بعدهم أن يتحروا طريقتهم ومنهاجهم، وفهمهم لمسائل الدين .. وأن لا يلتفتوا عنهم لمن شذ عن فهمهم وطريقتهم من المتأخرين.

وفي قوله تعالى: ﴿ أنا ومن اتبعني﴾، قال ابن عباس: يعني أصحاب محمد ﷺ كانوا على أحسن طريقة وأقصد هداية، معدن العلم، وكتر الإيمان وجند الرحمن.[٩٢].

عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ " مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا وَأَحْسَنَهَا حَالًا ، قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ " [٩٣].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ، قَالَ : " مَنْ كَانَ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ كَانُوا خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، أَبَرَّهَا قُلُوبًا ، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا ، وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا ، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَنَقْلِ دِينِهِ ، فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَهُمْ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ " وَاللَّهِ رَبِّ الْكَعْبَةِ . يَا ابْنَ آدَمَ ، صَاحِبِ الدُّنْيَا بِبَدَنِكَ ، وَفَارِقْهَا بِقَلْبِكَ وَهَمِّكَ ، فَإِنَّكَ مَوْقُوفٌ عَلَى عَمَلِكَ ، فَخُذْ مِمَّا فِي يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ عِنْدَ الْمَوْتِ يَأْتِيكَ الْخَيْرُ "[٩٤]

وعَنْ عَبْدِ رَبِّهِ قَالَ : كَانَ الْحَسَنُ فِي مَجْلِسٍ فَذُكِرَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : " إِنَّهُمْ كَانُوا أَبَرَّ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا وَأَقَلَّهَا تَكَلُّفًا ،قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَتَشَبَّهُوا بِأَخْلَاقِهِمْ وَطَرَائِقِهِمْ فَإِنَّهُمْ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ "[٩٥]

[٩٢] – تفسير البغوي – (٤ / ٢٨٤)

[٩٣] – جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (١١١٨) وفيه انقطاع

[٩٤] – حِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ (١٠٩٩) وفيه ضعف

[٩٥] – جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (١١١٥) حسن

وكذلك قوله تعالى:﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ﴾البقرة:١٣٧.

وهذه الكلمة من اللّه ، وهذه الشهادة منه سبحانه ، تسكب في قلب المؤمن الاعتزاز بما هو عليه. فهو وحده المهتدي. ومن لا يؤمن بما يؤمن به فهو المشاق للحق المعادي للهدى. ولا على المؤمن من شقاق من لا يهتدي ولا يؤمن ، ولا عليه من كيده ومكره. ولا عليه من جداله ومعارضته. فاللّه سيتولاهم عنه ، وهو كافيه وحسبه : «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ. وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».[٩٦]

ففي الآية دلالتان، أولهما: أن الهداية المطلقة التي تؤدي إلى النجاة وإلى خيري الدنيا والآخرة، تكمن فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من هدى وإيمان[٩٧].

فالإيمان محصور فيما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه .. فلا إيمان إلا إيمانهم ولا حقّ إلا الحق الذي كانوا عليه .. وطالبُ الهداية والنجاة بحقٍّ لا بدَّ له من أن يلتمس الإيمان الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم.

أمَّا الدلالة الثانية للآية: هي وجوب الإقتداء بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من إيمان، وإلا فالبديل هو الشقاق والعذاب .. في الدنيا والآخرة.

وفي السنة فعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِى الْجَنَّةِ وَسَبْعُونَ فِى النَّارِ وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِى النَّارِ وَوَاحِدَةٌ فِى الْجَنَّةِ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِى عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً فَوَاحِدَةٌ فِى الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِى النَّارِ ». قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ قَالَ « الْجَمَاعَةُ ». "[٩٨].

---

[٩٦] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ١١٨)

[٩٧]- الإيمان: هو مجموع ما أمر به الإسلام كما في الحديث عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -صلى الله عليه وسلم- قَالَ « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ »صحيح مسلم- المكنز - (١١٦) وهو عند السلف: اعتقاد وقول وعمل، يزيد وينقص.

[٩٨] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٤١٢٧) صحيح لغيره

وفي رواية عند الترمذي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لَيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِى مَا أَتَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عَلاَنِيَةً لَكَانَ فِى أُمَّتِى مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ وَإِنَّ بَنِى إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِى عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِى النَّارِ إِلاَّ مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِىَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِى ». "[٩٩].

فجاء هذا الحديث مفسراً لما قبله، حيث دل أن الفرقة الناجية من بين الفرق هي" الجماعة "، والجماعةُ التي يجب أن يُكثر سوادها هي التي تكون على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من الدين والإيمان، وإن قلَّ عددُها فالحقُّ لا يُقاس بالكم، وإنما بمدى مطابقته وموافقته لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، قَالَ : " الْجَمَاعَةُ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ ، وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ " وَفِي روايةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : الْجَمَاعَةُ أَهْلُ الْحَقِّ ، وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ "[١٠٠].

وقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : " الْجَمَاعَةُ : هُوَ الْحَقُّ ، وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ "[١٠١]

وقال نعيم بن حماد: إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذ.[١٠٢]

قال ابن القيم في أعلام الموقعين: وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِجْمَاعَ وَالْحُجَّةَ وَالسَّوَادَ الْأَعْظَمَ هُوَ الْعَالِمُ صَاحِبُ الْحَقِّ ، وَإِنْ كَانَ وَحْدَهُ ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَهْلُ الْأَرْضِ ، .....وَقَالَ بَعْضُ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَقَدْ ذُكِرَ لَهُ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ، فَقَالَ : أَتَدْرِي مَا السَّوَادُ الْأَعْظَمُ ؟ هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ الطُّوسِيُّ وَأَصْحَابُهُ .

فَمُسِخَ الْمُخْتَلِفُونَ الَّذِينَ جُعِلُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ وَالْحُجَّةَ وَالْجَمَاعَةَ هُمْ الْجُمْهُورُ وَجَعَلُوهُمْ عِيَارًا عَلَى السُّنَّةِ ، وَجَعَلُوا السُّنَّةَ بِدْعَةً ، وَالْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا لِقِلَّةِ أَهْلِهِ وَتَفَرُّدِهِمْ فِي الْأَعْصَارِ

---

[٩٩] – سنن الترمذى- المكنز – (٢٨٥٣) حسن ،قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ مُفَسَّرٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لاَ نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

[١٠٠] – الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ(١١٧١) حسن

[١٠١] – الْفَقِيهُ وَالْمُتَفَقِّهُ لِلْخَطِيبِ الْبَغْدَادِيِّ (١١٧٢)

[١٠٢] – إعلام الموقعين عن رب العالمين – (٣ / ٤٤٠)

وَالْأَمْصَارِ ، وَقَالُوا : مَنْ شَذَّ شَذَّ اللَّهُ بِهِ فِي النَّارِ ، وَمَا عَرَفَ الْمُخْتَلِفُونَ أَنَّ الشَّاذَّ مَا خَالَفَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَيْهِ إلَّا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَهُمْ الشَّاذُّونَ .

وَقَدْ شَذَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ زَمَنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ إلَّا نَفَرًا يَسِيرًا ؛ فَكَانُوا هُمْ الْجَمَاعَةُ ، وَكَانَتْ الْقُضَاةُ حِينَئِذٍ وَالْمُفْتُونَ وَالْخَلِيفَةُ وَأَتْبَاعُهُ كُلُّهُمْ هُمْ الشَّاذُّونَ ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ الْجَمَاعَةُ ، وَلَمَّا لَمْ يَتَحَمَّلْ هَذَا عُقُولُ النَّاسِ قَالُوا لِلْخَلِيفَةِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَكُونُ أَنْتَ وَقُضَاتُك وَوُلَاتُك وَالْفُقَهَاءُ وَالْمُفْتُونَ كُلُّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ وَأَحْمَدُ وَحْدَهُ هُوَ عَلَى الْحَقِّ ؟ فَلَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُهُ لِذَلِكَ ؛ فَأَخَذَهُ بِالسِّيَاطِ وَالْعُقُوبَةِ بَعْدَ الْحَبْسِ الطَّوِيلِ ؛ فَلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةِ ، وَهِيَ السَّبِيلُ الْمَهْيَعُ لِأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ حَتَّى يَلْقَوْا رَبَّهُمْ ، مَضَى عَلَيْهَا سَلَفُهُمْ ، وَيَنْتَظِرُهَا خَلَفُهُمْ : {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} (٢٣) سورة الأحزاب، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . ا- هـ[١٠٣].

ومنه يعلم أن الجماعة تعرف بالحق الذي هي عليه، وليس بكثرة أفرادها وأنصارها وعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الْحِجَازِ مَعْقِلَ الأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِى مِنْ سُنَّتِى »[١٠٤].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ " ثَلَاثًا ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : " نَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ " ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَأْتِي أُنَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وجُوهُهُمْ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ " ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ : نَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " لَا ، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّهُمْ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ ، يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ ، يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ " "[١٠٥].

---

[١٠٣] - إعلام الموقعين عن رب العالمين - (٤ / ٢٤٢)

[١٠٤] - سنن الترمذى- المكتر - (٢٨٣٩) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.قلت : هو حسن لغيره

يأرز : ينضم ويجتمع -الأروية : الشاة الواحدة من شياه الجبل والجمع أروى

[١٠٥] - الْبِدَعُ لِابْنِ وَضَّاحٍ (١٦٦) حسن

وعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِي الْجَنَّةِ ، وَقَالَ : مَا صُدِّقَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْت ، وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ لَنَبِيًّا مَا صَدَّقَهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ.[١٠٦] .

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ - رضى الله عنه - عَنِ النَّبِىِّ - ﷺ - قَالَ « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى يَا آدَمُ . فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ فِى يَدَيْكَ . فَيَقُولُ أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ . قَالَ وَمَا بَعْثُ النَّارِ قَالَ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ ، فَعِنْدَهُ يَشِيبُ الصَّغِيرُ ، وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ، وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى ، وَمَا هُمْ بِسُكَارَى ، وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ » . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَأَيُّنَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ قَالَ « أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْكُمْ رَجُلٌ ، وَمِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفٌ » . ثُمَّ قَالَ « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ ، إِنِّى أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ « أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ « أَرْجُو أَنْ تَكُونُوا نِصْفَ أَهْلِ الْجَنَّةِ » . فَكَبَّرْنَا . فَقَالَ « مَا أَنْتُمْ فِى النَّاسِ إِلاَّ كَالشَّعَرَةِ السَّوْدَاءِ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَبْيَضَ ، أَوْ كَشَعَرَةٍ بَيْضَاءَ فِى جِلْدِ ثَوْرٍ أَسْوَدَ » . " البخاري[١٠٧] .

مصداق ذلك في كتاب الله قوله تعالى: { وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ } (١٠٦) سورة يوسف.

وقال تعالى:﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾الأنعام:١١٦.

هو إشارة إلى أن أكثر الناس فى هذه الدنيا تغلب عليهم أهواؤهم ، وتستولى عليهم نزعات الشر والضلال ، وأن أصحاب الهدى وأهل التقوى ، هم قلة فى هذه الدنيا ، وأنهم لو اتبعوا الكثرة لكثرتها لهلكوا مع الهالكين ، وضلّوا مع الضالين .. وهكذا الخير قليل فى أهله ، كثير فى مضمونه ، وأن الشرّ كثير فى أهله ، قليل فى محتواه .. وكذلك كل نفيس أو كريم ، هو قليل الكمّ كثير الكيف ، وكل خبيث وتافه ، هو كثير الكمّ قليل القدر ، بخس القيمة ، وإلى هذا يشير اللّه سبحانه وتعالى بقوله : « قُلْ لا يَسْتَوِي

---

[١٠٦] - مصنف ابن أبي شيبة - (١١ / ٤٣٦) (٣٢٣٠٨) صحيح

[١٠٧] - صحيح البخارى- المكنز - (٣٣٤٨) وصحيح مسلم- المكنز - (٥٥٤)

الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » (١٠٣ : المائدة).

فهذه الكثرة الغالبة من الضالين ، لا يقوم ضلالهم إلا على أوهام وترّهات ، ولا يستند إلا على أهواء ونزوات : « إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ » والخرص ، والتخرص : هو الحكم على الشيء بلا علم ، والأخذ به بلا برهان ولا دليل ، ومنه خرص النحلة ، وهو تقدير ما تعطى من ثمر قبل أن ينضج ويكتمل ، وهو ضرب من المقامرة ، قد نهى الشرع عنه .. وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ ». (١٠ : الذاريات)[١٠٨]

قال حسن البصري: فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم ولا مع أهل البدع في بدعهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكونوا كذلك ا- هـــ.

ومن الأحاديث كذلك التي تدل على وجوب الاقتداء بفهم السلف الصالح، والتماس هديهم وطريقتهم دون غيرهم قوله ﷺ:" أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف، ويشهد الشاهد ولا يستشهد، عليكم بالجماعة و إياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة"[١٠٩] .

وقال ﷺ:" سترون من بعدي اختلافاً شديداً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم والأمور المحدثات فإن كل بدعة ضلالة "[١١٠].

فدل أن الملاذ والنجاة عند اشتداد الفرقة والاختلاف، وظهور الأهواء والفتن، هو بالتمسك بسنة النبي ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده .. ونبذ كل ما خالف ذلك.

---

[١٠٨] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٤ / ٣٠١)

[١٠٩] – أخرجه ابن ماجه والترمذي، صحيح سنن الترمذي:١٧٥٨.

[١١٠] صحيح سنن ابن ماجه : ٤٠.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ ، أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ ، قَالَ : وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ ، قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ قَالَ : قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلاَّ هَالِكٌ ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ ، فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ. "[١١١].

وعَنِ الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَةَ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةَ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدْ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ:"إِنِّي قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي مِنْكُمْ إِلا هَالِكٌ، وَأَنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، فَإِيَّاكُمْ وَالْبِدَعَ، وَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا".[١١٢]

وعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِى أَبِى بَكْرٍ وَعُمَرَ ».[١١٣]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ – رضى الله عنه – عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِىءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ » . متفق عليه[١١٤].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَأْتِي قَوْمٌ يَسْبِقُ أَيْمَانُهُمْ شَهَادَتَهُمْ ، وَشَهَادَتُهُمْ أَيْمَانَهُمْ."[١١٥]

---

[١١١] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٥ / ٨٤١) (١٧١٤٢) ١٧٢٧٢– صحيح

[١١٢] -المعجم الكبير للطبراني – (١٣ / ١٧٧) (١٥٠٤٥) صحيح

[١١٣] – سنن الترمذى- المكنز – (٤٠٢٣) صحيح

[١١٤] – صحيح البخارى- المكنز – (٢٦٥٢) وصحيح مسلم- المكنز – (٦٦٣٥)

[١١٥] – صحيح ابن حبان – (١٥ / ١٢١) (٦٧٢٧) صحيح

وعن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ.[١١٦]

وعَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَامَ فِينَا مِثْلَ مُقَامِى فِيكُمْ فَقَالَ « احْفَظُونِى فِى أَصْحَابِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَشْهَدَ الرَّجُلُ وَمَا يُسْتَشْهَدُ وَيَحْلِفَ وَمَا يُسْتَحْلَفُ ».[١١٧].

وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي بُعِثْتُ فِيهِمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - ثُمَّ اللَّهُ أَعْلَمُ أَذَكَرَ الثَّالِثَ أَمْ لاَ - ثُمَّ يَنْشَأُ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ ، وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ ، وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ ، وَيَفْشُو فِيهِمُ السِّمَنُ." [١١٨].

وعَنْ هِلَالِ بْنِ يَسَافٍ، قَالَ: دَخَلْتُ مَسْجِدَ الْبَصْرَةِ، فَإِذَا رَجُلٌ فِي حَلْقَةٍ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَتَسَمَّنُونَ وَيُحِبُّونَ السِّمَنَ، يُعْطُونَ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلُوهَا " . فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَقَالُوا: هَذَا عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ "[١١٩].

وقال تعالى في الصحابة والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١٠٠) سورة التوبة.

فالسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ـــ هم الإنسانية الكريمة الوضيئة ، يتمثل فيهم كل ما يمكن أن تعطيه الإنسانية من ثمر طيّب مبارك .. فهم من الإنسانية بمترلة هذه القلّة من أعراب البادية ، الذين خلصوا من كدر البادية ، وسلموا من أدرانها وأوضارها ..

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار .. هم الذين سبقوا إلى الإسلام ، فكانوا الكوكبة الأولى التي تقدمت ركبه الميمون ، وكانوا الكواكب الدّريّة التي بين يد فجره

---

[١١٦] صحيح ابن حبان - (١٦ / ٢١٢) (٧٢٢٩) صحيح

[١١٧] - سنن ابن ماجه- المكتر - (٢٤٥٣) صحيح

[١١٨] - صحيح ابن حبان - (١٥ / ١٢٣) (٦٧٢٩) صحيح

[١١٩] - شرح مشكل الآثار - (٦ / ٢٥٩) (٢٤٦٥) صحيح

الوليد .. أولئك هم الذين حملوا أعباء الدعوة الإسلامية ، واحتملوا ـــ فى صبر ورضا ـــ مواجهة العاصفة التي هبّت عليهم عانية مزمجرة ، تحمل فى كيانها جهالة الجاهلية ، وحماقاتها ، وسفاهاتها ، وعتوّها وضلالها .. فكان لهم عند اللّه هذا المكان الكريم ، وتلك المنزلة التي اختصهم بها ، وأفردهم فيها ..

فمن أراد أن يلحق بهم ويضاف إليهم ، فسبيله إلى ذلك أن يقفو أثرهم ، ويتبع سبيلهم ، ويحسن كما أحسنوا ، ويبلى كما أبلوا .. فذلك هو الثمن لمن يطلب رضا اللّه ، ويطمع فى أن يكون مع أحبابه وأصفيائه .. فيكون بهذا مضافا إليهم مع الذين اتبعوهم بإحسان.

وفى قوله تعالى : « بِإِحْسانٍ » هو قيد مؤكّد ، يكشف عن الإحسان الذي يكون من متابعة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، والتأسّى بهم ..فمتابعتهم هى إحسان ، وقوله تعالى : « بِإِحْسانٍ » هو توكيد لهذا الإحسان الذي تنطوي عليه المتابعة .. وهذا يعنى أن ما كان من السابقين من المهاجرين والأنصار ، هو إحسان كلّه ، فمن تابعهم ، وتأسّ بهم على ما كانوا عليه ، فهو محسن .. كل الإحسان!.

وقوله تعالى : « رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » هو عرض كاشف لمنزلة هؤلاء الصفوة من عباد اللّه ، وأنّ اللّه رضى عنهم ، بما كان منهم من إحسان ، وأنّهم رضوا ، بما أرضاهم اللّه به ، ونعموا فيه ..

وفى قوله تعالى : « وَرَضُوا عَنْهُ » رضوان فوق رضوان من عند اللّه ، يحفّهم به ، ويزيدهم نعيما إلى نعيم .. إذ جعل اللّه سبحانه وتعالى رضاهم عنه بما أعطاهم معادلا لرضاه عنهم ، حتى لكأنه سبحانه وتعالى ، يتبادل الرضا معهم ، فيرضى عنهم ، ويرضون عنه .. فسبحانه ، ما أعظم لطفه ، وما أوسع فضله ، وما أكرم عطاءه ، وأسبغ إحسانه!

هذا وقد جاء ذكر هؤلاء الصفوة من المؤمنين ، من السابقين الأولين ، من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ـــ جاء ذكرهم على هذا الترتيب فى قوله تعالى : « لِلْفُقَراءِ الْمُهاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُا الدَّارَ وَالْإِيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ

مَنْ هاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كانَ بِهِمْ خَصاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَلِإِخْوانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونا بِالْإِيمانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ » (٨ ـــ ١٠ : الحشر).

وهكذا الإسلام ، طريقه مفتوح دائما لأصحاب النفوس الطيبة ، والقلوب السليمة ، والعزائم الصادقة ، يرتادون فيه منازل الرضوان ، ويتزلون منها حيث يبلغ جهدهم ، وتحتمل عزماهم .. وهكذا يدخل المسلمون جميعا ، بل الناس جميعا ، تحت قوله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ ».. ففى ذلك فليتنافس المتنافسون ، ولهذا فليعمل العاملون[١٢٠]

«لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة : «أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدا رسول اللّه» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان اللّه ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى اللّه. ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول اللّه – ﷺ – هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة للّه ولرسول اللّه ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية.

«لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة .. وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة ..

«لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه. وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية اللّه للعالمين ، في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد

[١٢٠] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٨٨١)

للعباد وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد ، يتبع في تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض ..

«وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان .. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه ، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه للّه وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب ، والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.

«بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا في المجتمع العربي فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى وكان هذا النوع قليلا فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

«وهكذا اختار اللّه السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار ، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول اللّه – ﷺ – (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ ، وَغَيْرِهِ ،قَالُوا : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَنَفْسِكَ مَا شِئْتَ قَالَ : أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِيَ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكَمْ قَالُوا : فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَاذَا لَنَا ؟ قَالَ : الْجَنَّةُ قَالُوا : رِبِحَ الْبَيْعُ لاَ نَقِيلُ وَلاَ نَسْتَقِيلُ فَنَزَلَتْ : {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الآيَةَ.[١٢١] .

وعَنْ قَتَادَةَ ، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ} قَالَ : قَدْ كَانَتْ لِلَّهِ أَنْصَارٌ مِنْ هَذِهِ

[١٢١] – تفسير الطبري ٣١٠ (دار هجر) – (١٢ / ٦) (١٧٣٥٤) حسن مرسل

الأُمَّةِ تُجَاهِدُ عَلَى كِتَابِهِ وَحَقِّهِ . وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ بَايَعَهُ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ اثْنَانِ وَسَبْعُونَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ ، ذُكِرَ لَنَا أَنَّ بَعْضَهُمْ قَالَ : هَلْ تَدْرُونَ عَلاَمَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ ؟ إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَ عَلَى مُحَارَبَةِ الْعَرَبِ كُلِّهَا أَوْ يُسْلِمُوا . وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلاً قَالَ : يَا نَبِيَّ اللَّهِ اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَلِنَفْسِكَ مَا شِئْتَ ، قَالَ : أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِيَ مِمَّا مَنَعْتُمْ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ . قَالُوا : فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ، فَمَا لَنَا يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟ قَالَ : لَكُمُ النَّصْرُ فِي الدُّنْيَا ، وَالْجَنَّةُ فِي الآخِرَةِ . فَفَعَلُوا ، فَفَعَلَ اللَّهُ.[١٢٢]

«ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول اللّه هذه البيعة ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ويوثقون هذا البيع ، فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول اللّه – ﷺ – ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم وأنهم لن يعيشوا في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة ، وبين ظهرانيهم في المدينة» ..... «فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا في هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة .. ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها .. فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة ..

«ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء .. لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم .. حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء : عبد اللّه بن أبي بن سلول : هذا أمر قد توجه! وأظهر الإسلام نفاقا. ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليدا – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام ولا انطبعوا بطابعه .. مما أنشأ تخلخلا في بناء المجتمع المدني ، ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية.

---

[١٢٢] – تفسير الطبري ٣١٠ (دار هجر) – (٢٢ / ٦٢٠) (٣٤٣٧٦) صحيح مرسل

«وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد ، بقيادة رسول اللّه – ﷺ – يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد.

«وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبي – فإننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذل في عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة.

«ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة في فترات الشدة – أعراض من الضعف والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر .. وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية .. والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة. ... «إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليما في جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا ، والتعرض للمخاطر التي تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها.

«وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ، ومن المترددين كذلك والمتهيبين ومن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين. حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته

الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد ..

«نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأها الحركة العقيدية ذاتها فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها .. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار.

وتميز أهل بدر. وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية. ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا. وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها ...».

... «ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأها الحركة الإسلامية ، لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضوح العقيدي ، والنفاق ...

من ذلك المجتمع. بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية.

«إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف – وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة – قد عاد فصب في المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية ...».

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك «بإحسان» يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركي. وندرك حقيقة دورهم الباقي في بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملي يبقى مؤثرا في التاريخ البشري كله ، كما نستشرف حقيقة قول اللّه سبحانه فيهم : «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ» ..

ورضى اللّه عنهم هو الرضى الذي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة ورضاهم عن اللّه هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه ..

ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين اللّه سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده ويرفع من شأن هذه الصفوة – من البشر – حتى ليبادلون ربهم الرضى وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون .. وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ولكن يتنسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول! ذلك حالهم الدائم مع ربهم : «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ». وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى : «وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً» .. «ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .. وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم؟؟؟[١٢٣]

وقال تعالى:﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ الفتح:٢٩.

والصفة التي تغلب على هذا المجتمع ، ويعرف بها فى الناس ، أنه مجتمع شديد الغلظة على الكفار ، الذين يحادّون اللّه ورسوله ، فلا يكون بينه وبين الكافرين ولاء أو مودة يجار فيها على دين اللّه ، أو ينتقص بها حق من حقوق المسلمين.

هذا حالهم مع أعداء اللّه .. أما هم فيما بينهم فهم رحماء ، تفيض قلوبهم حفانا ورحمة ومودة ، تجمعهم أخوة بارّة فى اللّه ، وفى دين اللّه ..

هذا ما تنطوى عليه صدورهم ، وتفيض به مشاعرهم ، نحو أعداء اللّه ، وأوليائه ..

---

[١٢٣] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١٧٠٢)

أما ما يراه الناس من ظاهر أمرهم ، فهو اجتماعهم فى الصلاة ، وتولية وجوههم جميعا للّه .. يركعون معا ، ويسجدون معا .. يريدون بذلك مرضاة اللّه ، ويبتغون فضله وإحسانه فإذا لم يرهم الرائي فى مقام الصلاة ، رأى منهم أثر هذه الصلاة ، وما يترك السجود على جباههم من آثار ، هي سمة المسلم المصلّي ، وهي الشارة التي تشير إليه ، وإلى الدِّين الذي يدين به ..

وهذا يعني أن الصلاة هي شعار المسلم ، وأن من لا يؤديها لا تظهر عليه سمة الإسلام ، ومن هنا كانت الصلاة الركن الأول الذي يقوم عليه الإسلام بعد الإيمان باللّه .. وفى الحديث : « بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة »..وفى الحديث أيضا : « العهد بيننا وبينكم الصلاة فمن تركها فقد كفر »..يريد تركها عامدا منكرا.

وقوله تعالى : « ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ » أي هذه الصفة هى صفة المسلمين التي وصفهم اللّه بها فى التوراة ..والإشارة : إما أن تكون إلى جميع هذه الأوصاف ، وإما أن تكون إشارة إلى قوله تعالى : « سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ »..

وقوله تعالى : « وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً »..الشطء : أول ما يبدو من النبات على ظاهر الأرض ، وشاطىء الشيء ، حافته .. أي ومثل المؤمنين الذين مثّلهم اللّه سبحانه وتعالى به ، فى الإنجيل ، هو الزرع ، يبدأ بذرة هامدة فى الثرى ، فإذا أصابها الماء ، اهتز كيانها ، ودبّ دبيب الحياة فيها ، وأخذت بهذا الرصيد القليل من الحياة التي سرت فيها ــ أخذت تحاول جاهدة أن تصافح النور ، وأن تلتمس لها طريقا إليه ، من بين هذا الظلام المطبق عليها ، ثم سرعان ما يطلع لها لسان تتحسس به الطريق إلى النور ، وتتذوق به نسمة الحياة ، وإذ شىء أخضر صغير ، لا يكاد يرى ، يطلُّ على الحياة فى استحياء ثم لا يلبث أن يؤازره آخر مثله ، ثم ثالث ورابع ..

وهذا هو الشط ، وجمعه شطآن ..

وشيئا فشيئا تنمو هذه الشطآن ، وتعلو ، ويتخلّق لها ساق تقوم عليه ، وأوراق تكسو هذا الساق ، وفروع وأغصان ، وأزهار وثمار ، حتى يكون من ذلك نخلة باسقة ، أو دوحة عظيمة!.

وهكذا المسلمون ، بدءوا بذورا كهذه البذور التي طال حبسها عن الأرض ، حتى إذا امتدت إليها يد الزارع فغرسها فى الأرض ، وساق إليها الماء ، وتعهدها بالرعاية والري ، طالت ، وانداحت ، وأزهرت ، وأثمرت ، وملأت وجه الأرض المغبرّة ، حسنا ، وجمالا ، وخيرا ..

وشبه المسلمون بالزرع لأنهم كثير ، ولأن كل واحد منهم له ذاتيته إلى جانب هذه الشجيرات الكبيرة التي يضمها الحقل ..

وقوله تعالى : « لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ » ـــ هو إشارة إلى هذا الزرع الطيب ، الذي يملأ العين سرورا ورضا ، وهو فى الوقت نفسه يملأ قلوب الكافرين حسرة وحسدا ..

وقوله تعالى : « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً » إشارة إلى أن وصف المؤمنين لا يتم إلا بالعمل الصالح وأن الذين لهم المغفرة والأجر العظيم من اللّه ، هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا المؤمنون على إطلاقهم .. وهذا هو السرُّ فى قوله تعالى : « مِنْهُمْ » الذي يعزل الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، عن الذين آمنوا و لم يعملوا الصالحات .. فهؤلاء غير أولئك ..

« هُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بما يَعْمَلُونَ »[١٢٤]

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع. صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة ، حالاتها الظاهرة والمضمرة. فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم : «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم : «تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» .. ولقطة تصور قلوبهم وما يشغلها ويجيش بها : «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً» .. ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى اللّه في سمتهم وسحنتهم وسماتهم : «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. «ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ» .. وهذه

---

[١٢٤] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١٣ / ٤٢٩)

صفتهم فيها .. ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل .. «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» «فَآزَرَهُ» .. «فَاسْتَغْلَظَ» «فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ».
«يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ» .. : «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» ..
وتبدأ الآية بإثبات صفة محمد – ﷺ – صفته التي أنكرها سهيل بن عمرو ومن وراءه من المشركين : «مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ» .. ثم ترتسم تلك الصورة الوضيئة بذلك الأسلوب البديع.
والمؤمنون لهم حالات شتى. ولكن اللقطات تتناول الحالات الثابتة في حياتهم ، ونقط الارتكاز الأصيلة في هذه الحياة. وتبرزها وتصوغ منها الخطوط العريضة في الصور الوضيئة .. وإرادة التكريم واضحة في اختيار هذه اللقطات ، وتثبيت الملامح والسمات التي تصورها. التكريم الإلهي لهذه الجماعة السعيدة.
إرادة التكريم واضحة ، وهو يسجل لهم في اللقطة الأولى أنهم : «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ» ..
أشداء على الكفار وفيهم آباؤهم وإخوتهم وذوو قرابتهم وصحابتهم ، ولكنهم قطعوا هذه الوشائج جميعا. رحماء بينهم وهم فقط إخوة دين. فهي الشدة للّه والرحمة للّه. وهي الحمية للعقيدة ، والسماحة للعقيدة. فليس لهم في أنفسهم شي ء ، ولا لأنفسهم فيهم شيء. وهم يقيمون عواطفهم ومشاعرهم ، كما يقيمون سلوكهم وروابطهم على أساس عقيدتهم وحدها. يشتدون على أعدائهم فيها ، ويلينون لإخوتهم فيها. قد تجردوا من الأنانية ومن الهوى ، ومن الانفعال لغير اللّه ، والوشيجة التي تربطهم باللّه.
وإرادة التكريم واضحة وهو يختار من هيئاتهم وحالاتهم ، هيئة الركوع والسجود وحالة العبادة : «تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً» .. والتعبير يوحي كأنما هذه هيئتهم الدائمة التي يراها الرائي حيثما رآهم. ذلك أن هيئة الركوع والسجود تمثل حالة العبادة ، وهي الحالة الأصيلة لهم في حقيقة نفوسهم فعبر عنها تعبيرا يثبتها كذلك في زمانهم ، حتى لكأنهم يقضون زمانهم كله ركعا سجدا.

واللقطة الثالثة مثلها. ولكنها لقطة لبواطن نفوسهم وأعماق سرائرهم : «يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً» ..

فهذه هي صورة مشاعرهم الدائمة الثابتة. كل ما يشغل بالهم ، وكل ما تتطلع إليه أشواقهم ، هو فضل اللّه ورضوانه. ولا شيء وراء الفضل والرضوان يتطلعون إليه ويشتغلون به.

واللقطة الرابعة تثبت أثر العبادة الظاهرة والتطلع المضمر في ملامحهم ، ونضحها على سماتهم : «سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. سيماهم في وجوههم من الوضاءة والإشراق والصفاء والشفافية ، ومن ذبول العبادة الحي الوضيء اللطيف. وليست هذه السيما هي النكتة المعروفة في الوجه كما يتبادر إلى الذهن عند سماع قوله : «مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ» .. فالمقصود بأثر السجود هو أثر العبادة. واختار لفظ السجود لأنه يمثل حالة الخشوع والخضوع والعبودية للّه في أكمل صورها. فهو أثر هذا الخشوع. أثره في ملامح الوجه ، حيث تتوارى الخيلاء والكبرياء والفراهة. ويحل مكانها التواضع النبيل ، والشفافية الصافية ، والوضاءة الهادئة ، والذبول الخفيف الذي يزيد وجه المؤمن وضاءة وصباحة ونبلا.

وهذه الصورة الوضيئة التي تمثلها هذه اللقطات ليست مستحدثة. إنما هي ثابتة لهم في لوحة القدر ومن ثم فهي قديمة جاء ذكرها في التوراة : «ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ» ..
وصفتهم التي عرفهم اللّه بها في كتاب موسى ، وبشر الأرض بها قبل أن يجيئوا إليها.
«وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ» .. وصفتهم في بشارته بمحمد ومن معه ، أنهم : «كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ» .. فهو زرع نام قوي ، يخرج فرخه من قوته وخصوبته. ولكن هذا الفرخ لا يضعف العود بل يشده. «فَآزَرَهُ». أو أن العود آزر فرخه فشده. «فَاسْتَغْلَظَ» الزرع وضخمت ساقة وامتلأت. «فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ» لا معوجا ومحنيا.ولكن مستقيما قويا سويا ..

هذه صورته في ذاته. فأما وقعه في نفوس أهل الخبرة في الزرع ، العارفين بالنامي منه والذابل. المثمر منه والبائر. فهو وقع البهجة والإعجاب : «يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ». وفي قراءة

يعجب «الزارع» .. وهو رسول اللّه – ﷺ – صاحب هذا الزرع النامي القوي المخصب البهيج .. وأما وقعه في نفوس الكفار فعلى العكس. فهو وقع الغيظ والكمد : «لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ» .. وتعمد إغاظة الكفار يوحي بأن هذه الزرعة هي زرعة اللّه. أو زرعة رسوله ، وأنهم ستار للقدرة وأداة لإغاظة أعداء اللّه! وهذا المثل كذلك ليس مستحدثا ، فهو ثابت في صفحة القدر. ومن ثم ورد ذكره قبل أن يجيء محمد ومن معه إلى هذه الأرض. ثابت في الإنجيل في بشارته بمحمد ومن معه حين يجيئون.

وهكذا يثبت اللّه في كتابه الخالد صفة هذه الجماعة المختارة .. صحابة رسول اللّه ﷺ .. فتثبت في صلب الوجود كله ، وتتجاوب بها أرجاؤه ، وهو يتسمع إليها من بارئ الوجود. وتبقى نموذجا للأجيال ، تحاول أن تحققها ، لتحقق معنى الإيمان في أعلى الدرجات.

وفوق هذا التكريم كله ، وعد اللّه بالمغفرة والأجر العظيم : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً» .. وهو وعد يجيء في هذه الصيغة العامة بعد ما تقدم من صفتهم ، التي تجعلهم أول الداخلين في هذه الصيغة العامة.

مغفرة وأجر عظيم .. وذلك التكريم وحده حسبهم. وذلك الرضى وحده أجر عظيم. ولكنه الفيض الإلهي بلا حدود ولا قيود ، والعطاء الإلهي عطاء غير مجذوذ.

ومرة أخرى أحاول من وراء أربعة عشر قرنا أن أستشرف وجوه هؤلاء الرجال السعداء وقلوبهم. وهم يتلقون هذا الفيض الإلهي من الرضى والتكريم والوعد العظيم. وهم يرون أنفسهم هكذا في اعتبار اللّه ، وفي ميزان اللّه ، وفي كتاب اللّه. وأنظر إليهم وهم عائدون من الحديبية ، وقد نزلت هذه السورة ، وقد قرئت عليهم.

وهم يعيشون فيها بأرواحهم وقلوبهم ومشاعرهم وسماتهم. وينظر بعضهم في وجوه بعض فيرى أثر النعمة التي يحسها هو في كيانه.

وأحاول أن أعيش معهم لحظات في هذا المهرجان العلوي الذي عاشوا فيه .. ولكن أنى لبشر لم يحضر هذا المهرجان أن يتذوقه. إلا من بعيد؟! اللهم إلا من يكرمه اللّه إكرامهم : فيقرب له البعيد؟! فاللهم إنك تعلم أنني أتطلع لهذا الزاد الفريد!!![١٢٥]

فقوله تعالى:﴿ والذين معه ﴾ أي من الصحابة.

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (٧٢) سورة الأنفال

لقد انخلع كل من قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه في مكة من الولاء لأسرته ، والولاء لعشيرته ، والولاء لقبيلته ، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة في قريش وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول اللّه – ﷺ – وللتجمع الصغير الناشئ الذي قام بقيادته. في حين وقف المجتمع الجاهلي يدفع عن وجوده الذاتي خطر هذا التجمع الجديد – الخارج عليه حتى قبل اللقاء في المعركة الحربية – ويحاول سحق هذا التجمع الوليد في نشأته.

عندئذ آخى رسول اللّه – ﷺ – بين أعضاء هذا التجمع الوليد .. أي أنه حول هؤلاء «الأفراد» الآتين من المجتمع الجاهلي أفرادا ، إلى «مجتمع» متكافل ، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية ، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق.

ثم لما فتح اللّه للمسلمين دار الهجرة في المدينة بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق ، والسمع والطاعة في المنشط والمكره ، وحماية رسول اللّه – ﷺ – مما يحمون منه أموالهم وأولادهم ونساءهم وقامت الدولة المسلمة في المدينة بقيادة رسول اللّه – ﷺ – عاد رسول اللّه فآخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي تقوم مقام رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها. بما في ذلك الإرث والديات

---

[١٢٥] - في ظلال القرآن ــــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٣٣١)

والتعويضات التي تقوم بها رابطة الدم في الأسرة والعشيرة .. وكان حكم اللّه تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» ..أولياء في النصرة ، وأولياء في الإرث ، وأولياء في الديات والتعويضات وسائر ما يترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات.

ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا .. لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة اللّه وتدبر أمرها القيادة المسلمة و لم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة اللّه ويحقق فيها وجوده الكامل بعد ما تحقق له وجوده في مكة نسبيا ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع في تجمع عضوي حركي ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز.

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة ، أو في الأعراب حول المدينة. يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه ..

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم و لم يجعل اللّه لهم ولاية – بكل أنواع الولاية – مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي. وفي هؤلاء نزل هذا الحكم : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهاجِرُوا ما لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا. وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ، إِلَّا عَلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثاقٌ» ..

وهذا الحكم منطقي ومفهوم مع طبيعة هذا الدين – التي أسلفنا – ومع منهجه الحركي الواقعي. فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية .. ولكن هناك رابطة العقيدة وهذه لا ترتب – وحدها – على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد اللهم إلا أن يعتدى عليهم في دينهم فيفتنوا مثلا عن عقيدتهم. فإذا استنصروا المسلمين – في دار الإسلام – في مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها. على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر. ولو كان هذا المعسكر هو المعتدي على أولئك الأفراد في دينهم وعقيدتهم! ذلك أن الأصل هو مصلحة

المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود. فهذه لها الرعاية أولا ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل في التجمع الإسلامي .... وهذا يعطينا مدى الأهمية التي يعلقها هذا الدين على التنظيم الحركي الذي يمثل وجوده الحقيقي ..

والتعقيب على هذا الحكم : «وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..

فكل عملكم تحت بصره – سبحانه – يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره.

وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوي حركي متناسق متكافل متعاون يتجمع في ولاء واحد ، فكذلك المجتمع الجاهلي : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ» ..

إن الأمور بطبيعتها كذلك – كما أسلفنا. إن المجتمع الجاهلي لا يتحرك كأفراد إنما يتحرك ككائن عضوي ، تندفع أعضاؤه ، بطبيعة وجوده وتكوينه ، للدفاع الذاتي عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكما .. ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا في صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى. فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلي – لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلي المتكافل أفرادا – وتقع الفتنة في الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده. ويقع الفساد في الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام وطغيان ألوهية العباد على ألوهية اللّه ووقوع الناس عبيدا للعباد مرة أخرى. وهو أفسد الفساد : «إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسادٌ كَبِيرٌ» ..

ولا يكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعد هذا التحذير تحذير .. والمسلمون الذين لا يقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوي الحركي ذي الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام اللّه – فوق ما يتحملون في حياتهم ذاتها – تبعة تلك الفتنة في الأرض ، وتبعة هذا الفساد الكبير.

ثم يعود السياق القرآني ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل في هذه الصورة : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ» ..

أولئك هم المؤمنون حقا .. فهذه هي الصورة الحقيقية التي يتمثل فيها الإيمان .. هذه هي صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقي لهذا الدين .. إنه لا يوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ولا بمجرد اعتناقها ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها .. إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل في وجود فعلي ، إلا إذا تمثل في تجمع حركي .. أما وجوده في صورة عقيدة فهو وجود حكمي ، لا يصبح (حقا) إلا حين يتمثل في تلك الصورة الحركية الواقعية ..

وهؤلاء المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم .. والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله .. وفوقه المغفرة وهي من الرزق الكريم. بل هي أكرم الرزق الكريم.

ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين ، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد - وإن كانت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى - إنما هذا إلحاق في الولاء والعضوية في المجتمع الإسلامي : «وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وَجاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولئِكَ مِنْكُمْ» ..ولقد ظل شرط الهجرة قائما حتى فتح مكة حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته ، وانتظم الناس في مجتمعه. فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل. كما قال رسول اللّه - ﷺ - غير أن ذلك إنما كان في جولة الإسلام الأولى التي حكم فيها الأرض ألفا ومائتي عام تقريبا لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة اللّه وسلطانه .. فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية وارتفع حكم اللّه - سبحانه - عن حياة الناس في الأرض ، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت في الأرض كلها ، ودخل الناس في عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها .. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام - كالجولة الأولى - تأخذ - في التنظيم - كل أحكامها المرحلية ، حتى

تنتهي إلى إقامة دار إسلام وهجرة ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى - بإذن اللّه - فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل كما حدث في الجولة الأولى ..[١٢٦]

وقال تعالى:﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾التوبة:١١٧.

وقال:﴿ لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾الحديد:١٠.

وقال تعالى:﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون . وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْأِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْأِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ الحشر:١٠.

وقال:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً ﴾ الفتح:١٨.

والذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة يوم الحديبية يزيد عددهم عن ألف وأربعمائة صحابي.

وفي السنة، فقد صح عَنْ جَابِرٍ ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : " لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ مِمَّنْ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ"[١٢٧] .

وعَنْ حَفْصَةَ، قَالَتْ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :إِنِّي لأَرْجُو أَنْ لا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَالْحُدَيْبِيَةَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا

---

[١٢٦] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٥٥٨)

[١٢٧] - سُنَنُ أَبِي دَاوُدَ (٤٠٩٧) صحيح

مَقْضِيًّا"[مريم آية ٧١] ، قَالَ:أَفَلَمْ تَسْمَعِيهِ، يَقُولُ: "ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا"[مريم آية ٧٢] ؟[١٢٨]..

وعَنْ حَفْصَةَ ، قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : " إِنِّي لَأَرْجُو أَلَّا يَدْخُلَ النَّارَ أَحَدٌ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا ، وَالْحُدَيْبِيَةَ " ، قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ : وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ، قَالَ : " أَلَمْ تَسْمَعِيهِ يَقُولُ : ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا " [١٢٩]

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ قَالَ كَانَ بَيْنَ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ وَبَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ شَىْءٌ فَسَبَّهُ خَالِدٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ تَسُبُّوا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِى فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَوْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ ».[١٣٠] .

فإذا كان النبيُّ ﷺ ينهى خالداً ـــ وهو صحابي جليل؛ لكن تأخرت صحبته إلى ما بعد صلح الحديبية ـــ أن يسبَّ عبد الرحمن بن عوف الذي أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل في سبيل الله، فهو بذلك أعظم منه درجة، وأولى منه بحق الصحبة .. فكيف إذاً بمن ليس من الصحابة ولا من التابعين[١٣١] ؟!

لا شك أنه أولى له .. ثم أولى له بأن يمسك عن الخوض أو الطعن بأصحاب النبي ﷺ .

---

[١٢٨] - المعجم الكبير للطبراني - (١٧ / ٤٣) (١٨٨٨٣) صحيح

[١٢٩] - سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ (٤٣١٦) صحيح

[١٣٠] - صحيح مسلم- المكنز - (٦٦٥٢)-النَّصيف : النصف

[١٣١] كما يفعل الشيعة الروافض عليهم من الله ما يستحقون، حيث أن دينهم يقوم على أساس بغض الصحابة وشتمهم والطعن بهم!

وفي صحيح مسلم، عن النبي ﷺ أنه قال في الأنصار:" لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، من أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله ". وفي رواية:" لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر".

قلت: إذا كان الإيمان ينتفي عن رجل يبغض الأنصار، فكيف بمن يبغض الأنصار والمهاجرين والتابعين لهم بإحسان ويشتمهم ويلعنهم ويكفرهم، ويكفر من يواليهم ويترضى عليهم .. كما تفعل الرافضة الإثني عشرية؛ طائفة الشقاق والنفاق ..؟! لاشك أنهم أولى بالكفر والنفاق، وانتفاء الإيمان.

وفي الحديث الذي يرويه ابن عباس مرفوعاً:" من سبَّ أصحابي، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ". [السلسلة الصحيحة: ٢٣٤٠].

وعن يَحْيَى بْنُحُصَيْنٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ طَارِقًا يَعْنِي ابْنَ شِهَابٍ قَالَ : كَانَ بَيْنَ سَعْدٍ وَخَالِدٍ كَلَامٌ فَذَهَبَ رَجُلٌ يَقَعُ فِي خَالِدٍ عَنْدَ سَعْدٍ ، فَقَالَ : " " مَهْ ، إِنَّ مَا بَيْنَنَا لَمْ يَبْلُغْ دِينَنَا " " وَلِهَذَا قَالَ ﷺ : " " إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا " " ، لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِالْإِمْسَاكِ عَنْ ذِكْرِ مَحَاسِنِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ ، إِنَّمَا أُمِرُوا بِالْإِمْسَاكِ عَنْ ذِكْرِ أَفْعَالِهِمْ ، وَمَا يَفْرُطُ مِنْهُمْ فِي ثَوْرَةِ الْغَضَبِ وَعَارِضِ الْمَوْجِدَةِ[١٣٢]

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ : " إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا ، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ "[١٣٣]. أي أمسكوا عن الخوض فيهم بسوء ولا تسترسلوا في الكلام عنهم بطريقة لا تليق بفضلهم ومكانتهم العظيمة.

وعَنْ نُسَيْرِ بْنِ ذُعْلُوقٍ قَالَ كَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ –ﷺ – فَلَمَقَامُ أَحَدِهِمْ سَاعَةً خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ عُمْرَهُ.[١٣٤]

وعَنْ أَبِي عَبَّاسٍ ، قَالَ : " لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَمَرَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَيَقْتَتِلُونَ " "[١٣٥] . وفي رواية :" خيرٌ من عبادة أحدكم عمُرَه ".

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ ، خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ ، فَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ "[١٣٦]

---

[١٣٢] – تَثْبِيتُ الْإِمَامَةِ وَتَرْتِيبُ الْخِلَافَةِ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْأَصْبَهَانِي(١٦٢) صحيح

[١٣٣] = المعجم الكبير للطبراني – (٢ / ١١٦) (١٤١١ و ١٠٢٩٦) صحيح

[١٣٤] – سنن ابن ماجه– المكتر – (١٦٧) حسن

[١٣٥] – شَرْحُ أُصُولِ الاعْتِقَادِ(١٩٠٢) صحيح

قلت: كلام ابن عباس ﷺ موجه للمسلمين في زمانه، لمن ليس لهم حظ صحبة مع النبي ﷺ. وإذا كان هـذا شـأن التابعين قياساً للصحابة، فكيف بمن جاء بعدهم من المتأخرين، وبخاصة في زماننا هذا..؟!

[١٣٦] – الشَّرِيعَةُ لِلْآجُرِّيِّ (١١٢٨) صحيح

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ ، وَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِهِ ، فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ بَعْدَ قَلْبِهِ ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ ، وَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ " [١٣٧]

وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ " وَفِي رِوَايَةٍ فِي قُلُوبِ النَّاسِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ النَّاسِ فَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ فَاخْتَارَ مُحَمَّدًا ﷺ بِرِسَالَتِهِ وَانْتَخَبَهُ بِعِلْمِهِ ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ بَعْدَهُ فَاخْتَارَ لَهُ أَصْحَابَهُ فَجَعَلَهُمْ أَنْصَارَ دِينِهِ وَوُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ فَمَا رَآهُ الْمُؤْمِنُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ وَمَا رَأَوْهُ قَبِيحًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ قَبِيحٌ "[١٣٨]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِىَ عَلَيْهَا خَيْرٌ فَقَالَ نَبِىُّ اللَّهِ -ﷺ- « وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ ». وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِىَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقَالَ نَبِىُّ اللَّهِ -ﷺ- « وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ ». قَالَ عُمَرُ فِدًى لَكَ أَبِى وَأُمِّى مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِىَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ. وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِىَ عَلَيْهَا شَرٌّ فَقُلْتَ وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِى الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِى الأَرْضِ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِى الأَرْضِ ».[١٣٩]

وكون اتباع الكتاب والسنَّة ـــ من دون تعصب لما يخالفهما من أقوال الرجال والمذاهب ـــ هو من أبرز ما يميز الطائفة المنصورة، فإن ذلك يظهر من وجهين:

الوجه الأول: يمكنُ في وصف النبي ﷺ لهم بذلك، فهم " يقاتلون على أمر الله " و" وظاهرين على الحق " والدين قائم بهم يقاتلون الناس عليه، وهم " يقاتلون على الحق " و " قائمة بأمر الله " وغير ذلك من الصفات التي تجمع على أنهم على الدِّين الصحيح الذي

---

[١٣٧] - أَمَالِي ابْنِ مَرْدَوَيْهِ(١٨) صحيح

[١٣٨] - الْمَدْخَلُ إِلَى السُّنَنِ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ(٢٧) صحيح

[١٣٩] - صحيح مسلم- المكنز - (٢٢٤٣)

يرضي الله ورسوله؛ وهو الدِّين الذي جاء في الكتاب والسنَّة وما فهمه منهما علماء هذه الأمة الأبرار الأطهار .. مع مراعاة فهم السلف الصالح لنصوص الوحي كما تقدم.

أمَّا الوجه الثاني: فإنه يكمنُ في أن مخالفة الكتاب والسنَّة عمدا يعتبرُ من أكبر الكبائر، ولربما يؤدي بصاحبه إلى الكفر والخروج من دائرة الإسلام [١٤٠]، وهذا أمر أبعد ما تكون عنه الطائفة المنصورة، فحاشاهم أن يقعوا في ذلك عن علمٍ وقصد، ولو وقعوا في شيء من المخالفة .. فهذه المخالفة لا تتحولُ إلى منهج يتبعونه، ويدعون إليه .. فهم اكتسبوا صفة نصر الله لهم لقيامهم على أمر الله ونصرة دينه، فإذا انتفى عنهم ذلك كان لزاماً أن ينتفي عنهم نصرُ الله وكذلك مسمَّى الطائفة الظاهرة المنصورة.

كما قال تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ} (٧) سورة محمد ٧.

هو التفات من اللّه سبحانه وتعالى إلى المؤمنين ، ودعوة منه جل شأنه إلى أن يكونوا جميعا فى هذه المترلة التي أعدها للمجاهدين فى سبيله ..فالمؤمنون الذين يقاتلون فى سبيل اللّه إنما ينصرون اللّه .. فهم جند اللّه ، الذين يحاربون من حارب اللّه ..ونصر المؤمنين للّه ، إنما

---

[١٤٠] مخالفة الكتاب والسنة: منه ما يكون عن اجتهادٍ وغير قصدٍ، وهذا صاحبه يؤجر إن كان من ذوي الاجتهاد، كما في " الصحيحين عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ « إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ »صحيح البخارى- المكتز – ٩/١٣٣ (٧٣٥٢) وصحيح مسلم- المكتز – (٤٥٨٤) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ وَإِذَا حَكَمَ ، فَاجْتَهَدَ ، فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ. صحيح ابن حبان – (١١ / ٤٤٦) (٥٠٦٠) صحيح

ومنه ما يكون معصيةً دون الكفر: وذلك عندما يقعُ المرءُ في المخالفة ــ في غير مسائل الشرك الأكبر ــ عن ضعف ونزوة من غير استحلال، ولا تحسين .. ومع اعترافه في الوقوع في الخطأ والتقصير، ولا يُشترط الاستحلال أو التحسين، أو الاعترافُ بالخطأ عند وقوعه في الشرك الأكبر، أو الكفر البواح؛ إذِ الكفرُ يكون كفراً لذاته سواءٌ ضُمّ إليه الاستحلالُ القلبيُّ أم لم يُضمَّ.

ومنه ما يكون كفراً مخرجاً من الملَّة: وهو الذي يقعُ في المخالفة عن علمٍ وقصدٍ مستحِلًّا لمخالفته، أو مزيناً لها راضياً بها، وكذلك إذا كانت مخالفتُه ناتجةٌ عن جحودٍ للمشروع أو عن إعراضٍ وكِبرٍ وعنادٍ، أو عن استهزاءٍ واستخفاف بأمر الله وأمر رسوله، أو عن كره وبغض لشرع الله ﷻ، فكل هذه الأوجه إذا وقعت المخالفة بسببها أو بسببٍ واحدٍ منها، فإنَّ صاحبَها يكفرُ ويخرج من دائرة الإسلام إنْ كان قبلها من المسلمين، انظر " قواعد التكفير " لأبي بصير.

هو بنصر دينه ، وإقامة شريعته ، ودفع الضلال والشرك والإثم ، وكل ما يعترضُ سبيل اللّه ، ويخالف ما أمر به ..وفى إسناد نصر اللّه إلى المؤمنين تكريمٌ لهم ، ورفع لقدرهم ، وإنزالهم منزلة المعين للّه ، المؤيّد له ، واللّه سبحانه غني عن كل معين ومؤيد .. إذ كل شيء فى هذا الوجود هو منه ، وله .. لا يملك أحد شيئا .. فكيف يطلب النصر من خلقه الذين لا يقوم وجودهم لحظة واحدة إلا بحفظه ، ورعايته ؟ إن ذلك ــ كما قلنا ــ هو تكريمٌ للمؤمنين ، وإحسانٌ من اللّه إليهم. كما فى قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ».

. فاللّه سبحانه هو المعطي لكل ما في أيدي الناس .. ثم هو سبحانه ــ فضلا وإحسانا منه ــ يدعوهم إلى أن يقرضوه مما أعطاهم!!.

وفى قوله تعالى : « يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ » ــ إشارة إلى أن نصر المؤمنين للّه ، ليس نصرا على حقيقته ، وإنما هو مظهر من مظاهر الطاعة والولاء للّه ..وإلا فإن النصر الحقيقيَّ هو الذي يمنحه اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين ، ويمدهم بالأسباب الممكنة لهم منه .. فهو سبحانه الذي ينصرهم على عدوهم ، ويثبت أقدامهم فى مواقع القتال على حين يملأ قلوب الذين كفروا رعبا وفزعا ..« وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١٠ : الأنفال) .. ومع أن هذا النصر من عند اللّه ، فإنه محسوب للمؤمنين ، يلقون عليه أحسن الجزاء فى جنات النعيم."[١٤١]

وكيف ينصر المؤمنون اللّه ، حتى يقوموا بالشرط وينالوا ما شرط لهم من النصر والتثبيت؟ إن للّه في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون اللّه أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحبُّ وتهوى ، وأن تحكِّمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرِّها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها .. فهذا نصرُ اللّه في ذوات النفوس.

[١٤١] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١٣ / ٣١٩)

وإن للّه شريعةً ومنهاجاً للحياة ، تقوم على قواعدَ وموازينض وقيمَ وتصورٍ خاصٍّ للوجود كله وللحياة. ونصر اللّه يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصرُ اللّه في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى : «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .. وقوله : «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ» ..وفى كلتا الحالتين. حالة القتل. وحالة النصرة. يشترط أن يكون هذا للّه وفي سبيل اللّه. وهي لفتة بديهية ، ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عند ما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال. وعند ما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم.

إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل اللّه وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدفُ هو أن تكون كلمة اللّه هي العليا. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد دونه من يستشهد ، فيحقُّ له وعد اللّه بالجنة. إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف. من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على ضيعة العقيدة.

لا جهاد إلا لتكون كلمة اللّه هي العليا. العليا في النفس والضمير. والعليا في الخلق والسلوك. والعليا في الأوضاع والنظم. والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة. وما عدا هذا فليس للّه. ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد. وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند اللّه ولا تثبيت للأقدام. وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف.

وإنْ عزَّ على غير أصحاب الدعوة للّه أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى اللّه أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط اللّه ..

وبعد فهذا شرط اللّه على الذين آمنوا. فأما شرطه لهم فهو النصر وتثبيت الأقدام. وعد اللّه لا يخلفه. فإذا تخلف فترة فهو أجلٌ مقدَّر لحكمة أخرى تتحققُ مع تحقق النصر والتثبيت ذلك حين يصحُّ أن المؤمنين وفَّوا بالشرط ثم تخلف عنهم – فترة – نصرُ اللّه : ثم نقف لحظة أمام لفتة خاصة في التعبير : «يَنْصُرْكُمْ. وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ» ..

إن الظن يذهب لأول وهلة أن تثبيت الأقدام يسبق النصر ، ويكون سببا فيه. وهذا صحيح. ولكن تأخير ذكره في العبارة يوحي بأن المقصود معنى آخر من معاني التثبيت. معنى التثبيت على النصر وتكاليفه. فالنصر ليس نهاية المعركة بين الكفر والإيمان ، وبين الحق والضلال. فللنصر تكاليفه في ذات النفس وفي واقع الحياة.

للنصر تكاليفه في عدم الزهو به والبطر. وفي عدم التراخي بعده والتهاون. وكثير من النفوس يثبت على المحنة والبلاء. ولكن القليل هو الذي يثبت على النصر والنعماء. وصلاح القلوب وثباتها على الحق بعد النصر منزلة أخرى وراء النصر. ولعل هذا هو ما تشير إليه عبارة القرآن. والعلم للّه.

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ» ..وذلك عكس النصر وتثبيت الأقدام. فالدعاء بالتعس قضاء من اللّه سبحانه بالتعاسة والخيبة والخذلان وإضلال الأعمال ضياع بعد ذلك وفناء ..

«ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ» ..وهو تصوير لما يعتمل في قلوبهم ويختلج في نفوسهم من الكراهية لما أنزل اللّه من قرآن وشريعة ومنهج واتجاه.

وهذا هو الذي يدفعُ بهم إلى الكفر والعناد والخصومة والملاحاة. وهي حالة كثير من النفوس الفاسدة التي تكره بطبعها ذلك النهج السليم القويم ، وتصادمه من داخلها ، بحكم مغايرة طبيعتها لطبيعته. وهي نفوس يلتقي بها الإنسان كثيرا في كل زمان وفي كل مكان ،

ويحسُّ منها النفرة والكراهية لهذا الدين وما يتصل به حتى إنها لتفزع من مجرد ذكره كما لو كانت قد لذعتها العقارب!

وتتجنب أن يجيء ذكره أو الإشارة إليه فيما تسمع حولها من حديث! ولعلنا نشاهد في هذه الأيام حالة من هذا الطراز لا تخفى على الملاحظة!

وكان جزاء هذه الكراهية لما أنزل اللّه ، أن أحبط اللّه أعمالهم. وإحباط الأعمال تعبيرٌ تصويريٌّ على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير. فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند أكلها نوعا من المرعى سام.ينتهي بها إلى الموت والهلاك. وكذلك انتفخت أعمالهم وورمت وانبعجت .. ثم انتهت إلى الهلاك والضياع!

إنها صورة وحركة ، ونهاية مطابقة لحال من كرهوا ما أنزل اللّه ثم تعاجبوا بالأعمال الضخام. المنتفخة كبطون الأنعام ، حين ترعى من ذلك النبت السام![142]

ومفهوم الآية: أي إن لم تنصروا الله ــــ بالتزام دينه وأوامره ــــ لا ينصركم، وهو في الحديث الصحيح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- يَوْمًا فَقَالَ « يَا غُلاَمُ إِنِّى أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَىْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَىْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ »[143] .

أي إذا لم تحفظ الله تعالى في حدوده بحيث تأتمر بما أمر وتنتهي عما نهى وزجر، لا يحفظك الله مما لا ترغب أن يترلَ بساحتك من خطوب ومصائب، وفتن.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ النساء:٥٩ .

قال الخطيب :

---

[142] - فى ظلال القرآن ــــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٢٨٨)

[143] - سنن الترمذى- المكنز - (٢٧٠٦) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

" فالانقياد للّه هو المظهر العمليّ الواضح لأداء هذه الأمانة ، وغير هذا الانقياد هو التضييع للأمانة ، والعدوان عليها ..

والانقياد للّه يتبعه الانقياد لرسول اللّه ﷺ .. إذ كان هو السفير بين اللّه وبين عباده ، وهو الحامل لكلمة اللّه إليهم ، والمؤذّن بها فيهم .. فلا انقياد للّه لمن لا ينقاد لرسول اللّه ﷺ ..

وأولو الأمر .. هم من يلون أمر الإنسان ، ويقومون على رعاية مصالحه ، من آباء ، وقادة ، وحكام .. وغيرهم ، ممن لهم على الإنسان

سلطان أدبى أو مادىّ.

والانقياد لأولي الأمر ليس انقيادا مطلقا ، بل هو انقياد محكوم بحدود العدل ، والخير ، والإحسان ..

ولهذا كانت طاعة الوالدين ـــ وهما فى المقام الأول من أولي الأمر ـــ قائمة على سنن المعروف ، فإن دعوا إلى منكر ، فلا طاعة لهما ، وفى

هذا يقول اللّه تعالى : « وَإِنْ جاهَداكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً » (١٥ : لقمان).

فالولاية إذا لم تكن ولاية راشدة حكيمة ، مستقيمة مع العدل والإحسان كان لمن تحت ولايتها أن يراجعوها ، وأن ينصحوا لها ، وأن يعملوا على تبصرها بالطريق القويم ، الذي فيه خير الجماعة كلها ..

فإن كان خلاف بين أولي الأمر ، وبين مَن في ولايتهم ، و لم يلتقوا عنده على كلمة سواء .. كان الحكم بينهم فى هذا ، كتاب اللّه وسنّة رسول اللّه ﷺ ، فذلك هو الميزان العدل ، الذي توزن به الأمور ، وما يقضَى به هنا كان هو الحق والخير ، وكان التزامه أمرا واجبا .. من أباه ، وخرج عليه ، كان متعديّا حدود اللّه ، آثما ظالما .. تجرى عليه أحكام الآثمين الظالمين ..

وفى قوله تعالى : « فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ » ما يشير إلى احتمالات النزاع المتوقعة بين أولي الأمر ومن في ولايتهم ، وأن ذلك أمر غير مستبعد ، بين الناس والناس.

فإذا وقع نزاع فى أمر ما ، كان ردّه إلى حكم اللّه ورسوله أمراً واجباً على المؤمنين ، وكان اللّه سبحانه وتعالى هو وليّهم جميعا ، وكانت شريعته لهم ، هي الدستور الواجب اتباعه ، والاحتكام إليه فيما يقع بينهم من خلاف ..

فمن كان مؤمنا باللّه واليوم الآخر ، استقام على شرع اللّه ، ووقف عند حدوده ، وخضع لحكمه.

وفى قوله تعالى : « ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا » إشارة إلى أن الرجوع عند الخلاف إلى ما قضَى به كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ ، هو الطريقُ المأمون ، الذي يسلِّمُ المختلفين إلى يد الوفاق والسلام ، حيث كان احتكامهم إلى أحكم الحاكمين ، الذي يحكم بين عباده بالحق ، فلا ميل مع هوى ، ولا محاباة لكبير أو عظيم ، لأن الخلق خلقُه ، والناسَ عبيدُه ، لا تفاضل بينهم عنده إلا بالتقوى! "[١٤٤]

وقال دروزة :

" والجمهور متفقون على أن طاعة اللّه تتمثل في طاعة القرآن والتزام ما فيه من حدود وأحكام ومبادئ وأوامر ونواه. وأن طاعة الرسول ﷺ تتمثل في السير وفق أوامره ونواهيه وتعليماته وإرشاداته في حياته ووفق سننه القولية والفعلية بعد مماته.

وينطوي في الآية في الوقت نفسه تقريرُ كون القرآن والسنَّة هما المرجعان الرئيسيان اللذان يجب الرجوع إليهما في كل نزاع بين المسلمين والوقوف عند ما فيهما من حدود ورسوم. وهذا الواجبُ يترتب على المسلمين وعلى أولي الأمر منهم. وسواء أكان النزاع فيما بين المسلمين أو فيما بينهم وبين أولي الأمر منهم.

ويتبادر لنا أن جملة فَإِنْ تَنازَعْتُمْ تعني أيضا الاختلاف في الاجتهاد والمواقف جدلاً نظريًّا أو مواقفَ فعلية.

---

[١٤٤] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ٨٢١)

ويلفتُ النظر بخاصة إلى نقطة هامة. وهي أمر الآية بردِّ الأمور المتنازع فيها إلى اللّه ورسوله حصرا. حيث ينطوي في هذا أنه ليس للمسلمين أن يردُّوا ذلك إلى أولي الأمر الذين أمرت الآية بطاعتهم بالإضافة إلى اللّه ورسوله. بل يكون كتاب اللّه وسنة رسوله هما الحكَم في ذلك وأنه ليس لأولي الأمر أن يصدروا في ذلك أوامر غير ما ورد في كتاب اللّه وسنّة رسوله ﷺ ،وأن يحملوا المسلمين على طاعتهم فيما يصدرون.
على أن هناك ما يمكن قوله ففي القرآن والسنّة تشريعاتٌ وأوامرُ ونواهٍ محددةٌ كما فيهما مبادئُ وتلقيناتٌ وتوجيهاتٌ وخطوطٌ عامَّةٌ. وهذه بخاصة شاملةٌ واسعةٌ بحيث يسوغُ القول إنَّ من الممكن على ضوئها حلَّ كلِّ نزاع أو مشكلة أو مسألة ليس فيها تحديدٌ صريح وقطعيٌّ في كتاب اللّه وسنّة رسوله. وهذا من أسرار ترشُّح الشريعة الإسلامية للخلود والشمول فيما يتبادر لنا.

ومرجعية كتاب اللّه وسنّة رسوله تصدُق على هذه كما تصدق على تلك بطبيعة الحال.
والأمورُ المحددةُ القطعيةُ في كتاب اللّه وسنّة رسوله تظلُّ محكمةً لا يجوزُ فيها اجتهادٌ ولا تحويرٌ ولا تبديلٌ. أمَّا عدا ذلك فيصحُّ أن يجتهد في حله في نطاق المبادئ والتلقينات والتوجيهات والخطوط العامة في كتاب اللّه وسنّة رسوله التي ذكرنا شمولها وسعتها. وفي هذه السورة هذه الآية {وَإِذا جاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ... [٨٣] }التي يمكن على ما يتبادر لنا أن يقال على ضوئها إنَّ حلَّ الأمور المتنازع فيها والتي يحتاجُ حلّها إلى اجتهاد لعدم ورودها محددة وقطعية في كتاب اللّه وسنّة رسوله يناطُ بأولي الأمر من المسلمين وأهل الحَلِّ والعَقدِ والعلمِ منهم الذين يؤهلُهم علمهم وعقلهم وتجربتهم وممارستهم لاستنباط الأحكام من مآخذها. واستلهامُ تلك المبادئ والتوجيهات والتلقينات والخطوط العامة في كتاب اللّه وسنة رسوله. وقد يصحُّ أن نذكر جملة { وَشاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ } في الآية [١٥٩] من سورة آل عمران وجملة { وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ} في الآية [٣٨] من سورة الشورى في هذا السياق. وهذا شاملٌ لكل ظرفٍ ومكانٍ وشأنٍ كما هو المتبادر.

ونبّه في هذه المناسبة على أنَّ لعلماء الأصولِ في العصور الإسلامية الأولى تقريراتٍ في الخطة التي ينبغي أن يسار عليها في حلٍّ ما ليس فيه في القرآن والسنَّة شيءٌ صريحٌ ومحددٌ يقومث على أساس حلٍّ ذلك وفقا لإجماع علماء المسلمين.

وما لا يكونُ وما لا يمكنُ أن يكون فيه إجماعٌ يُسارُ فيه على مقتضى القياس على أمثالٍ جرت في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين. وما لا يكونُ فيه أمثالٌ يسارُ فيه على الاستحسانِ أو الاستصلاح حسب الترتيب. مع واجبِ التنبيه على أن هذه التقريرات ليستْ مُجمعا عليها، حيث اختلف الأصوليون في إمكانية وواقعية الإجماع وحجيته. وفي الاعتماد على القياس وتعيين مداه أو التوسع فيه. وفي الاستحسان والاستصلاح وظروفهما ومبرراتهما. وهناك من قال بإمكانية وواقعية حجية إجماع صدر الإسلام أو أصحاب رسول اللّه ﷺ فقط ؛ لأن مجتهدي هذا العهد وعلماءَه قليلون والرقعةَ غيرُ منبسطة في حين أن المسلمين تفرقوا في أبعاد شاسعة.وصارت واقعيةُ الإجماع وإمكانيته متعذرتين.

وهذا الخلافُ من جهةٍ ،وما هناك من خلافاتٍ اجتهاديةٍ فما ليس فيه نصّ محددٌ وقطعيٌّ ورتبِ الأحاديثِ والأخذ بالاستحسان والقياس والمصالح وعدمه من جهة أخرى من أسباب تعدد المذاهب الفقهية في ذلك.

وهناك خلافٌ بين العلماء المتأخرين في وجوب الوقوف عند أقوال واجتهادات أئمة الفقه المشهورين، وفي جواز الاجتهاد لمن يؤهله علمه وخبرته وممارسته وعقله لاستنباط الأحكام من مآخذها فيما ليس فيه نصّ صريح أو محدد من قرآن وسنة. ونحن مع الجواز. ففضل اللّه لا يجوز حصره وتحريمه على أحد ولا زمن ولا جيل. وكتاب اللّه وسنن رسوله ﷺ موجهة للمؤمنين في كل ظرف ومكان. وفي كتاب اللّه آيات كثيرة تهتف بالمؤمنين إطلاقا ليتدبروا كتاب اللّه ويتفكروا فيه ويعقلوه مع واجب القول إنَّ أقوالَ واجتهاداتِ أئمةِ الفقهِ وعلمائه في القرون الإسلامية الأولى كنوزٌ ثمينةٌ يجبُ أن تكون ملهماتٍ ومآخذَ لمن يتصدون للاجتهاد والنظر من المتأخرين.

وبديهيٌّ أن الأمر الذي تتضمنه الآية من جهة والإيمان باللّه ورسوله من جهة أخرى موجباتٌ لإطاعة اللّه ورسوله وما يمثلهما من القرآن والسُّنن بدون قيد وشرط.

أمَّا أولو الأمر فقد رويت أحاديث عديدة تفيدُ أن طاعتهم منوطةٌ بما فيه مصلحة المسلمين وما لا يتناقضُ مع ما في كتاب اللّه وسنن رسوله ﷺ من أوامر ونواه وحدود، وأنه لا طاعة لهم في معصية ،ولا فيما ليس فيه مصلحة للمسلمين، ولا فيما يتناقض مع القرآن والسنّة.[١٤٥]

وفي الظلال :

" إن القرآن وهو ينشىء هذه الأمة من حيث لم تكن وينشئها لتصبح أمة فريدة في تاريخ البشر : «خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» .. ويجب أن نؤكد هذه الحقيقة ونوضحها قبل المضي في الحديث : حقيقة إنشاء القرآن لهذه الأمة وتنشئتها معا .. فقد كانت – على التحقيق – إنشاء وتنشئة ، كانت ميلادا جديدا للأمة بل ميلادا جديدا «للإنسان» في صورة جديدة!

ولم تكن مرحلة في طريق النشأة ولا خطوة في سبيل التطور ، ولا حتى وثبة من وثبات النهضة! إنما كانت – على وجه التحديد – «نشأة»! و«ميلادا» للأمة العربية وللإنسان كله! وحين ننظر إلى الشعر الجاهلي – والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية – وهو ديوان العرب ، الذي تضمن أعلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود ، والكون والإنسان والخلق والسلوك كما تضمن معالم حياتهم ، ومكنون مشاعرهم ، ومجموع تصوراتهم ولباب ثقافتهم وحضارتهم وكينونتهم كلها بالاختصار ..

حين ننظر إلى مجموعة الثقافات والتصورات والقيم التي يتضمنها هذا الديوان في ظل القرآن وما تضمنه من نظرة للوجود والحياة ، وللكون والإنسان ومن قيم في الحياة الإنسانية ومن نظام للمجتمع ومن تصور لغاية الوجود الإنساني. ومن تنظيم واقعي يقوم على أساس هذا التصور ..

---

[١٤٥] – التفسير الحديث لدروزة– موافق للمطبوع – (٨ / ١٥١)

ثم ننظر إلى واقع العرب قبل الإسلام وبعده .. في ظل تلك التصورات الجاهلية التي تتمثل في ديوانها. ثم في ظل هذه التصورات القرآنية التي تمثل المنهج الرباني ..

حين ننظر إلى الديوان المأثور والحياة الواقعية .. في ظل القرآن وواقع الحياة الإسلامية : يتبين لنا على وجه التأكيد والتحديد .. أنها كانت نشأة و لم تكن خطوة ولا مرحلة ولا وثبة! كانت «إخراجا» من صنع اللّه كتعبير القرآن الدقيق .. وكانت أعجب نشأة وأغرب إخراج .. فهي المرة الأولى والأخيرة – فيما نعلم – التي تنبثق فيها أمة من بين دفتي كتاب! و«تخرج» فيها حياة من خلال الكلمات! ولكن لا عجب .. فهذه الكلمات .. كلمات اللّه ..

ومن أراد المجادلة والمماحلة ، فليقل لنا أين كانت هذه الأمة قبل أن «يخرجها» اللّه بكلماته وقبل أن ينشئها اللّه بقرآنه؟

إننا نعرف أنها كانت في الجزيرة العربية! ولكن أين كانت في الوجود «الإنساني»؟ أين كانت في سجل الحضارة البشرية؟ أين كانت في التاريخ العالمي؟ أين كانت تجلس على المائدة العالمية الإنسانية؟ وماذا كانت تقدم على هذه المائدة ، فيعرف باسمها ويحمل طابعها؟

لقد «نشأت» هذه الأمة نشأتها بهذا الدين ونشئت تنشئتها بهذا المنهج القويم وقادت نفسها وقادت البشرية بعد ذلك بكتاب اللّه الذي في يدها ، وبمنهجه الذي طبع حياتها .. لا بشيء آخر .. وأمامنا التاريخ! وقد صدقها اللّه وعده وهو يقول للعرب : «لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. أَفَلا تَعْقِلُونَ»؟

فبسبب من هذا الكتاب ذكرت هذه الأمة في الأرض وكان لها دورها في التاريخ وكان لها «وجود إنساني» ابتداء ، وحضارة عالمية ثانيا .. ذلك بينما يريد جماعة من الحمقى أن يرفضوا نعمة اللّه هذه على الأمة العربية ويجحدوا فضل اللّه في أن جعل كلمته الأخيرة لأهل الأرض قاطبة في العرب وبلسانهم .. ومن ثم جعل لهم وجودا وذكرا وتاريخا وحضارة – يريدون أن يخلعوا هذا الرداء الذي ألبسهم اللّه إياه وأن يمزقوا هذه الراية التي قادتهم إلى الذكر والمجد .. بل إلى الوجود يوم أخرج اللّه منهم الأمة المسلمة! نقول .. إن

القرآن حين كان «ينشى ء» هذه الأمة و«ينشئها» .. ويخطط ويثبت ملامح الإسلام الجديدة ، في الجماعة المسلمة – التي التقطها من سفح الجاهلية – ويطمس ويمحو ملامح الجاهلية في حياتها ونفوسها ورواسبها .. وينظم مجتمعها – أو يقيمه ابتداء – على أساس الميلاد الجديد ..

وحين كان يخوض بالجماعة المسلمة المعركة في مواجهة الجاهلية الراسبة في نفوسها وأوضاعها من مخلفات البيئة التي التقطها المنهج الرباني منها وفي مواجهة الجاهلية الرابضة فيها ومن حولها – ممثلة في يهود المدينة ومنافقيها ومشركي مكة وما حولها – والمعركتان موصولتان في الزمان والمكان! حين كان القرآن يصنع ذلك كله .. كان يبدأ فيقيم للجماعة المسلمة تصورها الصحيح ، ببيان شرط الإيمان وحدّ الإسلام ويربط بهذا التصور – في هذه النقطة بالذات – نظامها الأساسي ، الذي يميز وجودها من وجود الجاهلية حولها ويفردها بخصائص الأمة التي أخرجت للناس ، لتبين للناس ، وتقودهم إلى اللّه .بنظامها الرباني ..

وهذا الدرس يتولى بيان هذا النظام الأساسي ، قائما ومنبثقا من التصور الإسلامي لشرط الإيمان وحدّ الإسلام! إنه يتولى تحديد الجهة التي تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها والطريقة التي تتلقى بها والمنهج الذي تفهم به ما تتلقى ، وترد إليه ما يجدّ من مشكلات وأقضية لم يرد فيها نص وتختلف الأفهام فيها والسلطة التي تطيعها وعلة طاعتها ومصدر سلطانها .. ويقول : إن هذا هو شرط الإيمان وحدّه الإسلام ..

وعندئذ يلتقي «النظام الأساسي» لهذه الأمة بالعقيدة التي تؤمن بها .. في وحدة لا تتجزأ ولا تفترق عناصرها ..

وهذا هو الموضوع الخطير الذي يجلوه هذا الدرس جلاء دقيقا كاملا .. وهذه هي القضية التي تبدو ، بعد مطالعة هذا الدرس ، بديهية يعجب الإنسان كيف يجادل «مسلم» فيها! إنه يقول للأمة المسلمة : إن الرسل أرسلت لتطاع – بإذن اللّه – لا لمجرد الإبلاغ والإقناع : «وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» ..

ويقول لها : إن الناس لا يؤمنون – ابتداء – إلا أن يتحاكموا إلى منهج اللّه ممثلا – في حياة الرسول ﷺ – في أحكام الرسول. وباقيا بعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة ولا يكفي أن يتحاكموا إليه – ليحسبوا مؤمنين – بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين : «فَلا وَرَبِّكَ .. لا يُؤْمِنُونَ .. حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً» .. فهذا هو شرط الإيمان وحد الإسلام.

ويقول لها : إن الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت – أي إلى غير شريعة اللّه – لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله. فهو زعم كاذب. يكذبه أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت : «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ – وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ – وَيُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِيداً».

ويقول لها : إن علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل اللّه والتحاكم إلى رسول اللّه : «وَإِذا قِيلَ لَهُمْ : تَعالَوْا إِلى ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ ، رَأَيْتَ الْمُنافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً».

ويقول لها : إن منهجها الإيماني ونظامها الأساسي ، أن تطيع اللّه – عز وجل – في هذا القرآن – وأن تطيع رسول اللّه – ﷺ – في سنته – وأولي الأمر من المؤمنين الداخلين في شرط الإيمان وحد الإسلام معكم : «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ. وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ..

ويقول لها : إن المرجع ، فيما تختلف فيه وجهات النظر في المسائل الطارئة المتجددة ، والأقضية التي لم ترد فيها أحكام نصية .. إن المرجع هو اللّه ورسوله .. أي شريعة اللّه وسنة رسوله : «فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ ، فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ..

وبهذا يبقى المنهج الرباني مهيمنا على ما يطرأ على الحياة من مشكلات وأقضية كذلك ، أبد الدهر ، في حياة الأمة المسلمة .. وتمثل هذه القاعدة نظامها الأساسي ، الذي لا تكون مؤمنة إلا به ، ولا تكون مسلمة إلا بتحقيقه .. إذ هو يجعل الطاعة بشروطها تلك

، ورد المسائل التي تجد وتختلف فيها وجهات النظر إلى اللّه ورسوله .. شرط الإيمان وحد الإسلام .. شرطا واضحا ونصا صريحا :

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» .. ولا ننس ما سبق بيانه عند قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ» ..

من أن اليهود وصموا بالشرك باللّه ، لأنهم كانوا يتخذون أحبارهم أربابا من دون اللّه – لا لأنهم عبدوهم – ولكن لأنهم قبلوا منهم التحليل والتحريم ومنحوهم حق الحاكمية والتشريع – ابتداء من عند أنفسهم – فجعلوا بذلك مشركين .. الشرك الذي يغفر اللّه كل ما عداه. حتى الكبائر .. «وإن زنى وإن سرق. وإن شرب الخمر» .. فرد الأمر كله إلى إفراد اللّه – سبحانه – بالألوهية. ومن ثم إفراده بالحاكمية. فهي أخص خصائص الألوهية. وداخل هذا النطاق يبقى المسلم مسلما ويبقى المؤمن مؤمنا. ويطمع أن يغفر له ذنوبه ومنها كبائره .. أما خارج هذا النطاق فهو الشرك الذي لا يغفره اللّه أبدا .. إذ هو شرط الإيمان وحد الإسلام. «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ..»[١٤٦]

وفي هذا النص القصير يبين اللّه – سبحانه – شرط الإيمان وحد الإسلام. في الوقت الذي يبين فيه قاعدة النظام الأساسي في الجماعة المسلمة وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان .. وكلها تبدأ وتنتهي عند التلقي من اللّه وحده والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصا ، من جزئيات الحياة التي تعرض في حياة الناس على مدى الأجيال مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام .. ليكون هنالك الميزان الثابت ، الذي ترجع إليه العقول والآراء والأفهام! إن «الحاكمية» للّه وحده في حياة البشر – ما جل منها وما دق ، وما كبر منها وما صغر – واللّه قد سن شريعة أودعها قرآنه. وأرسل بها رسولا يبينها للناس. ولا ينطق عن الهوى. فسنته – ﷺ – من ثم شريعة من شريعة اللّه.

واللّه واجب الطاعة. ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة. فشزيعته واجبة التنفيذ. وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا اللّه – ابتداء – وأن يطيعوا الرسول – بما له من هذه الصفة. صفة الرسالة من اللّه – فطاعته إذن من طاعة اللّه ، الذي أرسله بهذه الشريعة ، وببيانها

---

[١٤٦] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٦٩٠)

للناس في سنته .. وسنته وقضاؤه – على هذا – جزء من الشريعة واجب النفاذ .. والإيمان يتعلق – وجودا وعدما – بهذه الطاعة وهذا التنفيذ – بنص القرآن : «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..

فأما أولو الأمر فالنص يعين من هم.«وَأُولِي الْأَمْرِ .. مِنْكُمْ ..»أي من المؤمنين .. الذين يتحقق فيهم شرط الإيمان وحد الإسلام المبين في الآية .. من طاعة اللّه وطاعة الرسول وإفراد اللّه – سبحانه – بالحاكمية وحق التشريع للناس ابتداء والتلقي منه وحده – فيما نص عليه – والرجوع إليه أيضا فيما تختلف فيه العقول والأفهام والآراء ، مما لم يرد فيه نص لتطبيق المبادئ العامة في النصوص عليه.

والنص يجعل طاعة اللّه أصلا وطاعة رسوله أصلا كذلك – بما أنه مرسل منه – ويجعل طاعة أولي الأمر ..

منكم .. تبعا لطاعة اللّه وطاعة رسوله. فلا يكرر لفظ الطاعة عند ذكرهم ، كما كررها عند ذكر الرسول – ﷺ – ليقرر أن طاعتهم مستمدة من طاعة اللّه وطاعة رسوله – بعد أن قرر أنهم «منكم» بقيد الإيمان وشرطه ..

وطاعة أولي الأمر .. منكم .. بعد هذه التقريرات كلها ، في حدود المعروف المشروع من اللّه ، والذي لم يرد نص بحرمته ولا يكون من المحرم عند ما يرد إلى مبادئ شريعته ، عند الاختلاف فيه .. والسنة تقرر حدود هذه الطاعة ، على وجه الجزم واليقين :

في الصحيحين من حديث الأعمش : «إنما الطاعة في المعروف».وفيهما من حديث يحيى القطان : «السمع والطاعة على المرء المسلم. فيما أحب أو كره. ما لم يؤمر بمعصية.فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة».وأخرج مسلم من حديث أم الحصين : «ولو استعمل عليكم عبد. يقودكم بكتاب اللّه. اسمعوا له وأطيعوا» ..

بهذا يجعل الإسلام كل فرد أمينا على شريعة اللّه وسنة رسوله. أمينا على إيمانه هو ودينه. أمينا على نفسه وعقله.

أمينا على مصيره في الدنيا والآخرة .. ولا يجعله بهيمة في القطيع تزجر من هنا أو من هنا فتسمع وتطيع! فالمنهج واضح ، وحدود الطاعة واضحة. والشريعة التي تطاع والسنة التي

تتبع واحدة لا تتعدد ، ولا تتفرق ، ولا يتوه فيها الفرد بين الظنون! ذلك فيما ورد فيه نص صريح. فأما الذي لم يرد فيه نص. وأما الذي يعرض من المشكلات والأقضية ، على مدى الزمان وتطور الحاجات واختلاف البيئات – ولا يكون فيه نص قاطع ، أو لا يكون فيه نص على الإطلاق .. مما تختلف في تقديره العقول والآراء والأفهام – فإنه لم يترك كذلك تيها. و لم يترك بلا ميزان.

و لم يترك بلا منهج للتشريع فيه والتفريع .. ووضع هذا النص القصير ، منهج الاجتهاد كله ، وحدده بحدوده وأقام «الأصل» الذي يحكم منهج الاجتهاد أيضا.

«فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» ..ردوه إلى النصوص التي تنطبق عليه ضمنا. فإن لم توجد النصوص التي تنطبق على هذا النحو ، فردوه إلى المبادئ الكلية العامة في منهج اللّه وشريعته .. وهذه ليست عائمة ، ولا فوضى ، ولا هي من المجهلات التي تتيه فيها العقول كما يحاول بعض المخادعين أن يقول. وهناك – في هذا الدين – مبادئ أساسية واضحة كل الوضوح ، تغطي كل جوانب الحياة الأساسية ، وتضع لها سياجا خرقه لا يخفى على الضمير المسلم المضبوط بميزان هذا الدين.

«إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» ..تلك الطاعة للّه والطاعة للرسول ، ولأولي الأمر المؤمنين القائمين على شريعة اللّه وسنة الرسول .. ورد ما يتنازع فيه إلى اللّه والرسول .. هذه وتلك شرط الإيمان باللّه واليوم الآخر. كما أنها مقتضى الإيمان باللّه واليوم الآخر .. فلا يوجد الإيمان ابتداء وهذا الشرط مفقود .. ولا يوجد الإيمان ، ثم يتخلف عنه أثره الأكيد.

وبعد أن يضع النص المسألة في هذا الوضع الشرطي ، يقدمها مرة أخرى في صورة «العظة» والترغيب والتحبيب على نحو ما صنع في الأمر بالأمانة والعدل ثم التحبيب فيها والترغيب : «ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» ..ذلك خير لكم وأحسن مآلا. خير في الدنيا وخير في الآخرة. وأحسن مآلا في الدنيا وأحسن مآلا في الآخرة كذلك .. فليست المسألة أن اتباع هذا المنهج يؤدي إلى رضاء اللّه وثواب الآخرة – وهو أمر هائل ، عظيم – ولكنه كذلك يحقق خير الدنيا وحسن مآل الفرد والجماعة في هذه الحياة القريبة.

إن هذا المنهج معناه : أن يستمتع «الإنسان» بمزايا منهج يضعه له اللّه .. اللّه الصانع الحكيم العليم البصير الخبير .. منهج بريء من جهل الإنسان ، وهوى الإنسان ، وضعف الإنسان. وشهوة الإنسان .. منهج لا محاباة فيه لفرد ، ولا لطبقة ، ولا لشعب ، ولا لجنس ، ولا لجيل من البشر على جيل .. لأن اللّه رب الجميع ، ولا تخالجه – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – شهوة المحاباة لفرد ، أو طبقة ، أو شعب ، أو جنس ، أو جيل.

ومنهج من مزاياه ، أن صانعه هو صانع هذا الإنسان .. الذي يعلم حقيقة فطرته ، والحاجات الحقيقية لهذه الفطرة ، كما يعلم منحنيات نفسه ودروبها ووسائل خطابها وإصلاحها ، فلا يخبط – سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا – في تيه التجارب بحثا عن منهج يوافق. ولا يكلف البشر ثمن هذه التجارب القاسية ، حين يخبطون هم في التيه بلا دليل! وحسبهم أن يجربوا في ميدان الإبداع المادي ما يشاءون. فهو مجال فسيح جد فسيح للعقل البشري. وحسبهم كذلك أن يحاول هذا العقل تطبيق ذلك المنهج ويدرك مواضع القياس والاجتهاد فيما تتنازع فيه العقول.

ومنهج من مزاياه أن صانعه هو صانع هذا الكون ، الذي يعيش فيه الإنسان. فهو يضمن للإنسان منهجا تتلاءم قواعده مع نواميس الكون فلا يروح يعارك هذه النواميس. بل يروح يتعرف إليها ، ويصادقها ، وينتفع بها .. والمنهج يهديه في هذا كله ويحميه.

ومنهج من مزاياه أنه – في الوقت الذي يهدي فيه الإنسان ويحميه – يكرمه ويحترمه ويجعل لعقله مكانا للعمل في المنهج .. مكان الاجتهاد في فهم النصوص الواردة. ثم الاجتهاد في رد ما لم يرد فيه نص إلى النصوص أو إلى المبادئ العامة للدين .. ذلك إلى المجال الأصيل ، الذي يحكمه العقل البشري ، ويعلن فيه سيادته الكاملة : ميدان البحث العلمي في الكون والإبداع المادي فيه ..

«ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» .. وصدق اللّه العظيم.[١٤٧]

[١٤٧] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٦٨٥)

وقال ابن القيم: " وَمِنْهَا : أَنَّ قَوْلَهُ : { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ } نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تَعُمُّ كُلَّ مَا تَنَازَعَ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ مَسَائِلِ الدِّينِ دِقِّهِ وَجِلِّهِ ، جَلِيِّهِ وَخَفِيِّهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بَيَانُ حُكْمِ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ وَلَمْ يَكُنْ كَافِيًا لَمْ يَأْمُرْ بِالرَّدِّ إِلَيْهِ ؛ إِذْ مِنِ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَأْمُرَ تَعَالَى بِالرَّدِّ عِنْدَ النِّزَاعِ إِلَى مَنْ لَا يُوجَدُ عِنْدَهُ فَصْلُ النِّزَاعِ .

وَمِنْهَا : أَنَّ النَّاسَ أَجْمَعُوا أَنَّ الرَّدَّ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ هُوَ الرَّدُّ إِلَى كِتَابِهِ ، وَالرَّدَّ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ هُوَ الرَّدُّ إِلَيْهِ نَفْسِهِ فِي حَيَاتِهِ وَإِلَى سُنَّتِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ .

وَمِنْهَا : أَنَّهُ جَعَلَ هَذَا الرَّدَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْإِيمَانِ وَلَوَازِمِهِ ، فَإِذَا انْتَفَى هَذَا الرَّدُّ انْتَفَى الْإِيمَانُ ؛ ضَرُورَةَ انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ لِانْتِفَاءِ لَازِمِهِ ، وَلَا سِيَّمَا التَّلَازُمُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ فَإِنَّهُ مِنَ الطَّرَفَيْنِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَنْتَفِي بِانْتِفَاءِ الْآخَرِ ، ثُمَّ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ هَذَا الرَّدَّ خَيْرٌ لَهُمْ ، وَأَنَّ عَاقِبَتَهُ أَحْسَنُ عَاقِبَةً ، ثُمَّ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ تَحَاكَمَ أَوْ حَاكَمَ إِلَى غَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ فَقَدْ حَكَّمَ الطَّاغُوتَ وَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ ، وَالطَّاغُوتُ : كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ ؛ فَطَاغُوتُ كُلِّ قَوْمٍ مِنْ يَتَحَاكَمُونَ إِلَيْهِ غَيْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، أَوْ يَعْبُدُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، أَوْ يَتْبَعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ مِنْ اللَّهِ ، أَوْ يُطِيعُونَهُ فِيمَا لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ طَاعَةٌ لِلَّهِ ؛ فَهَذِهِ طَوَاغِيتُ الْعَالَمِ إِذَا تَأَمَّلْتَهَا وَتَأَمَّلْتَ أَحْوَالَ النَّاسِ مَعَهَا رَأَيْت أَكْثَرَهُمْ [عَدَلُوا] مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ إِلَى عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ ، وَعَنْ التَّحَاكُمِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الرَّسُولِ إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الطَّاغُوتِ ، وَعَنْ طَاعَتِهِ وَمُتَابَعَةِ رَسُولِهِ إِلَى طَاعَةِ الطَّاغُوتِ وَمُتَابَعَتِهِ ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ النَّاجِينَ الْفَائِزِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ – وَهُمْ الصَّحَابَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ – وَلَا قَصَدُوا قَصْدَهُمْ ، بَلْ خَالَفُوهُمْ فِي الطَّرِيقِ وَالْقَصْدِ مَعًا ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُمْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي ، وَرَضُوا بِحُكْمِ غَيْرِهِ ، ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ فِي عُقُولِهِمْ وَأَدْيَانِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ وَأَبْدَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِسَبَبِ إعْرَاضِهِمْ عَمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَتَحْكِيمِ غَيْرِهِ وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : { فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ } اعْتَذَرُوا بِأَنَّهُمْ إنَّمَا قَصَدُوا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ ، أَيْ بِفِعْلِ مَا يُرْضِي الْفَرِيقَيْنِ وَيُوَفِّقُ بَيْنَهُمَا كَمَا يَفْعَلُهُ مَنْ يَرُومُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ مَا خَالَفَهُ ، وَيَزْعُمُ

أَنَّهُ بِذَلِكَ مُحْسِنٌ قَاصِدٌ الْإِصْلَاحَ وَالتَّوْفِيقَ ، وَالْإِيمَانُ إنَّمَا يَقْتَضِي إلْقَاءَ الْحَرْبِ بَيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ وَبَيْنَ كُلِّ مَا خَالَفَهُ مِنْ طَرِيقَةٍ وَحَقِيقَةٍ وَعَقِيدَةٍ وَسِيَاسَةٍ وَرَأْيٍ ؛ فَرَخَّصَ الْإِيمَانُ فِي هَذَا الْحَرْبِ لَا فِي التَّوْفِيقِ ، وَبَاَللَّهِ التَّوْفِيقُ ."[148]

وكذلك قوله تعالى:﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ النساء:٦٥.

قال ابن كثير في التفسير: يقسم تعالى بنفسه الكريمة المقدسة: أنه لا يؤمن أحد حتى يُحَكم الرسول ﷺ في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهرا؛ ولهذا قال: { ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } أي: إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجا مما حكمت به، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليما كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، كما ورد في الحديث: "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به". ا- هـ[149].

وقال ابن القيم: أقسم سبحانه بنفسه المقدسة قسماً مؤكداً بالنفي قبله عدم إيمان الخلق حتى يحكموا رسوله في كل ما شجر بينهم من الأصول والفروع وأحكام الشرع وأحكام المعاد وسائر الصفات وغيرها، ولم يثبت لهم الإيمان بمجرد هذا التحكيم حتى ينتفي عنهم الحرج، وهو ضيق الصدر، وتنشرح صدورهم لحكمه كل الانشراح وتنفسح له كل الإنفساح وتقبله كل القبول ، ولم يثبت لهم الإيمان بذلك أيضاً حتى ينضاف إليه مقابلة حكمه بالرضى والتسليم وعدم المنازعة، وانتفاء المعارضة والاعتراض[150].

وقال : " ثُمَّ أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ عَلَى نَفْيِ الْإِيمَانِ عَنْ الْعِبَادِ حَتَّى يُحَكِّمُوا رَسُولَهُ فِي كُلِّ مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنْ الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ فِي إيمَانِهِمْ بِهَذَا التَّحْكِيمِ بِمُجَرَّدِهِ حَتَّى يَنْتَفِيَ عَنْ صُدُورِهِمْ الْحَرَجُ وَالضِّيقُ عَنْ قَضَائِهِ وَحُكْمِهِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ مِنْهُمْ أَيْضًا بِذَلِكَ حَتَّى يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ، وَيَنْقَادُوا انْقِيَادًا .وَقَالَ تَعَالَى : { وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ

[148] – إعلام الموقعين عن رب العالمين – (١ / ٦٤)

[149] – تفسير ابن كثير – دار طيبة – (٢ / ٣٤٩)

[150]– التبيان في أقسام القرآن:٢٧٠.

إذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمْ الْخِيرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ } فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَخْتَارَ بَعْدَ قَضَائِهِ وَقَضَاءِ رَسُولِهِ ، وَمَنْ تَخَيَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا . "[١٥١]

وقال الخطيب : " هو بيان للإيمان الذي يقبل من هؤلاء الضالين الذين يريدون العودة إلى اللّه ، فإنهم لا يحسبون فى المؤمنين ، حتى يترلوا على حكم اللّه ، فيما يكون بينهم من خلاف ، فذلك هو الدستور الذي لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يستقيم عليه ، ويتقبل حكمه فيه ، بقلب مطمئن ، ونفس راضية ، ولو كان ذلك مخالفا لهواه ، مفوّتا لمصلحة خاصة له .. أما أن يأخذ من حكم اللّه ما يرضيه ، ويدع ما لا يستجيب لهواه ، ويلتقي مع رغباته ، فذلك هو النفاق مع اللّه ، ومع الرسول ﷺ !

إن الإيمان هو التسليم المطلق لأحكام اللّه ، والولاء المطلق لرسوله ، وما يقضى به .. وبغير هذا لا يكون إيمان ، ولا يعتدّ بدعوى من يدعيه!

وفى إضافة النبي الكريم ﷺ إلى اللّه فى قوله تعالى : « فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ » تشريفٌ للنبى ﷺ ، واستدعاء له إلى الحضرة العلية ليشهد هذا القسم العظيم ، وليكون شاهدا على هؤلاء الضالين المنافقين .. و« لا » النافية فى قوله تعالى : « فَلا يُؤْمِنُونَ » هى توكيد للنفي السابق للقسم فى قوله سبحانه : « فَلا وَرَبِّكَ ».. وقد فصل القسم بينهما. "[١٥٢]

وفي الظلال :

" ومرة أخرى نجدنا أمام شرط الإيمان وحدّ الإسلام. يقرره اللّه سبحانه بنفسه. ويقسم عليه بذاته. فلا يبقى بعد ذلك قول لقائل في تحديد شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، ولا تأويل لمؤول.

اللهم إلا مماحكة لا تستحق الاحترام .. وهي أن هذا القول مرهون بزمان ، وموقوف على طائفة من الناس! وهذا قول من لا يدرك من الإسلام شيئا ولا يفقه من التعبير القرآني

---

[١٥١] - إعلام الموقعين عن رب العالمين - (١ / ٦٥)

[١٥٢] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ٨٢٧)

قليلا ولا كثيرا. فهذه حقيقة كلية من حقائق الإسلام جاءت في صورة قسم مؤكد مطلقة من كل قيد .. وليس هناك مجال للوهم أو الإيهام بأن تحكيم رسول اللّه – ﷺ – هو تحكيم شخصه. إنما هو تحكيم شريعته ومنهجه. وإلا لم يبق لشريعة اللّه وسنة رسوله مكان بعد وفاته – ﷺ – وذلك قول أشد المرتدين ارتدادا على عهد أبي بكر – رضي اللّه عنه – وهو الذي قاتلهم عليه قتال المرتدين : بل قاتلهم على ما هو دونه بكثير. وهو مجرد عدم الطاعة للّه ورسوله ، في حكم الزكاة وعدم قبول حكم رسول اللّه فيها ، بعد الوفاة! وإذا كان يكفي لإثبات «الإسلام» أن يتحاكم الناس إلى شريعة اللّه وحكم رسوله .. فإنه لا يكفي في «الإيمان» هذا ، ما لم يصحبه الرضى النفسي ، والقبول القلبي ، وإسلام القلب والجنان ، في اطمئنان! هذا هو الإسلام .. وهذا هو الإيمان .. فلتنظر نفس أين هي من الإسلام وأين هي من الإيمان! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان! "[١٥٣]

فما يمكن أن يجتمع الإيمان ، وعدم تحكيم شريعة اللّه ، أو عدم الرضى بحكم هذه الشريعة. والذين يزعمون لأنفسهم أو لغيرهم أنهم «مؤمنون» ثم هم لا يحكمون شريعة اللّه في حياتهم ، أو لا يرضون حكمها إذا طبق عليهم .. إنما يدعون دعوى كاذبة وإنما يصطدمون بهذا النص القاطع : «وَما أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ». فليس الأمر في هذا هو أمر عدم تحكيم شريعة اللّه من الحكام فحسب بل إنه كذلك عدم الرضى بحكم اللّه من المحكومين ، يخرجهم من دائرة الإيمان ، مهما ادعوه باللسان.[١٥٤]

وفي قوله تعالى: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٣١) سورة آل عمران.

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ النَّاجِيُّ ، إِنَّهُ سَمِعَ الْحَسَنَ ، يَقُولُ : قَالَ قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : إِنَّا لَنُحِبُّ رَبَّنَا عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . فَجَعَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اتِّبَاعَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَمًا لِمَحَبَّتِهِ ، وَأَكْذَبَ مَنْ خَالَفَهُ ، ثُمَّ جَعَلَ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ دَلِيلًا مِنْ عَمَلٍ يُصَدِّقُهُ ، وَمِنْ

---

[١٥٣] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٦٩٦)

[١٥٤] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٨٩٥)

عَمَلٍ يُكَذِّبُهُ يُعَلِّمُ نَبِيَّهُ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ الْإِيمَانَ : قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ . فَأَعْلَمَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ هُوَ الْإِيمَانُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ ، وَبِمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ ، وَبِمَا فِي كُتُبِهِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْأَحْكَامِ وَالْفَرَائِضِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ ، ثُمَّ قَالَ : وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

فَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ لَيْسَ يَنْفَصِلُ الْإِسْلَامُ مِنَ الْعَمَلِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ لَيْسَ يَقْبَلُ قَوْلًا إِلَّا بِعَمَلٍ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ . فَأَخْبَرَنَا عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يَقْبَلُ قَوْلًا طَيِّبًا إِلَّا بِعَمَلٍ صَالِحٍ ، أَوْ عَمَلًا صَالِحًا إِلَّا بِقَوْلٍ طَيِّبٍ ، لِأَنَّهُ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، فَلَا قَوْلٌ أَزْكَى وَلَا أَطْيَبُ مِنَ التَّوْحِيدِ ، وَلَا عَمَلٌ أَصْلَحُ وَلَا أَفْضَلُ مِنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ ، وَاجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ . فَإِذَا قَالَ قَوْلًا حَسَنًا ، أَوْ عَمِلَ عَمَلًا حَسَنًا ، رَفَعَ اللَّهُ قَوْلَهُ بِعَمَلِهِ ، وَإِذَا قَالَ قَوْلًا حَسَنًا ، وَعَمِلَ عَمَلًا سَيِّئًا رَدَّ اللَّهُ قَوْلَهُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ "[١٥٥]

وقال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: "مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدُّ" ولهذا قال: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن

[١٥٥] – الْإِبَانَةُ الْكُبْرَى لِابْنِ بَطَّةَ (١٠٧٢) صحيح مرسل

تُحَبّ وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ } .[156]

وقال الخطيب :

" ومما هو مكر باللّه ما يدّعيه المدّعون على اللّه من اليهود أنّهم أبناء اللّه وأحبّاؤه ، وهم فى الوقت نفسه يعادون أولياء اللّه ، ويشاقّون رسله ،ويقتلون أنبياءه .. فكيف تصح لهم هذه الدعوى ، وآخرها ينقض أولها ؟

فإن المحبّ الحقيقي يحبّ كل من أحبّ من يحبّ ، وإلّا فحبّه لمن أحبّ نزوة طارئة ، أو دعوى باطلة.

والعداوة التي يضمرها اليهود للنبيّ ﷺ ، والتي تستعلن فى كيدهم له ومكرهم به ، لا تستقيم مع دعواهم بأنهم أحباء اللّه ، فإن كانوا أحباء اللّه حقّا فليتّبعوا رسوله ، وليستجيبوا لما يدعوهم إليه من كلمات ربّه .. إنهم لو فعلوا ذلك لصدقت دعواهم ، ولأحبّهم اللّه حقّا ، ولغفر لهم ذنوبهم ، وما قطعوا من عمر طويل مع الشقاق والنفاق « وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ».. فإن أبوا إلا شقاقا ونفاقا ، فهم على دعوى باطلة .. إنهم ليسوا أحبابا للّه ، بل هم أعداء محاربون له ، كافرون بآياته وبرسله « فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ » وإنما حبّه للمؤمنين ، فمن لبس الإيمان ظاهرا وباطنا ، فهو من أولياء اللّه وأحبائه ، ومن استبطن الكفر والنّفاق فهو عدوّ للّه ، لا يكون محبّا ولا محبوبا. "[157]

وفي التفسير المنير :

" إن محبّة اللّه والرّسول تتجلّى في اتّباع الإسلام وإطاعة رسول اللّه ﷺ والعمل بشريعته ، واتّباع أوامره واجتناب نواهيه.

ومحبة الرّسول ﷺ لا لذاته وإنما لكونه رسولا مرسلا من عند اللّه إلى جميع الثقلين : الجنّ والإنس.

فاتّباع شرع النّبي محمد ﷺ هو دليل الحبّ الصادق ، كما قال الورّاق :

---

[156] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٢ / ٣٢)

[157] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٤٣٢)

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته إنّ المحبّ لمن يحبّ مطيع

وقال سهل بن عبد اللّه : علامة حبّ اللّه : حبّ القرآن ، وعلامة حبّ القرآن : حبّ النّبي ﷺ ، وعلامة حبّ النّبي ﷺ : حبّ السّنّة ، وعلامة حبّ اللّه وحبّ القرآن وحبّ النّبي وحبّ السّنّة : حبّ الآخرة ، وعلامة حبّ الآخرة : أن يحبّ نفسه ، وعلامة حبّ نفسه : أن يبغض الدّنيا ، وعلامة بغض الدّنيا : ألا يأخذ منها إلا الزّاد والبلغة.

وروى مسلم في صحيحه[158] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، قَالَ : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ : إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ ، قَالَ : فَيُبْغِضُونَهُ ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ " .[159]

وفي التفسير الواضح :

" قل لهم يا محمد : إن كنتم تحبون اللّه حقيقة فاتبعوني فإن ما جئت به من عنده مبين لصفاته وأوامره ونواهيه ، والمحب الصادق حريص على معرفة المحبوب ومعرفة أمره ونهيه ليتقرب إليه بامتثال أمره واجتناب نهيه ، فإن اتبعتموني يحببكم اللّه ويوفقكم ويهديكم إلى سواء السبيل ويغفر لكم ذنوبكم واللّه غفور رحيم. قل لهم ، أطيعوا اللّه باتباع كلامه ، والرسول باتباع سنته والاهتداء بهديه واقتفاء أثره ، فإن تولوا وأعرضوا ولم يجيبوك لدعوتك غرورا منهم بدعواهم محبون للّه وأنهم أبناؤه فاعلم أن اللّه لا يحب الكافرين الذين لا ينظرون في آيات اللّه ويهتدون إلى الدين الحنيف. "[160]

وفي التفسير الوسيط :

---

[158] - صَحِيحُ مُسْلِمٍ (٤٩٠١) جامع الحديث

[159] - التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ٢٠٨)

[160] - التفسير الواضح ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٢٤)

" والمعنى : قل يا محمد للناس على سبيل الإرشاد والتبين : إن كنتم تحبون اللّه حقا كما تدعون ، فاتبعوني ، فإن اتباعكم لي يؤدى إلى محبة اللّه لكم ، وإلى غفرانه لذنوبكم ، وذلك لأن محبة اللّه ليست دعوى باللسان ، وإنما محبة اللّه تتحقق باتباع ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه على لسان رسوله محمد ﷺ الذي أرسله رحمة للعالمين.

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية : « هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللّه وليس هو على الطريقة المحمدية ، بأنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي ، والدين النبوي في كل أقواله وأعماله كما ثبت في الصحيح عن رسول اللّه ﷺ أنه قال : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » ».

وقوله يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ جواب الأمر ، وهو قوله فَاتَّبِعُونِي. وهذا رأى الخليل.

ويرى أكثر المتأخرين من النحاة أن قوله « يحببكم اللّه » جواب لشرط مقدر دل عليه المقام والتقدير : إن كنتم تحبون اللّه فاتبعوني ، وإن اتبعتموني يحببكم اللّه ، أى يمنحكم الثواب الجزيل ، والأجر العظيم ، والرضا الكبير.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت أن أول علامات محبة العبد لربه ، هي اتباع رسوله ﷺ وأن هذا الاتباع يؤدى إلى محبة اللّه – تعالى – لهذا العبد وإلى مغفرة ذنوبه.

ومحبة اللّه لعبده هي منتهى الأماني ، وغاية الآمال ، ولذا قال بعض الحكماء : « ليس الشأن أن تحب إنما الشأن أن تحب ».

ومحبة اللّه إنما تتأتى بإخلاص العبادة والوقوف عند حدوده والاستجابة لتعاليم رسوله محمد ﷺ وكل من يدعى أنه محب اللّه وهو معرض عن أوامره ونواهيه فهو كاذب في دعواه كما قال الشاعر الصوفي :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع "[١٦١]

وفي الظلال :

[١٦١] – التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي– موافق للمطبوع – (٢ / ٨١)

" إن حب اللّه ليس دعوى باللسان ، ولا هياما بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول اللّه ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة .. وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام.ولكنه طاعة للّه والرسول ، وعمل بمنهج اللّه الذي يحمله الرسول ..ﷺ

يقول الإمام ابن كثير في التفسير عن الآية الأولى : «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللّه وليس هو على الطريقة المحمدية. فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول اللّه – ﷺ – أنه قال : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ..

ويقول عن الآية الثانية : «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا» .. أي تخالفوا عن أمره – «فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» .. فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، واللّه لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب للّه ..

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن قيم الجوزية في كتابه : «زاد المعاد في هدى خير العباد» :

«ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له – ﷺ – بالرسالة وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام .. علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط. ولا المعرفة والإقرار فقط. بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا ..»

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها .. حقيقة الطاعة لشريعة اللّه ، والاتباع لرسول اللّه ، والتحاكم إلى كتاب اللّه .. وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تعبد الناس لها ، وتطوّعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها. ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية للّه وحده في حياة البشر وارتباطاتها جميعا ، كما أن الحاكمية للّه وحده في تدبير أمر الكون كله. وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير.

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هذه الحقيقة - كما رأينا - في صورة ناصعة كاملة شاملة ، لا مهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يكون مسلما. إن الدين عند اللّه الإسلام .. وهذا - وحده - هو الإسلام كما شرعه اللّه ، لا كما تصوره المفتريات والأوهام .. "[١٦٢]

وقال تعالى:﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَة أو يصيبهم عذاب أليمٌ﴾النور:٦٣.

قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ الْفَضْلُ بْنُ زِيَادٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ حَنْبَلٍ يَقُولُ : نَظَرْتُ فِي الْمُصْحَفِ فَوَجَدْتُ فِيهِ طَاعَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي ثَلَاثَةٍ وَثَلَاثِينَ مَوْضِعًا ، ثُمَّ جَعَلَ يَتْلُو : فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَجَعَلَ يُكَرِّرُهَا ، وَيَقُولُ : وَمَا الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ ، لَعَلَّهُ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَزِيغَ فَيُهْلِكَهُ ، وَجَعَلَ يَتْلُو هَذِهِ الْآيَةَ : فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ : وَسَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، يَقُولُ : " مَنْ رَدَّ حَدِيثَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَهُوَ عَلَى شَفَا هَلَكَةٍ " قَالَ الشَّيْخُ : " فَاللَّهَ اللَّهَ إِخْوَانِي احْذَرُوا مُجَالَسَةَ مَنْ قَدْ أَصَابَتْهُ الْفِتْنَةُ فَزَاغَ قَلْبُهُ ، وَعَشِيَتْ بَصِيرَتُهُ ، وَاسْتَحْكَمَتْ لِلْبَاطِلِ نُصْرَتُهُ ، فَهُوَ يَخْبِطُ فِي عَشْوَاءَ ، وَيَعْشُو فِي ظُلْمَةٍ أَنْ يُصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ فَافْزَعُوا إِلَى مَوْلَاكُمُ الْكَرِيمِ فِيمَا أَمَرَكُمْ بِهِ مِنْ دَعْوَتِهِ ، وَحَضَّكُمْ عَلَيْهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ ، فَقُولُوا : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ "!![١٦٣].

قال دروزة :

" الإنذار المنطوي في جملة فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ قوي رهيب ، وقد جاء مطلقا هو الآخر ليكون مستمرَّ المدى والشمول للذين يخالفون أوامر رسول اللّه ﷺ ونواهيه وسننه الثابتة في كل وقت. وفي الجملة تأييد زجري للآيات العديدة التي أكدت وجوب

[١٦٢] - في ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (١ / ٣٨٧)

[١٦٣] - الْإِبَانَةُ الْكُبْرَى لِابْنِ بَطَّةَ (٩٩)

طاعة رسول اللّه والوقوف عند ما يأمر به وينهى عنه ، وقررت أن اتباعه من وسائل رضاء اللّه ومحبته على ما جاء في آيات "[١٦٤]

وقال الخطيب :

" والآية تحث المسلمين على الامتثال لأمر الرسول الكريم ، والاستجابة لما يدعوهم إليه ، من غير مهل ، أو تردّد .. فليست دعوة الرسول للمسلمين ، مثل دعوة بعضهم لبعض ، حيث يكون للإنسان الخيار فى أن يجيب دعوة الداعي أو لا يجيب ..

إن دعوة الرسول ﷺ ، هي أمر من أمر اللّه ، ليس لمؤمن ولا مؤمنة الخيار فى هذا الأمر ، وإنما عليه الطاعة والامتثال .. واللّه سبحانه وتعالى يقول :« وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » (٣٦ : الأحزاب) ودعاء الرسول هنا ، هو دعاء إلى الجهاد فى سبيل اللّه ، وهو أمر ملزم لكل قادر على حمل السلاح .. وفى هذا يقول اللّه تعالى : « ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ » (١٢٠ التوبة) وقد يكون الدعاء لأمر غير الجهاد ، وهو ــ أيّا كان ــ أمر ملزم لمن تلقى الأمر من الرسول ، فإنه لا يأمر إلا بخير ، واللّه سبحانه وتعالى يقول : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ » (٢٤ : الأنفال) قوله تعالى : « قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِواذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ».قد ، هنا ، للتحقيق ، والتوكيد ..

والمعنى : إن اللّه ليعلم الذين يتسلّلون من بين المسلمين ، ويخرجون فى خفية ، فرارا بأنفسهم ، وطلبا للدعة والراحة ..فليحذر هؤلاء المتسلّلون ، الذي خرجوا على أمر الرسول ، ونكصوا على أعقابهم ، أن تصيبهم فتنة وابتلاء فى الدنيا ، حيث يفتضح أمرهم ، ويصبحوا فى عداد المنافقين .. فإن لم يصبهم هذا فى الدنيا ، لم يفلتوا من عذاب اللّه فى الآخرة ..وهو عذاب أليم ، نعوذ باللّه منه.

---

[١٦٤] - التفسير الحديث لدروزة- موافق للمطبوع - (٨ / ٤٥٥)

وفى تعدية الفعل « يُخالِفُونَ » بحرف الجر « عَنْ » مع أنه فعل يتعدى بنفسه .. إشارة إلى أن هذا الفعل قد ضمن معنى « الخروج » ، فهو مخالفة ، وخروج معا ، إذ قد تكون المخالفة فى الرأى ، ثم يكون الامتثال بالعمل ..

وهؤلاء المخالفون الذين يتوعدهم اللّه إنما جمعوا بين المخالفة فى الرأى ، والخروج عليه قولا وعملا ..

وهذا يشير إلى أن مراجعة الرسول ، فيما يأمر به ، مما لم يستبن للمسلم منه الحجة الواضحة والدليل المقنع ـــ هذه المراجعة ، بل المعارضة أحيانا لا حرج منها ، إذ كانت غايتها هى وضوح الرؤية ، وانكشاف الطريق ، لعينى المؤمن ، حتى يكون على بينة من أمره ، وحتى يمتثل ما يؤمر به ، وهو على هدى وبصيرة ، واقتناع ..

فدعوة الإسلام دعوة قائمة على العدل ، مستندة إلى الحجة والبرهان ..ومن ثمّ كان على المسلم أن يعرض أمور دينه كلها على عقله ، وأن يلتمس الدليل المقنع ، والحجة القاطعة فى كل أمر .. فإذا لم يسعفه عقله بالدليل ، وجب عليه امتثال ما يؤمر به ، مع اليقين بأنه هو الحق ، والخير .. إذ ليس العقل إلا حاسّة من الحواس العاملة فى الإنسان ، وشأنه شأن كل حاسّة فى أن له حدودا يعمل فيها ، وأنه إذا جاوز هذه الحدود بطل عمله ..

وفى سيرة الرسول ـــ صلوات اللّه وسلامه عليه ـــ مع صحابته رضوان اللّه عليهم ، كثير من المواقف ، التى يلقى فيها الصحابة رسول اللّه ـــ فى أدب رائع واحترام عظيم ـــ معترضين أو مخالفين ، حتى إذا كشف لهم الرسول ـــ صلوات اللّه وسلامه عليه ـــ عن وجه الأمر ، أو أراهم من نفسه أنه ماض لم أمرهم به ، لم يكن لأحد منهم إلا السمع والطاعة ، فى إيمان ثابت ويقين مكين ..

وتذكر هنا ـــ من باب الإشارة ـــ ما كان من الحباب بن المنذر بن الجموح ، حين رأى النبىّ ـــ صلوات اللّه وسلامه عليه ـــ وقد أنزل المسلمين منزلا فى غزوة بدر ، فلما لم يره الحباب بالمنزل المناسب للمسلمين ، جاء إلى رسول اللّه يسأله قائلا : يا رسول اللّه .. أهو منزل أنزلكه اللّه ، فليس لنا أن نتحول عنه ، أم هو الرأى والمكيدة والحرب ؟ فقال صلوات اللّه وسلامه عليه : « بل هو الرأى والمكيدة والحرب ».

. وهنا أشار الحباب بالمترل الذي رآه .. فأخذ النبيّ برأيه ، وتحول بالمسلمين إليه .. فكان المترل المبارك ، الذي هبت على المسلمين ريح النصر منه!!

فمخالفة الرسول ﷺ هنا ليست لمجرد المخالفة ، وإنما هي للنصح للمسلمين ، أو لنصح المرء لنفسه ولدينه ، حتى لا يكون فى صدره حرج مما يؤمر به! وبذلك تطيب نفس المسلم ، ويسلم له دينه ، ويتضح له طريقه ، ومن هنا يقوم بينه وبين معتقده ألفة وحب ، حيث لا يدخل عليه شىء لم يرضه ، ويعتقده ، عن إيمان واقتناع .. "[١٦٥]

وفي التفسير المنير :

" فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ أي فليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنا وظاهرا ، وصدّ وخرج عن أمره وطاعته ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، وهم المنافقون ، أن يتعرضوا لمحنة أو بلاء وامتحان في الدنيا من كفر أو نفاق ، أو يصيبهم عذاب مؤلم في الآخرة. وضمير أَمْرِهِ إما عائد إلى أمر اللّه تعالى أو أمر رسوله ﷺ .

والآية تدل على أن ظاهر الأمر للوجوب لان تارك المأمور به مخالف لذلك الأمر ، ومخالف الأمر مستحق للعقاب ، فتارك المأمور به مستحق للعقاب ، ولا معنى للوجوب إلا ذلك.

والآية أيضا تعم كل من خالف أمر اللّه تعالى وأمر رسوله ﷺ ، وليس المنافقين فقط. "[١٦٦]

وقال المراغي :

" (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) أي فليتق اللّه من يفعلون ذلك منكم ، فينصرفون عن رسول اللّه بغير إذنه ، أن تصيبهم محنة وبلاء فى الدنيا أو يصيبهم عذاب مؤلم موجع فى الآخرة ، بأن يطبع اللّه على قلوبهم ، فيتمادوا فى العصيان ومخالفة أمر الرسول ، فيدخلهم النار وبئس القرار.والآية تعمُّ كلَّ مَن خالف أمر

---

[١٦٥] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٩ / ١٣٣٦)

[١٦٦] – التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع – (١٨ / ٣١٥) وانظر التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي– موافق للمطبوع – (١٠ / ١٦١) و تفسير القرطبي ج ١٢ ص ٣٢٢.

اللّه وأمر رسوله وجمد على التقليد من بعد ما تبين له الهدى ، وظهر له الصواب من الخطأ. "[١٦٧]

وفي الظلال :

" وإنه لتحذير مرهوب ، وتهديد رعيب .. فليحذر الذين يخالفون عن أمره ، ويتبعون نهجا غير نهجه ، ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة. ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس ، وتختل فيها الموازين ، وينتكث فيها النظام ، فيختلط الحق بالباطل ، والطيب بالخبيث ، وتفسد أمور الجماعة وحياتها فلا يأمن على نفسه أحد ، ولا يقف عند حده أحد ، ولا يتميز فيها خير من شر .. وهي فترة شقاء للجميع : أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ» في الدنيا أو في الآخرة. جزاء المخالفة عن أمر اللّه ، ونهجه الذي ارتضاه للحياة.[١٦٨]

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾الحشر:٧.

قال ابن تيميه رحمه الله تعالى: فَالرَّسُولُ وَجَبَتْ طَاعَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ ، وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ ، وَالدِّينُ مَا شَرَّعَهُ ، وَمَنْ سِوَى الرَّسُولِ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايِخِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ إنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ إذَا كَانَتْ طَاعَتُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ ، وَهُمْ إذَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِطَاعَتِهِمْ فَطَاعَتُهُمْ دَاخِلَةٌ فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ ، قَالَ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } .فَلَمْ يَقُلْ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ؛ بَلْ جَعَلَ طَاعَةَ أُولِي الْأَمْرِ دَاخِلَةً فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ ؛ وَطَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةً لِلَّهِ ، وَأَعَادَ الْفِعْلَ فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ دُونَ طَاعَةِ أُولِي الْأَمْرِ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ؛ فَلَيْسَ لِأَحَدٍ إذَا أَمَرَهُ الرَّسُولُ بِأَمْرِ أَنْ يَنْظُرَ هَلْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْ لَا ، بِخِلَافِ أُولِي الْأَمْرِ فَإِنَّهُمْ قَدْ يَأْمُرُونَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَلَيْسَ كُلُّ مَنْ أَطَاعَهُمْ مُطِيعًا لِلَّهِ ، بَلْ لَا بُدَّ فِيمَا يَأْمُرُونَ بِهِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْصِيَةً لِلَّهِ ، وَيَنْظُرُ هَلْ أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَمْ لَا ، سَوَاءٌ كَانَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْ الْعُلَمَاءِ أَوْ الْأُمَرَاءِ ، وَيَدْخُلُ فِي هَذَا تَقْلِيدُ الْعُلَمَاءِ وَطَاعَةُ أُمَرَاءِ السَّرَايَا

[١٦٧] - تفسير الشيخ المراغى ـــ موافقا للمطبوع - (١٨ / ١٤١)

[١٦٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٥٣٥)

وَغَيْرُ ذَلِكَ ، وَبِهَذَا يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ قَالَ تَعَالَى : { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ } وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : { لَمَّا قِيلَ لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً .

فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . }

ثُمَّ إنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يُحِبُّ خَلِيفَةً أَوْ عَالِمًا أَوْ شَيْخًا أَوْ أَمِيرًا فَيَجْعَلُهُ نِدًّا لِلَّهِ ، وَإِنْ كَانَ قَدْ يَقُولُ : إنَّهُ يُحِبُّهُ لِلَّهِ .

فَمَنْ جَعَلَ غَيْرَ الرَّسُولِ تَجِبُ طَاعَتُهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ ، وَإِنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَقَدْ جَعَلَهُ نِدًّا ، وَرُبَّمَا صَنَعَ بِهِ كَمَا تَصْنَعُ النَّصَارَى بِالْمَسِيحِ ، وَيَدْعُوهُ وَيَسْتَغِيثُ بِهِ ، وَيُوَالِي أَوْلِيَاءَهُ ، وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُ مَعَ إيجَابِهِ طَاعَتَهُ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ وَيُحَلِّلُهُ وَيُحَرِّمُهُ ، وَيُقِيمُهُ مَقَامَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَذَا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي يَدْخُلُ أَصْحَابُهُ فِي قَوْله تَعَالَى { وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ } .

فَالتَّوْحِيدُ وَالْإِشْرَاكُ يَكُونُ فِي أَقْوَالِ الْقَلْبِ ، وَيَكُونُ فِي أَعْمَالِ الْقَلْبِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْجُنَيْدُ : التَّوْحِيدُ قَوْلُ الْقَلْبِ ، وَالتَّوَكُّلُ عَمَلُ الْقَلْبِ أَرَادَ بِذَلِكَ التَّوْحِيدَ الَّذِي هُوَ التَّصْدِيقُ ، فَإِنَّهُ لَمَّا قَرَنَهُ بِالتَّوَكُّلِ جَعَلَهُ أَصْلَهُ ، وَإِذَا أَفْرَدَ لَفْظَ التَّوْحِيدِ فَهُوَ يَتَضَمَّنُ قَوْلَ الْقَلْبِ وَعَمَلَهُ ، وَالتَّوَكُّلُ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ . "[١٦٩]

وقال أيضا: " وَالرَّسُولُ ﷺ هُوَ الْمُبَلِّغُ عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَتَحْلِيلَهُ وَتَحْرِيمَهُ فَالْحَلَالُ مَا حَلَّلَهُ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَهُ وَالدِّينُ مَا شَرَعَهُ ؛ وَالرَّسُولُ ﷺ وَاسِطَةٌ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي تَبْلِيغِ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وَتَحْلِيلِهِ وَتَحْرِيمِهِ ؛ وَسَائِرِ مَا بَلَّغَهُ مِنْ كَلَامِهِ . "[١٧٠]

---

[١٦٩] - الفتاوى الكبري لابن تيمية - (٧ / ٣٦١)

[١٧٠] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (١ / ٣٦٥)

وقال ابن كثير : " وقوله: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر.
قال ابن أبي حاتم: حدثنا يحيى بن أبي طالب، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن الحسن العوفي، عن يحيى بن الجزار، عن مسروق قال: جاءت امرأة إلى ابن مسعود فقالت: بلغني أنك تنهى عن الواشمة والواصلة، أشيء وجدته في كتاب الله أو عن رسول الله ﷺ ؟ قال: بلى، شيء وجدته في كتاب الله وعن رسول الله ﷺ . قالت: والله لقد تصفحت ما بين دفتي المصحف فما وجدت فيه الذي تقول!. قال: فما وجدت فيه: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } ؟ قالت: بلى. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن الواصلة والواشمة والنامصة. قالت: فلعله في بعض أهلك. قال: فادخلي فانظري. فدخلت فَنَظرت ثم خرجَت، قالت: ما رأيتُ بأسا. فقال لها: أما حفظت وصية العبد الصالح: { وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ }
وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان، عن منصور، [عن إبراهيم] عن علقمة، عن عبد الله -هو ابن مسعود-قال: لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات، والمُتفلَجات للحُسْن، المغيرات خلق الله، عز وجل. قال: فبلغ امرأة في البيت يقال لها: "أم يعقوب"، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلت كيتَ وكيتَ. قال: ما لي لا ألعن من لعن رسولُ الله ﷺ ، وفي كتاب الله. فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيه فما وجدته. فقال: إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه. أما قرأت: { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } ؟ قالت: بلى. قال: فإن النبي ﷺ نهى عنه. قالت: [إني] لأظن أهلك يفعلونه. قال: اذهبي فانظري.فذهَبت فلم تر من حاجتها شيئا، فجاءت فقالت: ما رأيتُ شيئًا. قال: لو كانت كذلك لم تُجَامعنا.
أخرجاه في الصحيحين، من حديث سفيان الثوري .
وقد ثبت في الصحيحين أيضًا عن أبي هُرَيرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه". .

وقال النسائي: أخبرنا أحمد بن سعيد، حدثنا يزيد، حدثنا منصور بن حيان، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عُمَر وابن عباس: أنهما شهدا على رسول الله ﷺ : أنه نهى عن الدُّباء والحَنْتَم والنَّقير والمزَفَّت، ثم تلا رسول الله ﷺ : { وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } .

وقوله: { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } أي: اتقوه في امتثال أوامره وترك زواجره؛ فإنه شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره وأباه، وارتكب ما عنه زجره ونهاه.[171]

وقال السعدي : "{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا } وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبإضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: { وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } على من ترك التقوى، وآثر اتباع الهوى."[172]

وقال القاسمي : "{ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ } الآية ، عامّاً في كل ما آتى رسول الله ﷺ ونهى عنه . وأمر الفيء داخل في عمومه .

وفي " الإكليل " : فيه وجوب امتثال أوامره ونواهيه ﷺ .

قال العلماء : وكل ما ثبت عنه ﷺ ، يصح أن يقال : إنه في القرآن ، أخذاً من هذه الآية . انتهى .

وهذا الأخير من غلوّ الأثريين ، والإغراق في الاستنباط ."[173]

وقال ابن عاشور :

" وهذه الآية جامعة للأمر باتباع ما يصدر من النبي ﷺ من قول وفعل فيندرج فيها جميع أدلة السنة. وفي الصحيحين عن ابن مسعود أنه قال: قال رسول الله ﷺ "لعن الله

---

[171] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٨ / ٦٧)

[172] - تفسير السعدي - (١ / ٨٥٠)

[173] - محاسن التأويل تفسير القاسمي - (١٢ / ٣٥٥)

الواشمات والمستوشمات". .. الحديث. فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب فجاءته فقالت: بلغني أنك لعنت كيت وكيت فقال لها: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ وهو في كتاب الله؟ فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، أما قرأت: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} .

وعطف على هذا الأمر تحذير من المخالفة فأمرهم بتقوى الله فيما أمر به على لسان رسول الله ﷺ وعطف الأمر بالتقوى على الأمر بالأخذ بالأوامر وترك المنهيات يدل على أن التقوى هي امتثال الأمر واجتناب النهي. "[١٧٤]

وقال دروزة :

" مع أن هذه الجملة جاءت لتدعم تشريع الفيء الذي احتوته الجملة السابقة لها ثم لتوطيد سلطة النبي ﷺ في ذلك فإنها جاءت في صيغة مطلقة فصارت تشريعا عام الشمول بوجوب اتباع أوامر النبي ﷺ ونواهيه وسننه القولية والفعلية كجزء من العقيدة الإسلامية. وقد أكد هذا في آية أقوى في سورة النساء وهي : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً (٨٠) بالإضافة إلى آيات أخرى فيها تدعيم مثل آيات آل عمران [٣١ و٣٢] والنساء [٥٩ و٦٨] والنور [٥٢] والأحزاب [٧١] والفتح [١٧]. والجملة التي نحن في صددها والآيات التي أوردناها أو أشرنا إلى أرقامها تتضمن إيذانا من اللّه عزّ وجلّ بعصمة النبي ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه عن الأمر إلّا بما هو صالح وخير وعن النهي إلّا بما هو ضارّ وباطل.

وتنبيه على أن هذا ليس من شأنه أن يتناقض مع ما تضمنته بعض الآيات من عتاب للنبي ﷺ على بعض ما فعله. فهذا كان منه اجتهادا بأنه خير وصالح. ولم يكن يعلم ما هو الأولى في علم اللّه بدون وحي. ولقد كان النبي ﷺ يأمر وينهى كثيرا باجتهاد منه فكان القرآن يسكت عن ذلك مقرّا أو يؤيده نصّا أو يعاتب عليه ويوحي بما هو الأولى حسب مقتضى حكمة اللّه على ما شرحناه في مناسبات سابقة.

---

[١٧٤] - التحرير والتنوير لابن عاشور - (٢٨ / ٧٧)

وهناك أحاديث نبوية رواها أصحاب الصحاح في دعم ذلك وتوضيحه.
من ذلك حديث رواه الشيخان عن أبي هريرة عن النبي وأورده الأئمة والمفسرون في سياق الجملة التي نحن في صددها قال : «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»».
والأمر في حياة النبي ﷺ ميسور بالاستماع منه والرجوع إليه شخصيا. أما بعد وفاته فقد أصبح السير واجبا وفق ما روي وصحّ عنه من أوامر ونواه وسنن قولية وفعلية.
وهذا بطبيعة الحال يستتبع وجوب التثبيت فيما ينسب إليه من ذلك. ولقد يسّر اللّه رجالا مخلصين للّه ورسوله محّصوا ما نسب إليه من أحاديث ودونوا ما صحّ عندهم منها فصارت مرجعا عظيما من مراجع التشريع الإسلامي. ومن أهم الضوابط التي وضعها العلماء أن لا يكون بين ما نسب إليه وبين أحكام ومبادئ القرآن الثابتة والمحكمة الواضحة تعارض وتناقض. لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يأمر وينهى بما يتعارض مع الأحكام والمبادئ القرآنية والأحاديث النبوية الواردة في شؤون وأحكام قرآنية تدور على الأغلب حول تخصيص ما فيه إطلاق ، وتوضيح ما فيه غموض ، وإتمام ما يحتاج إلى إتمام ، وبيان ما سكت القرآن عن جزئياته وأشكاله وفروعه مثل عدد ركعات الصلوات وكيفياتها وأركانها ونصاب الزكاة على أنواع الأموال وبقية أنصبة الإرث التي تبقى في حالة وراثة النساء لآبائهن وإخوانهن وطقوس الحج إلخ .. إلخ .. وقد مرّ من ذلك أمثلة كثيرة وسيأتي أمثلة أخرى في المناسبات الآتية. "[١٧٥]
وقال الخطيب : " قوله تعالى : « وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » هو إلفات للمؤمنين إلى ما ينبغى لهم من ولاء وطاعة للرسول ، وتقبّل ورضىّ ، بكل ما يقضى به النبىّ فى المؤمنين ، وخاصة وهم فى مواجهة هذه الفتنة المطلة عليهم من المال الذي وضعه اللّه فى يد الرسول .. فهناك كثير من الأعين ترنو إلى هذا المال ، وكثير من القلوب تتلفت إليه ، وإنه لن يعصم المسلم ــ من هذه الفتنة ، إلا الإيمان الوثيق ، والرضا المطلق ، بكل ما يقضى به الرسول : « وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا

---

[١٧٥] - التفسير الحديث لدروزة- موافق للمطبوع - (٧ / ٣١١)

» .. فهذا هو حقّ الرسول على المؤمنين : الامتثال والطاعة من غير مراجعة ، ولا توقف ، أو ريبة ..

وقوله تعالى : « وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ ». . وعيد لمن تحدثه نفسه من المؤمنين بالخروج عن أمر الرسول ، أو الضّيق به ، فإن ذلك معناه الكفر ، والانسلاخ من الإيمان .. وليس للكافرين إلا النار ، هى حسبهم ، وبئس المصير[١٧٦]

وفي التفسير المنير : " قوله تعالى : وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ ... دليل واضح على وجوب امتثال جميع أوامر الرسول ﷺ ، واجتناب جميع نواهيه ، فإنه لا يأمر إلا بصلاح ، ولا ينهى إلا عن فساد.

وقد استدل الصحابة كابن مسعود وغيره بتحريم أشياء عملا بنهي النبي ﷺ عنها ، كتحريم الوشم والتنمص (نتف شعر الوجه) وتفليج الأسنان ، وجواز قتل الزّنبور في الإحرام ، اقتداء فيه بعمر الذي أمر النبي ﷺ بالاقتداء به في قوله : «اقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر»

وأمر اللّه سبحانه بقبول قول النبي ﷺ . ويؤكده قوله ﷺ - فيما يرويه ابن ماجه عن أبي هريرة - : «ما أمرتكم به فخذوه ، وما نهيتكم عنه فانتهوا». وأمر الرسول ﷺ أمر اللّه تعالى ، قال تعالى : مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ [النساء ٤/ ٨٠] وعن أبي رافع رضي اللّه عنه أن رسول اللّه ﷺ قال : «لا ألفين أحدكم متكئا على أريكته ، يأتيه أمري مما أمرت به أو نهيت عنه ، فيقول : لا أدري ، ما وجدناه في كتاب اللّه اتبعناه»[١٧٧]

وقال بعض العلماء وفي الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة في كل الأمور.[١٧٨]

وفي الظلال : " فأما القاعدة الثانية - قاعدة تلقي الشريعة من مصدر واحد : «وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا» .. فهي كذلك تمثل النظرية الدستورية

---

[١٧٦] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١٤ / ٨٥٨)

[١٧٧] - التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع - (٢٨ / ٨٩) وتفسير الشيخ المراغى ـــ موافقا للمطبوع - (٢٨ / ٣٩)

[١٧٨] - التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي - (١٤ / ٢٩٥) ووقال بعض العلماء وفي الآية دليل على وجوب الأخذ بالسنن الصحيحة في كل الأمور.

الإسلامية. فسلطان القانون في الإسلام مستمد من أن هذا التشريع جاء به الرسول – ﷺ – قرآنا أو سنة. والأمة كلها والإمام معها لا تملك أن تخالف عما جاء به الرسول. فإذا شرعت ما يخالفه لم يكن لتشريعها هذا سلطان ، لأنه فقد السند الأول الذي يستمد منه السلطان .. وهذه النظرية تخالف جميع النظريات البشرية الوضعية ، بما فيها تلك التي تجعل الأمة مصدر السلطات ، بمعنى أن للأمة أن تشرع لنفسها ما تشاء ، وكل ما تشرعه فهو ذو سلطان. فمصدر السلطات في الإسلام هو شرع اللّه الذي جاء به الرسول – ﷺ – والأمة تقوم على هذه الشريعة وتحرسها وتنفذها – والإمام نائب عن الأمة في هذا – وفي هذا تنحصر حقوق الأمة. فليس لها أن تخالف عما آتاها الرسول في أي تشريع.

فأما حين لا توجد نصوص فيما جاء به الرسول بخصوص أمر يعرض للأمة فسبيلها أن تشرع له بما لا يخالف أصلا من أصول ما جاء به الرسول. وهذا لا ينقض تلك النظرية ، إنما هو فرع عنها. فالمرجع في أي تشريع هو أن يتبع ما جاء به الرسول إن كان هناك نص. وألا يخالف أصلا من أصوله فيما لا نص فيه. وتنحصر سلطة الأمة – والإمام النائب عنها – في هذه الحدود. وهو نظام فريد لا يماثله نظام آخر مما عرفته البشرية من نظم وضعية. وهو نظام يربط التشريع للناس بناموس الكون كله. وينسق بين ناموس الكون الذي وضعه اللّه له والقانون الذي يحكم البشر وهو من اللّه. كي لا يصطدم قانون البشر بناموس الكون ، فيشقى الإنسان أو يتحطم أو تذهب جهوده أدراج الرياح! وتربط الآية هاتين القاعدتين في قلوب المؤمنين بمصدرهما الأول .. وهو اللّه .. فتدعوهم إلى التقوى وتخوفهم عقاب اللّه : «وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ» .. وهذا هو الضمان الأكبر الذي لا احتيال عليه ، ولا هروب منه. فقد علم المؤمنون أن اللّه مطلع على السرائر ، خبير بالأعمال ، وإليه المرجع والمآب. وعلموا أنه شديد العقاب. وعلموا أنهم مكلفون ألا يكون المال دولة بينهم ، وأن يأخذوا ما آتاهم الرسول عن رضى وطاعة ، وأن ينتهوا عما نهاهم عنه في غير ترخص ولا تساهل وأمامهم يوم عصيب .."[١٧٩]

---

[١٧٩] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٣٥٢٥)

وفي قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ الحجرات:٢.
قل ابن القيم: فإذا كان رفع صوتهم سبباً لحبوط أعمالكم فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه، أليس هذا أولى أن يكون محبطاً لأعمالهم؟![١٨٠].

قال الخطيب : " هو من تمام أدب المؤمنين مع رسول اللّه ، الذي ينبغى أن يكون صوته أعلى الأصوات ، وكلمته رائدة الكلمات وهاديتها .. ورفع الصوت بين يدى النبي ، فيه استخفاف ، وفيه تجرد من مشاعر الهيبة والإكبار ، وجفاف من عواطف الحب والولاء .. فالكلمات التي تصدر فى مقام الجلال والإكبار ، كلمات ضامرة ضاوية ، أمام ما يروعها من هيبة وجلال .. والكلمات التي تخرج من أفواه المحبين كلمات مستحيية ضارعة بين يدى من يحبّون ..
والمسلمون فى حضرة النبي الكريم ، يشهدون أروع آيات العظمة والجلال ، وحديثهم إليه ، إنما هو حديث يفيض من قلوب ملكها الحب ، وخالط شغافها ..
وإنه لا يجتمع مع هذا أن يرتفع صوت من مؤمن فى حضرة الرسول ، فإن ارتفع فلن يكون إلا دون صوت النبي ..
وقوله تعالى : « وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ».
المراد بالقول هنا ، ما يكون بين الأصدقاء والإخوان من معاتبات تنحلّ فيها عقد ألسنتهم ، ويجهرون فيها بما يتحرجون من الجهر به فى غير خلواتهم مع من يكونون على شاكلتهم ، وفى مستوى مكانتهم بين الناس ..
فالجهر بمثل هذا القول ، وإن لم يرتفع به الصوت فوق صوت النبي ، فيه دلالة على عدم الاحتشام والحياء فى حضرة رسول اللّه ، الأمر الذي لا يليق أن يكون من مؤمن باللّه ورسوله ، ولا يلتقى مع التوقير لرسول اللّه ، الذي دعا اللّه سبحانه المؤمنين إليه فى قوله سبحانه : « لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا »..

[١٨٠]- إعلام الموقعين عن رب العالمين - (١ / ٥٥)

وقوله تعالى : « أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ »..حبط الأعمال : إبطالها ، وحرمان أصحابها الثمرة المرجوة منها ..والسؤال هنا : كيف تحبط أعمالهم بعمل يعملونه ولا يشعرون بالآثار المترتبة عليه ؟ وهل يؤاخذ الإنسان على ما يعمله عن غفلة وجهل ؟ والجواب على هذا ـــ واللّه أعلم ـــ أن هذا تحذير من أن يكون من المؤمنين شيء من هذا المنهيّ عنه ، مستقبلا ، بعد أن نهاهم اللّه سبحانه وتعالى عنه .. فالمؤاخذة على ما نهوا عنه ، إنما تبدأ من بعد تلقّيهم هذا النهى ..

ولأن مثل رفع الصوت ، والجهر بالقول ، مما قد يكون من بعض الناس طبيعة لازمة ، أو عادة متحكمة ، فقد جاء هذا التحذير ليتنبه المؤمنون وهم بين يدى النبي ﷺ ، وليحرسوا أنفسهم من أن يتزلقوا ، تحت حكم الطبيعة أو العادة ، إلى هذا المتزلق الذي تضيع فيه أعمالهم الطيبة من غير أن يشعروا أنهم يأتون منكرا ، أو يقصدون إساءة أدب فى حضرة الرسول ﷺ !.

وهذا ، وإن كان من غير قصد ، هو مزلق إلى ما يكون عن قصد ، ووعي ، بعد أن يصبح ذلك عادة مألوفة .. "[١٨١]

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : حرمة النبي ﷺ ميتا كحرمته حيا ، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه ، فإذا قرئ كلامه وجب على كلّ حاضر ألا يرفع صوته عليه ، ولا يعرض عنه ، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به ، وقد نبّه اللَّه تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى : وَإِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا [الأعراف ٧/ ٢٠٤] وكلام النبي ﷺ من الوحي وله من الحرمة مثل ما للقرآن إلا معاني مستثناة ، بيانها في كتب الفقه "[١٨٢]

---

[١٨١] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١٣ / ٤٣٤) وانظر التحرير والتنوير لابـــن عاشـــور - (٢٦ / ١٨٥)

[١٨٢] - التفسير المنير ـــ موافقا للمطبوع - (٢٦ / ٢٢٢) وأحكام القرآن : ٤/ ١٧٠٣.

وفي السنَّة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنِّي قَدْ خَلَّفْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ ، لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا أَبَدًا مَا أَخَذْتُمْ بِهِمَا ، وَعَمِلْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللَّهِ ، وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَى الْحَوْضِ " [١٨٣]

وعَنْ مُحَمَّدِ بن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، بِالْجُحْفَةِ فَخَرَجَ عَلَيْنَا ، فَقَالَ : أَلَيْسَ تَشْهَدُونَ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟ قُلْنَا : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَبْشِرُوا فَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ ، فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، وَلا تُهْلَكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا."" [١٨٤].

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن يَزِيدَ، قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ:"الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَا حَلٌ مُصَدَّقٌ، فَمَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ". "[١٨٥].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ : كتاب الله، هو حبل الله الممدودُ من السماء إلى الأرض. "[١٨٦].

وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِيكَرِبَ الْكِنْدِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « يُوشِكُ الرَّجُلُ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يُحَدَّثُ بِحَدِيثٍ مِنْ حَدِيثِى فَيَقُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ اسْتَحْلَلْنَاهُ وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ مِنْ حَرَامٍ حَرَّمْنَاهُ. أَلاَ وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ »[١٨٧].

وعَنِ الزُّهْرِىِّ أَخْبَرَنِى أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « مَنْ أَطَاعَنِى فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِى فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِى فَقَدْ أَطَاعَنِى ، وَمَنْ عَصَى أَمِيرِى فَقَدْ عَصَانِى » . متفق عليه[١٨٨].

---

[١٨٣] – شَرْحُ مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ لِابْنِ شَاهِينَ (٤٣) ومسند البزار كاملا – (٢ / ٤٧٩) (٨٩٩٣) صحيح لغيره

[١٨٤] – المعجم الكبير للطبراني – (٢ / ١٦٣) (١٥٢٠) وكشف الأستار – (١ / ٧٧) (١٢٠) والصحيحة (٧١٣) وصحيح الجامع (٣٤) صحيح لغيره

[١٨٥] – المعجم الكبير للطبراني – (٨ / ٣٨) (٨٥٧٣ و١٠٢٩٨) صحيح

[١٨٦] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة – (٧ / ٧٢) (٧٥٧٢) والصحيحة(٢٠٢٤) وصحيح الجامع (٤٤٧٣) صحيح لغيره

[١٨٧] – سنن ابن ماجه– المكنز – (١ / ١٥) (١٢) صحيح

[١٨٨] – صحيح البخارى– المكنز – (٧١٣٧) وصحيح مسلم– المكنز – (٤٨٥٢)

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ "؟ قَالُوا: بَلَى نَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: " أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ أَنَّهُ مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ؟ قَالُوا: بَلَى، نَشْهَدُ أَنَّهُ مَنْ أَطَاعَكَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، قَالَ: " فَإِنَّ مِنْ طَاعَةِ اللهِ أَنْ تُطِيعُونِي، وَإِنَّ مِنْ طَاعَتِي أَنْ تُطِيعُوا أَئِمَّتَكُمْ، وَإِنْ صَلُّوا قُعُودًا، فَصَلُّوا قُعُودًا أَجْمَعِينَ "[١٨٩]

وغيرها كثير من النصوص التي تدلُّ على وجوب اتباع الكتاب والسنَّة والتحاكم إليهما من غير تعقيب أو استدراك أو اعتراض أو تقديم بين يدي الله ورسوله بقول أو فهم، وهذا من لوازم الإيمان وشروط صحته.

وشاهدنا من جميع ما تقدم أنَّ صفة اتباع الكتاب والسنَّة وفهمهما على النهج الذي كان عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، هي من أبرز وأهم صفات الطائفة الظاهرة المنصورة التي تميزها بها عمن سواها، كما أن جميع صفات الطائفة المنصورة الأخرى هي مستمدةٌ من هذه الصفة، وتابعة لها، وتعتمد عليها اعتماداً رئيسياً.

==================

[١٨٩] - تفسير ابن المنذر - (٢ / ٨٠١) (٢٠٣٤) صحيح

٢ ـــ الصفة الثانية: الجهاد في سبيل الله.

وهي الصفة الثانية من صفات الطائفة الظاهرة المنصورة، وهي صفة تكاد تُعرف بهم ويعرفون بها، ملازمةٌ لهم ملازمة الظل للظليل، لا تنفكُّ عنهم في أي حال من الأحوال، وإذا ما حيل بينهم ـــ لظرف طارئ ـــ وبين الجهاد في سبيل الله، ترى همهم وشغلهم الشاغل العمل من أجل إزالة هذا الحائل والمانع، ليستأنفوا القتال والجهاد في سبيل الله من جديد.

تراهم يتتبعون الثغور والجبهات .. فإن أُغلق ثغرٌ .. فتحوا ثغراً آخر لإحياء فريضة الجهاد في سبيل الله.

تظهر هذه الصفة فيهم ظهوراً جلياً واضحاً ـــ يخرسُ ألسنة كل جبان خوار ـــ في قوله ﷺ واصفاً حالهم:" لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ خِذْلاَنُ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "[١٩٠].

وفي قوله ﷺ:" « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ »[١٩١]".

وعَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِىِّ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ وَوَضَعُوا السِّلاَحَ وَقَالُوا لاَ جِهَادَ قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِوَجْهِهِ وَقَالَ « كَذَبُوا الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ وَلاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِى أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَحَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِى نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يُوحَى إِلَىَّ أَنِّى مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِى أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ »[١٩٢].

---

[١٩٠] - صحيح ابن حبان - (١ / ٢٦١) (٦١) صحيح

[١٩١] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٢)

[١٩٢] - سنن النسائي- المكنز - (٣٥٧٦) صحيح -الأفناد : جمع الفند أى جماعات متفرقين قوما بعد قوم

وفي قوله ﷺ:" لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ خِذْلاَنُ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "[١٩٣]. وغيرها من الأحاديث العديدة التي تقدم ذكرها.

وكذلك في قوله تعالى:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾المائدة:٥٤.

قال الخطيب : "بعد هذه المراقبة التي اطلع منها المسلمون على هؤلاء المنافقين الذين ارتدّوا على أدبارهم ، وألقوا بأنفسهم فى مجتمع اليهود وغيرهم ، ممن يكيدون للإسلام ، ويبيّتون الشرّ للمسلمين ، وبعد أن عاين المسلمون ما وقع أو ما سيقع للمنافقين من سوء حال وشر منقلب ، وخسران للدنيا والآخرة ـــ بعد هذا كان على المسلمين أن يراقبوا أنفسهم ، وأن يأخذوا حذرهم من أن يردوا هذا المورد الآسن الآثم .. فجاء قوله تعالى : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ » منبها لهم ومحذّرا ، أن من يرتدّ منهم عن دينه كما ارتدّ هؤلاء المنافقون الذين عرفوا أمرهم ومصيرهم ، فستكون عاقبة المرتد منهم هى نفس عاقبة أولئك المنافقين : النّدم والحسرة والخزي والخسران المبين ..

والارتداد ، معناه الرجوع إلى وراء ، والعودة من المكان الذي كان قد تحرك منه المرتدّ إلى الأمام .. وهذا يعنى أنه يهدم ما بنى ، وينقض ما غزل ولا يفعل ذلك إلا سفيه أحمق!

وفى إضافة الدّين إلى المؤمن ، وبلفظ المفرد. هكذا : « عَنْ دِينِهِ » ما يلفت المؤمن إلى هذا الدين الذي دخل فيه ، وأصبح من أهله ، وأنه دينه هو ، وثمرته عائدة عليه وحده ، وأنه الدّين الذي ينبغى أن يعيش فيه ، ويشتدّ حرصه عليه.إذ هو الدين الذي يدين به كل عاقل .. إنه دينه ، إن كان من أهل العقل والرشاد.

وقوله تعالى : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ » هو معطوف على جواب الشرط ، وليس جوابا للشرط ، وإن كانت الفاء الواقعة فى جواب الشرط تشير إلى هذا الجواب ..ويكون معنى الآية هكذا : يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسيلقى

---

[١٩٣] - صحيح ابن حبان - (١ / ٢٦١) (٦١) صحيح

مالقى هؤلاء المنافقون الذين ارتدوا ، من نكال وبلاء وسوء مصير ، ثم إنّه لن يضرّ اللّه شيئا ، ولن يضير المسلمين فى شىء ، لأنه سيخلى مكانه ، الذي كان له فى الإسلام ، ليأخذه من هو أولى به منه ، وأكرم عند اللّه ، وأكثر نفعا للمسلمين ، وأعظم غناء فى الإسلام .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ... » الآية.

وهؤلاء القوم الذين سيأتى اللّه بهم ، ويدخلهم فى دينه ، قد وصفوا بأوصاف أربعة :

أولا : يحبهم اللّه ويحبونه ..

وحبّ اللّه لهم : دعوتهم إلى الإسلام ، وشرح صدورهم له ، وتثبيت أقدامهم فيه .. لأنه سبحانه وتعالى هو الذي أحبّهم ، وهو الذي اختارهم ودعاهم .. وهذا فضل عظيم ، ودرجة من الرضا ، لا ينالها إلا من أكرمه اللّه ، واستضافه ، وخلع عليه حلل السعادة والرضوان .. جعلنا اللّه من أهل محبته ، وضيافته.

أما حبّهم هم للّه ، فهو فى استجابة دعوته ، وامتثال أمره ، والولاء له ، ولرسوله وللمؤمنين ..

ثانيا : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ».إجماع المفسّرين على أن هذا الوصف ، هو وصف لهؤلاء القوم بعد أن دخلوا فى الإسلام ، فكانت تلك صفتهم ، وهذا سلوكهم فيه .. « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » أي متخاضعين للمؤمنين ، لا يلقونهم إلا باللّين والتواضع .. « أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ » أي أشدّاء وأقوياء ، لا يلقى منهم أهل الكفر إلا بلاء فى القتال ، واستبسالا فى الحرب .. أما فى السّلم فهم جبال راسخة فى الإيمان ..

لا ينال أحد منهم نيلا فى دينه ، ولا يطمع أحد من أعداء الإسلام فى موالاتهم أو فى تعاطفهم معه.

هذا هو إجماع المفسّرين فى فهم هذا المقطع من الآية ، ويشهدون لذلك بقوله تعالى : « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ » (٢٩ : الفتح) ومع هذا ، فإنى أستريح لفهم آخر ، غير هذا الفهم .. أرى أنه يفتح لهذا المقطع آفاقا أرحب من هذا الأفق الذي حصره المفسرون فيه ، وأطلعوه منه.

فأقول ــ واللّه أعلم ــ إن هذا الوصف هو وصف لهؤلاء القوم الذين سوف يدعوهم اللّه سبحانه وتعالى إليه ، وييسّر لهم الطريق إلى دينه.

وفى قوله تعالى « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ » ــ نرى :

١ ــ أن هؤلاء القوم المدعوّين إلى ضيافة اللّه هم من الذين كانوا يستخفّ بهم مؤمنون ، ويحقرونهم ، لأنهم كانوا على عداوة ظاهرة للإسلام ، وعلى كيد عظيم للمسلمين .. فهم ــ والحال كذلك ــ ميئوس من دخولهم فى الإسلام ، لا يطمع المسلمون فى أن يكونوا معهم فى يوم ما ، وعلى هذا ، فهم لا حساب لهم فى الإسلام عند المسلمين ، ثم هم فى الوقت نفسه « أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ » إذ كانوا سندا قويا لهم فى مواجهة الإسلام والمسلمين.

وحسبنا أن نذكر هنا خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبى سفيان ، وقد كانا هما للّذين كسبا معركة أحد لقريش ، بعد أن كادت الدائرة تدور عليهم.ثم دخلا بعد ذلك فى الإسلام فكانا درعين حصينين للإسلام ، وقوة من القوى التي استند عليها فى هزيمة الكفر ، وإعلاء كلمة اللّه .. كانا أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين .. هكذا كانا قبل أن يدخلا فى الإسلام.

٢ ــ أن فى هذا العرض لهؤلاء القوم الذين لم يكن أحد ينتظر منهم خيرا للإسلام ، ثم إذا هم خير كثير له بعد أن دخلوا فيه ــ فى هذا ما يغرى أولئك المسلمين الذين تتلجلج فى صدورهم دواعى النفاق ، أن يستمسكوا بمكانهم فى الإسلام ، وأن يرسّخوا أقدامهم فيه ، حتى لا يأخذ مكانهم أولئك القوم ، الذين ينظرون إليهم نظر اتهام وازدراء ، إذا كانوا حربا على الإسلام والمسلمين ..

٣ ــ حين ينظر المنافقون إلى هذا المقطع من الآية الكريمة ــ على هذا الفهم ــ ويرون أن رؤوس الكافرين ، وأهل العزّة فيهم سيكونون يوما فى جانب المسلمين ــ حين يرون هذا يفكرون أكثر من مرة قبل أن يلوذوا بحمى هؤلاء الأعزة الأقوياء ، ويرون أن من الخير لهم أن ينتظروهم على الطريق وهم متجهون إلى دين اللّه! ٤ ــ فى هذا الفهم تبدو هناك طريق مفتوحة دائما لمن يكيدون للإسلام ــ وهم غالبا أصحاب دولة وصولة فى مجتمع

الكفر والضلال ـــ ينفذون منها إلى الإسلام ، ويعطون من قوتهم له ، ما أعطوه من قبل فى حربه ، وعداوته ..

وفى عمر بن الخطاب شاهد مبين لهذا.وهكذا ، يصبح من كان عدوا للّه ولرسوله وللمؤمنين ، وليّا للّه ، متابعا لرسول اللّه ، مجاهدا فى سبيل اللّه ، على حين يتحول من كان ـــ فى ظاهره ـــ مواليا للّه ، ولرسوله ، ولدينه ، عدوا اللّه ، ولرسوله ، وحربا على دينه ..فهناك طريقان : طريق .. يستقبل منه الإسلام ، أقواما كانوا أعداء له وحربا عليه .. وطريق .. يتسلل منه جماعات من المسلمين ، إلى حيث الكفر والضلال ..

ثالثا : « يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ».هذه صفة ثالثة من صفات أولئك الداخلين فى الإسلام ، المدعوين إلى ضيافة اللّه فيه ، بعد أن طرد من ضيافته أولئك المنافقين ومن فى قلوبهم مرض.

فهؤلاء المسلمون الجدد : « يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » ويدفعون عن الإسلام والمسلمين يد البغي والعدوان ، ويعطون ولاءهم كله لدينهم الذي دعاهم اللّه إليه ، وارتضاهم له .. لا يضنّون عليه بأموالهم ولا بأرواحهم.

رابعا : « لا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ».ومن صفاتهم أنهم فى إيمانهم ، وفى جهادهم فى سبيل اللّه ، لا ينظرون إلى غير اللّه ، ولا يلتفتون إلّا إلى نصرة دين اللّه ، لا يثنيهم عن ذلك لوم لائم ، من قريب أو صديق ، ممن بقي على الكفر من أقاربهم وأصدقائهم .. إنهم باعوا كل شىء ، وتخلّو عن كل شىء ، إلا إيمانهم باللّه ، ونصرتهم لدين اللّه.

وفى قوله تعالى : « ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ » إشارة إلى أن هذا الذي يجرى فى حياة الناس ، من تحول وتبدل ، فيتحول أهل الكفر والضلال إلى الهدى والإيمان ، هو من فضل اللّه ، الذي استنقذ به أولئك الضالين الذين كانوا على شفا حفرة من النار .. وهذا الفضل هو بيد اللّه ، لا يملك أحد منه شيئا « يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ » ويصرفه عمن يشاء .. « وَاللَّهُ واسِعٌ » لا يضيق فضله بأحد ، ولا تنفذ خزائنه بالإنفاق .. «

عليم » بمن هم أهل لهذا الفضل ، فخصّهم به ، واجتباهم له .. « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ».[194]

وفي الظلال : " إن تهديد من يرتد عن دينه من الذين آمنوا – على هذه الصورة. وفي هذا المقام – ينصرف – ابتداء – إلى الربط بين موالاة اليهود والنصارى وبين الارتداد عن الإسلام. وبخاصة بعد ما سبق من اعتبار من يتولاهم واحدا منهم ، منسلخا من الجماعة المسلمة منضما إليهم : «وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» .. وعلى هذا الاعتبار يكون هذا النداء الثاني في السياق توكيدا وتقريرا للنداء الأول .. يدل على هذا كذلك النداء الثالث الذي يلي هذا النداء والسياق ، وهو منصب على النهي عن موالاة أهل الكتاب والكفار ، يجمع بينهم على هذا النحو ، الذي يفيد أن موالاتهم كموالاة الكفار سواء ، وأن تفرقة الإسلام في المعاملة بين أهل الكتاب والكفار ، لا تتعلق بقضية الولاء ، إنما هي في شئون أخرى لا يدخل فيها الولاء ..

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ. ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ» ..

إن اختيار اللّه للعصبة المؤمنة ، لتكون أداة القدر الإلهي في إقرار دين اللّه في الأرض ، وتمكين سلطانه في حياة البشر ، وتحكيم منهجه في أوضاعهم وأنظمتهم ، وتنفيذ شريعته في أقضيتهم وأحوالهم ، وتحقيق الصلاح والخير والطهارة والنماء في الأرض بذلك المنهج وبهذه الشريعة .. إن هذا الاختيار للنهوض بهذا الأمر هو مجرد فضل اللّه ومنته. فمن شاء أن يرفض هذا الفضل وأن يحرم نفسه هذه المنة .. فهو وذاك. واللّه غني عنه – وعن العالمين. واللّه يختار من عباده من يعلم أنه أهل لذلك الفضل العظيم. والصورة التي يرسمها للعصبة المختارة هنا ، صورة واضحة السمات قوية الملامح ، وضيئة جذابة حبيبة للقلوب : «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» ..

[194] – التفسير القرآني للقرآن ــــ موافقا للمطبوع – (٣ / ١١١٩)

فالحب والرضى المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم .. الحب .. هذا الروح الساري اللطيف الرفاف المشرق لرائق البشوش .. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب اللّه لعبد من عبيده ، أمر لا يقدر على إدراك قيمته إلا من يعرف اللّه – سبحانه – بصفاته كما وصف نفسه ، وإلا من وجد إيقاع هذه الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها .. أجل لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي .. الذي يعرف من هو اللّه .. من هو صانع هذا الكون الهائل ، وصانع الإنسان الذي يلخص الكون وهو جرم صغير! من هو في عظمته. ومن هو في قدرته. ومن هو في تفرده.

ومن هو في ملكوته .. من هو ومن هذا العبد الذي يتفضل اللّه عليه منه بالحب .. والعبد من صنع يديه – سبحانه – وهو الجليل العظيم ، الحي الدائم ، الأزلي الأبدي ، الأول والآخر والظاهر والباطن.

وحب العبد لربه نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها .. وإذا كان حب اللّه لعبد من عبيده أمرا هائلا عظيما ، وفضلا غامرا جزيلا ، فإن إنعام اللّه على العبد بهدايته لحبه وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد ، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه .. هو إنعام هائل عظيم .. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب اللّه لعبد من عبيده أمرا فوق التعبير أن يصفه ، فإن حب العبد لربه أمر قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين .. وهذا هو الباب الذي تفوق فيه الواصلون من رجال التصوف الصادقين – وهم قليل من بين ذلك الحشد الذي يلبس مسوح التصوف ويعرف في سجلهم الطويل – ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد ، وهي تقول :

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

وهذا الحب من الجليل للعبد من العبيد ، والحب من العبد للمنعم المتفضل ، يشيع في هذا الوجود ويسري في هذا الكون العريض ، وينطبع في كل حي وفي كل شي ء ، فإذا هو

جو وظل يغمران هذا الوجود ، ويغمران الوجود الإنساني كله ممثلا في ذلك العبد المحب المحبوب ..

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب .. وليست مرة واحدة ولا فلتة عابرة .. إنما هو أصل وحقيقة وعنصر في هذا التصور أصيل : «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» .. «إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» .. «وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ» .. «وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ» .. «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ» .. «قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» .. وغيرها كثير ...

وعجبا لقوم يمرون على هذا كله ، ليقولوا : إن التصور الإسلامي تصور جاف عنيف ، يصور العلاقة بين اللّه والإنسان علاقة قهر وقسر ، وعذاب وعقاب ، وجفوة وانقطاع ... لا كالتصور الذي يجعل المسيح ابن اللّه وأقنوم الإله ، فيربط بين اللّه والناس ، في هذا الازدواج! إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، لا تجفف ذلك الندى الحبيب بين اللّه والعبيد ، فهي علاقة الرحمة كما أنها علاقة العدل ، وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد ، وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه .. إنه التصور الكامل الشامل لكل حاجات الكينونة البشرية في علاقتها برب العالمين.

وهنا - في صفة العصبة المؤمنة المختارة لهذا الدين - يرد ذلك النص العجيب : «يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» ويطلق شحنته كلها في هذا الجو ، الذي يحتاج إليه القلب المؤمن ، وهو يضطلع بهذا العبء الشاق. شاعرا أنه الاختيار والتفضل والقربى من المنعم الجليل ..

ثم يمضي السياق يعرض بقية السمات : «أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» ..وهي صفة مأخوذة من الطواعية واليسر واللين .. فالمؤمن ذلول للمؤمن .. غير عصيّ عليه ولا صعب.هين لين .. ميسر مستجيب .. سمح ودود .. وهذه هي الذلة للمؤمنين.

وما في الذلة للمؤمنين من مذلة ولا مهانة. إنما هي الأخوة ، ترفع الحواجز ، وتزيل التكلف وتخلط النفس بالنفس ، فلا يبقى فيها ما يستعصي وما يحتجز دون الآخرين.

إن حساسية الفرد بذاته متحوصلة متحيزة هي التي تجعله شموسا عصيا شحيحا على أخيه. فأما حين يخلط نفسه بنفوس العصبة المؤمنة معه ، فلن يجد فيها ما يمنعه وما يستعصي به .. وماذا يبقى له في نفسه دونهم ، وقد اجتمعوا في اللّه إخوانا يحبهم ويحبونه ، ويشيع هذا الحب العلوي بينهم ويتقاسمونه؟! «أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ» ..

فيهم على الكافرين شماس وإباء واستعلاء .. ولهذه الخصائص هنا موضع .. إنها ليست العزة للذات ، ولا الاستعلاء للنفس. إنما هي العزة للعقيدة ، والاستعلاء للراية التي يقفون تحتها في مواجهة الكافرين. إنها الثقة بأن ما معهم هو الخير ، وأن دورهم هو أن يطوعوا الآخرين للخير الذي معهم لا أن يطوعوا الآخرين لأنفسهم ولا أن يطوعوا أنفسهم للآخرين وما عند الآخرين! ثم هي الثقة بغلبة دين اللّه على دين الهوى وبغلبة قوة اللّه على تلك القوى وبغلبة حزب اللّه على أحزاب الجاهلية .. فهم الأعلون حتى وهم ينهزمون في بعض المعارك ، في أثناء الطريق الطويل ..

«يُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ» ..فالجهاد في سبيل اللّه ، لإقرار منهج اللّه في الأرض ، وإعلان سلطانه على البشر ، وتحكيم شريعته في الحياة ، لتحقيق الخير والصلاح والنماء للناس .. هي صفة العصبة المؤمنة التي يختارها اللّه ليصنع بها في الأرض ما يريد ..

وهم يجاهدون في سبيل اللّه لا في سبيل أنفسهم ولا في سبيل قومهم ولا في سبيل وطنهم ولا في سبيل جنسهم .. في سبيل اللّه. لتحقيق منهج اللّه ، وتقرير سلطانه ، وتنفيذ شريعته ، وتحقيق الخير للبشر عامة عن هذا الطريق .. وليس لهم في هذا الأمر شي ء ، وليس لأنفسهم من هذا حظ ، إنما هو للّه وفي سبيل اللّه بلا شريك ..

وهم يجاهدون في سبيل اللّه ولا يخافون لومة لائم .. وفيم الخوف من لوم الناس ، وهم قد ضمنوا حب رب الناس؟ وفيم الوقوف عند مألوف الناس ، وعرف الجيل ، ومتعارف الجاهلية ، وهم يتبعون سنة اللّه ، ويعرضون منهج اللّه للحياة؟ إنما يخشى لوم الناس من يستمد مقاييسه وأحكامه من أهواء الناس ومن يستمد عونه ومدده من عند الناس أما من

يرجع إلى موازين اللّه ومقاييسه وقيمه ليجعلها تسيطر على أهواء الناس وشهواهم وقيمهم وأما من يستمد قوته وعزته من قوة اللّه وعزته ، فما يبالي ما يقول الناس وما يفعلون.
كائنا هؤلاء الناس ما كانوا وكائنا واقع هؤلاء الناس ما كان ، وكائنة «حضارة» هؤلاء الناس وعلمهم وثقافتهم ما تكون! إننا نحسب حسابا لما يقول الناس ولما يفعل الناس ولما يملك الناس ولما يصطلح عليه الناس ولما يتخذه الناس في واقع حياهم من قيم واعتبارات وموازين .. لأننا نغفل أو نسهو عن الأصل الذي يجب أن نرجع إليه في الوزن والقياس والتقويم .. إنه منهج اللّه وشريعته وحكمه .. فهو وحده الحق وكل ما خالفه فهو باطل ولو كان عرف ملايين الملايين ، ولو أقرته الأجيال في عشرات القرون! إنه ليست قيمة أي وضع ، أو أي عرف ، أو أي تقليد ، أو أية قيمة .. أنه موجود وأنه واقع وأن ملايين البشر يعتنقونه ، ويعيشون به ، ويتخذونه قاعدة حياهم .. فهذا ميزان لا يعترف به التصور الإسلامي.
إنما قيمة أي وضع ، وأي عرف ، وأي تقليد ، وأية قيمة ، أن يكون لها أصل في منهج اللّه ، الذي منه - وحده - تستمد القيم والموازين ..
ومن هنا تجاهد العصبة المؤمنة في سبيل اللّه ولا تخاف لومة لائم .. فهذه سمة المؤمنين المختارين ..
ثم إن ذلك الاختيار من اللّه ، وذلك الحب المتبادل بينه وبين المختارين ، وتلك السمات التي يجعلها طابعهم وعنوانهم ، وهذا الاطمئنان إلى اللّه في نفوسهم ، والسير على هداه في جهادهم .. ذلك كله من فضل اللّه.
«ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ. وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ».
يعطي عن سعة ، ويعطي عن علم .. وما أوسع هذا العطاء الذي يختار اللّه له من يشاء عن علم وعن تقدير. "[١٩٥]
فهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون في الله لومة لائم، وهذا عين ما وصفت به الطائفة المنصورة في الأحاديث الآنفة الذكر.

---

[١٩٥] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٩١٧)

وقال تعالى:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ آل عمران:١٤٦ .

قال الخطيب : " فى الآيات السابقة كان من اللّه ، هذا العتاب الرفيق ، الذي يحمل الإعتاب والرضا ، ويسوق الإحسان والرحمة ، ويبعث فى صدور المسلمين دفء الأمل بالنصر للإسلام ، والإعزاز للمسلمين ، فيجدون فى هذا كلّه العزاء الجميل لما أصابهم من جراح ، فى أجسامهم ، ولما وقع فى نفوسهم من مرارة الهزيمة ، وعلوّ يد الكافرين عليهم فى هذه المعركة ، معركة أحد ..

وهنا ، فى قوله تعالى « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ » صورة اخرى من صور العزاء والتّسرية عن المسلمين ، بما تحمل إليهم كلمات اللّه من مواقف الإيمان والصّبر ، للمؤمنين فى الأمم التي خلت ، ممن صدّق الرسل وجاهد فى سبيل اللّه.

والرّبّيون : جمع ربّىّ ، وهو من آمن باللّه ، وأضاف نفسه إلى ربّه ، متوكلا عليه ، مستقيما على صراطه.

فكثير من هؤلاء المؤمنين من أتباع الرسل ، كانوا مع الأنبياء مجاهدين فى سبيل اللّه ، لم يهنوا ولم يضعفوا ، مهما نزل بهم من شدائد أو وقع عليهم من بلاء. وهؤلاء هم ممّن يحبّهم اللّه ويوسع لهم فى منازل رضوانه ورحمته :

« وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ » وفى قوله تعالى : « وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ » إشارة إلى ما ينبغى أن يكون عليه موقف المجاهدين الصابرين ، حين يكربهم الكرب ، ويشتدّ بهم البلاء .. لا يذكرون غير اللّه ، ولا يلتفتون إلا إليه ، طالبين عفوه ومغفرته ، وتثبيت أقدامهم فى موطن الجهاد ، حتى لا تنزع بهم نفوسهم إلى أن يولوا الأدبار ، وأن يطلبوا السلامة والنجاة.

وفى طلبهم أن يغفر اللّه لهم ذنوبهم ، وإسرافهم فى أمرهم ــ أي خروجهم عن سواء السبيل فى بعض أحوالهم ــ فى طلبهم هذا ، وفى جعله مفتتح دعائهم ، اعتراف ضمنىّ بأن شيئا ما دخل على إيمانهم ، فأدخل الوهن والضعف عليهم ــ وإن لم يهنوا ولم

يضعفوا ـــ وباعد بينهم وبين النصر المرجوّ على عدوهم .. فهم فى هذا الدعاء يضرعون إلى اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم ، وأن يتجاوز عن سيئاتهم ، فإذا استجاب اللّه لهم ذلك ، طهرت نفوسهم ، واستقامت طريقهم إلى اللّه ، واشتد قربهم منه ، وكان لهم أن يطلبوا إلى اللّه أن يثبت أقدامهم ، وأن يمسك بهم على هذا الطريق الذي استقاموا عليه ..

وهذه الحال التي تنكشف عن موقف المؤمنين من أتباع الرسل تلقى على المؤمنين الذين شهدوا أحدا ظلالا من الاتهام ، واللّوم ، والعتاب ، لما وقع فى نفوس بعضهم ، وما جرى على ألسنة بعض آخر .. من وساوس الشك والريبة ..فقال قائل : « أَنَّى هذا ؟ » (١٦٥ : آل عمران) وقال آخرون : « لَوْ كانَ لَنا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ما قُتِلْنا هاهُنا » (١٥٤ : آل عمران) .. لقد نظر هؤلاء وأولئك إلى غير ما كان ينبغى أن ينظروا إليه .. لقد نظروا إلى غيرهم ، وألقوا باللائمة عليه .. و لم ينظروا إلى أنفسهم ليبحثوا عما وقع فيها من خلل ، كما كان يفعل المؤمنين قبلهم من أتباع الرسل ، حين تنزل بهم الشدائد ، وتتوالى عليهم المحن.

وفى قوله تعالى : « فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » مشهد كريم ، يعرض على أنظار المسلمين ، لمن آمن باللّه واستقام على طريقة ، حتى إذا استشعر أن يد اللّه قد تراخت عنه ، اتّهم نفسه ، وأيقن أن خللا وقع فى صلته باللّه ، فبادر فأصلحه ، وصالح اللّه ، فوجد العفو والمغفرة ، ثم أصاب النصر والظفر ..

وهؤلاء المؤمنون الذين جاهدوا مع رسل اللّه ، وكان شأنهم عند اشتداد المحن ، وقسوة البلاء ، العودة إلى اللّه بإصلاح أنفسهم ـــ هؤلاء قد أعزّهم اللّه فى الدنيا ، فكتب لهم النصر على عدوهم ، وأجزل لهم المثوبة والرضوان فى الآخرة ، لما كان منهم من صبر على البلاء ، وثبات فى وجه الموت."[١٩٦]

لقد كانت الهزيمة في «أحد» ، هي أول هزيمة تصدم المسلمين ، الذين نصرهم اللّه ببدر وهم ضعاف قليل فكأنما وقر في نفوسهم أن النصر في كل موقعة هو السنة الكونية. فلما أن صدمتهم أحد ، فوجئوا بالابتلاء كأنهم لا ينتظرونه! ولعله لهذا طال الحديث حول

[١٩٦] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٦٠٨)

هذه الواقعة في القرآن الكريم. واستطرد السياق يأخذ المسلمين بالتأسية تارة ، وبالاستنكار تارة ، وبالتقرير تارة ، وبالمثل تارة ، تربية لنفوسهم ، وتصحيحا لتصورهم ، وإعدادا لهم.

فالطريق أمامهم طويل ، والتجارب أمامهم شاقة ، والتكاليف عليهم باهظة ، والأمر الذي يندبون له عظيم.

والمثل الذي يضربه لهم هنا مثل عام ، لا يحدد فيه نبيا ، ولا يحدد فيه قوما. إنما يربطهم بموكب الإيمان ويعلمهم أدب المؤمنين ويصور لهم الابتلاء كأنه الأمر المطرد في كل دعوة وفي كل دين ويربطهم بأسلافهم من أتباع الأنبياء ليقرر في حسهم قرابة المؤمنين للمؤمنين ويقر في أخلادهم أن أمر العقيدة كله واحد.

وأنهم كتيبة في الجيش الإيماني الكبير : «وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ. فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَما ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكانُوا» .... وكم من نبي قاتلت معه جماعات كثيرة. فما ضعفت نفوسهم لما أصابهم من البلاء والكرب والشدة والجراح. وما ضعفت قواهم عن الاستمرار في الكفاح ، وما استسلموا للجزع ولا للأعداء .. فهذا هو شأن المؤمنين ، المنافحين عن عقيدة ودين ..

«وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ» ..الذين لا تضعف نفوسهم ، ولا تتضعضع قواهم ، ولا تلين عزائمهم ، ولا يستكينون أو يستسلمون ..

والتعبير بالحب من اللّه للصابرين. له وقعه. وله إيحاؤه. فهو الحب الذي يأسو الجراح ، ويمسح على القرح ، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء. فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم. صورة الأدب في حق اللّه ، وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس ، ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه. ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى اللّه .. لا لتطلب النصر أول ما تطلب - وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس - ولكن لتطلب العفو والمغفرة ، ولتعترف بالذنب والخطيئة ، قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء : «وَما كانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قالُوا :

رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا ، وَإِسْرافَنا فِي أَمْرِنا ، وَثَبِّتْ أَقْدامَنا ، وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ» ..

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء. بل لم يطلبوا ثوابا ولا جزاء .. لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة. لقد كانوا أكثر أدبا مع اللّه ، وهم يتوجهون إليه ، بينما هم يقاتلون في سبيله. فلم يطلبوا منه - سبحانه - إلا غفران الذنوب ، وتثبيت الأقدام .. والنصر على الكفار. فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار .. إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق اللّه الكريم.

وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئا ، أعطاهم اللّه من عنده كل شيء. أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة. وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه : «فَآتاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيا ، وَحُسْنَ ثَوابِ الْآخِرَةِ» ..

وشهد لهم - سبحانه - بالإحسان. فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد ، وأعلن حبه لهم. وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب : «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» ..

وهكذا تنتهي هذه الفقرة في الاستعراض وقد تضمنت تلك الحقائق الكبيرة في التصور الإسلامي. وقد أدت هذا الدور في تربية الجماعة المسلمة. وقد ادخرت هذا الرصيد للأمة المسلمة في كل جيل ..[١٩٧]

فالربيون هنا هم الطائفة المنصورة الذين لا يعرفون الوهن والاستكانة، وهم صفوة الأمة من العلماء العاملين المجاهدين.

قال البغوي: { فَمَا وَهَنُوا } أي: فما جَبُنُوا، { لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا } عن الجهاد بما نالهم من ألم الجراح وقَتْل الأصحاب. { وَمَا اسْتَكَانُوا } قال مقاتل: وما استسلموا وما خضعوا لعدوهم وقال السدي: وما ذلوأ ٧١/أ قال عطاء وما تضرعوا وقال أبو العالية: وما جبنوا ولكنهم صبروا على أمر رَبِّهم وطاعة نبيهم وجهاد عدوهم، { وَاللَّه يُحِبّ الصَّابِرِينَ } ﴾[١٩٨].

---

[١٩٧] - فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع - (١ / ٤٨٨)

[١٩٨] - تفسير البغوي - (٢ / ١١٧)

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾آل عمران:١٠٤.

قال الخطيب : " علماء أهل الكتاب هم الذين أفسدوا على الناس دينهم ، فغيروا ، وبدلوا ، وحرفوا .. وهذه خيانة للّه ، وخيانة للعلم ، إذ كان العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم المؤتمنون على دعوة السماء ، بعد الرسل ، يعلّمون الجاهلين ، ويهدون الضالين ، ويقيمون المنحرفين ، فإذا تحول العلماء أنفسهم إلى أدوات هدم وتدمير فى المجتمع ، كانت المصيبة قاصمة مهلكة!

من أجل هذا ، كانت دعوة اللّه سبحانه وتعالى إلى الأمة الإسلامية ، أن تندّب منها أمة ، أي جماعة ، يتولون قيادة الناس ، وهدايتهم إلى سبل الرشاد ..

فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. وبهذا يقومون فى المجتمع مقام الأطباء ، الذين يرصدن الآفات والأمراض التي تعرض للناس ، فيعملون على دفعها ، والقضاء عليها .. ويمكن أن يكون قوله تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » دعوة للأمة الإسلامية كلها أن تكون على تلك الصفة .. أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر. ويكون معنى « من » فى « منكم » للبيان لا للتبعيض ، وهذا ما يناسب قول اللّه تعالى بعد هذه الآية : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. » (١١٠ : آل عمران) وسواء أكان الأمر موجها إلى الأمة الإسلامية كلها ، أو إلى جماعة العلماء المتخيّرة فيها ، فإنّ معطيات هذا الأمر واحدة ، حيث تكون الأمة كلها منقادة للقيادة الرشيدة فيها ، وهى جماعة العلماء العاملين بعلمهم ، الداعين إلى الخير ، الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، وبهذا تصبح الأمة كلها على هذا الطريق المستقيم.[١٩٩]

وفي الظلال :

[١٩٩] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٥٤٢)

" لا بد من جماعة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. لا بد من سلطة في الأرض تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. والذي يقرر أنه لا بد من سلطة هو مدلول النص القرآني ذاته.

فهناك «دعوة» إلى الخير. ولكن هناك كذلك «أمر» بالمعروف. وهناك «نهي» عن المنكر. وإذا أمكن أن يقوم بالدعوة غير ذي سلطان ، فإن «الأمر والنهي» لا يقوم بهما إلا ذو سلطان ..

هذا هو تصور الإسلام للمسألة .. إنه لا بد من سلطة تأمر وتنهى .. سلطة تقوم على الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر .. سلطة تتجمع وحداتها وترتبط بحبل اللّه وحبل الأخوة في اللّه .. سلطة تقوم على هاتين الركيزتين مجتمعتين لتحقيق منهج اللّه في حياة البشر .. وتحقيق هذا المنهج يقتضي «دعوة» إلى الخير يعرف منها الناس حقيقة هذا المنهج. ويقتضي سلطة «تأمر» بالمعروف «وتنهى» عن المنكر .. فتطاع .. واللّه يقول : «وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ» .. فمنهج اللّه في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان. فهذا شطر. أما الشطر الآخر فهو القيام بسلطة الأمر والنهي ، على تحقيق المعروف ونفي المنكر من الحياة البشرية ، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى وكل ذي شهوة وكل ذي مصلحة ، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول فيها كل امرئ برأيه وبتصوره ، زاعما أن هذا هو الخير والمعروف والصواب! والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – من ثم – تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، إذا نظرنا إلى طبيعته ، وإلى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ، وغرور بعضهم وكبريائهم.

وفيهم الجبار الغاشم. وفيهم الحاكم المتسلط. وفيهم الهابط الذي يكره الصعود. وفيهم المسترخي الذي يكره الاشتداد. وفيهم المنحل الذي يكره الجد. وفيهم الظالم الذي يكره العدل. وفيهم المنحرف الذي يكره الاستقامة ..

وفيهم وفيهم ممن ينكرون المعروف ، ويعرفون المنكر. ولا تفلح الأمة ، ولا تفلح البشرية ، إلا أن يسود الخير ، وإلا أن يكون المعروف معروفا ، والمنكر منكرا .. وهذا ما يقتضي سلطة للخير وللمعروف تأمر وتنهى ..

وتطاع ..

ومن ثم فلا بد من جماعة تتلاقى على هاتين الركيزتين : الإيمان باللّه والأخوة في اللّه. لتقوم على هذا الأمر العسير الشاق بقوة الإيمان والتقوى ثم بقوة الحب والألفة ، وكلتاهما ضرورة من ضرورات هذا الدور الذي ناطه اللّه بالجماعة المسلمة ، وكلفها به هذا التكليف. وجعل القيام به شريطة الفلاح. فقال عن الذين ينهضون به : «وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» ..

إن قيام هذه الجماعة ضرورة من ضرورات المنهج الإلهي ذاته. فهذه الجماعة هي الوسط الذي يتنفس فيه هذا المنهج ويتحقق في صورته الواقعية. هو الوسط الخير المتكافل المتعاون على دعوة الخير. المعروف فيه هو الخير والفضيلة والحق والعدل. والمنكر فيه هو الشر والرذيلة والباطل والظلم .. عمل الخير فيه أيسر من عمل الشر. والفضيلة فيه أقل تكاليف من الرذيلة. والحق فيه أقوى من الباطل. والعدل فيه أنفع من الظلم ..

فاعل الخير فيه يجد على الخير أعوانا. وصانع الشر فيه يجد مقاومة وخذلانا .. ومن هنا قيمة هذا التجمع ..إنه البيئة التي ينمو فيها الخير والحق بلا كبير جهد ، لأن كل ما حوله وكل من حوله يعاونه. والتي لا ينمو فيها الشر والباطل إلا بعسر ومشقة ، لأن كل ما حوله يعارضه ويقاومه.

والتصور الإسلامي عن الوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص .. يختلف في هذا كله عن التصورات الجاهلية اختلافا جوهريا أصيلا. فلا بد إذن من وسط خاص يعيش فيه هذا التصور بكل قيمه الخاصة. لا بد له من وسط غير الوسط الجاهلي ، ومن بيئة غير البيئة الجاهلية.

هذا الوسط الخاص يعيش بالتصور الإسلامي ويعيش له فيحيا فيه هذا التصور ، ويتنفس أنفاسه الطبيعية في طلاقة وحرية ، وينمو نموه الذاتي بلا عوائق من داخله تؤخر هذا النمو

أو تقاومه. وحين توجد هذه العوائق تقابلها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحين توجد القوة الغاشمة التي تصد عن سبيل اللّه تجد من يدافعها دون منهج اللّه في الحياة.

هذا الوسط يتمثل في الجماعة المسلمة القائمة على ركيزتي الإيمان والأخوة. الإيمان باللّه كي يتوحد تصورها للوجود والحياة والقيم والأعمال والأحداث والأشياء والأشخاص ، وترجع إلى ميزان واحد تقوّم به كل ما يعرض لها في الحياة ، وتتحاكم إلى شريعة واحدة من عند اللّه ، وتتجه بولائها كله إلى القيادة القائمة على تحقيق منهج اللّه في الأرض .. والأخوة في اللّه. كي يقوم كيانها على الحب والتكافل اللذين تختفي في ظلالهما مشاعر الأثرة ، وتتضاعف بهما مشاعر الإيثار. الإيثار المنطلق في يسر ، المندفع في حرارة ، المطمئن الواثق المرتاح.

وهكذا قامت الجماعة المسلمة الأولى - في المدينة - على هاتين الركيزتين .. على الإيمان باللّه : ذلك الإيمان المنبثق من معرفة اللّه - سبحانه - وتمثّل صفاته في الضمائر وتقواه ومراقبته ، واليقظة والحساسية إلى حد غير معهود إلا في الندرة من الأحوال. وعلى الحب. الحب الفياض الرائق ، والود. الود العذب الجميل ، والتكافل.

التكافل الجاد العميق .. وبلغت تلك الجماعة في ذلك كله مبلغا ، لولا أنه وقع ، لعد من أحلام الحالمين! وقصة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة ، ولكنها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة! وهي قصة وقعت في هذه الأرض. ولكنها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان! "[٢٠٠]

فالأمة هنا هم طليعة الأمة الكبرى وصفوتها .. هم الطائفة المنصورة الذي يتصدرون للمهام العظام، فيقومون بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكونهم ينهون عن المنكر، يعني ذلك أنهم من أهل الشوكة والقوة، ولديهم من السلطة والمنعة ـــ وإن لم تكن رسمية معترف بها من قبل الظالمين ـــ ما يمكنهم من تغيير المنكر، لأن من لوازم تغيير المنكر

[٢٠٠] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٤٤٤)

استيفاء القوة التي تردع أهل المنكر عن منكرهم، بخلاف الأمر بالمعروف أو الدعوة إلى الخير فإنها أحياناً لا تستلزم القوة المادية.

والسلطة والقوة ــ كما تقدم ــ هي من أخص خصائص الطائفة المنصورة.

ــ صفات فرعية تتفرع عن هذه الصفة:

تتفرع عن صفة الجهاد في سبيل الله التي تتحلى بها الطائفة المنصورة عدة صفات، نجمل ذكرها في النقاط التالية:

أولاً: استمرارية وجود الطائفة المنصورة المجاهدة في كل زمان إلى أن تقوم الساعة؛ بحيث لا يخلو زمن من وجود أثر لهذه الطائفة، والذي يقرر ذلك قوله ﷺ:" « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ ».[٢٠١]".

في رواية:" « لَنْ يَزَالَ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ »[٢٠٢]

وفي رواية « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ ».[٢٠٣]

وقوله ﷺ:" لاَ يَزَالُ اللَّهُ يَغْرِسُ فِي هَذَا الدِّينِ بِغَرْسٍ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي طَاعَتِهِ. "[٢٠٤]. فهذه صيغ كلها تفيد الاستمرارية والبقاء.

وهذا أمر ــ لا شك أنه ــ يبعثُ على الطمأنينة والسرور، ويلقي في النفوس الأمل على أن الخير في هذه الأمة باق ولن يزال، وأن نصر الله وفرجه آت ولو بعد حين .. وأنَّ ظلام الليل إلى أفول مهما طال الصباح.

---

[٢٠١] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٥٩)

[٢٠٢] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٠)

[٢٠٣] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٤٨٦) صحيح

[٢٠٤] - صحيح ابن حبان - (٢ / ٣٢) (٣٢٦) صحيح

ويدلُّ كذلك أنه مهما حاولت أيدي أعداء الإسلام على إفساد الأجيال وإبعادهم عن دينهم .. فهي تحاول عبثاً؛ لأن الله تعالى ــ قد تكفَّل أن ــ يُخرج من هذه الأجيال غرساً يوحدون الله تعالى .. يحفظ بهم الدين، ويستخدمهم في طاعته، ونصرة دينه.

فالله تعالى قد تكفل بحفظ دينه كما قال تعالى:﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر:٩. ومن حفظه تعالى لدينه أن يغرس الغرس من المؤمنين المجاهدين الذين يحفظ بهم الدين.

كما في الحديث فقد صح عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ فِيمَا أَعْلَمُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا »[٢٠٥].

فالله تعالى يحفظ الدين، ويجدد للأمة دينها .. على مر العصور .. بجند يحفظ ويجدد بهم الدين .. على مر العصور.

ومن معاني التجديد أن يُزيل عن هذا الدين ما علق به من بدع وأوهام، وأخطاء .. وتصورات باطلة لا تليق بعظمة هذا الدين .. ليبقى محفوظاً مصاناً ــ من أدنى معاني التحريف ــ كما أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ.

وهذا أمر يبعث ــ كذلك ــ المرء على الانطلاق من أسر العزلــة والانطوائية على الذات والنفس ليبحث عن إخوان له ــ هم لا شك موجودون ــ وعد اللهُ تعالى بنصرهم وظهورهم على من ناوأهم ولو كره المشركون، فيكثِّرُ سوادهم بالقول والعمل، ليكون واحداً منهم .. يجاهد معهم.

ثانياً: أنَّ الجهاد ماضٍ ــ مع كل برٍّ و فاجر ــ ومستمرٌّ في كل زمان إلى أن تقوم الساعة، لا يوقفه جور جائر ولا تخذيل مخذل خائر، سواء كان للمسلمين إمام عادل يُقاتل من ورائه أو لم يكن لهم إمام ــ خليفة ــ كما هو الحال في زماننا، رضي من رضي وأبى من أبى ..!

والذي يدلُّ على ذلك أمران ــ ليس الهوى ومحض الرأي ــ هما: منطوق النصوص الشرعية، ومفهومها.

---

[٢٠٥] – سنن أبي داود – المكنز – (٤٢٩٣) صحيح

أما منطوق النصوص الشرعية: فقد دلت النصوص الشرعية دلالة صريحة ــ لا تحتمل صرفاً ولا تأويلاً ــ على أنَّ الجهاد ماضٍ ــ في كل زمان ولو بشخصٍ واحد ــ إلى قيام الساعة، وأن بابه مفتوح لمن تتوفر لديه الاستطاعة على القيام بهذه الفريضة.
قال تعالى:﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْساً وَأَشَدُّ تَنْكِيلاً ﴾النساء:٨٤. فهذا نص يُفيد أن الجهاد ماضٍ ولو بشخصٍ واحد ..!
قال القرطبي قال الزجاج : أمر الله تعالى رسوله ﷺ بالجهاد وإن قاتل وحده ؛ لأنه قد ضمن له النصرة. قال ابن عطية : "هذا ظاهر اللفظ ، إلا أنه لم يجئ في خبر قط أن القتال فرض عليه دون الأمة مدة ما ؛ فالمعنى والله أعلم أنه خطاب له في اللفظ ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه ؛ أي أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له ؛ {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ} . ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يجاهد ولو وحده ؛ ومن ذلك قول النبي ﷺ : "والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي " . وقول أبي بكر وقت الردة : ولو خالفتني يميني لجاهدتها بشمالي. ا- هـ[٢٠٦].
وقال دروزة : " وفي الآية معنى قوي حيث تأمر النبي بقتال من يجب قتاله في سبيل اللّه ولو كان وحده. لأن عليه أن يقوم بهذا الواجب على كل حال. والفرق بين هذه الآية والآية [٧٤] هو أن الآية [٧٤] هتفت بكل من يشري الحياة الدنيا بالآخرة أن يقاتل ويدخل في الهتاف النبي ﷺ وغيره وجماعات المسلمين وأفرادهم بعده في حين أن هذه الآية توجب ذلك على النبي ﷺ شخصيا ولو كان لوحده ولقد قال بعضهم : إن اللّه لم يأمره بذلك إلّا لما عرف من شجاعته وقدرته على مواجهة أعدائه مهما كثروا. ويتبادر لنا أن ما ذكرناه هو الأكثر وجاهة وورودا. وفي الآية [٧٤] دعم لذلك حيث تأمر كل مسلم ولو كان فردا بالقيام بهذا الواجب.
ولقد أورد ابن كثير حديثا رواه ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق قال «سألت البراء بن عازب عن الرجل يلقى المائة من العدو فيقاتل فيكون ممن قال اللّه وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى

---

[٢٠٦] - تفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع - (٥ / ٢٩٣)

التَّهْلُكَةِ. قال لا. لقد قال اللّه تعالى لنبيه فَقاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ». والحديث ليس من الصحاح ، ولكن صحته محتملة. وهو تفسير لأحد كبار أصحاب رسول اللّه ﷺ للآية متطابق مع مداها نصا و روحا وفي النطاق الذي تبادر لنا أنه الأوجه واللّه تعالى أعلم.

ونستطرد إلى القول إنه ليس في هذا – فيما نعتقد – ما يمنع السلطان في الإسلام على إجبار القادرين من المسلمين على التجنيد والقتال ضدّ البغي والعدوان إذا قدر على ذلك. فالجهادُ فرضٌ من فروض الإسلام كالزكاة. وكونه فرض كفاية لا يضعف من فرضيته. ولقد ظلت أساليب الدعوة إلى أداء الزكاة هي الأخرى في نطاق الترغيب والترهيب والتشويق في زمن النبي ﷺ حيث كان هذا هو المتسق مع الحياة الاجتماعية والمعاشية القائمة ، ثم صار السلطان الإسلامي آمرا مجبرا عليها وصار هذا الإجبار نظاما محكما من أنظمة الدولة في عهد أبي بكر ومن بعده حتى إن أبا بكر قاتل الممتنعين عن أداء الزكاة واعتبرهم مرتدين عن الإسلام. فليس ما يمنع أن يقاس الجهاد على الزكاة وأن يكون للسلطان الإسلامي حقٌّ إجبار القادرين عليه في نطاق ما تتطلبه المصلحة من ضمان سلامة المسلمين وكيانهم وحريتهم ودفع الأذى والبغي عنهم. وفي سورة التوبة آية تأمر بالمناوبة في النفرة إلى الجهاد وتجعل ذلك كفرض على مختلف فئات المسلمين وهي هذه "وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

هذا ، ومع خصوصية الآية الزمنية من حيث صلتها بالسيرة النبوية وبشخص النبي الكريم ﷺ فإنّ فيها تلقينا جليلا شاملا وهو أن على كل مسلم أن يعتبر نفسه مخاطبا بالآية لأن له الأسوة الحسنة برسول اللّه ﷺ . وأن على كل مسلم حينما يدعو داعي القتال في سبيل اللّه والقيام بواجب من الواجبات التي تتصل بمصلحة المسلمين العامة وأمنهم وسلامتهم أن يسارع إلى ذلك ويقدم عليه دون أن يعتذر بغيره أو يبالي بكثرة عدوه وصعوبة العمل المدعو إليه. وأن هذا مما يجب كذلك ومن باب أولى على أولي الأمر

وأصحاب الشأن في المسلمين مع واجب آخر هو أن يكونوا في الطليعة في الإقدام على القيام بذلك الواجب ليكونوا الأسوة الحسنة والقدوة الصالحة لغيرهم.

ولقد ضرب الخليفة الأول أبو بكر رضي اللّه عنه المثل العظيم في ذلك بعد رسول اللّه ﷺ حينما نشبت حركة الردة ، واتسع نطاقها حيث أبى أن يتراجع أو يتساهل حينما طلب إليه بعض كبار أصحابه ذلك بسبب الظروف الصعبة وخوفا من تفاقم الخطب فقال قولته الشهيرة بأنه لو لم يبق إلّا وحده لقاتلهم "[٢٠٧]

وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْأِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾التوبة:١١١.

قال دروزة :

" إن إطلاق عبارتهما يجعلهما تقريرا عاما موجها إلى كل مسلم في كل ظرف ومكان ليستمد منهما إلهاما فياضا في الإقدام على الجهاد بماله ونفسه وتحمل التضحيات مهما عظمت في سبيل اللّه ويجد فيهما مقياسا للإخلاص الذي يستحق المتحقق به لرضاء اللّه ويجد فيهما جماع صفات الصلاح وأسباب الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة التي يجب عليه أن يتحقق بها.

ويلفت النظر بخاصة إلى ما في الآية الأولى من مغزى عظيم. حيث تتضمن تقرير أن المسلم المخلص بمجرد انتسابه للإسلام يكون قد باع نفسه للّه ليجاهد في سبيله بماله ونفسه وكون اللّه قد اشترى ذلك بالجنة. ففي هذا ما فيه من قوة الحثّ على الجهاد والدعوة إليه. وقوة عنصر الاستجابة فيه واعتباره أقوى أركان الإسلام ودعائمه. "[٢٠٨]

وقال الخطيب : " ليس الإيمان مجرد نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ، وإنما هو ــ مع هذا ــ عمل بالجوارح ، وابتلاء فى الأموال والأنفس .. فمن صدّق قلبه ما نطق به ، ومن صدق عمله ما صدّق به قلبه ، فذلك هو المؤمن ، الذي يقبله اللّه فى المؤمنين ..وبين اللّه

---

[٢٠٧] - التفسير الحديث لدروزة- موافق للمطبوع - (٨ / ١٨٥) وانظر التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبــوع - (٣ / ٨٤٨)

[٢٠٨] - التفسير الحديث لدروزة- موافق للمطبوع - (٩ / ٥٣٩)

والمؤمنين باللّه ، عقد عقده معهم ، وعهد عاهدهم عليه .. وهو أنه ــ سبحانه ــ اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ولهم عنده فى مقابل ذلك الجنة! وما تلك الأنفس ، وهذه الأموال التي اشتراها اللّه من المؤمنين ؟ إنها من اللّه ، وإلى اللّه ..!

ولكن شاء فضل اللّه أن يجعل لعباده ملكية هذه الأنفس ، وتلك الأموال ، وأن يشتريها منهم ، وأن يعوضهم عليها! وقدّمت الأنفس على الأموال هنا على خلاف المواضع كلها التي جاء فيها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين فى القرآن .. ففى جميع المواضع ما عدا هذا الموضع قدمت الأموال على الأنفس! فما سرّ هذا ؟ أو قل ما أسرار هذا ؟

ونقول ــ واللّه أعلم ــ إن بعض السر فى هذا هو أن اللّه سبحانه وتعالى ، هو الذي يطلب الأنفس والأموال فى هذا المقام ، على حين أنه فى جميع المواضع التي ذكرت فيها الأنفس والأموال فى القرآن الكريم ــ كانت مبذولة من المسلمين ، أو مطلوبا منهم بذلها ..! ولاختلاف المقام اختلف النظم .. ففى شراء اللّه سبحانه وتعالى ما يشترى من المؤمنين يقدم الأنفس على الأموال لأنها عند اللّه أكرم وأعز من المال ، على حين أن المال عند الناس أعز من الأنفس ، إذ يتقاتلون من أجله ، مخاطرين بأنفسهم ويقتلون أنفسهم فى سبيله! وفى اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ما ذهلوا عنه من أمر أنفسهم ، إذ استرخصوها إلى جانب المال ، على حين أنها شيء كريم عزيز عند اللّه.

ــ وفى قوله تعالى : « يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن يكون له يد ظاهرة على عدوه ، وبلاء مؤثّر فيه ، وأنه قبل أن يقتل لا بد أن يقتل من عدوه واحدا أو أكثر ، حتى لا يذهب دمه هدرا ، وحتى بوهن العدو ويضعف من شوكته ، ويكتب بدمه حرفا من كلمة النصر التي كتبها اللّه للمؤمنين ..

ــ وقوله تعالى : « وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ .. وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ »

؟ هو توكيد لما وعد اللّه المؤمنين الذين باعوه أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة ، فهذا الوعد حق لا مرية فيه ــ كما جاء به القرآن والتوراة والإنجيل.

فذلك هو وعد اللّه للمؤمنين المجاهدين ، فيما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من رب العالمين .. « وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ » ؟ وهل يخلف اللّه وعده ، أو ينقض عهده ؟ تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ..

هذا وليس بيع الأنفس والأموال للّه مرادا به بذلهما فى القتال فى سبيل اللّه ثم الوقوف بهما عند تلك الغاية وحدها .. فإذا لم يكن بين يدى المؤمن قتال ومجاهدة للعدو ، فهناك ميدان فسيح للجهاد فى سبيل اللّه فى غير ميدان القتال ، فمجاهدة النفس والوقوف بها عند حدود اللّه ، هو جهاد مبرور فى سبيل اللّه ..

والعبادات بأنواعها ، وأداؤها على وجهها جهاد فى سبيل اللّه ، والسعى فى تحصيل الرزق من وجوهه المشروعة ، جهاد فى سبيل اللّه .. والبر بالفقراء ، والإحسان إلى اليتامى .. هو جهاد فى سبيل اللّه.

وإذا كانت الآية الكريمة قد خصّت القتال فى سبيل اللّه بالذكر هنا ، فليس ذلك إلا تنويها بفضل الجهاد فى ميدان القتال ، إذ يمثل الصورة الكاملة التي يبذل فيها المرء كل ما يملك ، ويقدم للّه فيها كل ما معه من نفس ومال ..

على خلاف أبواب الجهاد كلها ، فإنه يبذل بعضا من كلّ ، ويقدم للّه بعضا ويستبقى بعضا.وقوله تعالى : « فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ».هو مباركة من اللّه سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له ـــ مباركة بهذه الصفقة التي عقدوها مع اللّه ، وتبشير لهم بالربح العظيم ، والمغنم الجزيل الذي وراءها .. إنها الجنة التي وعدهم اللّه بها وإنها الرضوان من رب العالمين .. وذلك هو الفوز العظيم ..[٢٠٩]

وفي الظلال : " إنه نص رهيب! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين باللّه وعن حقيقة البيعة التي أعطوها – بإسلامهم – طوال الحياة. فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان. وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!

---

[٢٠٩] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٨٩٨)

حقيقة هذه البيعة – أو هذه المبايعة كما سماها اللّه كرما منه وفضلا وسماحة – أن اللّه – سبحانه – قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم فلم يعد لهم منها شيء .. لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله.

لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا .. كلا .. إنها صفقة مشتراة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام .. والثمن : هو الجنة .. والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال .. والنهاية : هي النصر أو الاستشهاد : «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..

من بايع على هذا. من أمضى عقد الصفقة. من ارتضى الثمن ووفى. فهو المؤمن .. فالمؤمنون هم الذين اشترى اللّه منهم فباعوا .. ومن رحمة اللّه أن جعل للصفقة ثمنا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال. ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع اللّه – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة : .. شر البهيمة .. «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ» .. كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه.

ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات : «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ..عونك اللهم! فإن العقد رهيب .. وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية اللّه في الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد. ولا يقتلون. ولا يقتلون.

ولا يجاهدون جهادا ما دون القتل والقتال! ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول اللّه - ﷺ - فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ولم تكن مجرد معان يتملوها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم. كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها. لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة .. هكذا أدركها عبد اللّه بن رواحة - رضي اللّه عنه - في بيعة العقبة الثانية. قال محمد بن كعب القرظي وغيره : قال عبد اللّه بن رواحة رضي اللّه عنه ، لرسول اللّه - ﷺ - (يعني ليلة العقبة) - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال : «أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم». قال : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال : «الجنة». قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل.

هكذا .. «ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل» .. لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين انتهى أمرها ، وأمضي عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل : «لا نقيل ولا نستقيل» فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار والجنة : ثمن مقبوض لا موعود! أليس الوعد من اللّه؟ أليس اللّه هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن.

وعدا قديما في كل كتبه : «وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

«وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟».أجل! ومن أوفى بعهده من اللّه؟

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن .. كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين اللّه .. إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ» .. «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه. ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق! .. بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق .. إن دين اللّه لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية للّه وحده. ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق .. بل لا بد أن يقطع عليه

الطريق .. ولا بد لدين اللّه أن ينطلق في «الأرض» كلها لتحرير «الإنسان» كله. ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا! .. وما دام في «الأرض» كفر. وما دام في «الأرض» باطل. وما دامت في «الأرض» عبودية لغير اللّه تذل كرامة «الإنسان» فالجهاد في سبيل اللّه ماض ، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء. وإلا فليس بالإيمان : و«من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق» ... (رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي).

«فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم للّه ، وأخذ الجنة عوضا وثمنا ، كما وعد اللّه .. وما الذي فات؟

ما الذي فات المؤمن الذي يسلم للّه نفسه وماله ويستعيض الجنة؟ واللّه ما فاته شيء. فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت. سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل اللّه أم في سبيل سواه! والجنة كسب. كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة! فالمقابل زائل في هذا الطريق أو ذاك! ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش للّه. ينتصر - إذا انتصر - لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه. ويستشهد - إذا استشهد - في سبيله ، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة.

ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة - أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة.

إن هذا وحده كسب. كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة .. فإذا أضيفت إلى ذلك كله .. الجنة .. فهو بيع يدعو إلى الاستبشار وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال : «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ ، وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية : «وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ» ..

فوعد اللّه للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور .. وهو لا يدع مجالا للشك في أصالة عنصر الجهاد في سبيل اللّه في طبيعة هذا المنهج الرباني باعتباره

الوسيلة المكافئة للواقع البشري - لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه - ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي ، يحمي نفسه بالقوة المادية ويقاوم دين اللّه وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية اللّه وحده للعباد ، وتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعباد. كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته للّه وحده دون العباد .. ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في «الأرض» لتحقيق إعلانه العام بتحرير «الإنسان» أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية والتي تحاول بدورها - في حتمية لا فكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري ، لاستبقاء العباد في رق العبودية للعباد! فأما وعد اللّه للمجاهدين في التوراة والإنجيل. فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان ..

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما اللّه على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة .. وهو قليل .. أضيف إليه الكثير! ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين ، لنصر إلههم وديانته وعبادته! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم للّه - سبحانه - وتصورهم للجهاد في سبيله. فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد .. ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها - بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم! - وقبل ذلك بشهادة اللّه سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

واللّه سبحانه يقول في كتابه المحفوظ : إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل اللّه فيقتلون ويقتلون ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن .. فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال!

إن الجهاد في سبيل اللّه بيعة معقودة بعنق كل مؤمن. كل مؤمن على الإطلاق. منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين اللّه .."[210]

وهذا بيع وشراء قد تمَّ يشمل جميع المساحة الزمنية التي يعيشها الإنسان المؤمن .. لا يجوز تعطيله أو توقيفه في زمنٍ دون زمن.

فمن يشترطُ وجود الخليفة العام لإحياء فريضة الجهاد يلزمه أن يُبطل هذا العقد من البيع والشراء الذي تمَّ بين الله تعالى وعباده .. طيلة فترة غياب الخليفة العام الذي قد يستغرق غيابه عشرات السنيين، ويستهلك أجيالاً بكاملها، كما هو الحال في زماننا ..!!

فبأيُّ حقٍّ أو سلطان يُقال لهذه الأجيال أنتم مستثنون من هذا البيع والشراء طيلة فترة غياب الخليفة العام .. والذي قد يمتدُّ إلى أكثر من مائة عام؟!

علماً أن الذي نصَّ عليه الفقهاء أنه لابد من استئذان الخليفة هو في جهاد الطلب ، وليس في جهاد الدفع ،لأنه جهاد الدفع فرض عين على كل قادر على حمل السلاح ذكرا كان أم أنثى ...[211]

وفي الحديث عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِىِّ قَالَ كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ وَوَضَعُوا السِّلاَحَ وَقَالُوا لاَ جِهَادَ قَدْ وَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِوَجْهِهِ وَقَالَ « كَذَبُوا الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ وَلاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِى أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ وَحَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللَّهِ وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِى نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُوَ يُوحَى إِلَىَّ أَنِّى مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِى أَفْنَادًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ ». "[212].

---

[210] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٧١٦)

[211] - انظر الموسوعة الفقهية حرف الجيم — متى يصير الجهاد فرض عين

[212] - سنن النسائي- المكتر - (٣٥٧٦) صحيح -الأفناد : جمع الفند أى جماعات متفرقين قوما بعد ق.

وقال ﷺ:« لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » مسلم[٢١٣].

والطائفة تُطلق على الفرد فما فوق، كما قال تعالى:﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾التوبة:٦٦.

قال القرطبي في التفسير: قيل : كانوا ثلاثة نفر؛ هَزِىء اثنان وضحك واحد؛ فالمعفُّو عنه هو الذي ضحك و لم يتكلم . والطائفة الجماعة ، ويُقال للواحد على معنى نفس طائفة . وقال ابن الأنبارِيّ : يطلق لفظ الجمع على الواحد؛ كقولك : خرج فلان على البغال . قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أُريد بها الواحد طائفاً ، والهاء للمبالغة . ا- هـــ[٢١٤].

فالطائفة المعفو عنها عددها واحد .. وشاهدنا من ذلك أن الجهاد يمضي بشخص واحد .. وهو بمفرده يُسمَّى طائفة .. وإذا كان الأمر كذلك فأين يكمن وجود الخليفة كشرط لمضي الجهاد ..؟!

وقال ﷺ: « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ». مسلم[٢١٥].

والعصابةُ تُطلق على الثلاثة أنفار فما فوق .. وإذا كان القتال ذوداً عن الدين وحرماته يمضي بعصابة تعداد أفرادها ثلاثة أنفار .. فأين يكمن وجود الخليفة كشرط لمضي الجهاد .. وكيف يجوز اشتراط وجود الخليفة العام لمضي الجهاد .. والجهادُ يمضي بواحد .. وثلاثة فما فوق .. كما أفادت بذلك الأحاديث ؟!

وقال ﷺ: « الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ ». مسلم[٢١٦].

وهذا الخير ماضٍ ومعقود في زمن وجود الخليفة وفي زمن غيابه .. لا يوقفه شيء من ذلك.

---

[٢١٣] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٣)

[٢١٤] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي - (١ / ٢٤٨١)

[٢١٥] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٢)

[٢١٦] - صحيح مسلم- المكنز - (٤٩٥٥)

وعَنْ أَبِى الْخَيْرِ أَنَّ جُنَادَةَ بْنَ أَبِى أُمَيَّةَ حَدَّثَهُ أَنَّ رِجَالاً مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ. فَاخْتَلَفُوا فِى ذَلِكَ - قَالَ - فَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُنَاساً يَقُولُونَ إِنَّ الْهِجْرَةَ قَدِ انْقَطَعَتْ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ الْهِجْرَةَ لاَ تَنْقَطِعُ مَا كَانَ الْجِهَادُ »[٢١٧].

وفي المقابل فقد صح عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « لاَ تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلاَ تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا ».[٢١٨].

فإن ذلك يؤكد أن الجهاد لا ينقطع حتى تنقطع التوبة، والتوبة لا تنقطع حتى تطلع الشمس من مغربها،{ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ} (١٥٨) سورة الأنعام. لأن الهجرة باقية ما بقي الجهاد بدلالة النص، وإذا افترض انقطاع الجهاد ـــ فترة غياب الخليفة ـــ فإنه يلزم انقطاع الهجرة، وبالتالي انقطاع التوبة، وهذا أمر لا يجوز القول به لمخالفته لصريح الأدلة وإجماع الأمة.

أما دلالة مفهوم النصوص:فإن السنَّة دلت على وجود المجاهدين ـــ المتمثلين في الطائفة المنصورة ـــ واستمرارية وجودهم إلى يوم القيامة، واستمرارية وجود المجاهدين يستلزمُ استمرارية وجود الجهاد ـــ صفتهم التي عرفوا بها ـــ دون انقطاع، وفي حال انقطاعه ـــ ظاهراً ـــ يكون لإعداد لوازمه وهو جزء من الجهاد، وهو واجبٌ وجوب الجهاد، لأن الجهاد لا يتم إلا به، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فالمسلم إما أنه يُجاهد في سبيل الله، وإما أنه يعدُّ للجهاد عدته عند سقوطه للعجز .. وليس له خيار ثالث.

وقد دلت السنَّة كذلك أن الإمام العام للمسلمين إذا طرأ عليه الكفر البواح، تعين على الأمة الخروجُ عليه وعزله وتعيين خليفة آخر مكانه؛ كما في الحديث عَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِى أُمَيَّةَ قَالَ دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهْوَ مَرِيضٌ قُلْنَا أَصْلَحَكَ اللَّهُ حَدِّثْ بِحَدِيثٍ

[٢١٧] - مسند أحمد - المكنز - (١٧٠٤٩) صحيح

[٢١٨] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٤٨١) صحيح

يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنَ النَّبِىِّ – ﷺ – . قَالَ دَعَانَا النَّبِىُّ – ﷺ – فَبَايَعْنَاهُ ، فَقَالَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ، فِى مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا ، وَعُسْرِنَا ، وَيُسْرِنَا ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا ، وَأَنْ لاَ نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ ، إِلاَّ أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا ، عِنْدَكُمْ مِنَ اللَّهِ فِيهِ بُرْهَانٌ"[219] . .

وفي رواية عند مسلم وعن عَوْفَ بْنِ مَالِكٍ الأَشْجَعِىِّ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ – يَقُولُ « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ ». قَالُوا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ « لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ أَلاَ مَنْ وَلِىَ عَلَيْهِ وَالٍ فَرَآهُ يَأْتِى شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فَلْيَكْرَهْ مَا يَأْتِى مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَلاَ يَنْزِعَنَّ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ »[220].

لأنه لا يجوز بأي حال من الأحوال ــ ومهما تعاظمت التضحيات ــ الإقرارُ بشرعية ولايةِ الكافر على المسلمين وعلى الأمة الإسلامية؛ كما قال تعالى:﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾النساء:١٤١.

قال الخطيب :

"هو وعد من اللّه سبحانه وتعالى للمؤمنين ــ إذا صدق إيمانهم ــ ألا تكون للكافرين يد عليهم ، بل إن يد المؤمنين هى العليا دائما ، ويد الكافرين السفلى أبدا .. "[221]

وقال السعدي :

" { وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا } أي: تسلطا واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفعٍ لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان. "[222]

---

[219] - صحيح البخارى- المكنز - (٧٠٥٥ و٧٠٥٦)

[220] - صحيح مسلم- المكنز - (٤٩١١)

[221] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (٣ / ٩٤٠)

[222] - تفسير السعدي - (١ / ٢١٠)

وقال محمد رشيد رضا : " أَيْ : إِنَّ الْكَافِرِينَ لَا يَكُونُ لَهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ كَافِرُونَ سَبِيلٌ مَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ هُمْ مُؤْمِنُونَ يَقُومُونَ بِحُقُوقِ الْإِيمَانِ وَيَتَّبِعُونَ هَدْيَهُ ، وَكَلِمَةُ سَبِيلٍ هُنَا نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تُفِيدُ الْعُمُومَ ، وَقَدْ أَخْطَأَ مَنْ خَصَّهَا بِالْحُجَّةِ ، وَسَبَبُ هَذَا التَّخْصِيصِ عَدَمُ فَهْمِ مَا قَرَّرْنَاهُ آنِفًا مِنْ كَوْنِ النَّصْرِ مَضْمُونًا بِوَعْدِ اللهِ وَسُنَّتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِشَرْطِهِ الَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ هَذَا خَاصٌّ بِالْآخِرَةِ ، وَالصَّوَابُ : أَنَّهُ عَامٌّ فَلَا سَبِيلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مُطْلَقًا ، وَمَا غَلَبَ الْكَافِرُونَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحُرُوبِ وَالسِّيَاسَةِ وَأَسْبَابِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هُمْ كَافِرُونَ ، بَلْ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ صَارُوا أَعْلَمَ بِسُنَنِ اللهِ فِي خَلْقِهِ وَأَحْكَمَ عَمَلًا بِهَا ، وَالْمُسْلِمُونَ تَرَكُوا ذَلِكَ كَمَا عَلِمْتَ ، فَلْيَعْتَبِرْ بِذَلِكَ الْمُعْتَبِرُونَ . "[٢٢٣]

وفي الظلال : "إنه وعد من اللّه قاطع. وحكم من اللّه جامع : أنه متى استقرت حقيقة الإيمان في نفوس المؤمنين وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة ، ونظاما للحكم ، وتجردا للّه في كل خاطرة وحركة ، وعبادة للّه في الصغيرة والكبيرة .. فلن يجعل اللّه للكافرين على المؤمنين سبيلا ..

وهذه حقيقة لا يحفظ التاريخ الإسلامي كله واقعة واحدة تخالفها! وأنا أقرر في ثقة بوعد اللّه لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم في تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة في حقيقة الإيمان. إما في الشعور وإما في العمل - ومن الإيمان أخذ العدة وإعداد القوة في كل حين بنية الجهاد في سبيل اللّه وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة - وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ثم يعود النصر للمؤمنين - حين يوجدون! ففي «أحد» مثلا كانت الثغرة في ترك طاعة الرسول - ﷺ - وفي الطمع في الغنيمة. وفي «حنين» كانت الثغرة في الاعتزاز بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين في تاريخهم لوجدنا شيئا من هذا .. نعرفه أو لا نعرفه .. أما وعد اللّه فهو حق في كل حين.

[٢٢٣] - تفسير المنار - (٥ / ٣٧٩)

نعم. إن المحنة قد تكون للابتلاء .. ولكن الابتلاء إنما يجيء لحكمة ، هي استكمال حقيقة الإيمان ، ومقتضياته من الأعمال – كما وقع في أحد وقصه اللّه على المسلمين – فمتى اكتملت تلك الحقيقة بالابتلاء والنجاح فيه ، جاء النصر وتحقق وعد اللّه عن يقين.

على أنني إنما أعني بالهزيمة معنى أشمل من نتيجة معركة من المعارك .. إنما أعني بالهزيمة هزيمة الروح ، وكلال العزيمة. فالهزيمة في معركة لا تكون هزيمة إلا إذا تركت آثارها في النفوس همودا وكلالا وقنوطا. فأما إذا بعثت الهمة ، وأذكت الشعلة ، وبصرت بالمزالق ، وكشفت عن طبيعة العقيدة وطبيعة المعركة وطبيعة الطريق .. فهي المقدمة الأكيدة للنصر الأكيد. ولو طال الطريق! كذلك حين يقرر النص القرآني : أن اللّه لن يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلا .. فإنما يشير إلى أن الروح المؤمنة هي التي تنتصر والفكرة المؤمنة هي التي تسود. وإنما يدعو الجماعة المسلمة إلى استكمال حقيقة الإيمان في قلوبها تصورا وشعورا وفي حياتها واقعا وعملا. وألا يكون اعتمادها كله على عنوانها. فالنصر ليس للعنوانات. إنما هو للحقيقة التي وراءها ..

وليس بيننا وبين النصر في أي زمان وفي أي مكان ، إلا أن نستكمل حقيقة الإيمان. ونستكمل مقتضيات هذه الحقيقة في حياتنا وواقعنا كذلك .. ومن حقيقة الإيمان أن نأخذ العدة ونستكمل القوة. ومن حقيقة الإيمان ألا نركن إلى الأعداء وألا نطلب العزة إلا من اللّه.

ووعد اللّه هذا الأكيد ، يتفق تماما مع حقيقة الإيمان وحقيقة الكفر في هذا الكون ..

إن الإيمان صلة بالقوة الكبرى ، التي لا تضعف ولا تفنى .. وإن الكفر انقطاع عن تلك القوة وانعزال عنها ..

ولن تملك قوة محدودة مقطوعة منعزلة فانية ، أن تغلب قوة موصولة بمصدر القوة في هذا الكون جميعا.

غير أنه يجب أن نفرق دائما بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان .. إن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة ثبوت النواميس الكونية. ذات أثر في النفس وفيما يصدر عنها من الحركة والعمل. وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة حين تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة المحدودة

أن تقهرها .. ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فإن «حقيقة» الكفر تغلبه ، إذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها .. لأن حقيقة أي شيء أقوى من «مظهر» أي شيء.

ولو كانت هي حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان!

إن قاعدة المعركة لقهر الباطل هي إنشاء الحق. وحين يوجد الحق بكل حقيقته وبكل قوته يتقرر مصير المعركة بينه وبين الباطل. مهما يكن هذا الباطل من الضخامة الظاهرية الخادعة للعيون .. «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ» ..«وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا» [٢٢٤]..

وقَالَ الْقَاضِي عِيَاض : أَجْمَعَ الْعُلَمَاء عَلَى أَنَّ الْإِمَامَة لَا تَنْعَقِد لِكَافِرٍ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ الْكُفْر اِنْعَزَلَ ، قَالَ : وَكَذَا لَوْ تَرَكَ إِقَامَة الصَّلَوَات وَالدُّعَاء إِلَيْهَا ، قَالَ : وَكَذَلِكَ عِنْد جُمْهُورهمْ الْبِدْعَة ، قَالَ : وَقَالَ بَعْض الْبَصْرِيِّينَ : تَنْعَقِد لَهُ ، وَتُسْتَدَام لَهُ لِأَنَّهُ مُتَأَوِّل ، قَالَ الْقَاضِي : فَلَوْ طَرَأَ عَلَيْهِ كُفْر وَتَغْيِير لِلشَّرْعِ أَوْ بِدْعَة خَرَجَ عَنْ حُكْم الْوِلَايَة ، وَسَقَطَتْ طَاعَته ، وَوَجَبَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْقِيَام عَلَيْهِ ، وَخَلْعه وَنَصْب إِمَام عَادِل إِنْ أَمْكَنَهُمْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لَمْ يَقَع ذَلِكَ إِلَّا لِطَائِفَةٍ وَجَبَ عَلَيْهِمْ الْقِيَام بِخَلْعِ الْكَافِر ، وَلَا يَجِب فِي الْمُبْتَدِع إِلَّا إِذَا ظَنُّوا الْقُدْرَة عَلَيْهِ ، فَإِنْ تَحَقَّقُوا الْعَجْز لَمْ يَجِب الْقِيَام ، وَلْيُهَاجِرْ الْمُسْلِم عَنْ أَرْضه إِلَى غَيْرهَا ، وَيَفِرّ بِدِينِهِ ، قَالَ : وَلَا تَنْعَقِد لِفَاسِقٍ اِبْتِدَاء ، فَلَوْ طَرَأَ عَلَى الْخَلِيفَة فِسْق قَالَ بَعْضهمْ : يَجِب خَلْعه إِلَّا أَنْ تَتَرَتَّب عَلَيْهِ فِتْنَة وَحَرْب ، وَقَالَ جَمَاهِير أَهْل السُّنَّة مِنْ الْفُقَهَاء وَالْمُحَدِّثِينَ وَالْمُتَكَلِّمِينَ : لَا يَنْعَزِل بِالْفِسْقِ وَالظُّلْم وَتَعْطِيل الْحُقُوق ، وَلَا يُخْلَع وَلَا يَجُوز الْخُرُوج عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، بَلْ يَجِب وَعْظه وَتَخْوِيفه ؛ لِلْأَحَادِيثِ الْوَارِدَة فِي ذَلِكَ" [٢٢٥].

قلت : إذا كان الجهاد ـــ كما زعموا ـــ مشروطاً بوجود الخليفة العام للمسلمين، والخليفة هنا قد طرأ عليه الكفر البواح الذي لا يحتمل تأويلاً، فكيف يتمُّ جهاده وعزله ؟

---

[٢٢٤] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٧٨٢)

[٢٢٥] - شرح صحيح مسلم للنووي: ١٢/ ٢٢٩.

ومن يقوم بجهاده وعزله ؟ الخليفة ـــ والخليفة قد كفر ـــ أم الأمة بمجموعها مع غياب الخليفة ؟ لا بدَّ أن يكون الصوابُ هو الخيار الثاني، ولا مناص من ذلك.

ثالثاً: صفة الإعداد والأخذ بأسباب القوة اللازمة لإرهاب العدو الكافر.

والذي يقرر هذه الصفة للطائفة المنصورة .. وملازمتهم لها في جميع مراحل نشاطهم وظروفهم .. هو كونهم يجاهدون في سبيل الله، والجهاد بهم ماضٍ إلى قيام الساعة، والجهاد من لوازمه الإعداد والأخذ بأسباب القوة، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ التوبة:٤٦.

قال الخطيب :

" هذه الآية تكشف عن وجه من وجوه الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك ، وقدّموا بين يدى رسول اللّه أعذارهم الكاذبة ..فهؤلاء الذين تخلّفوا لم يكونوا على نيّة الجهاد فى سبيل اللّه ، وأنهم لو كانوا على تلك النية لأعدّوا للجهاد عدّته ، ولأخذوا له أهبته ، حتى إذا دعا الداعي إليه ، كانوا وكان بين أيديهم أدوات الجهاد وعدّته .. ولكنهم لم يكونوا أبدا على نية الجهاد ، بل كانوا على كره قائم فى نفوسهم له ، فكره اللّه انبعاثهم ، وانطلاقهم مع المجاهدين ، ولهذا ثبّطهم عنه ، وحلّ عزائمهم دون الجهاد ، وإذا هم دعوة مستجابة لكل ناطق وصامت ، يدعوهم بلسان المقال أو لسان الحال ، ساخرا مستهزئا : « اقعدوا مع القاعدين ». "[٢٢٦]

---

[٢٢٦] - التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٧٩٠)

لاَ يَسْتَصْحِبُ الأَمِيرُ مَعَهُ مُخَذِّلاً ، وَهُوَ الَّذِي يُثَبِّطُ النَّاسَ عَنِ الْغَزْوِ وَيُزَهِّدُهُمْ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْقِتَال وَالْجِهَادِ ، مِثْل أَنْ يَقُول : الْحَرُّ أَوِ الْبَرْدُ شَدِيدٌ ، وَالْمَشَقَّةُ شَدِيدَةٌ ، وَلاَ تُؤْمَنُ هَزِيمَةُ هَذَا الْجَيْشِ وَأَشْبَاهُ هَذَا . وَلاَ مُرْجِفًا وَهُوَ الَّذِي يَقُول : قَدْ هَلَكَتْ سَرِيَّةُ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَا لَهُمْ مَدَدٌ وَلاَ طَاقَةَ لَهُمْ بِالْكُفَّارِ ، وَالْكُفَّارُ لَهُمْ قُوَّةٌ وَمَدَدٌ وَصَبْرٌ ، وَلاَ يَثْبُتُ لَهُمْ أَحَدٌ وَنَحْوُ هَذَا ، وَلاَ مَنْ يُعِينُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالتَّجَسُّسِ لِلْكُفَّارِ وَإِطْلاَعِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَمُكَاتَبَتِهِمْ بِأَخْبَارِهِمْ وَدَلاَلَتِهِمْ عَلَى عَوْرَاتِهِمْ أَوْ إِيوَاءِ جَوَاسِيسِهِمْ ، وَلاَ مَنْ يُوقِعُ الْعَدَاوَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَسْعَى بِالْفَسَادِ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيل اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ } (سورة التوبة / ٤٦ ، ٤٧) وَلأَنَّ هَؤُلاَءِ مَضَرَّةٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَيَلْزَمُهُ مَنْعُهُمْ ، وَإِنْ خَرَجَ مَعَهُ أَحَدُ هَؤُلاَءِ لَمْ يُسْهِمْ لَهُ وَلَمْ يَرْضَخْ وَإِنْ أَظْهَرَ عَوْنَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لأَنَّهُ يُحْتَمَل

فبين أن الأخذ بالإعداد اللازم للجهاد هو القرينة الدالة على صدق الذين يريدون الجهاد والخروج في سبيل الله، وأن عدمه يعتبر قرينة دالة على كذب القوم ولو ادعوا بلسانهم ألف مرة أنهم يريدون الجهاد والخروج، فالإعداد أو عدمه هو القرينة الدالةُ على صدق الإدعاء أو كذبه .. وهي القرينة التي تميز الصادق من الكاذب.

فالأمةُ التي لا تواكب إعداد الأمم الأخرى .. وأخذهم بأسباب القوة والمنعة .. لا تستحقُّ أن تعيش بكرامة بين الشعوب والأمم!

وقال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (٦٠) سورة الأنفال

قال الخطيب :

" قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ».

لقد سلط اللّه النبىّ والمسلمين على هذا العدوّ المتربّص بهم ، الكائد لهم ، وأمرهم بأن يضربوهم الضربة القاضية التي تأتى عليهم ، وتكون مثلا وعبرة لغيرهم.ولكن .. ما الذي يمكّن للنبى والمسلمين من أن يبسطوا يدهم على عدوّهم وينزلوه على حكمهم فيه ؟ إنه لا شىء إلا القوة التي يكون عليها المسلمون فى الرجال والعتاد ..

ومن هنا أتبع القرآن الكريم الأمر بتأديب العدوّ وبسط اليد عليه ـــ أتبع ذلك بالأمر باتخاذ الوسائل المحققة لهذا الأمر ، وذلك بالأخذ بكل أسباب القوة ، التي ترجح بها كفة المسلمين فى ميادين القتال ، ومصادمة العدوّ.

أَنْ يَكُونَ أَظْهَرَهُ نِفَاقًا وَقَدْ ظَهَرَ دَلِيلُهُ ، فَيَكُونُ مُجَرَّدَ ضَرَرٍ فَلاَ يَسْتَحِقُّ مِمَّا غَنِمُوا شَيْئًا . وَإِنْ كَانَ الأَْمِيرُ أَحَدَ هَؤُلاَءِ لَمْ يُسْتَحَبَّ الْخُرُوجُ مَعَهُ ؛ لأَِنَّهُ إِذَا مُنِعَ خُرُوجُ الْمُخَذِّل وَمَنْ فِي حُكْمِهِ تَبَعًا فَمَتْبُوعًا أَوْلَى ؛ وَلأَِنَّهُ لاَ تُؤْمَنُ الْمَضَرَّةُ عَلَى مَنْ صَحِبَهُ ." الموسوعة الفقهية الكويتية - (١١ / ٣٩) والمغني مع الشرح الكبير ١٠ / ٣٧٢ ط المنار ، وكشاف القناع ٣ / ٦٢ ط مكتبة النصر الحديثة ، ونهاية المحتاج ٨ / ٥٧ ط المكتبة الإسلامية ، وروضة الطالبين ١٠ / ٢٤٠ ط المكتب الإسلامي ، وتفسير الجصاص ٣ / ١٤٨

وفى قوله تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » ، أمر باتخاذ القوة ، والعمل على بنائها ، والتوسل إليها بوسائلها ، ومن أهم تلك الوسائل « الخيل ».

. إذ كانت فى هذا الوقت أقوى مظهر من مظاهر القوة والفروسية .. فحيث كانت الخيل ، وكان فرسانها ، كانت القوة والمنعة ..وفى التعبير عن « الخيل » بقوله تعالى : « وَمِنْ رِباطِ الْخَيْلِ » إشارة إلى الإكثار من الخيل ، وإعدادها للحرب ، وتدريبها على القتال ، وحبسها على هذا المجال ، فلا تتخذ لغرض آخر ، بل تكون دائما مرصودة للقاء العدوّ ، مهيأة للاشتباك معه فى أية لحظة .. إنها مرابطة كما يرابط المجاهدون على الثغور لحماية المسلمين ، وسد الثغور التي ينفذ منها العدو إليهم.!

وفى قوله تعالى : « تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » الضمير فى « به » يعود إلى رباط الخيل ، وأنه مصدر رهبة للعدوّ. إذا كان هذا الرباط من الكثرة والإعداد على صورة يهابها العدوّ ويعمل حسابها .. وهذا يعنى استعراض تلك القوة المعدّة من الخيل وفرسان الخيل ، وإظهارها بحيث يراها العدوّ ، ويرى فيها ما يرهبه ، ويقتل فى نفسه كل داعية من دواعى الطمع فى المسلمين ، وفى لقائهم على ميدان القتال .. وهذا يعنى أيضا أن يكون هذا الرباط على صورة محقّقة لإلقاء الرعب والفزع فى نفس العدوّ ، وإلا كان ستر هذا الرباط وإخفائه أولى وأحكم من إظهاره.

وهذا يعنى كذلك أن الإعداد للحرب ليس لإشباع شهوة الحرب ، وإنما هو لإرهاب العدوّ أولا ، حتى يترجر ، ولا تحدّثه نفسه بالحرب حين يرى القوّة الراصدة له. ومن هنا يرى أن الإسلام دين سلام ، يعدّ للحرب ، حتى تجتمع له القوة الممكنة له من النصر والغلب ، ولكنه لا يبدأ الحرب ، ولا يسعى إليها ، وإنما يجىء إليها مكرها ، ويدخل فيها مدافعا ، لا مهاجما!! وفى قوله تعالى : « وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » إشارة وتنبيه للمسلمين إلى ألّا يكون حسابهم فى إعداد القوة مقصورا على هذا العدوّ الظاهر لهم ، ومقدورا بقدره ، بل يجب أن يعملوا فى تقديرهم حسابا لأعداء آخرين ، لم يظهروا لهم ، ولم يواجهوهم بعداوة أو قتال ..وهذا يعنى أن يبذل المسلمون كثيرا لإعداد

هذه القوة التي يحاربون بها أعداءهم الذين يرونهم ، والتي يرصدونها للعدوّ الخفيّ الذي لم يظهر لهم بعد ..ولهذا جاء قوله تعالى بعد ذلك : « وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ » ــ جاء داعيا إلى البذل والإنفاق فى سبيل اللّه ، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى سيؤتى المنفقين أجرهم ، ويجزل لهم العطاء ، فلا يضيع شىء مما بذلوا وأنفقوا ، لأن فى ضياعه ظلما لهم .. « وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ». "[227]

وفي تفسير المنار : " أَمَرَ اللهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنْ يَجْعَلُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلْحَرْبِ (الَّتِي عَلِمُوا أَنْ لَا مَنْدُوحَةَ عَنْهَا لِدَفْعِ الْعُدْوَانِ وَالشَّرِّ ، وَلِحِفْظِ الْأَنْفُسِ وَرِعَايَتِهِ الْحَقَّ وَالْعَدْلَ وَالْفَضِيلَةَ) بِأَمْرَيْنِ : (أَحَدِهِمَا) إِعْدَادُ جَمِيعِ أَسْبَابِ الْقُوَّةِ لَهَا بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ . (وَثَانِيهِمَا) مُرَابَطَةُ فُرْسَانِهِمْ فِي ثُغُورِ بِلَادِهِمْ وَحُدُودِهَا ، وَهِيَ مَدَاخِلُ الْأَعْدَاءِ وَمَوَاضِعُ مُهَاجَمَتِهِمْ لِلْبِلَادِ ، وَالْمُرَادُ أَنْ يَكُونَ لِلْأُمَّةِ جُنْدٌ دَائِمٌ مُسْتَعِدٌّ لِلدِّفَاعِ عَنْهَا إِذَا فَاجَأَهَا الْعَدُوُّ عَلَى غِرَّةٍ ، قَاوَمَهُ الْفُرْسَانُ ، لِسُرْعَةِ حَرَكَتِهِمْ ، وَقُدْرَتِهِمْ عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْقِتَالِ ، وَإِيصَالِ أَخْبَارِهِ مِنْ ثُغُورِ الْبِلَادِ إِلَى عَاصِمَتِهَا وَسَائِرِ أَرْجَائِهَا ، وَلِذَلِكَ عَظَّمَ الشَّارِعُ أَمْرَ الْخَيْلِ وَأَمَرَ بِإِكْرَامِهَا . وَهَذَانِ الْأَمْرَانِ هُمَا اللَّذَانِ تُعَوِّلُ عَلَيْهِمَا جَمِيعُ الدُّوَلِ الْحَرْبِيَّةِ إِلَى هَذَا الْعَهْدِ الَّتِي ارْتَقَتْ فِيهِ الْفُنُونُ الْعَسْكَرِيَّةُ وَعَتَادُ الْحَرْبِ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَهَا نَظِيرٌ ، بَلْ لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُهَا الْعُقُولُ وَلَا تَتَخَيَّلُهَا الْأَفْكَارُ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ إِعْدَادَ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ يَخْتَلِفُ امْتِثَالُ الْأَمْرِ الرَّبَّانِيِّ بِهِ بِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِ الِاسْتِطَاعَةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ بِحَسْبِهِ ، وَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ــ ﷺ ــ وَقَدْ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ : " أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ " قَالَهَا ثَلَاثًا ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ قَبِيلِ حَدِيثِ الْحَجُّ عَرَفَةُ بِمَعْنَى أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا أَعْظَمُ الْأَرْكَانِ فِي بَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ رَمْيَ الْعَدُوِّ عَنْ بُعْدٍ بِمَا يَقْتُلُهُ أَسْلَمُ مِنْ مُصَاوَلَتِهِ عَلَى الْقُرْبِ بِسَيْفٍ أَوْ رُمْحٍ أَوْ حَرْبَةٍ ، وَإِطْلَاقُ الرَّمْيِ فِي الْحَدِيثِ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُرْمَى بِهِ الْعَدُوُّ مِنْ سَهْمٍ أَوْ

---

[227] - التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (٥ / ٦٤٨)

قَذِيفَةِ مَنْجَنِيقٍ أَوْ طَيَّارَةٍ أَوْ بُنْدُقِيَّةٍ أَوْ مِدْفَعٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ هَذَا مَعْرُوفًا فِي عَصْرِهِ ـــ ﷺ ـــ فَإِنَّ اللَّفْظَ يَشْمَلُهُ وَالْمُرَادُ مِنْهُ يَقْتَضِيهِ ، وَلَوْ كَانَ قَيَّدَهُ بِالسِّهَامِ الْمَعْرُوفَةِ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ فَكَيْفَ وَهُوَ لَمْ يُقَيِّدْهُ ، وَمَا يُدْرِينَا لَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَجْرَاهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مُطْلَقًا ، لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ لِأُمَّتِهِ فِي كُلِّ عَصْرٍ بِحَسْبِ مَا يُرْمَى بِهِ فِيهِ – وَهُنَاكَ أَحَادِيثُ أُخْرَى فِي الْحَثِّ عَلَى الرَّمْيِ بِالسِّهَامِ ؛ لِأَنَّهُ كَرَمْيِ الرَّصَاصِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ، عَلَى أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ أَدَلُّ عَلَى الْعُمُومِ ؛ لِأَنَّهُ أَمْرٌ بِالْمُسْتَطَاعِ مُوَجَّهٌ إِلَى الْأُمَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ كَسَائِرِ خِطَابَاتِ التَّشْرِيعِ حَتَّى مَا كَانَ مِنْهَا وَارِدًا فِي سَبَبٍ مُعَيَّنٍ . وَمِنْ قَوَاعِدَ الْأُصُولِ أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ صُنْعُ الْمَدَافِعِ بِأَنْوَاعِهَا وَالْبَنَادِقِ وَالدَّبَّابَاتِ وَالطَّيَّارَاتِ وَالْمَنَاطِيدِ وَإِنْشَاءُ السُّفُنِ الْحَرْبِيَّةِ بِأَنْوَاعِهَا ، وَمِنْهَا الْغَوَّاصَاتُ الَّتِي تَغُوصُ فِي الْبَحْرِ ، وَيَجِبُ عَلَيْهِمْ تَعَلُّمُ الْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ عَلَيْهَا صُنْعُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَغَيْرِهَا مِنْ قُوَى الْحَرْبِ بِدَلِيلِ : مَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ الْمُطْلَقُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ " وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ الصَّحَابَةَ اسْتَعْمَلُوا الْمَنْجَنِيقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ـــ ﷺ ـــ فِي غَزْوَةِ خَيْبَرَ وَغَيْرِهَا . وَكُلُّ الصِّنَاعَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْمَعِيشَةِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ كَصِنَاعَاتِ آلَاتِ الْقِتَالِ ....

نَعَمْ : إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الرَّحْمَةِ قَدْ مَنَعَ مِنَ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الظَّالِمُونَ وَالْجَبَّارُونَ مِنَ الْمُلُوكِ بِأَعْدَائِهِمْ ، كَأَصْحَابِ الْأُخْدُودِ الْمَلْعُونِينَ فِي سُورَةِ الْبُرُوجِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْجَهْلِ وَالْغَبَاوَةِ أَنْ يُعَدَّ حَرْبُ الْأَسْلِحَةِ النَّارِيَّةِ لِلْأَعْدَاءِ الَّذِينَ يُحَارِبُونَنَا بِهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ بِأَنْ يُقَالَ : إِنَّ دِينَنَا دِينُ الرَّحْمَةِ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَمِلَ قَتْلَهُمْ إِيَّانَا بِهَذِهِ الْمَدَافِعِ ، وَأَلَّا نُقَاتِلَهُمْ بِهَا رَحْمَةً بِهِمْ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى أَبَاحَ لَنَا فِي التَّعَامُلِ فِيمَا بَيْنَنَا أَنْ نَجْزِيَ عَلَى السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا عَمَلًا بِالْعَدْلِ ، وَجَعَلَ الْعَفْوَ فَضِيلَةً لَا فَرِيضَةً فَقَالَ : وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢ : ٤٠ و١٤) إِلَى أَخِرِ الْآيَاتِ . وَقَالَ : وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٦ : ١٢٦) أَفَلَا يَكُونُ مِنَ الْعَدْلِ بَلْ فَوْقَ الْعَدْلِ فِي الْأَعْدَاءِ أَنْ نُعَامِلَهُمْ بِمِثْلِ الْعَدْلِ الَّذِي نُعَامِلُ بِهِ إِخْوَانَنَا أَوْ بِمَا

وَرَدَ بِمَعْنَى الْآيَةِ فِي بَعْضِ الْآثَارِ ، قَاتِلُوهُمْ بِمِثْلِ مَا يُقَاتِلُونَكُمْ بِهِ ؟ وَهُمْ لَيْسُوا أَهْلًا لِلْعَدْلِ فِي حَالِ الْحَرْبِ ، نَعَمْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ النَّهْيُ عَنْ تَحْرِيقِ الْكُفَّارِ الْحَرْبِيِّينَ بِالنَّارِ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْهُ ، عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَ السَّلَفِ وَفُقَهَاءَ الْأَمْصَارِ اخْتَلَفُوا فِي حُكْمِهِ ، فَأَبَاحَهُ بَعْضُهُمْ مُطْلَقًا ، وَبَعْضُهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ الْحَرْبِيَّةِ كَإِحْرَاقِ سُفُنِ الْحَرْبِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ جَزَاءً بِالْمِثْلِ ، وَالْجَزَاءُ أَوْلَى .

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ فَمَعْنَاهُ : أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنَ الْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ الشَّامِلَةِ لِجَمِيعِ عَتَادِ الْقِتَالِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْجُنْدُ ، وَمِنَ الْفُرْسَانِ الْمُرَابِطِينَ فِي ثُغُورِكُمْ وَأَطْرَافِ بِلَادِكُمْ حَالَةَ كَوْنِكُمْ تُرْهِبُونَ بِهَذَا الْإِعْدَادِ – أَوِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ وَالرِّبَاطِ – عَدُوَّ اللهِ الْكَافِرِينَ بِهِ ، وَبِمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَعَدُوَّكُمُ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمُ الدَّوَائِرَ وَيُنَاجِزُونَكُمُ الْحَرْبَ عِنْدَ الْإِمْكَانِ . وَالْإِرْهَابُ : الْإِيقَاعُ فِي الرَّهْبَةِ ، وَمِثْلُهَا الرَّهَبُ بِالتَّحْرِيكِ ، وَهُوَ الْخَوْفُ الْمُقْتَرِنُ بِالِاضْطِرَابِ ، كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ . وَكَانَ مُشْرِكُو مَكَّةَ وَمَنْ وَالَاهُمْ هُمُ الْجَامِعِينَ لِهَاتَيْنِ الْعَدَاوَتَيْنِ فِي وَقْتِ نُزُولِ الْآيَةِ عَقِبَ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَفِيهِمْ نَزَلَ فِي الْمَدِينَةِ : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ (٦٠ : ١) وَقِيلَ : يَدْخُلُ فِيهِمْ أَيْضًا مَنْ وَالَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ كَبَنِي قُرَيْظَةَ . وَقِيلَ : لَا ، وَإِيمَانُ هَؤُلَاءِ بِاللهِ وَبِالْوَحْيِ لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ الَّذِي يُرْضِي اللهَ تَعَالَى ، وَالْيَهُودُ الَّذِينَ وَالَوْهُمْ عَلَى عَدَاوَتِهِ ـــ ﷺ ـــ هُمُ الْمَعْنِيُّونَ أَوْ بَعْضُ الْمَعْنِيِّينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ أَيْ : وَتَرْهَبُونَ بِهِ أُنَاسًا مِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ الْأَعْدَاءِ الْمَعْرُوفِينَ أَوْ مِنْ وَرَائِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ أَيْ : لَا تَعْلَمُونَ الْآنَ عَدَاوَتَهُمْ ، أَوْ لَا تَعْرِفُونَ ذَوَاتِهِمْ وَأَعْيَانَهُمْ بَلِ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ .

وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّ الْعِبَارَةَ تَشْمَلُ كُلَّ مَنْ ظَهَرَتْ عَدَاوَتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَمِنَ الْمُبْتَدِعِينَ فِي دِينِهِ الْكَارِهِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بَعْدَ نَقْلِ عِبَارَةِ السُّهَيْلِيِّ ....

وَهَذَا التَّقْيِيدُ لِإِعْدَادِ الْمُسْتَطَاعِ مِنَ الْقُوَّةِ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ بِقَصْدِ إِرْهَابِ الْأَعْدَاءِ الْمُجَاهِرِينَ وَالْأَعْدَاءِ الْمُسْتَخْفِينَ وَغَيْرِ الْمَعْرُوفِينَ – وَمَنْ سَيَظْهَرُ مِنَ الْأَعْدَاءِ لِلْمُؤْمِنِينَ

كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ - دَلِيلٌ عَلَى تَفْضِيلِ جَعْلِهِ سَبَبًا لِمَنْعِ الْحَرْبِ عَلَى جَعْلِهِ سَبَبًا لِإِيقَاذِ نَارِهَا ، فَهُوَ يَقُولُ : اسْتَعَدُّوا لَهَا لِيَرْهَبَكُمُ الْأَعْدَاءُ عَسَى أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى قِتَالِكُمْ ، وَهَذَا عَيْنُ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ دُوَلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ بِالسَّلَامِ الْمُسَلَّحِ ، بِنَاءً عَلَى أَنَّ الضَّعْفَ يُغْرِي الْأَقْوِيَاءَ بِالتَّعَدِّي عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلَكِنَّ الدُّوَلَ الِاسْتِعْمَارِيَّةَ تَدَّعِي هَذَا بِأَلْسِنَتِهَا وَهِيَ كَاذِبَةٌ فِي دَعْوَاهَا أَنَّهَا تَقْصِدُ بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْحَرْبِ حِفْظَ السَّلْمِ الْعَامِّ ، وَكَانَ يُظَنُّ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ السَّلْمَ الْخَاصَّ بِدُوَلِ أُورُبَّةَ ، وَأَنَّ الْحَرْبَ امْتَنَعَتْ مِنْهَا ، فَأَبْطَلَتْ ذَلِكَ الظَّنَّ الْحَرْبُ الْعَامَّةُ الْأَخِيرَةُ الَّتِي كَانَتْ أَشَدَّ حُرُوبِ التَّارِيخِ أَهْوَالًا وَتَقْتِيلًا وَتَخْرِيبًا ، وَالْإِسْلَامُ لَيْسَ كَذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ تَعَبُّدُ النَّاسِ بِهَذِهِ النُّصُوصِ تَعَبُّدًا ، وَيُؤَيِّدُ هَذَا الْمَعْنَى آيَةُ السَّلْمِ الَّتِي تَلِي هَذِهِ الْآيَةَ ."[228]

وفي الظلال : " فالاستعداد بما في الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ويخص «رباط الخيل» لأنه الأداة التي كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة .. ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها في ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة - تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا - والمهم هو عموم التوجيه : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ..

إنه لا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في «الأرض» لتحرير «الإنسان» .. وأول ما تصنعه هذه القوة في حقل الدعوة : أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .. والأمر الثاني : أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على «دار الإسلام» التي تحميها تلك القوة .. والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي ، وهو ينطلق لتحرير «الإنسان» كله في «الأرض» كلها .. والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ولا تعترف بأن الألوهية للّه وحده ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ..

[228] - تفسير المنار - (١٠ / ٥٣)

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب ، وتنظيما للشعائر ، ثم تنتهي مهمته! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية. فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القوى المادية ، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الرباني ..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة .. ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني. ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية اللّه وحده وتحطيم ألوهية العبيد! إنه لا ينطلق بمنهج من صنع البشر ولا لتقرير سلطان زعيم ، أو دولة ، أو طبقة ، أو جنس! إنه لا ينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية .. إنما ينطلق بمنهج من صنع اللّه العليم الحكيم الخبير البصير ولتقرير ألوهية اللّه وحده وسلطانه لتحرير «الإنسان» في «الأرض» من العبودية للعبيد ..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي! والجهاد الإسلامي

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة. فالنص يقول : «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» ..

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها. بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها.

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة : «تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ» ..فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء اللّه الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض. الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون

ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم ، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، واللّه يعلم سرائرهم وحقائقهم. وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم. والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ولتكون كلمة اللّه هي العليا ، وليكون الدين كله للّه.

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل اللّه : «وَما تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ - فِي سَبِيلِ اللَّهِ - يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ» ..
وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله ، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصي ومن كل شعور قومي أو طبقي ، ليتمحض خالصا للّه «في سبيل اللّه» لتحقيق كلمة اللّه ، ابتغاء رضوان اللّه. ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول.

وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق. وكل حرب تقوم للقهر والإذلال. وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم ، أو جنس على جنس ، أو طبقة على طبقة .. ويستبقي نوعا واحدا من الحركة .. حركة الجهاد في سبيل اللّه .. واللّه - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب. إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته. وهو غني عن العالمين. ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين."[٢٢٩]

وفي الحديث عَنْ أَبِى عَلِىٍّ ثُمَامَةَ بْنِ شُفَىٍّ أَنَّهُ سَمِعَ عُقْبَةَ بْنَ عَامِرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ أَلاَ إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْىُ » مسلم[٢٣٠].

---

[٢٢٩] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٣ / ١٥٤٣)
[٢٣٠] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٥٥)

وعَنِ الْحَارِثِ بْنِ يَعْقُوبَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شَمَاسَةَ أَنَّ فُقَيْمًا اللَّخْمِىَّ قَالَ لِعُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ تَخْتَلِفُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْغَرَضَيْنِ وَأَنْتَ كَبِيرٌ يَشُقُّ عَلَيْكَ. قَالَ عُقْبَةُ لَوْلاَ كَلاَمٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- لَمْ أُعَانِهِ. قَالَ الْحَارِثُ فَقُلْتُ لاِبْنِ شُمَاسَةَ وَمَا ذَاكَ قَالَ إِنَّهُ قَالَ « مَنْ عَلِمَ الرَّمْىَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَلَيْسَ مِنَّا أَوْ قَدْ عَصَى ». مسلم[٢٣١].

وكذلك مما يدلُّ على اهتمام الطائفة المنصورة بالإعداد والأخذ بأسباب القوة والظهور على أعدائهم، وصفهم في الحديث« لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[٢٣٢].

وهذه صفة لا يمكن أن تجتمع أو تتحقق إلا في المؤمنين الأقوياء الذين يُحيون العمل بواجب إعداد القوة .. ومنافسة الآخرين في ذلك ما استطاعوا لذلك سبيلاً.

رابعاً: إخلاص الجهاد

فهم إذ يُجاهدون، يُجاهدون في سبيل الله تعالى وحده، لإعلاء كلمته في الأرض، لا يشوب جهادهم مقصد آخر.

يُجاهدون لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة وجنان الآخرة.

وفي الظلال :

" لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية وعادت البشرية إلى مثل الموقف الذي كانت فيه يوم تنزل هذا القرآن على رسول اللّه - ﷺ - ويوم جاءها الإسلام مبنيا على قاعدته الكبرى :

«شهادة أن لا إله إلا اللّه» .. شهادة أن لا إله إلا اللّه بمعناها الذي عبر عنه ربعي بن عامر رسول قائد المسلمين إلى رستم قائد الفرس ، وهو يسأله : «ما الذي جاء بكم؟» فيقول :

---

[٢٣١] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٥٨)

[٢٣٢] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٥)

«اللّه ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام» ..

وهو يعلم أن رستم وقومه لا يعبدون كسرى بوصفه إلها خالقا للكون ولا يقدمون له شعائر العبادة المعروفة ولكنهم إنما يتلقون منه الشرائع ، فيعبدونه بهذا المعنى الذي يناقض الإسلام وينفيه فأخبره أن اللّه ابتعثهم ليخرجوا الناس من الأنظمة والأوضاع التي يعبد العباد فيها العباد ، ويقرون لهم بخصائص الألوهية – وهي الحاكمية والتشريع والخضوع لهذه الحاكمية والطاعة لهذا التشريع – (و هي الأديان) .. إلى عبادة اللّه وحده وإلى عدل الإسلام.

لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا اللّه. فقد ارتدت البشرية إلى عبادة العباد ، وإلى جور الأديان ونكصت عن لا إله إلا اللّه ، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن : «لا إله إلا اللّه» دون أن يدرك مدلولها ، ودون أن يعني هذا المدلول وهو يرددها ، ودون أن يرفض شرعية «الحاكمية» التي يدعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد ، أو كتشكيلات تشريعية ، أو كشعوب. فالأفراد ، كالتشكيلات ، كالشعوب ، ليست آلهة ، فليس لها إذن حق الحاكمية .. إلا أن البشرية عادت إلى الجاهلية ، وارتدت عن لا إله إلا اللّه. فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية. و لم تعد توحد اللّه ، وتخلص له الولاء ..

البشرية بجملتها ، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات : «لا إله إلا اللّه» بلا مدلول ولا واقع .. وهؤلاء أثقل إثما وأشد عذابا يوم القيامة ، لأنهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين اللّه! فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات! ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء : «قُلْ : أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وَهُوَ يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ؟ قُلْ : إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» ..

ذلك لتعلم أن اتخاذ غير اللّه وليا - بكل معاني «الولي» .. وهي الخضوع والطاعة ، والاستنصار والاستعانة ..

(٢١٣٤/١)

يتعارض مع الإسلام ، لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس .. ولتعلم أن أول ما يتمثل فيه الولاء لغير اللّه هو تقبل حاكمية غير اللّه في الضمير أو في الحياة .. الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء. ولتعلم أنها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعا من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول اللّه - ﷺ - والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات ..

وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية : «قُلْ : إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ، وَذلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ. وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ» ..

فما أحوج من يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها ، وبإعراضها وعنادها ، وبالتوائها وكيدها ، وبفسادها وانحلالها .. ما أحوج من يواجه هذا الشر كله ، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر .. مخافة المعصية والولاء لغير اللّه. ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقب العصاة .. واليقين بأن الضار والنافع هو اللّه.

وأن اللّه هو القاهر فوق عباده فلا معقب على حكمه ولا راد لما قضاه. إن قلبا لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف «إنشاء» الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية .. وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال! ثم ما أحوج العصبة المؤمنة - بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد اللّه سبحانه بالولاء بكل مدلولاته وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر .. ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف

الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى. وأن تقول ما أمر رسول اللّه – ﷺ – أن يقوله وأن تقذف في وجه الجاهلية ، بما قذف به في وجهها الرسول الكريم ، تنفيذا لأمر ربه العظيم : «قُلْ : أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهادَةً؟ قُلِ : اللَّهُ ، شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأُوحِيَ إِلَيَّ هذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ. أَإِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرى ؟ قُلْ : لا أَشْهَدُ. قُلْ : إِنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ ، وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ» ..

إنه لا بد أن تقف العصبة المسلمة في الأرض ، من الجاهلية التي تغمر الأرض ، هذا الموقف. لا بد أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية ، قاطعة فاصلة ، مزلزلة رهيبة .. ثم تتجه إلى اللّه تعلم أنه على كل شيء قدير ، وأنه هو القاهر فوق عباده. وأن هؤلاء العباد – بما فيهم الطواغيت المتجبرون – أضعف من الذباب ، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه! وأنهم ليسوا بضارين من أحد إلا بإذن اللّه وليسوا بنافعين أحدا إلا بإذن اللّه ، وأن اللّه غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ولا بد أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنها لن تنصر ولن يتحقق لها وعد اللّه بالتمكين في الأرض ، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق. وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت ، وقبل أن تشهد على الجاهلية هذا الإشهاد ، وتنذرها هذه النذارة ، وتعلنها هذا الإعلان ، وتفاصلها هذه المفاصلة ، وتتبرأ منها هذه البراءة ..

إن هذا القرآن لم يأت لمواجهة موقف تاريخي إنما جاء منهجا مطلقا خارجا عن قيود الزمان والمكان.

منهجا تتخذه الجماعة المسلمة حيثما كانت في مثل الموقف الذي تنزل فيه هذا القرآن. وهي اليوم في مثل هذا الموقف تماما وقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا القرآن لينشىء الإسلام في الأرض إنشاء .. فليكن اليقين الجازم بحقيقة هذا الدين. والشعور الواضح بحقيقة قدرة اللّه وقهره. والمفاصلة الحاسمة مع الباطل وأهله ..

لتكن هذه عدة الجماعة المسلمة .. واللّه خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. "[٢٣٣]

وقال السيد رحمه الله معقبا على حادثة الفيل : " إن اللّه – سبحانه – لم يرد أن يكل حماية بيته إلى المشركين ، ولو أنهم كانوا يعتزون بهذا البيت ، ويحمونه ويحتمون به. فلما أراد أن يصونه ويحرسه ويعلن حمايته له وغيرته عليه ترك المشركين يهزمون أمام القوة المعتدية. وتدخلت القدرة سافرة لتدفع عن بيت اللّه الحرام ، حتى لا تتكون للمشركين يد على بيته ولا سابقة في حمايته ، بحميتهم الجاهلية. ولعل هذه الملابسة ترجح ترجيحا قويا أن الأمر جرى في إهلاك المعتدين مجرى السنة الخارقة – لا السنة المألوفة المعهودة – فهذا أنسب وأقرب ..

ولقد كان من مقتضى هذا التدخل السافر من القدرة الإلهية لحماية البيت الحرام أن تبادر قريش ويبادر العرب إلى الدخول في دين اللّه حينما جاءهم به الرسول – ﷺ – وألا يكون اعتزازهم بالبيت وسدانته وما صاغوا حوله من وثنية هو المانع لهم من الإسلام! وهذا التذكير بالحادث على هذا النحو هو طرف من الحملة عليهم ، والتعجيب من موقفهم العنيد! كذلك توحي دلالة هذا الحادث بأن اللّه لم يقدّر لأهل الكتاب – أبرهة وجنوده – أن يحطموا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة. حتى والشرك يدنسه ، والمشركون هم سدنته. ليبقى هذا البيت عتيقا من سلطان المتسلطين ، مصونا من كيد الكائدين. وليحفظ لهذه الأرض حريتها حتى تنبت فيها العقيدة الجديدة حرة طليقة ، لا يهيمن عليها سلطان ، ولا يطغى فيها طاغية ، ولا يهيمن على هذا الدين الذي جاء ليهيمن على الأديان وعلى العباد ، ويقود البشرية ولا يقاد. وكان هذا من تدبير اللّه لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قد ولد في هذا العام! ونحن نستبشر بإيحاء هذه الدلالة اليوم ونطمئن ، إزاء ما نعلمه من أطماع فاجرة ماكرة ترف حول الأماكن المقدسة من الصليبية العالمية والصهيونية العالمية ، ولا تني أو تهدأ في التمهيد الخفي اللئيم لهذه الأطماع الفاجرة الماكرة. فاللّه الذي حمى بيته من أهل الكتاب وسدنته مشركون ، سيحفظه إن شاء اللّه ، ويحفظ مدينة رسوله من كيد الكائدين ومكر الماكرين!

---

[٢٣٣] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ١٠٥٧)

والإيحاء الثالث هو أن العرب لم يكن لهم دور في الأرض. بل لم يكن لهم كيان. قبل الإسلام. كانوا في اليمن تحت حكم الفرس أو الحبشة. وكانت دولتهم حين تقوم هناك أحيانا تقوم تحت حماية الفرس. وفي الشمال كانت الشام تحت حكم الروم إما مباشرة وإما بقيام حكومة عربية تحت حماية الرومان .. ولم ينج إلا قلب الجزيرة من تحكم الأجانب فيه.

ولكنه ظل في حالة بداوة أو في حالة تفكك لا تجعل منه قوة حقيقية في ميدان القوى العالمية. وكان يمكن أن تقوم الحروب بين القبائل أربعين سنة ، ولكن لم تكن هذه القبائل متفرقة ولا مجتمعة ذات وزن عند الدول القوية المجاورة. وما حدث في عام الفيل كان مقياسا لحقيقة هذه القوة حين تتعرض لغزو أجنبي.

وتحت راية الإسلام ولأول مرة في تاريخ العرب أصبح لهم دور عالمي يؤدونه. وأصبحت لهم قوة دولية يحسب لها حساب. قوة جارفة تكتسح الممالك وتحطم العروش ، وتتولى قيادة البشرية ، بعد أن تزيح القيادات الجاهلية المزيفة الضالة .. ولكن الذي هيأ للعرب هذا لأول مرة في تاريخهم هو أنهم نسوا أنهم عرب!

نسوا نعرة الجنس ، وعصبية العنصر ، وذكروا أنهم مسلمون. ومسلمون فقط. ورفعوا راية الإسلام ، وراية الإسلام وحدها. وحملوا عقيدة ضخمة قوية يهدونها إلى البشرية رحمة وبرا بالبشرية ولم يحملوا قومية ولا عنصرية ولا عصبية. حملوا فكرة سماوية يعلمون الناس بها لا مذهبا أرضيا يخضعون الناس لسلطانه. وخرجوا من أرضهم جهادا في سبيل اللّه وحده ، ولم يخرجوا ليؤسسوا إمبراطورية عربية ينعمون ويرتعون في ظلها ، ويشمخون ويتكبرون تحت حمايتها ، ويخرجون الناس من حكم الروم والفرس إلى حكم العرب وإلى حكمهم أنفسهم! إنما قاموا ليخرجوا الناس من عبادة العباد جميعا إلى عبادة اللّه وحده ، كما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد : «اللّه ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة اللّه وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ».

عندئذ فقط كان للعرب وجود ، وكانت لهم قوة ، وكانت لهم قيادة .. ولكنها كانت كلها للّه وفي سبيل اللّه. وقد ظلت لهم قوتهم. وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة. حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتم وعصبيتهم ، وتركوا راية اللّه ليرفعوا راية العصبية نبذهم الأرض وداستهم الأمم ، لأن اللّه قد تركهم حيثما تركوه ، ونسيهم مثلما نسوه!

وما العرب بغير الإسلام؟ ما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة؟

وما قيمة أمة لا تقدم للبشرية فكرة؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة من فترات التاريخ كانت تمثل فكرة.

والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالتتار الذين اجتاحوا الشرق ، والبرابرة الذين اجتاحوا الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا ، إنما ذابوا في الأمم التي فتحوها. والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية ، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة ، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ، ولم يعد لهم في التاريخ دور .. وهذا ما يجب أن يذكره العرب جيدا إذا هم أرادوا الحياة ، وأرادوا القوة ، وأرادوا القيادة .. واللّه الهادي من الضلال ..[٢٣٤]

وكما قال تعالى:﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾النساء:٧٦.

والقتال في سبيل الله هو كل قتال تكون الغاية منه إعلاء كلمة الله في الأرض .. وما سوى ذلك فهو قتال في سبيل الطاغوت .. مهما اختلفت الرايات والمسميات.

قال رشيد رضا :

---

[٢٣٤] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٦ / ٣٩٨٠)

" الْقِتَالُ فِي نَفْسِهِ أَمْرٌ قَبِيحٌ ، وَلَا يُجِيزُ الْعَقْلُ السَّلِيمُ ارْتِكَابَ الْقَبِيحِ إِلَّا لِإِزَالَةِ شَرٍّ أَقْبَحَ مِنْهُ ، وَالْأُمُورُ بِمَقَاصِدِهَا وَغَايَاتِهَا ، وَلِذَلِكَ بَيَّنَ الْقُرْآنُ فِي عِدَّةِ مَوَاضِعَ حِكْمَةَ الْقِتَالِ وَكَوْنِهِ لِلضَّرُورَةِ وَإِزَالَةِ الْمَفْسَدَةِ ، وَإِدَالَةِ الْمَصْلَحَةِ ، وَلَمْ يَكْتَفِ هُنَا بِبَيَانِ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ كَوْنِ الْقِتَالِ الْمَأْمُورِ بِهِ مُقَيَّدًا بِكَوْنِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ وَهِيَ سَبِيلُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَإِنْقَاذِ الْمُسْتَضْعَفِينَ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظُّلْمِ ، حَتَّى أَكَّدَهُ بِإِعَادَةِ ذِكْرِهِ ، مَعَ مُقَابَلَتِهِ بِضِدِّهِ ، وَهُوَ مَا يُقَاتِلُ الْكُفَّارُ لِأَجْلِهِ ، فَقَالَ : الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ تَقَدَّمَ أَنَّ الطَّاغُوتَ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي الطُّغْيَانِ ، وَهُوَ مُجَاوَزَةُ حُدُودِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ ، إِلَى الْبَاطِلِ وَالظُّلْمِ وَالشَّرِّ ، فَلَوْ تَرَكَ الْمُؤْمِنُونَ الْقِتَالَ – وَالْكَافِرُونَ لَا يَتْرُكُونَهُ – لَغَلَبَ الطَّاغُوتُ وَعَمَّ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ (٢ : ٢٥١) ، فَغَلَبَتِ الْوَثَنِيَّةُ الْمُفْسِدَةُ لِلْعُقُولِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَعَمَّ الظُّلْمُ بِعُمُومِ الِاسْتِبْدَادِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ فَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَوْلِيَاءُ الرَّحْمَنِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا لِأَنَّهُ يُزَيِّنُ لِأَصْحَابِهِ الْبَاطِلَ وَالظُّلْمَ وَالشَّرَّ ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ وَالنَّسْلِ ، فَيُوهِمُهُمْ بِوَسْوَسَتِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ لَهُمْ ، وَفِيهَا عِزُّهُمْ وَشَرَفُهُمْ ، وَهَذَا هُوَ الْكَيْدُ وَالْخِدَاعُ ، وَمِنْ سُنَنِ اللهِ فِي تَعَارُضِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، أَنَّ الْحَقَّ يَعْلُو وَالْبَاطِلَ يَسْفُلُ ، وَفِي مُصَارَعَةِ الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ بَقَاءُ الْأَصْلَحِ ، وَرُجْحَانُ الْأَمْثَلِ ، فَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ يَطْلُبُونَ شَيْئًا ثَابِتًا صَالِحًا تَقْتَضِيهِ طَبِيعَةُ الْعُمْرَانِ فَسُنَنُ الْوُجُودِ مُؤَيِّدَةٌ لَهُمْ ، وَالَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ يَطْلُبُونَ الِانْتِقَامَ وَالِاسْتِعْلَاءَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَتَسْخِيرَ النَّاسِ لِشَهَوَاتِهِمْ وَلَذَّاتِهِمْ وَهِيَ أُمُورٌ تَأْبَاهَا فِطْرَةُ الْبَشَرِ السَّلِيمَةِ ، وَسُنَنُ الْعُمْرَانِ الْقَوِيمَةِ ، فَلَا قُوَّةَ وَلَا بَقَاءَ لَهَا ، إِلَّا بِتَرْكِهَا وَشَأْنَهَا ، وَإِرْخَاءِ الْعِنَانِ لِأَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا بَقَاءُ الْبَاطِلِ فِي نَوْمَةِ الْحَقِّ عَنْهُ ، وَثَمَّ مَعْنًى آخَرُ ، قَالَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ : هَذِهِ الْآيَةُ جَوَابٌ عَمَّا عَسَاهُ يَطُوفُ بِخَوَاطِرِ أُولَئِكَ الضُّعَفَاءِ ، وَهُوَ أَنَّنَا لَا نُقَاتِلُ لِأَنَّنَا ضُعَفَاءُ وَالْأَعْدَاءُ أَكْثَرُ مِنَّا عَدَدًا ، وَأَقْوَى مِنَّا عُدَدًا ، فَدَلَّهُمُ اللهُ – تَعَالَى – عَلَى قُوَّةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي لَا تُعَادِلُهَا قُوَّةٌ ، وَضَعْفِ الْأَعْدَاءِ الَّذِي لَا يُفِيدُهُ مَعَهُ كَيْدٌ وَلَا حِيلَةٌ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَهُوَ تَأْيِيدُ الْحَقِّ الَّذِي يُوقِنُ بِهِ صَاحِبُهُ ، وَصَاحِبُ الْيَقِينِ

وَالْمَقَاصِدِ الصَّحِيحَةِ الْفَاضِلَةِ تَتَوَجَّهُ نَفْسُهُ بِكُلِّ قُوَاهَا إِلَى إِتْمَامِ الِاسْتِعْدَادِ ، وَيَكُونُ أَجْدَرَ بِالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ ، وَفِي ذَلِكَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا لَيْسَ فِي كَثْرَةِ الْعَدَدِ وَالْعُدَدِ .

أَقُولُ : وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ الْعِبْرَةِ أَنَّ الْقِتَالَ الدِّينِيَّ أَشْرَفُ مِنَ الْقِتَالِ الْمَدَنِيِّ لِأَنَّ الْقِتَالَ الدِّينِيَّ فِي حُكْمِ الْإِسْلَامِ يُقْصَدُ بِهِ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ وَحُرِّيَّةُ الدِّينِ ، وَهِيَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ (٨ : ٣٩) ، أَيْ حَتَّى لَا يُفْتَنَ أَحَدٌ عَنْ دِينِهِ وَيُكْرَهُ عَلَى تَرْكِهِ ، لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ (٢ : ٢٥٦) ، وَقَالَ فِي وَصْفِ مَنْ أُذِنَ لَهُمْ بِالْقِتَالِ بَعْدَ مَا بَيَّنَ إِلْجَاءَ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (٢٢ : ٤١) ، وَتَقَدَّمَ شَرْحُ ذَلِكَ مِرَارًا ، وَأَمَّا الْقِتَالُ الْمَدَنِيُّ فَإِنَّمَا يَقْصِدُ بِهِ الْمُلْكَ وَالْعَظَمَةَ ، وَتَحَكُّمَ الْغَالِبِ الْقَوِيِّ فِي الْمَغْلُوبِ الضَّعِيفِ ، وَإِنَّمَا يَذُمُّ أَهْلُ الْمَدَنِيَّةِ الْحَرْبَ الدِّينِيَّةَ ؛ لِأَنَّهُمْ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ فِي الْحُرُوبِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَلَهُمْ طَمَعٌ فِي بِلَادٍ لَيْسَ لَهَا مِثْلُ تِلْكَ الْقُوَّةِ ، وَإِنَّمَا لَهَا بَقِيَّةٌ مِنْ قُوَّةِ الْعَقِيدَةِ ، فَهُمْ يُرِيدُونَ الْقَضَاءَ عَلَى هَذِهِ الْبَقِيَّةِ وَيَتَّهِمُونَهَا بَاطِلًا بِهَذِهِ التُّهْمَةِ .

وَمِنْهَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَسَائِرَ مَا وَرَدَ فِي الْقِتَالِ فِي السُّوَرِ الْمُتَعَدِّدَةِ تَدُلُّ – إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهَا أَعْمَالُ الْمُسْلِمِينَ – عَلَى أَنَّ الْحَرْبَ الَّتِي يُوجِبُهَا الدِّينُ وَيَشْتَرِطُ لَهَا الشُّرُوطَ وَيُحَدِّدُ لَهَا الْحُدُودَ قَدْ تَرَكَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ ، وَلَوْ وُجِدَتْ فِي الْأَرْضِ حُكُومَةٌ إِسْلَامِيَّةٌ تُقِيمُ الْقُرْآنَ وَتُحَوِّطُ الدِّينَ وَأَهْلَهُ بِمَا أَوْجَبَهُ مِنْ إِعْدَادِ كُلِّ مَا يُسْتَطَاعُ مِنْ قُوَّةٍ وَاسْتِعْدَادٍ لِلْحَرْبِ حَتَّى تَكُونَ أَقْوَى دَوْلَةٍ حَرْبِيَّةٍ ثُمَّ إِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تَتَجَنَّبُ الِاعْتِدَاءَ فَلَا تَبْدَأُ غَيْرَهَا بِقِتَالٍ بِمَحْضِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، بَلْ تَقِفُ عِنْدَ تِلْكَ الْحُدُودِ الْعَادِلَةِ فِي الْهُجُومِ وَالدِّفَاعِ ، لَوْ وُجِدَتْ هَذِهِ الْحُكُومَةُ لَاتَّخَذَهَا أَهْلُ الْمَدَنِيَّةِ الصَّحِيحَةِ قُدْوَةً صَالِحَةً لَهُمْ ، وَلَكِنْ صَارَ بَعْضُ الْأُمَمِ الَّتِي لَا تَدِينُ بِالْقُرْآنِ أَقْرَبَ إِلَى أَحْكَامِهِ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ يَدَّعُونَ اتِّبَاعَهُ ،وَإِنَّمَا الْغَلَبَةُ وَالْعِزَّةُ لِمَنْ يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى هِدَايَةِ الْقُرْآنِ بِالْفِعْلِ ، عَلَى مَنْ يَكُونُ أَبْعَدَ عَنْهَا وَإِنِ انْتَسَبَ إِلَيْهِ بِالْقَوْلِ . "[٢٣٥]

[٢٣٥] – تفسير المنار – (٥ / ٢١١)

وفي الظلال : " وإذ ندب اللّه سبحانه من عباده من يتولّون الدفاع عن المستضعفين ، ويجاهدون فى سبيل اللّه من أجل خلاصهم من يد البغي والعدوان ، وإذ استجاب المجاهدون لما ندبهم اللّه له ــ فإنهم بهذا قد حققوا معنى الإيمان الذي رضوا به ، واتخذوه دينا .. فالمؤمن ــ إن صحّ إيمانه ــ كان دائما أبدا فى جبهة الحق ، ينتصر له ، ويقاتل فى سبيله : « الَّذِينَ آمَنُوا يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ».. لأنهم أعطوا ولاءهم كلّه للّه.

وليس كذلك سبيل الكافرين .. إنهم أولياء الباطل ، وأتباع الضلال ..ولذلك فهم يقاتلون ــ حين يقاتلون ــ لحساب الباطل ، وتحت راية الطاغوت ..والطاغوت .. هو مجمع كل شر ، وملتقى كل فساد .. إنه الشيطان ، كما فسّرته الآية فى قوله تعالى : « فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ »..

وفى قوله تعالى : « إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً » تثبيت لأقدام المجاهدين فى سبيل اللّه ، وتطمين لقلوبهم ، وتلويح لهم ببشائر النصر على عدوّهم .. لأنهم على الحق ، وفى سبيل الحق يقاتلون ، والعدو على طريق الباطل ، وتحت راية الباطل يقاتل .. واللّه سبحانه هو الحقّ ، وهو مع الحق ، وجند الحق ، فالنصر لا يتخلف أبدا عمن يقاتلون فى سبيل اللّه .. « فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ » (٢٢ : الحديد). "[٢٣٦]

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل اللّه لتحقيق منهجه ، وإقرار شريعته ، وإقامة العدل «بين الناس» باسم اللّه. لا تحت أي عنوان آخر. اعترافا بأن اللّه وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم : والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، لتحقيق مناهج شتى – غير منهج اللّه – وإقرار شرائع شتى – غير شريعة اللّه – وإقامة قيم شتى – غير التي أذن بها اللّه – ونصب موازين شتى غير ميزان اللّه! ويقف الذين آمنوا مستندين إلى ولاية اللّه وحمايته ورعايته.

ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم ، وشتى شرائعهم ، وشتى طرائقهم ، وشتى قيمهم ، وشتى موازينهم ... فكلهم أولياء الشيطان.

---

[٢٣٦] – التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع – (٣ / ٨٣٦)

ويأمر اللّه الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان : «فَقاتِلُوا أَوْلِياءَ الشَّيْطانِ ، إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً».

وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد. مقتنعي الوجدان بأنهم يخوضون معركة للّه ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ. وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شيء .. إنما هي للّه وحده ، ولمنهجه وشريعته. وأنهم يواجهون قوما أهل باطل يقاتلون لتغليب الباطل على الحق. لأنهم يقاتلون لتغليب مناهج البشر الجاهلية - وكل مناهج البشر جاهلية - على شريعة منهج اللّه ولتغليب شرائع البشر الجاهلية - وكل شرائع البشر جاهلية - على اللّه ولتغليب ظلم البشر - وكل حكم للبشر من دون اللّه ظلم - على عدل اللّه ، الذي هم مأمورون أن يحكموا به بين الناس ..

كذلك يخوضون المعركة ، وهم يوقنون أن اللّه وليهم فيها. وأنهم يواجهون قوما ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفا ..

ومن هنا يتقرر مصير المعركة في حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها. قبل أن يدخلوها. وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن في المعركة - فهو واثق من النتيجة - أم بقي حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر فهو واثق من الأجر العظيم.

من هذا التصور الحقيقي للأمر في كلتا حالتيه ، انبثقت تلك الخوارق الكثيرة التي حفظها تاريخ الجهاد في سبيل اللّه في حياة الجماعة المسلمة الأولى والتي تناثرت على مدى التاريخ في أجيال كثيرة. وما بنا أن نضرب لها هنا الأمثال فهي كثيرة مشهورة .. ومن هذا التصور كان ذلك المد الإسلامي العجيب ، في أقصر فترة عرفت في التاريخ فقد كان هذا التصور جانبا من جوانب التفوق الذي حققه المنهج الرباني للجماعة المسلمة ، على المعسكرات المعادية .. ذلك التفوق الذي أشرنا إليه من قبل . وبناء هذا التصور ذاته كان طرفا من المعركة الكلية الشاملة التي خاضها القرآن في نفوس المؤمنين ، وهو يخوض بهم

المعركة مع أعدائهم المتفوقين في العدد والعدة والمال ولكنهم في هذا الجانب كانوا متخلفين فأمسوا مهزومين!

وها نحن أولاء نرى الجهد الذي بذله المنهج في إنشاء هذا التصور وتثبيته. فلم يكن الأمر هينا. ولم يكن مجرد كلمة تقال. ولكنه كان جهدا موصولا ، لمعالجة شح النفس ، وحرصها على الحياة – بأي ثمن – وسوء التصور لحقيقة الربح والخسارة"[٢٣٧]

إن للّه في نفوسهم أن تتجرد له ، وألا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا أو خفيا ، وألا تستبقي فيها معه أحدا ولا شيئا ، وأن يكون اللّه أحب إليها من ذاتها ومن كل ما تحب وتهوى ، وأن تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها .. فهذا نصر اللّه في ذوات النفوس.

وإن للّه شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة. ونصر اللّه يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ، ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر اللّه في واقع الحياة.

ونقف لحظة أمام قوله تعالى : «وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» .. وقوله : «إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ» ..

وفى كلتا الحالتين. حالة القتل. وحالة النصرة. يشترط أن يكون هذا للّه وفي سبيل اللّه. وهي لفتة بديهية ، ولكن كثيرا من الغبش يغطي عليها عند ما تنحرف العقيدة في بعض الأجيال. وعند ما تمتهن كلمات الشهادة والشهداء والجهاد وترخص ، وتنحرف عن معناها الوحيد القويم.

إنه لا جهاد ، ولا شهادة ، ولا جنة ، إلا حين يكون الجهاد في سبيل اللّه وحده ، والموت في سبيله وحده ، والنصرة له وحده ، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

---

[٢٣٧] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٧٠٩)

لا جهاد ولا شهادة ولا جنة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة اللّه هي العليا. وأن تهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم ، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عن أبي موسى – رضي اللّه عنه – قال : سئل رسول اللّه – ﷺ – عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء. أي ذلك في سبيل اللّه؟ فقال : «من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه»

وليس هنالك من راية أخرى ، أو هدف آخر ، يجاهد في سبيله من يجاهد ، ويستشهد دونه من يستشهد ، فيحق له وعد اللّه بالجنة. إلا تلك الراية وإلا هذا الهدف. من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات! ويحسن أن يدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية ، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة ، وألا يلبسوا برايتهم راية ، ولا يخلطوا بتصورهم تصورا غريبا على ضيعة العقيدة.

لا جهاد إلا لتكون كلمة اللّه هي العليا. العليا في النفس والضمير. والعليا في الخلق والسلوك. والعليا في الأوضاع والنظم. والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة. وما عدا هذا فليس للّه. ولكن للشيطان. وفيما عدا هذا ليست هناك شهادة ولا استشهاد. وفيما عدا هذا ليس هنالك جنة ولا نصر من عند اللّه ولا تثبيت للأقدام. وإنما هو الغبش وسوء التصور والانحراف.

وان عزَّ على غير أصحاب الدعوة للّه أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف ، فلا أقل من أن يخلص الدعاة إلى اللّه أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط اللّه ..[٢٣٨]

إن الإسلام لا يتشهى القتال ، ولا يريده حبا فيه. ولكنه يفرضه لأن الواقع يحتمه ، ولأن الهدف الذي وراءه كبير. فالإسلام يواجه البشرية بالمنهج الإلهي في صورته الأخيرة

---

[٢٣٨] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٣٢٨٨)

المستقرة. وهذا المنهج – ولو أنه يلبي الفطرة المستقيمة – إلا أنه يكلف النفوس جهدا لتسمو إلى مستواه ، ولتستقر على هذا المستوي الرفيع. وهناك قوى كثيرة في هذه الأرض لا تحب لهذا المنهج أن يستقر ، لأنه يسلبها كثيرا من الامتيازات ، التي تستند إلى قيم باطله زائفة ، يحاربها هذا المنهج ويقضي عليها حين يستقر في حياة البشر. وهذه القوى تستغل ضعف النفوس عن البقاء في المستوي الإيماني وتكاليفه ، كما تستغل جهل العقول ، وموروثات الأجيال ، لتعارض هذا المنهج وتقف في طريقه. والشر عارم. والباطل متبجح. والشيطان لئيم! ومن ثم يتعين على حملة الإيمان وحراس المنهج أن يكونوا أقوياء ليغلبوا عملاء الشر وأعوان الشيطان. أقوياء في أخلاقهم ، وأقوياء في قتال خصومهم على السواء. ويتعين عليهم أن يقاتلوا عند ما يصبح القتال هو الأداة الوحيدة لضمان حرية الدعوة للمنهج الجديد ، وحرية الاعتقاد به ، وحرية العمل وفق نظامه المرسوم.

وهم يقاتلون في سبيل اللّه .. لا في سبيل ذواتهم أو عصبيتهم من أي لون .. عصبية الجنس وعصبية الأرض وعصبية العشيرة وعصبية البيت .. في سبيل اللّه وحده ، لتكون كلمة اللّه هي العليا. فعَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْقِتَالُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ أَحَدَنَا يُقَاتِلُ غَضَبًا ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . فَرَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ – قَالَ وَمَا رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ إِلاَّ أَنَّهُ كَانَ قَائِمًا – فَقَالَ « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِىَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ »[٢٣٩] .

وكلمة اللّه هي التعبير عن إرادته. وإرادته الظاهرة لنا – نحن البشر – هي التي تتفق مع الناموس الذي يسير عليه الكون كله. الكون الذي يسبح بحمد ربه. ومنهج اللّه في صورته الأخيرة التي جاء بها الإسلام هو الذي يتناسق مع ذلك الناموس ويجعل الكون كله – والناس من ضمنه – يحكمون بشريعة اللّه. لا بشريعة يضعها سواه.[٢٤٠]

وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ الْبَاهِلِىِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِىِّ –ﷺ– فَقَالَ أَرَأَيْتَ رَجُلاً غَزَا يَلْتَمِسُ الأَجْرَ وَالذِّكْرَ مَا لَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– « لاَ شَىْءَ لَهُ ». فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ يَقُولُ

[٢٣٩] – صحيح البخارى- المكنز – (١٢٣)

[٢٤٠] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٦ / ٣٥٥٤)

لَهُ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ شَىْءَ لَهُ ». ثُمَّ قَالَ « إِنَّ اللَّهَ لاَ يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلاَّ مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتُغِىَ بِهِ وَجْهُهُ ». "[٢٤١].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « يَجِىءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ يَا رَبِّ هَذَا قَتَلَنِى. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ فَيَقُولُ قَتَلْتُهُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لَكَ. فَيَقُولُ فَإِنَّهَا لِى. وَيَجِىءُ الرَّجُلُ آخِذًا بِيَدِ الرَّجُلِ فَيَقُولُ إِنَّ هَذَا قَتَلَنِى. فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ فَيَقُولُ لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلاَنٍ فَيَقُولُ إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلاَنٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ ». "[٢٤٢].

والذي نريد أن نقرره هنا أن الذين يقاتلون تحت راية عمية جاهلية ـــ وهي كل راية غير راية الإسلام ـــ ولغاية عرقية أرضية؛ كالذين يقاتلون في سبيل الإنسانية، أو القومية، أو العلمانية، أو الوطن والوطنية وغيرها من الشعارات الوثنية المرفوعة في هذا الزمان التي تُعبد من دون الله .. والتي تُعبِّد العبيد للعبيد .. فهؤلاء ـــ غير أنهم على ضلال مبين وخطر عظيم ـــ لا يجوزُ اعتبارهم من الطائفة المنصورة أو أن قتلاهم شهداء .. وفي الجنة .. لمجرد أنهم يقاتلون .. لأنهم إذ يُقاتلون فهم يقاتلون لكي تكون العزة لفلان وليس لله ﷻ!

وعَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يُقَاتِلُ عَصَبِيَّةً وَيَغْضَبُ لِعَصَبِيَّةٍ فَقِتْلَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ »[٢٤٣].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِي يَضْرِبُ بَرَّهَا ، وَفَاجِرَهَا ، لاَ يَتَحَاشَى مِنْ مُؤْمِنِهَا ، وَلاَ يَفِي بِذِي عَهْدِهَا ، فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ ، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يُقَاتِلُ لِعَصَبَةٍ ، أَوْ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ ، فَقَتْلُهُ قِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ.[٢٤٤]

---

[٢٤١] – سنن النسائي– المكتر – (٣١٥٣) صحيح

[٢٤٢] – سنن النسائي– المكتر – (٤٠١٤) صحيح

[٢٤٣] – سنن النسائي– المكتر – (٤١٣٢) صحيح لغيره

[٢٤٤] – صحيح ابن حبان – (١٠ / ٤٤١) (٤٥٨٠) صحيح

– عمية : الأمر الذي لا يستبين وجهه ، وقيل : كناية عن جماعة مجتمعين على أمر مجهول لا يعرف أنه حق أو باطل–

العصبة : بنو الرجل وقرابته لأبيه أو قومه الذين يتعصبون له وينصرونه ، وفي الفرائض من ليست له فريضة مسماة

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ يَغْضَبُ لِعَصَبَةٍ أَوْ يَدْعُو إِلَى عَصَبَةٍ أَوْ يَنْصُرُ عَصَبَةً فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ وَمَنْ خَرَجَ عَلَى أُمَّتِى يَضْرِبُ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا وَلاَ يَتَحَاشَ مِنْ مُؤْمِنِهَا وَلاَ يَفِى لِذِى عَهْدٍ عَهْدَهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَلَسْتُ مِنْهُ ». مسلم[٢٤٥].

والطائفة المنصورة .. من أكثر الناس بعداً وبراءة من القتال تحت رايات جاهلية عمية .. وهكذا يجب أن يكونوا.

خامساً: وهم كذلك قائمون على أمر الله تعالى ..

ساهرون على حدوده وأحكامه .. يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، لا يخافون في الله لومة لائم،كما قال تعالى عنهم :﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران:١٠٤.

والمراد بالأمة في الآية هم العلماء العاملون المجاهدون، صفوة الأمة علماً وعملاً وجهاداً، وإذا لم يكن هؤلاء هم المعنيين من أحاديث الطائفة المنصورة فمن يكون غيرهم ؟!

قال ابن كثير : " أي: منتصبة للقيام بأمر الله، في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر { وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } قال الضحاك: هم خاصّة الصحابة وخاصة الرُّواة، يعني: المجاهدين والعلماء.

وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ : { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ } ثم قال: "الْخَيْرُ اتِّبَاع القُرآنِ وَسُنَّتِي" رواه ابن مردويه.

والمقصود من هذه الآية أن تكون فرْقَة من الأمَّة متصدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه، كما ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بيده، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمَانِ". وفي رواية: "وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الإيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ" .

[٢٤٥] - صحيح مسلم- المكنز - (٤٨٩٢) -يتحاشى : لا يفزع لذلك ولا يكترث له ولا ينفر منه

وروى الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ولَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْ عِنْدِهِ، ثُمَّ لَتَدْعُنَّهُ فَلا يَسْتَجِيبُ لَكُمْ".ورواه الترمذي، وابن ماجة، وقال الترمذي: حسن [٢٤٦]

وفي التفسير الوسيط :

" أي : ولتكن منكم أيها المؤمنون طائفة قوية الإيمان عظيمة الإخلاص ، تبذل أقصى طاقتها وجهدها في الدعوة إلى الخير الذي يصلح من شأن الناس ، وفي أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة ، وفي نهيهم عن المنكر الذي يأباه شرع اللّه ، وتنفر منه الطباع الحسنة.

وقوله : وَلْتَكُنْ صيغة وجوب من اللّه – تعالى – على كل من يصلح لمهمة الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وتكن إما من كان التامة أى : ولتوجد منكم أمة. فيكون قوله : أُمَّةٌ فاعلا لتكن وجملة يَدْعُونَ صفة لأمة ، ومِنْكُمْ متعلق بتكن.

وإما من كان الناقصة فيكون قوله : أُمَّةٌ اسمها ، وجملة يَدْعُونَ خبرها ، وقوله مِنْكُمْ متعلق بكان الناقصة ، أو بمحذوف وقع حالا من أمة.

ومن في قوله – تعالى – وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يرى أكثر العلماء أنها للتبعيض. أى : ليكن بعض منكم أمة أى طائفة تبذل جهدها في تبليغ رسالات اللّه وفي دعوة الناس إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

وفي هذا التبعيض وتنكير أمة تنبيه على قلة العاملين بذلك وأنه لا يخاطب به إلا الخواص.

ومن هذا الأسلوب قوله – تعالى – :« اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ » فقد وجه الخطاب إلى نفس منكرة تنبيها على قلة الناظر في معاده.

وعلى هذا فكأن الآية الكريمة قد اشتملت على طلبين :

---

[٢٤٦] – تفسير ابن كثير – دار طيبة – (٢ / ٩١)

أحدهما : وجه إلى الأمة كلها يطالبها بأن تعد طائفة من بينها لهذه المهمة السامية وهي دعوة الناس إلى الخير وأن تزود هذه الطائفة الصالحة لهذه المهمة بكل ما يمكنها من أداء مهمتها.

وثانيهما : موجه إلى تلك الطائفة الصالحة لهذه المهمة ، بأن تخلص فيها ، وتؤديها على الوجه الأكمل الذي يرضى اللّه - تعالى - ويرى بعض العلماء أن « من » في قوله - تعالى - وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ بيانية.

فيكون المعنى أن الأمة كلها عليها واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا على سبيل الفرض الكفائى ، بل على سبيل الفرض العيني.

أى : لتكونوا أيها المؤمنون جميعا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فمن هنا ليس المراد بها التبعيض على هذا الرأى بل المراد بها البيان ، وذلك كقولك : لفلان من أولاده جند ، وللأمير من غلمانه عسكر ، تريد بذلك جميع أولاده وغلمانه.

ويبدو لنا أن الرأي الأول وهو أن « من » للتبعيض أقرب إلى الصواب ، لأن الأمة كلها برجالها ونسائها وشبابها وشيوخها لا تصلح لهذه المهمة السامية ، وإنما يصلح لها من يجيدها ويحسنها بأن تكون عنده القدرة العقلية ، والعلمية ، والنفسية ، والخلقية ، لأدائها. [٢٤٧]"

وقال السعدي : " أي: وليكن منكم أيها المؤمنون الذين مَنَّ الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله { أمة } أي: جماعة { يدعون إلى الخير } وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه { ويأمرون بالمعروف } وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه { وينهون عن المنكر } وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس وإلزامهم

---

[٢٤٧] - التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي - (٢ / ٢٠١)

بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله { ولتكن منكم أمة } إلخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: { وأولئك هم المفلحون } الفائزون بالمطلوب، الناجون من المرهوب.."[٢٤٨]

وقال القاسمي :

" وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة ، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة ، وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها – كذا في " فتح البيان " .

قال الغزالي رضي الله عنه : في هذه الآية بيان الإيجاب . فإن قوله تعالى : { وَلْتَكُن } أمر . وظاهر الأمر الإيجاب ، وفيها بيان أن الفلاح منوط به ، إذ حَصَرَ وقال : { وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين ، وأنه إذا قام به أمة سقط الفرض عن الآخرين ؛ إذ لم يقل : كونوا كلكم آمرين بالمعروف . بل قال : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ } . فإذاً ، مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين ، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين . وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون ، عم الحرج كافة القادرين عليه لا محالة . انتهى .

---

[٢٤٨] – تفسير السعدي – (١ / ١٤٢)

فإن قلت : فمن يباشره ؟ فالجواب : كل مسلم تمكن منه و لم يغلب على ظنه أنه إن أنكر لحقته مضرة عظيمة ، أو إن نهيه لا يأثر ، لأنه عبث ، إلا أنه يستحب لإظهار شعار الإسلام ، وتذكير الناس بأمر الدين . فإن قلت : فمن يؤمر وينهى ؟ قلت : كل مكلف ، وغير المكلف ، إذا همّ بضرر غير منع ، كالصبيان والمجانين ، وينهى الصبيان عن المحرمات حتى لا يتعودوها ، كما يؤخذون بالصلاة ليمرنوا عليها – ذكره الزمخشري – .

وتفصيل هذا البحث في " الإحياء " للغزالي قدس سره ، وقد قال ، قدس سره ، في طليعة ذلك البحث ما نصه : إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طوي بساطه وأهمل عمله لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمّت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، وإن لم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، واستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعزّ على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلاً بعملها ، أو متقلداً لتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الداثرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمراً في إحيائها ، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إماتتها ، ومستبداً بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها – انتهى – . "[٢٤٩]

وقال تعالى:﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ الحج:٤١.

قال الخطيب :

---

[٢٤٩] – محاسن التأويل تفسير القاسمي – (٢ / ٤٥٠)

" وقوله تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ » ـــ هو عرض للصورة الكريمة التي سيكون عليها هؤلاء المؤمنون الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، وذلك حين ينصرهم اللّه ، ويمكّن لهم فى الأرض ، وتكون لهم القوة والغلب ..

إنهم ـــ مع ما ملكت أيديهم من قوة ، وما مكّن اللّه سبحانه وتعالى لهم فى الأرض من سلطان ـــ لن يكونوا على شاكلة هؤلاء الضالّين الذين كانت إلى أيديهم القوة والسلطان ، فتسلطوا على عباد اللّه ، ورهقوهم ، وأخذوهم بالبأساء والضراء ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق ..

إن هؤلاء المؤمنين ، حين يمكّن اللّه لهم فى الأرض ، سيكونون مصابيح هدى ، وينابيع رحمة ، للإنسانية كلها ، بما يقيمون فيها من موازين الحق ، والعدل ، وما يغرسون فى آفاقها من مغارس الخير والإحسان .. إنهم يقيمون الصلاة ، ليستمدوا منها أمداد الهدى من اللّه .. ويؤتون الزكاة ، فيكشفون بها الضرّ عن عباد اللّه .. ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .. فيصلحون بهذا من سلوك الناس ، ويقيمون لهم طرقهم مستقيمة ، فلا تتصادم منازعهم ، ولا تفسد مشاربهم ..

وقد صدق اللّه وعده ، ومكن سبحانه وتعالى للمؤمنين فى الأرض ، فكانوا أعلام هدى ، وآيات رحمة ، وموازين عدل وإحسان بين الناس .. وكانوا كما وصفهم سبحانه بقوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ » (١١٠ : آل عمران). "[٢٥٠]

وقال السعدي :

" ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: { الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ } أي: ملكناهم

[٢٥٠] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٩ / ١٠٤٦)

إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، { أَقَامُوا الصَّلاةَ } في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

{ وَآتُوا الزَّكَاةَ } التي عليهم خصوصا، وعلى رعيتهم عموما، آتوها أهلها، الذين هم أهلها، { وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ } وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعا وعقلا من حقوق الله، وحقوق الآدميين، { وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ } كل منكر شرعا وعقلا معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعا، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به. "[٢٥١]

وفي تفسير المنار : " وَقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَرْبَعَ غَايَةً لِلْإِذْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُونَهُمْ وَيُعَادُونَهُمْ فِي الدِّينِ وَسَبَبًا لِنَصْرِهِمْ وَتَمْكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ ؛ إِذْ قَالَ بَعْدَ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْإِذْنِ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ : الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (٢٢ : ٤١) وَبِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ الْفُتُوحَاتِ ، وَدَانَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ طَوْعًا ، وَبِتَرْكِهَا سُلِبَ أَكْثَرُ مُلْكِهِمْ ، وَالْبَاقِي عَلَى وَشْكِ الزَّوَالِ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا إِلَى رَبِّهِمْ ، وَيَرْجِعُوا إِلَى هِدَايَةِ دِينِهِمْ ، وَلَاسِيَّمَا إِقَامَةِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ مِنْهُ . "[٢٥٢]

وفي الظلال : " إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان.

والشر جامح والباطل مسلح. وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له. فلا بد للإيمان

[٢٥١] - تفسير السعدي - (١ / ٥٣٩)

[٢٥٢] - تفسير المنار - (١٠ / ٤٦٨)

والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة وتحرسها من الأشواك والسموم.

ولم يشأ اللّه أن يترك الإيمان والخير والحق عزلا تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتمادا على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفطر ، وعمق الخير في القلوب. فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر. وللصبر حد وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه.

واللّه أعلم بقلوب الناس ونفوسهم. ومن ثم لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة ، إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيأون للدفاع ، ويتمكنون من وسائل الجهاد .. وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان.

وقبل أن يأذن لهم بالانطلاق إلى المعركة آذنهم أنه هو سيتولى الدفاع عنهم فهم في حمايته : «إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا» ..

وأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم فهم مخذولون حتما : «إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ» ..

وأنه حكم لهم بأحقية دفاعهم وسلامة موقفهم من الناحية الأدبية فهم مظلومون غير معتدين ولا متبطرين : «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا» ..وأن لهم أن يطمئنوا إلى حماية اللّه لهم ونصره إياهم : «وَإِنَّ اللَّهَ عَلى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ» ..

وأن لهم ما يبرر خوضهم للمعركة فهم منتدبون لمهمة إنسانية كبيرة ، لا يعود خيرها عليهم وحدهم ، إنما يعود على الجبهة المؤمنة كلها وفيها ضمان لحرية العقيدة وحرية العبادة وذلك فوق أنهم مظلمون أخرجوا من ديارهم بغير حق : «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبُّنَا اللَّهُ» .. وهي أصدق كلمة أن تقال ، وأحق كلمة بأن تقال. ومن أجل هذه الكلمة وحدها كان إخراجهم. فهو البغي المطلق الذي لا يستند إلى شبهة من ناحية المعتدين. وهو التجرد من كل هدف شخصي من ناحية المعتدى عليهم ، إنما هي العقيدة وحدها من أجلها يخرجون ، لا الصراع على عرض من أعراض هذه

الأرض ، التي تشتجر فيها الأطماع وتتعارض فيها المصالح وتختلف فيها الاتجاهات وتتضارب فيها المنافع! ووراء هذا كله تلك القاعدة العامة .. حاجة العقيدة إلى الدفع عنها : «وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَساجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً» ..

والصوامع أماكن العبادة المنعزلة للرهبان ، والبيع للنصارى عامة وهي أوسع من الصوامع ، والصلوات أماكن العبادة لليهود. والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

وهي كلها معرضة للهدم – على قداستها وتخصيصها لعبادة اللّه – لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم اللّه يذكر فيها ، ولا يحميها إلا دفع اللّه الناس بعضهم ببعض. أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها ، ويعتدون على أهلها. فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول. ولا يكفي الحق أنه الحق ليقف عدوان الباطل عليه ، بل لا بد من القوة تحميه وتدفع عنه. وهي قاعدة كلية لا تتبدل ما دام الإنسان هو الإنسان! ولا بد من وقفة أمام هذه النصوص القليلة الكلمات العميقة الدلالة ، وما وراءها من أسرار في عالم النفس وعالم الحياة.....

فوعد اللّه المؤكد الوثيق المتحقق الذي لا يتخلف هو أن ينصر من ينصره .. فمن هم هؤلاء الذين ينصرون اللّه ، فيستحقون نصر اللّه ، القوي العزيز الذي لا يهزم من يتولاه؟ إنهم هؤلاء : «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ» .. فحققنا لهم النصر ، وثبتنا لهم الأمر .. «أَقامُوا الصَّلاةَ» .. فعبدوا اللّه ووثقوا صلتهم به ، واتجهوا إليه طائعين خاضعين مستسلمين .. «وَآتَوُا الزَّكاةَ» .. فأدوا حق المال ، وانتصروا على شح النفس ، وتطهروا من الحرص ، وغلبوا وسوسة الشيطان ، وسدوا خلة الجماعة ، وكفلوا الضعاف فيها والمحاويج ، وحققوا لها صفة الجسم الحي – كما قال رسول اللّه – ﷺ – : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» ..

«وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ» .. فدعوا إلى الخير والصلاح ، ودفعوا إليه الناس .. «وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ» .. فقاوموا الشر والفساد ، وحققوا بهذا وذاك صفة الأمة المسلمة التي لا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره ، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه ..

هؤلاء هم الذين ينصرون اللّه ، إذ ينصرون نهجه الذي أراده للناس في الحياة ، معتزين باللّه وحده دون سواه. وهؤلاء هم الذين يعدهم اللّه بالنصر على وجه التحقيق واليقين.

فهو النصر القائم على أسبابه ومقتضياته. المشروط بتكاليفه وأعبائه .. والأمر بعد ذلك للّه ، يصرفه كيف يشاء ، فيبدل الهزيمة نصرا ، والنصر هزيمة ، عند ما تختل القوائم ، أو تهمل التكاليف : «وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ» ..

إنه النصر الذي يؤدي إلى تحقيق المنهج الإلهي في الحياة. من انتصار الحق والعدل والحرية المتجهة إلى الخير والصلاح. المنظور فيه إلى هذه الغاية التي يتوارى في ظلها الأشخاص والذوات ، والمطامع والشهوات ..

وهو نصر له سببه. وله ثمنه. وله تكاليفه. وله شروطه. فلا يعطى لأحد جزافا أو محاباة ولا يبقى لأحد لا يحقق غايته ومقتضاه .. "[٢٥٣]

وتظهر هذه الصفة فيهم ـــ صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـــ بارزة في حديث عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ أَنَّ عُمَيْرَ بْنَ هَانِئٍ حَدَّثَهُ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْمِنْبَرِ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ »[٢٥٤].

وفي حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ »[٢٥٥].

[٢٥٣] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٤٢٤)

[٢٥٤] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٤)

[٢٥٥] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٢)

وفي حديث النُّعْمَانَ بْنِ بَشِيرٍ قال :قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ – :« مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا فَكَانَ الَّذِى فِى أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ فَمَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ آذَوهُمْ فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِى نَصِيبِنَا خَرْقًا فَاسْتَقَيْنَا مِنْهُ وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا فَإِنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا جَمِيعًا ». رَوَاهُ الْبُخَارِىُّ "[256].

فمثلهم مثل الذين يأخذون على أيدي أهل المنكر زجراً وضرباً ونهياً .. حتى لا تهلك المجتمعات وتغرق ــ بأوحال الفساد والمرض ــ بساكنيها .. وبذلك نالوا صفة القيام على حدود الله وأوامره.

عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الأَسْقَعِ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : بَدَأَ الإِسْلامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ.[257]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ " ، قِيلَ : مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ "

وفي رواية عَنِ ابْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : " إِنَّ الْإِيمَانَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ .. "[258]

وعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " إِنَّ الدِّينَ لَيَأْرِزُ إِلَى الحِجَازِ كَمَا تَأْرِزُ الحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا ، وَلَيَعْقِلَنَّ الدِّينُ مِنَ الحِجَازِ مَعْقِلَ الأُرْوِيَّةِ مِنْ رَأْسِ الجَبَلِ ، إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ

[256] – السنن الكبرى للبيهقي– المكتز – (١٠ / ٢٨٨) (٢١٩٣٤) وصحيح البخارى– المكتز – (٢٤٩٣)

[257] – الفوائد لتمام (١٠٠٠) والزهد هق (١٩٨) وموضح أوهام التفريق ١٩٨/١ والسلسلة الصحيحة – (٣ / ٣٤٧) (١٢٧٣) ومسند أحمد – المكتز – (١٧١٤٥) صحيح لغيره

[258] – السُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي(٢٩٠ –٢٩٢) صحيح لغيره

غَرِيبًا وَيَرْجِعُ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنَّتِي "[259]

وعَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ سُفْيَانَ بْنَ عَوْفٍ الْقَارِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ، وَنَحْنُ عِنْدَهُ : " طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ ، طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ " . فَقِيلَ : وَمَنِ الْغُرَبَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " نَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سَوْءٍ كَثِيرٍ ، مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ " ، وَكُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا آخَرَ حِينَ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ : " سَيَأْتِي نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورُهُمْ كَضَوْءِ الشَّمْسِ " . قُلْنَا : وَمَنْ أُولَئِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ ، يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ "[260]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : " طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ " ثَلَاثًا ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَنِ الْغُرَبَاءُ ؟ قَالَ : " نَاسٌ صَالِحُونَ قَلِيلٌ فِي نَاسِ سُوءٍ كَثِيرٍ ، مَنْ يُبْغِضُهُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يُطِيعُهُمْ " ، ثُمَّ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " يَأْتِي أُنَاسٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وجُوهُهُمْ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ " ، فَسَأَلَ أَبُو بَكْرٍ : نَحْنُ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : " لَا ، وَلَكُمْ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَلَكِنَّهُمْ أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ ، يَمُوتُ أَحَدُهُمْ وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ ، يُحْشَرُونَ مِنْ أَقْطَارِ الْأَرْضِ "[261]

لكن ذلك لا يثنيهم عن الجهر بالحق، والصدع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولو خالفوا بذلك تيار الباطل الجارف ..!

فهم يصلحون إذا فسد الناس، مهما كانت تكاليف الإصلاح باهظة الثمن .. لا يلتفتون إلى كثرة الجماهير وصفيقهم .. ولا يبالون لمن وافقهم أو خالفهم .. فهمّهم الأكبر هو الإصلاح .. هو أن تنجو السفينة من الغرق وتصل إلى بر الأمان بسلام ..!

---

[259] - سُنَنُ التِّرْمِذِيِّ ـــ الْجَامِعُ الصَّحِيحُ (٢٦٧٧) حسن لغيره

[260] - مُسْنَدُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ (٢٣) والزُّهْدُ وَالرَّقَائِقُ لِابْنِ الْمُبَارَكِ (٧٦٢) والسلسلة الـصحيحة - (٢ / ٣٦٣) (١٦١٩) صحيح

[261] - الْبِدَعُ لِابْنِ وَضَّاحٍ (١٦٦) صحيح

لا يبررون لأنفسهم ــ تحت ذرائع العجز والاستضعاف ــ مواكبة الباطل أو الركون إليه في مرحلة من مراحل المسير إلى الله .. طمعاً في كسبٍ دنيوي زهيد .. أو نظرة عطف وإحسان من طاغوت متجبر .. كما يفعل ذلك كثير ممن يسمون أنفسهم دعاة .. متسترين بمصلحة الدعوة ..

فأحيوا في الأمة فقه العجز والاستضعاف .. والركون إلى الظالمين .. وفقه أن الباطل واقع لا بدَّ من الرضى به والتعايش معه .. ولا بدَّ من مد جسور الحوار والتفاهم .. وما حملهم على ذلك إلا حظوظ النفس والهوى .. والطمع بما في أيدي الظالمين من فُتات .. والفرار من تكاليف الدعوة إلى الله!

سادساً: صفة الظهور على من ناوأهم وعاداهم

والذي يقرر ذلك حديث الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : لا يَزَالُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ "[٢٦٢]

وقول رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- « ..لاَ تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَأَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »[٢٦٣].

وعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى مَنْصُورِينَ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ »[٢٦٤]. فالأحاديث هنا على ظاهرها؛ فهم ظاهرون بكل ما تعني كلمة الظهور من معنى، فهم ظاهرون بذواتهم على كل من يعاديهم أو يقاتلهم، ظاهرون بدعوتهم وكلمتهم على جميع الدعوات المزيفة الباطلة، وهم كذلك ظاهرون بمعنوياتهم وإيمانهم لا يخافون في الله لومة لائم ..!

ترى أحدهم معتقلاً في سجون الطغاة يواجه أعتى أنواع التنكيل والتعذيب والإرهاب .. وهو مع ذلك ظاهر بدعوته صدَّاعاً بالحق في وجوه الطغاة الآثمين .. بل هم حتى لو

---

[٢٦٢] - مسند أبي عوانة (٦٠٤٣) صحيح

[٢٦٣] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٦٥)

[٢٦٤] - سنن ابن ماجه- المكنز - (٦) صحيح

حكموا عليه بالإعدام، تراهم يغتاظون منه لما يسمعونه من عبارات الرضى والتكبير والتهليل التي تنمُّ عن رضاه بالفوز بنصر الشهادة التي طالما كان يبحث عنها ..!

ولربما كانت الكلمات التي كان ينطق بها بلال وهو تحت سياط الجلادين: أحدٌ .. أحد .. ولا يزيد .. هي أشد وطأة وقوة من السياط على رؤوس الطواغيت الجلادين!

وفي قصة خبيب رضي الله عنه عبرة وعظة ،فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سَرِيَّةً عَيْنًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَاصِمَ بْنَ ثَابِتٍ ، فَانْطَلَقُوا حَتَّى إِذَا كَانُوا بِبَعْضِ الطَّرِيقِ بَيْنَ عُسْفَانَ وَمَكَّةَ نُزُولاً ، فَذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيْلٍ يُقَالُ لَهُمْ : بَنُو لِحْيَانَ ، فَاتَّبَعُوهُمْ بِقَرِيبٍ مِنْ مِائَةِ رَجُلٍ رَامٍ ، فَاقْتَصُّوا آثَارَهُمْ ، حَتَّى نَزَلُوا مَنْزِلاً نَزَلُوهُ ، فَوَجَدُوا فِيهِ نَوَى تَمْرٍ مِنْ تَمْرِ الْمَدِينَةِ ، فَقِيلَ : هَذَا مِنْ تَمْرِ أَهْلِ يَثْرِبَ فَاتَّبَعُوا آثَارَهُمْ ، حَتَّى لَحِقُوهُمْ ، فَلَمَّا آنَسَهُمْ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَصْحَابُهُ ، لَجَؤُوا إِلَى فَدْفَدٍ ، وَجَاءَ الْقَوْمُ فَأَحَاطُوا بِهِمْ ، فَقَالُوا : لَكُمُ الْعَهْدُ وَالْمِيثَاقُ إِنْ نَزَلْتُمْ إِلَيْنَا أَنْ لاَ نَقْتُلَ مِنْكُمْ رَجُلاً ، فَقَالَ عَاصِمٌ : أَمَّا أَنَا فَلاَ أَنْزِلُ فِي ذِمَّةِ قَوْمٍ كَافِرِينَ ، اللَّهُمَّ أَخْبِرْ عَنَّا رَسُولَكَ ، فَقَاتَلُوهُمْ فِي بُيُوتِهِمْ حَتَّى قَتَلُوا عَاصِمًا فِي سَبْعَةِ نَفَرٍ ، وَبَقِيَ خُبَيْبُ بْنُ عَدِيٍّ وَزَيْدُ بْنُ الدَّثِنَةِ ، وَرَجُلٌ آخَرُ فَأَعْطَوْهُمُ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ أَنْ يَنْزِلُوا إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ حَلُّوا أَوْتَارَ قِسِيِّهِمْ ، فَرَبَطُوهُمْ بِهَا ، فَنَادَى الرَّجُلُ الثَّالِثُ الَّذِي مَعَهُمَا ، هَذَا أَوَّلُ الْغَدْرِ ، فَأَبَى أَنْ يَصْحَبَهُمْ ، فَجَرُّوهُ ، فَأَبَى أَنْ يَتَّبِعَهُمْ ، وَقَالَ : لِي فِي هَؤُلاَءِ أُسْوَةٌ ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ. وَانْطَلَقُوا بِخُبَيْبِ بْنِ عَدِيٍّ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ حَتَّى بَاعُوهُمَا بِمَكَّةَ فَاشْتَرَى خُبَيْبًا بَنُو الْحَارِثِ بْنُ عَامِرٍ ، وَكَانَ الْحَارِثُ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَمَكَثَ عِنْدَهُمْ أَسِيرًا ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى قَتْلِهِ اسْتَعَارَ مُوسًى مِنْ إِحْدَى بَنَاتِ الْحَارِثِ يَسْتَحِدُّ بِهِ ، فَأَعَارَتْهُ ، قَالَتْ : فَغَفَلْتُ عَنْ صَبِيٍّ لِي حَتَّى أَتَاهُ ، فَأَخَذَهُ فَأَضْجَعَهُ عَلَى فَخِذِهِ ، وَالْمُوسَى فِي يَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُ ، فَزِعْتُ فَزَعًا شَدِيدًا ، فَقَالَ : خَشِيتِ أَنْ أَقْتُلَهُ ؟ مَا كُنْتُ لأَفْعَلَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، قَالَ : فَكَانَتْ تَقُولُ : مَا رَأَيْتُ أَسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ وَإِنَّهُ لَمُوثَقٌ فِي الْحَدِيدِ ، وَمَا كَانَ إِلاَّ رِزْقًا رَزَقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ مِنَ الْحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ ، فقَالَ :

دَعُونِي أُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ : لَوْلاَ أَنْ تَرَوْا أَنَّ مَا بِي جَزَعٌ مِنَ الْمَوْتِ ، لَزِدْتُ ، فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الرَّكْعَتَيْنِ عِنْدَ الْقَتْلِ ، ثُمَّ قَالَ :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شَقٍّ كَانَ لِلَّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِى ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

ثُمَّ قَامَ إِلَيْهِ عُقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ فَقَتَلَهُ ، وَبَعَثَتْ قُرَيْشٌ إِلَى مَوْضِعِ عَاصِمٍ تُرِيدُ الشَّيْءَ مِنْ جَسَدِهِ لِيَعْرِفُوهُ ، وَكَانَ قَتَلَ عَظِيمًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ ، فَبَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِثْلَ الظُّلَّةِ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ."[٢٦٥]

شبهة ورد:

لعل قائلاً يقول: كيف نوفق بين كونهم ظاهرين منصورين .. ثم بالمقابل لا نجد لظهورهم أثراً في الواقع ؟

والجواب على ذلك من أوجه، منها:

١- نقول للسائل: لو أمعنت النظر، ودققت الفهم .. وتحريت ببصيرة العالم ما يجري على الساحة .. لأدركت أن للطائفة المنصورة ظهوراً وحضوراً لا يمكن نكرانه أو تجاهله .. وإلى أن تقوم الساعة.

ونقول لك مصارحين معتذرين: قد كذبك فهمك وبصرك .. وصدق رسول الله ﷺ فيما أخبر عنهم من أنهم ظاهرون منصورون .. وعلى مر العصور إلى أن تقوم الساعة.

٢- أن ظهورهم على الناس لا يُعدم، ولكن الذي يمكن أن يحصل أن ظهورهم قد تتضاءل ساحته واتساعه .. في مرحلة من المراحل ـــ بحكم الغربة التي يعانون منها ـــ حتى يظن البعض أنهم غير موجودين مطلقاً، والحقيقة تكون خلاف ذلك.

٣- القول بأنهم ظاهرون لا يستلزم أنهم لا يصابون ـــ في مرحلة من المراحل ـــ بخسائر ويمنون بهزائم .. بما كسبت أيدي بعضهم .. أو لابتلاء يريده الله .. يُمحص به النفوس

[٢٦٥] - صحيح ابن حبان - (١٥ / ٥١٢) (٧٠٣٩) وصحيح البخارى- المكنز - (٣٠٤٥)

والصفوف .. فهذا وارد حتى للطائفة المنصورة الأولى .. الذين نزل فيهم قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾آل عمران:١٧٢.

وقوله تعالى:﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾آل عمران:١٦. فسنَّةُ الله قضت أن يكون القتال سجال، مرة لك ومرة عليك .. والعاقبة للمتقين.

٤ – ضمور الظهور ــ وليس انعدامه ــ في مرحلة من المراحل .. يعتبر بالنسبة لتاريخ الطائفة المنصورة المديد، ومضةً سريعةً سرعان ما تنكشف وتنجلي، وأمراً شاذاً وطارئاً وليس أصلاً ..!

يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميه رحمه الله كما في جامع الرسائل الرسالة الثالثة: قاعدة في المحبة: "ولكن تُذكر هنا نكتة نافعة، وهو أن الإنسان قد يسمع ويرى ما يصيب كثيراً من أهل الإيمان والإسلام في الدنيا من مصائب،وما يصيب كثيراً من الكفار والفجار في الدنيا من الرياسة والمال وغير ذلك ، فيعتقد أن النعيم في الدنيا لا يكون إلا لأهل الكفر والفجور، وأن المؤمنين ليس لهم في الدنيا ما يتنعمون به إلا قليلاً ، وكذلك قد يعتقد أن العزة والنصرة قد تستقر للكفار والمنافقين على المؤمنين ، وإذا سمع ما جاء في القرآن من أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين،وأن العاقبة للتقوى ، وقول الله تعالى : ((وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)) [الصافات:١٧٣]-وهو ممن يصدِّق بالقرآن-حمل هذه الآيات على الدار الآخرة فقط ، وقال: أما في الدنيا فما نرى بأعيننا إلا أن الكفار والمنافقين فيها يظهرون ويغلبون المؤمنين ، ولهم العزة والنصرة ، والقرآن لا يَرد بخلاف المحسوس ، ويعتمد على هذا فيما إذا أديل عليه عدو من جنس الكفار والمنافقين أو الظالمين، وهو عند نفسه من أهل الإيمان والتقوى ، فيرى أن صاحب الباطل قد علا على صاحب الحق ، فيقول : أنا على الحق وأنا مغلوب ، وإذا ذكره إنسان بما وعده الله من حسن العاقبة للمتقين، قال: هذا في الآخرة فقط .

وإذا قيل له: كيف يفعل الله بأوليائه مثل هذه الأمور ؟ قال: يفعل ما يشاء ، وربما قال بقلبه أو لسانه ، أو كان حاله يقتضي أن هذا من نوع الظلم، وربما ذكر قول بعضهم : ما على الخلق أضر من الخالق ، لكن يقول : يفعل الله ما يشاء . وإذا ذُكِّر برحمة الله وحكمته لم يقل إلا أنه يفعل ما يشاء، فلا يعتقدون أن صاحب الحق والتقوى منصور ومؤيد ، بل يعتقدون أن الله يفعل ما يشاء .

وهذه الأقوال مبنية على مقدمتين :

إحداهما : حسن ظنه بدين نفسه نوعاً أو شخصاً،واعتقاد أنه قائم بما يجب عليه ، وتارك ما نُهي عنه في الدين الحق ، واعتقاده في خصمه ونظيره خلاف ذلك: أن دينه باطل نوعاً أو شخصاً ، لأنه ترك المأمور وفعل المحظور.

والمقدمة الثانية : أن الله قد لا يؤيد صاحب الدين الحق وينصره. وقد لا يجعل له العاقبة في الدنيا ، فلا ينبغي الاغترار بهذا .

والمقدمتان اللتان بنيت عليهما هذه البلية مبناهما على الجهل بأمر الله ونهيه، وبوعده ووعيده . فإن صاحبهما إذا اعتقد أنه قائم بالدين الحق ، فقد اعتقد أنه فاعل للمأمور ، وتارك للمحظور، وهو على عكس ذلك، وهذا يكون من جهله بالدين الحق .

وإذا اعتقد أن صاحب الحق لا ينصره الله في الدنيا ، بل قد تكون العاقبة في الدنيا للكفار على المؤمنين،ولأهل الفجور على أهل البر ، فهذا من جهله بوعد الله تعالى .

أما الأول: فما أكثر من يترك واجبات لا يعلم بها ولا بوجوبها ، وما أكثر من يفعل محرمات لا يعلم بتحريمها، بل ما أكثر من يعبد الله بما حرم ويترك ما أوجب، وما أكثرمن يعتقد أنه هو المظلوم المحق من كل وجه، وأن خصمه هو الظالم المبطل من كل وجه ، ولا يكون الأمر كذلك ، بل يكون معه نوع من الباطل والظلم، ومع خصمه نوع من الحق والعدل .

وحبك الشيء يعمي ويصم، والإنسان مجبول على محبة نفسه ، فهو لا يرى إلا محاسنها ، ومبغض لخصمه، فلا يرى إلا مساوئه ، وهذا الجهل غالبه مقرون بالهوى والظلم ، فإن الإنسان ظلوم جهول .

وأكثر ديانات الخلق إنما هي عادات أخذوها عن آبائهم وأسلافهم ، وتقليدهم في التصديق والتكذيب، والحب والبغض ، والموالاة والمعاداة .

كما قال تعالى : ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)) [لقمان:٢١]. وقال تعالى : ((يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا)) [الأحزاب:٦٦، ٦٧].وقال تعالى : ((وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)) [الشورى:١٤].وأما الثاني: فما أكثر من يظن أن أهل الدين الحق في الدنيا يكونون أذلاء معذبين بما فيه،بخلاف من فارقهم إلى طاعة أخرى أو سبيل آخر،ويكذب بوعدالله بنصرهم.

والله سبحانه قد بين بكتابه كلا المقدمتين فقال تعالى: ((إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ)) [غافر:٥١].وقال تعالى في كتابه : ((وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ)) [الصافات:١٧١- ١٧٣]. وقال تعالى في كتابه : ((إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)) [المجادلة:٥].وقال تعالى : ((إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)) [المجادلة:٢٠، ٢١].وقال تعالى في كتابه : ((إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ)) [المائدة:٥٥، ٥٦].وقال تعالى في كتابه : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)) [الأنفال:٢٩].وقال تعالى في كتابه : ((وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً)) [الطلاق:٢، ٣].

وقد روي عن أبي ذر، عن النبي ﷺ أنه قال: ((لو عمل الناس كلهم بهذه الآية لوسعتهم)) رواه ابن ماجه وغيره.

وأخبر أن ما يحصل لهم من مصيبة انتصار العدو وغيرها ، إنما هو بذنوبهم ، فقال تعالى في يوم أحد : ((أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)) [آل عمران:١٦٥].

وقال تعالى: ((إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ)) [آل عمران:١٥٥].وقال تعالى : ((وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)) [الشورى:٣٠].وقال تعالى : ((مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ)) [النساء:٧٩].وقال تعالى : ((وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)) [الروم:٣٦].وقال تعالى : ((أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا)) [الشورى:٣٤].

وذم في كتابه من لا يثق بوعده لعباده المؤمنين،وذكر ما يصيب الرسل والمؤمنين فقال تعالى: ((إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا* هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً* وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً)) [الأحزاب:١٠-١٤].

وقال تعالى : ((أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ)) [البقرة:٢١٤].

وقال تعالى : ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ* حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلا

يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)) [يوسف:١٠٩- ١١١].

ولهذا أمر الله رسوله والمؤمنين باتباع ما أنزل إليهم، وهو طاعته ، وهو المقدمة الأولى. وأمرهم بانتظار وعده ،وهي المقدمة الثانية . وأمرهم بالاستغفار والصبر، لأنهم لابد أن يحصل لهم تقصير وذنوب فيزيله الاستغفار ، ولابد مع انتظار الوعد من الصبر ، فبالاستغفار تتم الطاعة ، وبالصبر يتم اليقين بالوعد ، وإن كان هذا كله يدخل في مسمى الطاعة والإيمان .

قال تعالى ((وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)) [يونس:١٠٩].

وقال تعالى : ((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ)) [الأنعام:٣٤].وقال تعالى : ((فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)) [هود:٤٩].

وأمرهم أيضاً بالصبر إذا أصابتهم مصيبة بذنوبهم ، مثل ظهور العدو ، وكما قال تعالى في قصة أحد : ((وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ)) [آل عمران: ١٣٩ - ١٤١].

وأيضاً فقد قص سبحانه في كتابه نصره لرسله ولعباده المؤمنين على الكفار في قصة نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وفرعون وغير ذلك . وقال تعالى: ((لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ)) [يوسف:١١١].

وقال تعالى: ((وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ)) [النور:٣٤].

وهذا يتبين بأصلين :

أحدهما: أن حصول النصر وغيره من أنواع النعيم لطائفة أو شخص لا ينافي ما يقع في خلال ذلك من قتل بعضهم وجرحه ومن أنواع الأذى، وذلك أن الخلق كلهم يموتون ، فليس في قتل الشهداء مصيبة زائدة على ما

هو معتاد لبني آدم ، فمن عد القتل في سبيل الله مصيبة مختصة بالجهاد كان من أجهل الناس ، بل إن الفتن التي تكون بين الكفار وتكون بين المختلفين من أهل القبلة ليس مما يختص بالقتال ، فإن الموت يعرض لبني آدم بأسباب عامة ، وهي المصائب التي تعرض لبني آدم من مرض بطاعون وغيره ، ومن جوع وغيره . وبأسباب خاصة ، فالذين يعتادون القتال لا يصيبهم أكثر مما يصيب من لا يقاتل ، بل الأمر بالعكس ، قد جرَّبه الناس .

ثم موت الشهيد من أيسر الميتات،ولهذا قال سبحانه وتعالى : ((قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً* قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)) [الأحزاب:١٦، ١٧].

فأخبر سبحانه أن الفرار من القتل أو الموت لا ينفع ، فلا فائدة فيه ، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً ، إذ لابد من الموت.

وأخبر أن العبد لا يعصمه من الله أحد إن أراد به سوءاً أو أراد به رحمة وليس من دون الله ولي ولا نصير، فأين نَفرُّ من أمره وحكمه؟ ولا ملجأ منه إلا إليه،قال تعالى: ((فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)) [الذريات:٥٠]

وهذا أمر يعرفه الناس من أهل طاعة الله وأهل معصيته ، كما قال أبو حازم الحكيم : " لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقاه الذي يتقي الله من معالجة التقوى ".

والله تعالى قد جعل أكمل المؤمنين إيماناً أعظمهم بلاء، كما قيل للنبي – ﷺ –:أي الناس أشد بلاء؟ قال: ((الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلي الرجل علي حسب دينه ، فإن كان فى دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان فى دينه رقة خُفف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس معه خطيئة)) .

والجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماءٍ من وجوه:
أحدها : أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم ، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله ، لأن تكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله .
الثاني : أن ذلك أنفع للكفار أيضاً ، فإنهم يؤمنون من الخوف ، ومن أُسر منهم وِسيمَ من الصغار يسلم أيضاً ، وهذا من معنى قوله تعالى: ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)) [آل عمران:١١٠].
قال أبو هريرة : " وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم من الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة "، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس ، وأفلح بذلك المقاتَلون ، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له ، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره .
ولهذا لما أرسل الله إليه ملك الجبال وعرض عليه أن يقلب عليهم الأخشبين قال : ((لا ، استأن لهم لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له)) .
الوجه الثالث : أن ذلك أعظم عزة للإيمان وأهله ، وأكثر لهم ، فهو يوجب من علو الإيمان وكثرة أهله ما لا يحصل بدون ذلك ، وأمر المنافقين الفجار بالمعروف ونهيهم عن المنكر هو من تمام الجهاد وكذلك إقامة الحدود.
ومعلوم أن في الجهاد وإقامة الحدود من إتلاف النفوس والأطراف والأموال ما فيه ، فلو بلغت هذه النفوس النصر بالدعاء ونحوه من غير جهاد ، لكان ذلك من جنس نصر الله للأنبياء المتقدمين من أممهم لّما أهلك نفوسهم وأموالهم .
وأما النصر بالجهاد وإقامة الحدود فذلك من جنس نصر الله لما يختص به رسوله، وإن كان محمد ﷺ وأمته منصورين بالنوعين جميعاً ، لكن يشرع في الجهاد باليد ما يشرع في الدعاء" اهـ .[٢٦٦]

[٢٦٦] - جامع الرسائل ، جـ ٢ الرسالة الثالثة (قاعدة في المحبة)، ص٣٢٤ - ٣٣٩ وكتب ومقالات عبد العزيز بن ناصر الجليل - (١٤ / ٦٢) وكتب ومقالات عبد العزيز بن ناصر الجليل - (٢٩ / ٨٢) وموسوعة البحوث والمقالات العلمية - (/ ٦٢)

وهذا تلميذهُ الشيخُ ابن القيم رحمه الله يعرضُ أمامَ ناظريك ــ أيّها المسلمُ ــ الحكمة من وراءِ تمكين أهل الكُفر والفسوقِ والعصيان، فيقول في كتابه طريق الهجرتين : "وكان في تمكينِ أهل الكفرِ والفسوق والعصيان من ذلك إيصالُ أولياءِ الله إلى الكمالِ الذي يحصل لهم بمعاداةِ هؤلاءِ وجهادهم والإنكارِ عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإنَّ تمام العبوديةِ لا يحصلُ إلاَّ بالمحبةِ الصادقة، وإنَّما تكونُ المحبةُ صادقةً إذا بذلَ فيها المُحبُّ ما يملكُهُ من مالٍ ورياسةٍ وقوةٍ في مرضاة محبوبهِ والتقرب إليه، فإذا بذلَ لهُ رُوحهُ كان ذلك أعلى درجاتِ المحبة. ومن المعلومِ أنَّ من لوازمِ ذلك أن يخلقَ ذواتًا وأسبابًا وأعمالا وأخلاقًا وطبائعَ تقتضي معاداةُ من يحبه... ــ إلى أن يقول: ــ فلولا خلق الأضدادِ وتسليط أعدائهِ وامتحان أوليائه لم يستخرج خاص العبوديةِ من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه والمعاداة فيه والحبّ فيه والبغضُ فيه والعطاء له والمنع له".[267]

"والنصرُ قد يُبطئُ لأنَّ بنيةَ الأمةِ المؤمنة لم ينضجُ بعد نضجها، ولم يتمُّ بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاها، ولم تتحفّزَ كل خليةٍ وتتجمع لتعرف أقصى المدخور فيهما من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته وشيكا؛ لعدمِ قُدرهما على حمايتهِ طويلاً.

وقد يبطئُ النصرُ حتى تبذلَ الأمةُ المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، وآخر ما تملكهُ من رصيدٍ، فلا تستبقي عزيزًا ولا غاليا إلاَّ وتبذلهُ هينًا رخيصًا في سبيل الله.

وقد يبطئُ النصرُ حتى تجرب الأمةُ المؤمنة آخر قواها، فتُدرك أنَّ هذه القوى وحدها بدون سندٍ من الله لا تكفلُ النصر، إنَّما يتترلُ النصرُ من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها، ثُمَّ تكلُ الأمر بعدها إلى الله.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ البيئةَ لا تصلحُ بعدُ لاستقبالِ الحقِّ والخيرِ والعدل الذي تمثلهُ الأمةُ المؤمنة، فلو انتصرت حينئذٍ للقيت معارضةً من البيئةِ لا يستقرُ معها قرار، فيظلُ الصراعُ قائمًا حتى تتهيأ النفوسُ من حوله لاستقبالِ الحقّ الظافر لاستبقائه، من أجل هذا كله ومن أجل غيرهِ مما يعلمهُ الله قد يبطئُ النصر، فتتضاعفُ التضحيات وتتضاعفُ الآلامُ، مع دفاعِ

[267] – طريق الهجرتين (ص٢١٤-٢١٥)

الله عن الذين آمنوا وتحقيق النصر لهم في النهاية، وللنصرِ تكاليفهُ وأعباؤهُ حين يأذن اللهُ به بعد استيفائه أسبابه وأداءِ ثمنه وتهيؤ الجوِّ حوله لاستقباله واستبقائه.

وقد يبطئُ النصرُ لتزيدَ الأمةُ المؤمنة صلتها بالله، وهي تُعاني وتتألم وتبذل، ولا تجدُ لها سندًا إلاَّ الله، ولا متوجهًا إلاَّ إليهِ وحده في الضراء، وهذهِ الصلةُ هي الضمانةُ الأولى لاستقامتها على النهجِ بعد النصر عندما يأذن به الله، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحقِّ والعدل والخير الذي نصرها الله به.

وقد يُبطئُ النصرُ لأنَّ الأمةَ المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته، فهي تُقاتلُ لمغنمٍ تُحققه، أو تُقاتلُ حميَّةً لذاتها، أو تُقاتلُ شجاعةً أمام أعدائها، واللهُ يريدُ أن يكون الجهادُ له وحدهُ وفي سبيله، بريئًا من المشاعر الأُخرى التي تلابسهُ، وقد سُئل رسولُ الله : الرجلُ يُقاتلُ حميةً، والرجلُ يُقاتلُ شجاعةً، والرجلُ يُقاتلُ ليرى، فأيّها في سبيل الله؟ فقال: ((من قاتل لتكون كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله)) متفق عليه.

كما قد يبطئُ النصرُ لأنَّ في الشرِّ الذي تكافحهُ الأمة المؤمنة بقيةً من خيرٍ يريد اللهُ أنَّ يجردَ الشرَّ منها ليُمحّص خالصًا، ويذهبَ وحدهُ هالكًا، لا تتلبسُ بهِ ذرةٌ من خيرٍ تذهبُ في الغمار.

وقد يبطئُ النصرُ لأنَّ الباطلَ الذي تحاربهُ الأمةُ المؤمنة لم ينكشف زيفهُ للناسِ تمامًا، فلو غلبهُ المؤمنون حينئذٍ فقد يجدُ لهُ أنصارًا من المخدوعين فيه، لم يقتنعوا بعدُ بفسادهِ وضرورةَ زواله، فتظلَ له جذورٌ في نفوسِ الأبرياءِ الذين لم تنكشف لهمُ الحقيقة، فشاءَ اللهُ أن يبقى الباطل حتى يتكشفَ عاريًا للناس، ويذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليهِ من ذي بقية".[٢٦٨]

فالنصرُ فلا بُدَّ من اكتمال أسبابهِ وزوالِ معوقاته، واللهُ يحكمُ ما يشاءُ ويفعلُ ما يريد، ووعدهُ حق ونصرهُ قريب وأمرهُ بين الكاف والنون، ولكن ثَمة أدواء يتلبسُ بها المسلمون وهم يستشرفون النصر، ونصرُ اللهِ عزيزٌ لا بُدَّ فيه من تمحيصِ الصفوف، ولا بُدَّ من تمييزِ الخبيث من الطيب، لا بُدَّ من سقطٍ لأصحابِ المطامعِ والأهواء، ولا بُدَّ من تجريدٍ للصفوةِ

---

[٢٦٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٤٢٦)

المختارةِ التي يُحبُها الله وتستحقُ نصره، لا بُدَّ من تمييزِ المجاهدين الصادقين من المتقولين المنتفعين.

سابعاً: ومنها أن الطائفة المنصورة تعمل بصورة جماعية منظمة، عليها أمير مطاع

والذي يقرر ذلك أمور نجمل ذكرها في النقاط التالية:

١- إنَّ المهام التي تقوم بها الطائفة المنصورة، والتي منها القتال في سبيل الله، يستحيل القيام بها إلا من خلال عمل جماعي منظم .. أخذ بجميع أسباب القوة والظهور، كما قال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ الصف:٤.

والقاعد الفقيهة تقول: مالا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب.

والقول بخلاف ذلك: يعني ضياعَ كثير من الواجبات الشرعية، التي منها الجهاد في سبيل الله، ويعني كذلك الفردية والتشرذم، والفرقة والاختلاف، وهذا بخلاف ما أمر الله به ورسوله، كما قال تعالى:﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران:١٠٣.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ،قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا، وَيَسْخَطُ لَكُمْ ثَلَاثًا، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمْرَكُمْ، وَيَسْخَطُ لَكُمْ " قِيلَ: وَقَالَ: " وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ " أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ[٢٦٩].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فِينَا فَقَالَ « أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِى ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ وَلاَ يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ وَلاَ يُسْتَشْهَدُ أَلاَ لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلاَّ كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ

---

[٢٦٩] -شعب الإيمان - (٩ / ٤٩٥) (٧٠١٤) وصحيح مسلم- المكنز - (٤٥٧٨)

الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ »[270].

وعَنْ عَرْفَجَةَ الْأَشْجَعِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " سَتَكُونُ بَعْدِي هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ رَأَيْتُمُوهُ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ، فَكَأَنَّمَا فَارَقَ بَيْنَ أُمَّتِي، فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ، فَإِنَّ يَدَ اللهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ مُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ يَرْكُضُ " وَقَالَ مَرَّةً: " عَلَى الْجَمَاعَةِ"[271].

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " الْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ "[272]

وغيرها كثير من الأدلة التي تأمر بالجماعة والاعتصام بحبل الله، وتنهى عن الفرقة والاختلاف.

والغريب في الأمر: أن الذين يستهوون الفردية .. والعمل الفردي بعيداً عن الجماعة .. الذين تقشعرُّ جلودهم من كل عمل منظم ـــ يهدف إلى التعاون على الخير ـــ ينتصرون بهذه النصوص على صواب ما هم عليه من فردية وتشرذم وتفرق قاتل، ويستشهدون بها على خطأ كل من يدعو الأمة إلى أن تنتظم في جماعة واحدة على قلب رجل واحد، وعلى منهاج واحد .. منهاج النبوة!!

فحمَّلوا النصوص الشرعية من المعاني مالا تحتمل، ووضعوها في غير موضعها ومنزلها الذي أراده الشارع!!

٢- الحديث الذي يرويه مسلم في صحيحه عن أبي الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- يَقُولُ « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ

---

[270] - سنن الترمذى- المكنز - (٢٣١٨) قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - البحبوحة : الوسط والخيار

[271] - شعب الإيمان - (١٠ / ١٩) (٧١٠٦) صحيح لغيره

[272] - السُّنَّةُ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ (٨١) والصحيحة (٦٦٧) وصحيح الجامع (٣١٠٩) والشهاب(١٥) صحيح لغيره

إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - قَالَ - فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -ﷺ - فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ لاَ. إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللَّهِ هَذِهِ الأُمَّةَ »[٢٧٣].

فالحديث فيه فوائد عدة منها:" صحة وشرعية الإمارة على هذه الطائفة على لسان نبينا ﷺ حيث قال:" فيقول أميرهم " وعلى لسان عيسى عليه السلام" إن بعضكم على بعض أمراء " ولا ينبغي أن يحملَ هذا ــ أي صحة الإمارة ــ على آخر الطائفة وقت نزول عيسى عليه السلام، دون ما قبله من الأزمنة، فإن إضافة الأمير إلى الطائفة" أميرهم " مع بيان أن صفة هذه الطائفة هي الاستمرارية " لا تزال " يبين استمرارية هذه الإمارة وصحتها، وإن الإمارة صفةٌ لازمةٌ لهذه الطائفة في كل زمان " لا تزال .. أميرهم "، فإذا ثبت أنه تأتي على المسلمين أزمنة يفتقدون فيها الإمامة الكبرى (الخلافة)، وثبت صحة واستمرارية الإمارة على الطائفة المنصورة، فتكون الإمارة على هذه الطائفة في حالة انعدام الإمارة صحيحة إن شاء الله "[٢٧٤].

٣- عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - قَالَ « إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِى سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ ». "[٢٧٥].

وفي رواية عند أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ - قَالَ « لاَ يَحِلُّ أَنْ يَنْكِحَ الْمَرْأَةَ بِطَلاَقِ أُخْرَى وَلاَ يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَبِيعَ عَلَى بَيْعِ صَاحِبِهِ حَتَّى يَذَرَهُ وَلاَ يَحِلُّ لِثَلاَثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلاَةٍ إِلاَّ أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ وَلاَ يَحِلُّ لِثَلاَثَةِ نَفَرٍ يَكُونُونَ بِأَرْضِ فَلاَةٍ يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ صَاحِبِهِمَا »[٢٧٦].

فإذا كان ثلاثةٌ في سفر تتعينُ عليهم الإمارة درءاً لحصول الفرقة والاختلاف، فيكون من باب أولى أن تتعين الإمارةُ على ما هو أعظم من السفر كالجهاد في سبيل الله من أجل استئناف حياة إسلامية على منهاج النبوة.

---

[٢٧٣] - صحيح مسلم- المكنز - (٤١٢)

[٢٧٤] - انظر كتاب" العمدة في إعداد العدة " لعبد القادر بن عبد العزيز، ص ٦٨.

[٢٧٥] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٦١٠) صحيح

[٢٧٦] - مسند أحمد - المكنز - (٦٨٠٦) حسن

قال ابن تيميه رحمه الله: " يَجِبُ أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ وِلَايَةَ أَمْرِ النَّاسِ مِنْ أَعْظَمِ وَاجِبَاتِ الدِّينِ ؛ بَلْ لَا قِيَامَ لِلدِّينِ وَلَا لِلدُّنْيَا إلَّا بِهَا . فَإِنَّ بَنِي آدَمَ لَا تَتِمُّ مَصْلَحَتُهُمْ إلَّا بِالِاجْتِمَاعِ لِحَاجَةِ بَعْضِهِمْ إلَى بَعْضٍ وَلَا بُدَّ لَهُمْ عِنْدَ الِاجْتِمَاعِ مِنْ رَأْسٍ حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ } . رَوَاهُ أَبُو دَاوُد مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ . وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَد فِي الْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : { لَا يَحِلُّ لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ إلَّا أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ } فَأَوْجَبَ ﷺ تَأْمِيرَ الْوَاحِدِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْقَلِيلِ الْعَارِضِ فِي السَّفَرِ تَنْبِيهًا بِذَلِكَ عَلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الِاجْتِمَاعِ . وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْجَبَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنْ الْمُنْكَرِ وَلَا يَتِمُّ ذَلِكَ إلَّا بِقُوَّةِ وَإِمَارَةٍ . وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا أَوْجَبَهُ مِنْ الْجِهَادِ وَالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَجِّ وَالْجُمَعِ وَالْأَعْيَادِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ . وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ لَا تَتِمُّ إلَّا بِالْقُوَّةِ وَالْإِمَارَةِ ؛ وَلِهَذَا رُوِيَ : { أَنَّ السُّلْطَانَ ظِلُّ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ } .وَيُقَالُ { سِتُّونَ سَنَةً مِنْ إمَامٍ جَائِرٍ أَصْلَحُ مِنْ لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِلَا سُلْطَانٍ } . وَالتَّجْرِبَةُ تُبَيِّنُ ذَلِكَ . وَلِهَذَا كَانَ السَّلَفُ – كَالْفُضَيْل بْنِ عِيَاضٍ وَأَحْمَد بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِمَا – يَقُولُونَ : لَوْ كَانَ لَنَا دَعْوَةٌ مُجَابَةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ . وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ { إنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثًا : أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَأَنْ تَنَاصَحُوا مِنْ وَلَّاهُ اللَّهُ أَمْرَكُمْ } . رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَقَالَ : { ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ : إخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأُمُورِ وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ } . رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ . وَفِي الصَّحِيحِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : { الدِّينُ النَّصِيحَةُ الدِّينُ النَّصِيحَةُ الدِّينُ النَّصِيحَةُ . قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ } . فَالْوَاجِبُ اتِّخَاذُ الْأَمَارَةِ دِينًا وَقُرْبَةً يَتَقَرَّبُ بِهَا إلَى اللَّهِ ؛ فَإِنَّ التَّقَرُّبَ إلَيْهِ فِيهَا بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ مِنْ أَفْضَلِ الْقُرُبَاتِ ." [٢٧٧]ا هــ.

وقال الشوكاني بعد أن ذكر أحاديث الإمارة في السفر: " وَفِيهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ يُشْرَعُ لِكُلِّ عَدَدٍ بَلَغَ ثَلَاثَةً فَصَاعِدًا أَنْ يُؤَمِّرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ السَّلَامَةَ مِنْ الْخِلَافِ الَّذِي يُؤَدِّي إلَى التَّلَافِ ، فَمَعَ عَدَمِ التَّأْمِيرِ يَسْتَبِدُّ كُلُّ وَاحِدٍ بِرَأْيِهِ وَيَفْعَلُ مَا يُطَابِقُ هَوَاهُ فَيَهْلِكُونَ

[٢٧٧] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٢٨ / ٣٩٠)

، وَمَعَ التَّأْمِيرِ يَقِلُّ الِاخْتِلَافُ وَتَجْتَمِعُ الْكَلِمَةُ ، وَإِذَا شُرِّعَ هَذَا لِثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ فِي فَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ يُسَافِرُونَ فَشَرْعِيَّتُهُ لِعَدَدٍ أَكْثَرَ يَسْكُنُونَ الْقُرَى وَالْأَمْصَارَ وَيَحْتَاجُونَ لِدَفْعِ التَّظَالُمِ وَفَصْلِ التَّخَاصُمِ أَوْلَى وَأَحْرَى وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ لِقَوْلِ مَنْ قَالَ : إنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ نَصْبُ الْأَئِمَّةِ وَالْوُلَاةِ وَالْحُكَّامِ ." [٢٧٨]ا- هـــ.

وقال إمام الحرمين الجويني: فإذا خلى الزمان عن السلطان وجب البدار على حسب الإمكان إلى درء البوائق عن أهل الإيمان ونهين الرعايا عن الاستقلال بالأنفس من قبيل الاستحثاث على ما هو الأقرب إلى الصلاح والأدنى إلى النجاح ، فإن ما يتولاه السلطانُ من أمور السياسة أوقعُ وأنجح وأدفعُ للتنافس ،وأجمعُ لشتات الرأي في تمليك الرعايا أمور الدماء وشهر الأسلحة وجوه من الخبل لا ينكره ذوو العقل ،وإذا لم يصادف الناس قوّاما بأمورهم يلوذون به فيستحيل أن يؤمروا بالقعود عما يقتدرون عليه من دفع الفساد، فإنهم لو تقاعدوا عن الممكن عمَّ الفساد البلاد والعباد ،وإذا أمروا بالتقاعد في قيام السلطان كفاهم ذو الأمر المهمات وأتاها على أقرب الجهات ،وقد قال العلماء: لو خلى الزمانُ عن السلطان فحقٌّ على قطان كل بلدةٍ وسكانِ كل قريةٍ أن يقدِّموا من ذوي الاحلام والنُّهى وذوي العقول والحِجى مَن يلتزمون امتثال إشارته وأوامره، وينتهون عن مناهيه ومزاجره ،فإنهم لو لم يفعلوا ذلك ترددوا عند إلمام المهمات وتبلدوا عند إظلال الواقعات ،ولو انتدب جماعةٌ في قيام الإمام للغزوات وأوغلوا في مواطن المخافات تعيَّن عليهم أن ينصِّبوا من يرجعون إلى رأيه ،إذ لو لم يفعلوا ذلك تهووا في ورطات المخافات ولم يستمروا في شيء من الحالات" [٢٧٩]ا- هـــ.

٤- وكذلك مما يستدلُّ به على تجويز الإمارة وشرعيتها لغير الخليفة في حال غيابه، ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم يوم " مؤتة " عندما قُتل أمراؤهم الذين أمَّرهم النبي ﷺ .. فاجتمعوا على تأمير خالد بن الوليد من دون تأمير ولا إذنٍ من النبي ﷺ، وعندما بلغ الخبر النبي ﷺ، استحسن صنيعهم، وسمى خالداً يومئذ سيف الله.

[٢٧٨]-نيل الأوطار: ٨/ ٢٥٦.

[٢٧٩] -ياث الأمم في التياث الظلم، ص ٣٨٧- ٣٨٨.

قال ابن حجر في الفتح: فيه جواز التأمر في الحرب بغير تأمير، قال الطحاوي: هذا أصلٌ يؤخذ منه أنَّ على المسلمين أن يقدموا رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر[٢٨٠]ا- هـــ.

وقال ابن قدامة في "المغني ": " فَإِنْ عُدِمَ الْإِمَامُ ، لَمْ يُؤَخَّرْ الْجِهَادُ ؛ لِأَنَّ مَصْلَحَتَهُ تَفُوتُ بِتَأْخِيرِهِ .وَإِنْ حَصَلَتْ غَنِيمَةٌ ، قَسَمَهَا أَهْلُهَا عَلَى مُوجَبِ الشَّرْعِ .قَالَ الْقَاضِي : وَيُؤَخَّرُ قِسْمَةُ الْإِمَاءِ حَتَّى يَظْهَرَ إمَامٌ احْتِيَاطًا لِلْفُرُوجِ .فَإِنْ بَعَثَ الْإِمَامُ جَيْشًا ، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ أَمِيرًا ، فَقُتِلَ أَوْ مَاتَ ، فَلِلْجَيْشِ أَنْ يُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ ، كَمَا فَعَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَيْشِ مُؤْتَةَ ، لَمَّا قُتِلَ أُمَرَاؤُهُمْ الَّذِينَ أَمَّرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ أَمَّرُوا عَلَيْهِمْ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَرَضِيَ أَمْرَهُمْ ، وَصَوَّبَ رَأْيَهُمْ ، وَسَمَّى خَالِدًا يَوْمَئِذٍ :" سَيْفَ اللَّهِ " . [٢٨١]ا- هـــ.

٥- كذلك فإن السنَّة دلت على أن الأمير المعين من قبل الخليفة، في حال عصيانه للأوامر يُعزلُ ويستبدلُ بأمير آخر من دون علم الخليفة العام إن تعذر إعلامه.

كما في الحديث الذي يرويه أبو داود في سننه، عَنْ عُقْبَةَ بْنِ مَالِكٍ مِنْ رَهْطِهِ قَالَ بَعَثَ النَّبِىُّ -ﷺ- سَرِيَّةً فَسَلَحْتُ رَجُلاً مِنْهُمْ سَيْفًا فَلَمَّا رَجَعَ قَالَ لَوْ رَأَيْتَ مَا لاَمَنَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « أَعَجَزْتُمْ إِذْ بَعَثْتُ رَجُلاً مِنْكُمْ فَلَمْ يَمْضِ لأَمْرِى أَنْ تَجْعَلُوا مَكَانَهُ مَنْ يَمْضِى لأَمْرِى ». "[٢٨٢].

قال أبو الطيب شمس الحق آبادي:" (فَلَمْ يَمْضِ لِأَمْرِي) : قَالَ فِي الْمَجْمَع فِي مَادَّة مَضَى : وَفِيهِ إِذَا بَعَثْت رَجُلًا فَلَمْ يَمْضِ أَمْرِي أَيْ إِذَا أَمَّرْت أَحَدًا بِأَنْ يَذْهَب إِلَى أَمْر أَوْ بَعَثْته لِأَمْرٍ وَلَمْ يَمْضِ عَصَانِي فَاعْزِلُوهُ (أَنْ تَجْعَلُوا) : أَيْ أَعَجَزْتُمْ مِنْ أَنْ تَجْعَلُوا ... [٢٨٣] ا- هـــ.

---

[٢٨٠] - فتح الباري:٧/ ٥٨٦.

[٢٨١] - المغني لابن قدامة - موافق للمطبوع - (١٠ / ٣٦٨)والمغني لابن قدامة - موقع الإسلام - (٢٠ / ٤٢٢)

[٢٨٢] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٦٢٩) حسن-سلحت : أعطت سلاحا

[٢٨٣] -عون المعبود شرح سنن أبي داود: ٧/٢٠٩.

وهذا لومٌ من النبي ﷺ لهم على تقصيرهم في عزله، وعدم تأمير من ينوبُ عنه في تنفيذ المهام الموكلة إليه على وجه أفضل.

والأدلةُ كثيرةٌ التي تدلُّ على شرعية انعقاد الإمارة لغير الخليفة في حال غيابه ــ سواء كان غيابه غيابَ حضور أم غياب انعدام كما هو الحال في زماننا ــ وفيما ذكرناه من الأدلة القدر الكافي لمن يسأل عن الحجة في المسألة، ويبتغي الحق متجرداً عن هواه.

وقولنا بشرعية الجهاد في سبيل الله في حال غياب الخليفة العام للمسلمين، لا يستلزمُ منه أن يقومَ كلُّ فرد من الأمة بواجب الجهاد بطريقته الفردية، وبالأسلوب الذي يهواه .. ومن دون مراعاة للمصالح والمفاسد التي يمكن أن تترتب على تصرفاته .. فهذا تصرفٌ لا يُسلَّم به، وهو محظورٌ من أوجه:

١- منها، أنه يؤدي إلى الفرقة والتنازع، والفشل والضعف والفوضى، والله تعالى قد أمر بالجماعة والوحدة والتنظيم، وبجميع أسباب القوة، ونهى عن كل مظاهر التفرق والتنازع والضعف والضياع، كما قال تعالى:﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا ﴾آل عمران: ١٠٣. وقال تعالى:﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾الأنفال:٤٦. وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾ الصف:٤.

وفي الحديث فقد صح عَنْ رَجُلٍ قَالَ : انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ، أَيُّهَا النَّاسُ ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ ، ثَلاَثَ مِرَارٍ " "[٢٨٤].

وأكثر الأخطار تهديداً لأمن وسلامة الجماعات الجهادية .. والذي يُعيق من مسيرتها نحو أهدافها .. هو عدم وجود هذا التنسيق الكافي فيما بينها، الذي يرقى إلى مستوى المعركة الضخمة التي تُحاك ضد الإسلام والمسلمين!

٢- ومنها، أنه قد يؤدي إلى فتنة أشدَّ وأعظمَ من الفتنة أو المنكر المراد إزالته، لأن التصرف الفرديَّ ــ في الغالب ــ يتصف بالامسؤولية والضعف، وعدم الدراية الكافية لما

[٢٨٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٧ / ٦٦٧)(٢٣١٤٥) ٢٣٥٣٣- صحيح

يصلح وما لا يصلح، وما يجب القيام به وما يجب الإمساك عنه، بخلاف الجماعة ــ التي تضمُّ كثيرُ الطاقات والإمكانيات الخيرة ــ القائم عملها على التنظيم والتخطيط، والتعاون والتشاور، والدراسة الدقيقة لما يجب القيام به .. وما يترتب عليه من نتائج.

٣- ومنها، أن من لوازم الجهاد وشروطه، إعدادُ القوة اللازمة للقيام بواجب الجهاد، وهذه مهمة جماعية ــ تتضافرُ على تحقيقها جميع الطاقات والإمكانيات الخيرة، وكلٌّ بحسب طاقته ــ يصعب على فرد مستقلاً بنفسه أو مجموعة أفراد .. القيام بها من دون أن يصبَّ جهدهم وإمكانياتهم مع جهد غيرهم من المجاهدين العاملين؛ لذا جاء الأمر بالإعداد بصيغة الجمع من دون أن يستثني أحداً من أفراد الأمة، كما قال تعالى:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة﴾الأنفال: ٦٠. وقال تعالى:﴿وتعاونوا على البر والتقوى ﴾المائدة:٢. وأفضل التقوى والبر الذي يُتعاون عليه، هو التعاون على إعلاء كلمة الله في الأرض، والجهاد في سبيل الله ﷻ.

والإعداد واجبٌ على كل مسلم بحسب استطاعته وظروفه، فأفضلهم الذي يعدُّ للجهاد بنفسه وماله .. وأدناهم الذي يشارك بالنصيحة والدعاء للمجاهدين، والذود عن أعراضهم وحرماتهم ــ وهو جهد مشكور عندما تتطاول ألسنةُ المثبِّطين المخذّلين على المجاهدين وحرماتهم ــ وليس وراء إخلاص الدعاء للمجاهدين إلا النفاق والعياذ بالله، كما قال تعالى عن المنافقين:﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ التوبة:٤٦.

وقال تعالى:﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾التوبة:٩١.

ليس على هؤلاء المعذورين من حرج بشرط أن يُخلصوا في النصح لله ورسوله والمــؤمنين .. وتسلم سرائرهم من الضغينة أو الغش للمجاهدين!

====================

٣- الصفة الثالثة: يوالون ويعادون في الله

من أبرز خصال وصفات الطائفة المنصورة، أنهم يوالون ويحبون في الله .. ويعادون ويكرهون في الله .. فهم أذلةٌ على المؤمنين رحماء فيما بينهم، أعزةُ على الكافرين أشداءُ عليهم .. لا يعرفون ولاء إلا ولاء العقيدة الذي يُعقد في الله تعالى، كما قال تعالى:﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح:٢٩.

وقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ المائدة:٥٤.

يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه من يرجع منكم عن دينه، ويستبدل به اليهودية أو النصرانية أو غير ذلك، فلن يضرُّوا الله شيئًا، وسوف يأتي الله بقوم خير منهم يُحِبُّهم ويحبونه، رحماء بالمؤمنين أشدَّاء على الكافرين، يجاهدون أعداء الله، ولا يخافون في ذات الله أحدًا. ذلك الإنعام مِن فضل الله يؤتيه من أراد، والله واسع الفضل، عليم بمن يستحقه من عباده.[٢٨٥]

وهذه آية تكادُ تجمع أخص صفات الطائفة المنصورة؛ التي منها صفة الاتباع، ويظهر ذلك في قوله:﴿يحبهم ويحبونه﴾ وهذه ميزة لا ينالها إلا من تحققت فيه صفة كمال الاتباع لسنَّة النبي ﷺ، كما قال تعالى:﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ الله ﴾ آل عمران:٣١. فكلما كملَ اتباع العبد، كلما كمُل حبُّه لله تعالى وحب الله له .. فكمالُ اتباعهم للنبي ﷺ دليلٌ على كمال حبهم لله ﷻ .. فكلٌّ منهما لازم وملزوم للآخر وعلامة دالة عليه.

ومنها: صفة الجهاد في سبيل الله، وأنهم لا يخافون في الحق لومة لائم، ويظهر ذلك في قوله:﴿ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ﴾المائدة:٥٤.

---

[٢٨٥] - التفسير الميسر - (٢ / ٢٢٨)

ومنها: صفة الولاء والبراء اللذان يعقدان على أساس الانتماء الإيماني العقدي، ويظهر ذلك في قوله تعالى:﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِين ﴾المائدة:٥٤.

وكما قال تعالى عنهم في آية أخرى:﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾التوبة: ٧١.

وقال تعالى:﴿ لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾آل عمران:٢٨.

وجعل سبحانه وتعالى موالاتهم من دون المؤمنين قرينة دالة على النفاق والكفر والكذب، وإن زعموا بلسانهم خلاف ذلك، كما قال تعالى:﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاء﴾ المائدة:٨١.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (٥١) سورة المائدة

وقال تعالى: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاء إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} (١٠٢) سورة الكهف ١٠٢.

فهذا مستحيل أن يحصل ولو حصل شيء منه لخرجوا عن صفة العبودية لله ﷻ إلى عبودية الشيطان والطاغوت كما قال تعالى {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاء لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} (٢٧) سورة الأعراف. وقال تعالى: {اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢٥٧) سورة البقرة .

والموالاةُ والمعاداةُ في الله من أوثق عرى الإيمان، وهي صفة لا تتحقق إلا عند كاملي الإيمان فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : أَيُّ عُرَى الإِسْلاَمِ أَوْثَقُ ؟ قَالُوا : الصَّلاَةُ ، قَالَ : حَسَنَةٌ ، وَمَا هِيَ بِهَا ؟ قَالُوا : الزَّكَاةُ ، قَالَ : حَسَنَةٌ ، وَمَا هِيَ بِهَا ؟ قَالُوا : صِيَامُ رَمَضَانَ . قَالَ : حَسَنٌ ، وَمَا هُوَ بِهِ ؟ قَالُوا : الْحَجُّ ، قَالَ : حَسَنٌ ،

وَمَا هُوَ بِهِ ؟ قَالُوا : الْجِهَادُ ، قَالَ : حَسَنٌ ، وَمَا هُوَ بِهِ ؟ قَالَ : إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ." "[٢٨٦].

وعَنْ أَبِى أُمَامَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ « مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ وَأَبْغَضَ لِلَّهِ وَأَعْطَى لِلَّهِ وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ ». "[٢٨٧].

والذي نريد إثباته هنا أن الطائفة المنصورة ــ صفوةُ الأمة جهاداً وعملاً ــ يعقد ولاؤهم وبراؤهم على أساس الانتماء العقدي الديني وليس شيئاً آخر غير ذلك؛ فهم يحبون ما يحبه الله ويرضاه، ويبغضون ما يبغضه الله ويسخطه، ومن دون أن يلتفتوا إلى أي اعتبار أو رابط أرضي آخر، فالمرء عندهم بقدر طاعته لله ولرسوله، وبقدر قربه من الحق بقدر ما يعطى من الود والموالاة والنصرة، وبقدر عصيانه وبعده عن طاعة الله ورسوله بقدر ما يعطى من الجفاء والمعاداة .. بغض النظر عن لونه، ولغته، وموطنه .. ولا يستحقُّ مطلق المعاداة والمجافاة إلا من كان كافراً محاداً لله ولرسوله .. وعبداً للشيطان والطواغيت.

فميزانُ التفاضل في نظر الإسلام .. هو ميزانُ التقوى والعمل الصالح .. بغضِّ النظر عن اللون أو الجنس أو العرق، كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾الحجرات:١٣.

فهذا هو الميزان الذي على أساسه يتمُّ التفاضلُ والتمايز .. ويُعطى الولاء أو البراء .. وهو ما تلتزم به الطائفة المنصورة في تعاملها مع الآخرين؛ أما أولئك الذين يعقدون الولاء والبراء على أساس روابط ووشائج أخرى غير وشيجة العقيدة والإيمان .. فهم على خطر كبير .. ومن أبعد ما يكونون عن أخلاق وصفات الطائفة الظاهرة المنصورة .. مهما تشبعوا بلسانهم على أنهم منهم.

ــ براءة الطائفة المنصورة من كل ولاء وبراء ليس في الله ولله.

---

[٢٨٦] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٣١٨)(١٨٥٢٤) ١٨٧٢٣- حسن لغيره

[٢٨٧] - سنن أبي داود - المكتر - (٤٦٨٣) صحيح

كما تقدم فإن الطائفة الظاهرة المنصورة بريئة من كل ولاء وبراء لا يُعقد في الله ولله، وهذه صفة لازمة لهم، وهي من أخص خصائصهم وصفاقم التي يعرفون بها، كما قال تعالى:﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْأِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة:٢٢ .

" لاَّ تَجدُ قَوْماً يَجْمَعُونَ بَيْنَ الإِيْمَانِ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ، وَبَينَ مُوَادَّةِ أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَاءِ رَسُولِهِ ، لأَنَّ المُؤْمِنِينَ حَقّاً لاَ يُوَالُونَ الكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانَ هَؤُلاَءِ الكَافِرُونَ هُمْ أَهْلَهُمْ ، وَأَقْرِبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ الذِينَ هُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَيهِمْ ، وَالمُؤْمِنُونَ الذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ مُوَادَّةِ الكَافِرِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أَقْرَبَاءَهُمْ وَعَشِيرَتَهُمْ ، هُمُ الذِينَ ثَبَّتَ اللهُ الإِيْمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى ، وَقَوَّاهُمْ بِطُمَأْنِينَةِ القَلْبِ ، وَالثَّبَاتِ عَلَى الحَقِّ { وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ } ، وَسَيُدْخِلُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، وَيَبْقَوْنَ فِيهَا خَالِدِينَ أَبَداً ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ عَنْهُمْ ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ، فَأَدْخَلَهُمُ الجَنَّاتِ ، وَرَضُوا بِمَا آتَاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَبِمَا عَوَّضَهُمْ بِهِ لإِسْخَاطِهِم الأَقَارِبَ وَالأَبْنَاءَ . وَهَؤُلاَءِ هُم أَنْصَارُ اللهِ ، وَجُنْدُهُ ، وَحِزْبُهُ ، وَأَهْلُ كَرَامَتِهِ ، وَهُمْ أَهْلُ الفَلاَحِ وَالسَّعَادَةِ والنَّصْرِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ."[٢٨٨]

أما الذين يوادون من حادَّ الله ورسوله لكونه ينتمي إلى قومهم أو عشيرتهم أو حزبهم وغير ذلك من الولاءات الجاهلية التي تُعقد على أساس الانتماء إلى الطين والماء .. فهم ليسوا بمؤمنين فضلاً عن أن يكونوا من الطائفة المنصورة الظاهرة.

وكذلك قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء

[٢٨٨] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٥٠٠٤)

أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (٤) سورة الممتحنة.

أَفَلاَ تَأَسَّى هَؤُلاَءِ الذِينَ يُوَادُّونَ الكَافِرِينَ بِأَبِيهِمْ إِبْرَاهِيمَ ، وَأَصْحَابِهِ المُؤْمِنِينَ ، حِينَ قَالُوا لِقَوْمِهِم الذِينَ كَفَرُوا بِاللهِ : إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنَ الآلِهَةِ وَالأَنْدَادِ ، وَجَحَدْنَا ما أَنْتُمْ عَلَيهِ مِنَ الكُفْرِ ، وَأَنْكَرْنَا عِبَادَتَكُمْ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ حِجَارَةٍ وَأَوْثَانٍ وَأَصْنَامٍ ، وَقَدْ أَعْلَنَّا الحَرْبَ عَلَيْكُمْ ، فَلاَ هَوَادَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، وَسَنَبْقَى عَلَى ذَلِكَ حَتَّى تُؤمِنُوا بِاللهِ وَتُوَحِّدُوهُ ، وَتَعْبُدُوهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَلاَ صَاحِبَةَ وَلاَ وَلَدَ ، وَتَتَخَلَّصُوا مِنْ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ وَالأَوْثَانِ .

وَلَكُمْ فِي أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمِهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَتَأَسَّوْنَ بِهَا ، وَتَعْتَبِرُونَ بِهَا فِي مَسْلَكِكُمْ وَعِبَادَتِكُمْ ، وَلاَ تَسْتَثْنُوا مِنْ تَصَرُّفَاتِ إِبْرَاهِيمَ التِي تَقْتَدُونَ بِهَا إِلاَّ اسْتِغْفَارَهُ لأَبِيهِ الذِي بَقِيَ مُقِيماً عَلَى الكُفْرِ ، فَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ : إِنَّهُ سَيَسْتَغْفِرُ لَهُ اللهَ ، وَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْفَعَهُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَالأَمْرُ مَرْدُودٌ إِلَى مَشِيئَةِ اللهِ ، إِنْ شَاءَ غَفَرَ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَ . وَلَكِنَّ هَذَا القَوْلَ صَدَرَ عَنْ إِبْرَاهِيمِ حِينَمَا وَعَدَهُ أَبُوهُ بِأَنَّهُ سَيُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَيَتْبَعُهُ فِيمَا يَعْبُدُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ إِبْرَاهِيمُ أَنَّ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَحِينَمَا فَارَقَ إِبْرَاهِيمُ وَالمُؤْمِنُونُ مَعَهُ قَوْمَهُمْ لَجَؤُوا إِلَى اللهِ مُتَضَرِّعِينَ قَائِلِينَ : رَبَّنَا إِنَّنَا اعْتَمَدْنَا عَلَيْكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا (تَوَكَّلْنَا) ، وَرَجَعْنَا إِلَيكَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ ذُنُوبِنَا ، وَإِلَيكَ مَصِيرُنَا حِينَ تَبْعَثُنَا مِنْ قُبُورِنَا لِلْعَرْضِ وَالحِسَابِ . فَاقْتَدُوا بِهِمْ يَا أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ ، وَقُولُوا مِثْلَ قَوْلِهِمْ .[٢٨٩]

وغيرها كثير من الآيات والنصوص التي تدلُّ على هذه الصفة اللازمة للطائفة الناجية المنصورة.

ـــ تنبيه: اعلم أنه لا شيء من الإسلام يغيظ ملل الكفر والنفاق ..ويقلقهم ويحملهم على النقمة .. كعقيدة الولاء والبراء التي جاء بها الإسلام .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله ..!

---

[٢٨٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٠٣٢)

لا شيء يُخيفهم من دين المسلمين .. كما تُخيفهم عقيدة الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله !

فأيما إسلام يتخلَّى عن عقيدة الولاء والبراء .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله .. فهو إسلام مرضي عنه من قبل ملل الكفر .. وهو إسلام متحضر .. متحرر .. يمكن التعايش معه وبكل سرور وسهولة!

وأيما طائفة أو جماعة .. تتخلَّى عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .. والجهاد في سبيل الله .. وتستثني من خطابها ومنهاجها عقيدَتي الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله .. فهي جماعة تحظى بالقرب والقبول، وبكل العطايا والامتيازات .. والحريات ..!

أظهرْ من شعائر الإسلام ما تشاء .. فلا حرج عليك في شيء من ذلك .. ولك كامل الحقُّ والحريةُ .. لكنْ إياك ثم إياك أن تتكلم أو تحيي في الأمة عقيدتي الولاء والبراء في الإسلام .. والجهاد في سبيل الله!

لكَ كاملُ الحق في أن تصلي على سفنهم الحربية .. وأن تلبس العمامة الإسلامية .. وأن تُرخي لحيتك لو شئت .. وأن تصوم رمضان .. وهم على كامل الاستعداد أن يُحضروا لك الطعام المعد على الطريقة الإسلامية .. لكن بشرط أن تعطيهم الولاء .. وتتخلَّى عن عقيدة الجهاد في سبيل الله ..!!

لك كاملُ الحق والحرية .. أن تصليَ على سفنهم الحربية .. شريطة أن لا تقول لهم .. لا .. عندما تطلق سفنهم الصواريخ العابرة للقارات لتقتل شيوخ ونساء وأطفال المسلمين .. وتهدم على الآمنين منهم منازلهم!!

يقدمون لك الطعام المذبوح على الطريقة الإسلامية .. والمغلف بعبارة ذبح حلال .. شريطة أن لا تقول لهم .. لا .. عندما يذبحون أخاك المسلم!!

الإسلامُ المتحضر .. المتفتح .. المعتدل .. الأمريكي .. يعنون به: الإسلام الذي يتخلَّى عن عقيدتي الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله!!

يسمعون منك كل شيء إلا حديث الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله لا يمكن أن يسمعوه ..!

يكفي لكي تُرمَى بالتشدد .. والتعصبِ .. والإرهابِ .. والتطرف ـــ إلى آخر مفردات الناقمين على الإسلام ـــ أن تُظهرَ أو تتكلم عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله !!

لو تأملت حملاتِ الكيدِ والتحريف .. والتشويه التي تعرَّض لها الإسلام عبر تاريخه كله .. من قبل ملل الكفر والنفاق .. لن تجد شيئاً من الدين تعرض لتلك الحملات البغيضة كما تعرضت له عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله ..؟!!

عندما يتكلمون عن ضرورة تعديل ومراقبة مناهج الدراسة التي تُدرَّسُ لأبناء المسلمين .. يستهدفونَ بذلك تحديداً عقيدتي الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله .. وكل ما له صلة بهاتين العقيدتين .. لتبقى الأمةُ بلا عقيدة .. ولا ولاء ولا براء !

هذه النقمةُ المعلنة على الإرهاب .. زعموا! .. ما هي في حقيقتها إلا نقمةٌ على عقيدة الولاء والبراء .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله!

لذلك تراهم يُصرِّحون بكل وقاحة .. وعلى لسان كبيرهم .. إما أن تكونوا معنا أو تكونوا علينا .. ولا يوجد خيار وسط .. وإذا لم تكن معنا .. فأنت إرهابي .. وأنت المستهدفُ من حربنا هذه التي نخوضها ضد الإرهاب ..!

لماذا كلُّ ذلك .. لماذا ينقمون من ديننا وعقيدتنا .. عقيدَتي الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله .. وكأنه ليس من حقنا أن نوالي من نشاء .. ونعادي من نشاء وفق ما تمليه علينا عقيدتنا السمحاء ..؟!!

لماذا من حقِّ الجميع أن يُجاهدوا ويُقاتلوا . ويُجيشوا الجيوش والعساكر .. انتصاراً لأهوائهم وأطماعهم ومخططاتهم . وليس من حقنا كمسلمين الجهاد والقتال من أجل حماية حقوقنا وثوابتنا وحرماتنا . والكلياتِ العامة التي جاء من أجلها ديننا الحنيف ..؟!

لماذا قتالُ غيرنا ـــ وفي الباطل .. وفي سبيل الشيطان ـــ يُعد حقاً وتحضراً .. وواجباً .. بينما نحنُ مجرد التفكير بالجهاد للذود عن الحقوق والحرمات المغتصبة يُعدُّ جريمة نكراء .. وإرهاباً يجب أن يُطارد ويُحارب ..؟!

لماذا كلُّ ذلك ..؟!

أقول: لتضعف المقاومة .. ويموتَ في الأمة جهازُ المناعة .. فيسهل عليهم غزو البلاد والعباد .. وقبل ذلك غزو العقول والمبادئ والأفكار ..!

ليسهلَ عليهم التعايشُ بأمانٍ مع الحق المعتدَى عليه .. من دون منغصات أو أدنى اعتراضات ..!

حتى لا يُقالَ لهم .. لا .. وهم يُمارسون عملية الهدم والتخريب في حق البلاد والعباد ..!!

حتى لا يُقال لهم .. لا .. وهم يذبحونَ في الأمة عقيدهّا، وأخلاقها، وقيمها .. ويهدمون آخر حصنٍ من حصونها!

حتى لا يُقال لهم .. لا .. وهم يُمارسونَ عملية النهبِ والسلبِ لخيرات الأمة .. لتصبَّ في بنوكهم وجيوبهم!

ولأن تغييب عقيدة الولاء والبراء في الإسلام .. وعقيدة الجهاد في سبيل الله .. عن ساحة الشعور والاعتقاد .. وواقع الحياة .. يضمنُ لهم العيش مع أموات لا حراك لهم إلا فيما يُشبع غرائزهم وشهواهّم .. كالأنعام بل أضل!

وهل فكرةُ عمليةِ السلام مع لصوص الصهاينة اليهود .. المعتدين المحتلين للبلاد والعباد .. وفكرةُ التعايش معهم بأمان .. والرضى بالفُتات اليسير مما اغتُصب .. نالتْ شيئاً من القبول عند الأمة .. إلا بعد تغييب عقيدَتي الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله .. من ساحة الشعور والوجدان .. بل والاعتقاد؟!

تأمّل التاريخَ كله .. تجدْ ما من خرق أصاب ويُصيب الأمة .. إلا وتجده من جهة التخلي عن عقيدة الولاء والبراء .. والجهاد في سبيل الله ..!

صدق رسول الله ﷺ فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ »[٢٩٠]!

فكيف إذا ضموا إلى ترك الجهاد .. تركِ عقيدة الولاء والبراء .. فإنه يكون حينئذٍ ذلٌّ مركبٌ يعلو بعضه بعضا .. بل قلْ هو الكفر والمروق من الدين والعياذ بالله!

وإلى هؤلاء الواهمين .. الذين يريدون أن يعيشوا الإسلام بعيداً عن عقيدة الولاء والبراء كما جاء بها الإسلام .. ومن دون أن يعيشوا عقيدة الجهاد في سبيل الله .. ويتحملوا شيئاً من تبعاته .. ثم يحسبون أنفسهم على شيء أو أنهم يُحسنون صنعاً .. نقول لهم وبكل وضوح مشفقين ومحذرين وناصحين: أنتم لستم على شيء .. وإن تسميتم زوراً بالمسلمين .. وبأسماء إسلامية .. وانتسبتم لبلاد المسلمين!

لا ولاء ولا براء .. ولا جهاد في سبيل الله .. فبمَ تدخلون الجنة ..؟!

راجعوا دينكم .. واقرأوا كتاب الله من جديد .. واسألوا الله تعالى الهداية والتوفيق !

لذلك نجد ملل الكفر والزندقة والنفاق قد حرصوا ــ ولا يزالون ــ جاهدين على استبدال عقيدة الولاء والبراء في الإسلام بولاءات جاهلية نتنة ما أنزل الله بها من سلطان، لا تزيدُ المسلمين إلا فرقة وضعفاً ووهناً على وهن ــ قد تقدم ذكر بعضها ــ لتصرفهم عن دينهم .. وعن عقيدة الولاء والبراء كما جاء بها الإسلام!

وقد نجحوا ــ وللأسف ــ إلى حدٍّ كبير في تحقيق مهمتهم هذه .. وهم لا يتورعون ــ في سبيل ذلك ــ أن يسلكوا كل مسلك وطريق ممكن من أجل تحقيق هدفهم هذا .. ومن لم يأت معهم بالترغيب والإغواء .. والشراء .. جاءوا به عن طريق الترهيب والتهديد .. ولا ينجو إلا من نجاه الله وثبته[٢٩١]!

---

[٢٩٠] – سنن أبي داود – المكنز – (٣٤٦٤) صحيح

[٢٩١]– علماً أن ملل الكفر كلها وبخاصة منهم اليهود والنصارى، يعقدون الولاء والبراء على أساس ديني طــائفي وإن تظاهروا بخلاف ذلك، فإن الحقد الصليبي اليهودي يظهر بوضوح في كل موقف يتخذه الغرب الصليبي تجاه أي قــضية

ولله درُّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـــ رحمه الله ـــ إذ يقول :" فالله، الله، إخواني! تمسكوا بأصل دينكم أوله وآخره، أسه ورأسه، وهو: شهادة أن لا إله إلا الله؛ واعرفوا معناها؛ وأحبوا أهلها، واجعلوهم إخوانكم، ولو كانوا بعيدين؛ واكفروا بالطواغيت، وعادوهم، وأبغضوا من أحبهم، أو جادل عنهم، أو لم يكفرهم، أو قال: ما عليَّ منهم، أو قال: ما كلفني الله بهم، فقد كذب هذا على الله، وافترى؛ بل كلفه الله بهم، وفرض عليه الكفر بهم، والبراءة منهم، ولو كانوا: إخوانه، وأولاده؛ فالله، الله، تمسكوا بأصل دينكم، لعلكم تلقون ربكم، لا تشركون به شيئا. اللهم توفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين." [٢٩٢]

وفي الظلال : " " إنه لا يجتمع في قلب واحد حقيقة الإيمان باللّه وموالاة أعدائه الذين يدعون إلى كتاب اللّه ليحكم بينهم فيتولون ويعرضون .. ومن ثم جاء هذا التحذير الشديد ، وهذا التقرير الحاسم بخروج المسلم من إسلامه إذا هو والى من لا يرتضي أن يحكم كتاب اللّه في الحياة ، سواء كانت الموالاة بمودة القلب ، أو بنصره ، أو باستنصاره سواء : «لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ. وَمَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْ ءٍ» ..هكذا .. ليس من اللّه في شيء. لا في صلة ولا نسبة ، ولا دين ولا عقيدة ، ولا رابطة ولا ولاية .. فهو بعيد عن اللّه ، منقطع الصلة تماما في كل شيء تكون فيه الصلات.

ويرخص فقط بالتقية لمن خاف في بعض البلدان والأوقات .. ولكنها تقية اللسان لا ولاء القلب ولا ولاء العمل. قال ابن عباس - رضي اللّه عنهما - «ليس التقاة بالعمل إنما

تخص المسلمين في العالم، ومن يتأمل ما جرى ويجرى على الساحة من أحداث يدرك حقيقة ذلك .. وما جرى من قبل في البوسنة والهرسك، ويجري اليوم في فلسطين، وفي أفغانستان، والشيشان، والعراق وكشمير .. وغيرها من البلدان التي يضطهد فيها المسلمون .. وما أكثرها لو أردنا الإحصاء والاستقصاء .. كل ذلك شاهد صادق يدل على مدى النزعة الدينية الحاقدة عند اليهود والنصارى .. والتي ينطلقون من خلالها في محاربتهم للإسلام والمسلمين .. وهم كما قال تعالى فيهم:﴿ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾. وقال تعالى:﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقّ﴾. وقال تعالى:﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾. فالحذر الحذر يا عبد الله .. يا مسلم .. أن تؤتى من جهة دينك وأنت تعلم أو لا تعلم .. فتهلك! انظر كتابي موقف القرآن الكريم من اليهود والنصارى

[٢٩٢] - الدرر السنية في الأجوبة النجدية - الرقمية - (٢ / ١١٩)

التقاة باللسان» .. فليس من التقية المرخص فيها أن تقوم المودة بين المؤمن وبين الكافر – والكافر هو الذي لا يرضى بتحكيم كتاب اللّه في الحياة على الإطلاق ، كما يدل السياق هنا ضمنا وفي موضع آخر من السورة تصريحا – كما أنه ليس من التقية المرخص بها أن يعاون المؤمن الكافر بالعمل في صورة من الصور باسم التقية. فما يجوز هذا الخداع على اللّه! ولما كان الأمر في هذه الحالة متروكا للضمائر ولتقوى القلوب وخشيتها من علام الغيوب ، فقد تضمن التهديد تحذير المؤمنين من نقمة اللّه وغضبه في صورة عجيبة من التعبير حقا : «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» .."[٢٩٣]

"إن الإسلام يكلف المسلم أن يقيم علاقاته بالناس جميعا على أساس العقيدة. فالولاء والعداء لا يكونان في تصور المسلم وفي حركته على السواء إلا في العقيدة .. ومن ثم لا يمكن أن يقوم الولاء – وهو التناصر – بين المسلم وغير المسلم إذ أنهما لا يمكن أن يتناصرا في مجال العقيدة .. ولا حتى أمام الإلحاد مثلا – كما يتصور بعض السذج منا وبعض من لا يقرأون القرآن! – وكيف يتناصران وليس بينهما أساس مشترك يتناصران عليه؟

إن بعض من لا يقرأون القرآن ، ولا يعرفون حقيقة الإسلام وبعض المخدوعين أيضا .. يتصورون أن الدين كله دين! كما أن الإلحاد كله إلحاد! وأنه يمكن إذن أن يقف «التدين» بجملته في وجه الإلحاد.

لأن الإلحاد ينكر الدين كله ، ويحارب التدين على الإطلاق ..

ولكن الأمر ليس كذلك في التصور الإسلامي ولا في حس المسلم الذي يتذوق الإسلام. ولا يتذوق الإسلام إلا من يأخذه عقيدة ، وحركة بهذه العقيدة ، لإقامة النظام الإسلامي.

إن الأمر في التصور الإسلامي وفي حس المسلم واضح محدد .. الدين هو الإسلام .. وليس هناك دين غيره يعترف به الإسلام .. لأن اللّه – سبحانه – يقول هذا. يقول : «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ» .. ويقول :

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ» .. وبعد رسالة محمد – ﷺ – لم يعد هناك دين يرضاه اللّه ويقبله من أحد إلا هذا «الإسلام» .. في صورته التي جاء بها محمد – ﷺ

[٢٩٣] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٣٨٥)

– وما كان يقبل قبل بعثة محمد من النصارى لم يعد الآن يقبل. كما أن ما كان يقبل من اليهود قبل بعثة عيسى عليه السّلام ، لم يعد يقبل منهم بعد بعثته ..

ووجود يهود ونصارى – من أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – ليس معناه أن اللّه يقبل منهم ما هم عليه أو يعترف لهم بأنهم على دين إلهي .. لقد كان ذلك قبل بعثة الرسول الأخير .. أما بعد بعثته فلا دين – في التصور الإسلامي وفي حس المسلم – إلا الإسلام .. وهذا ما ينص عليه القرآن نصا غير قابل للتأويل ..

إن الإسلام لا يكرههم على ترك معتقداتهم واعتناق الإسلام .. لأنه «لا إكراه في الدين» ولكن هذا ليس معناه أنه يعترف بما هم عليه «دينا» ويراهم على «دين» ..

ومن ثم فليس هناك جبهة تدين يقف معها الإسلام في وجه الإلحاد! هناك «دين» هو الإسلام .. وهناك «لا دين» هو غير الإسلام .. ثم يكون هذا اللادين .. عقيدة أصلها سماوي ولكنها محرفة ، أو عقيدة أصلها وثني باقية على وثنيتها. أو إلحادا ينكر الأديان .. تختلف فيما بينها كلها. ولكنها تختلف كلها مع الإسلام. ولا حلف بينها وبين الإسلام ولا ولاء ...

والمسلم يتعامل مع أهل الكتاب هؤلاء وهو مطالب بإحسان معاملتهم – كما سبق – ما لم يؤذوه في الدين ويباح له أن يتزوج المحصنات منهن – على خلاف فقهي فيمن تعتقد بألوهية المسيح أو بنوته ، وفيمن تعتقد التثليث أهي كتابية تحل أم مشركة تحرم – وحتى مع الأخذ بمبدأ تحليل النكاح عامة .. فإن حسن المعاملة وجواز النكاح ، ليس معناها الولاء والتناصر في الدين وليس معناها اعتراف المسلم بأن دين أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله اللّه ويستطيع الإسلام أن يقف معه في جبهة واحدة لمقاومة الإلحاد! إن الإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب كما جاء ليصحح اعتقادات المشركين والوثنيين سواء.

ودعاهم إلى الإسلام جميعا ، لأن هذا هو «الدين» الذي لا يقبل اللّه غيره من الناس جميعا. ولما فهم اليهود أنهم غير مدعوين إلى الإسلام ، وكبر عليهم أن يدعوا إليه ، جابههم القرآن الكريم بأن اللّه يدعوهم إلى الإسلام ، فإن تولوا عنه فهم كافرون! والمسلم

مكلف أن يدعو أهل الكتاب إلى الإسلام ، كما يدعو الملحدين والوثنيين سواء. وهو غير مأذون في أن يكره أحدا من هؤلاء ولا هؤلاء على الإسلام. لأن العقائد لا تنشأ في الضمائر بالإكراه. فالإكراه في الدين فوق أنه منهي عنه ، هو كذلك لا ثمرة له.

ولا يستقيم أن يعترف المسلم بأن ما عليه أهل الكتاب – بعد بعثة محمد – ﷺ – هو دين يقبله اللّه .. ثم يدعوهم مع ذلك إلى الإسلام! .. إنه لا يكون مكلفا بدعوتهم إلى الإسلام إلا على أساس واحد هو أنه لا يعترف بأن ما هم عليه دين. وأنه يدعوهم إلى الدين.

وإذا تقررت هذه البديهية ، فإنه لا يكون منطقيا مع عقيدته إذا دخل في ولاء أو تناصر للتمكين للدين في الأرض ، مع من لا يدين بالإسلام.

إن هذه القضية في الإسلام قضية اعتقادية إيمانية. كما أنها قضية تنظيمية حركية! من ناحية أنها قضية إيمانية اعتقادية نحسب أن الأمر قد صار واضحا بهذا البيان الذي أسلفناه ، وبالرجوع إلى النصوص القرآنية القاطعة بعدم قيام ولاء بين المسلمين وأهل الكتاب.

ومن ناحية أنها قضية تنظيمية حركية الأمر واضح كذلك .. فإذا كان سعي المؤمن كله ينبغي أن يتجه إلى إقامة منهج اللّه في الحياة – وهو المنهج الذي ينص عليه الإسلام كما جاء به محمد – ﷺ – بكل تفصيلات وجوانب هذا المنهج ، وهي تشمل كل نشاط الإنسان في الحياة .. فكيف يمكن إذن أن يتعاون المسلم في هذا السعي مع من لا يؤمن بالإسلام دينا ومنهجا ونظاما وشريعة ومن يتجه في سعيه إلى أهداف أخرى – إن لم تكن معادية للإسلام وأهدافه فهي على الأقل ليست أهداف الإسلام – إذ الإسلام لا يعترف بهدف ولا عمل لا يقوم على أساس العقيدة مهما بدا في ذاته صالحا – «والَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ» ..

والإسلام يكلف المسلم أن يخلص سعيه كله للإسلام .. ولا يتصور إمكان انفصال أية جزئية في السعي اليومي في حياة المسلم عن الإسلام .. لا يتصور إمكان هذا إلا من لا يعرف طبيعة الإسلام وطبيعة المنهج الإسلامي .. ولا يتصور أن هناك جوانب في الحياة خارجة عن هذا المنهج يمكن التعاون فيها مع من يعادي الإسلام ، أو لا يرضى من المسلم

إلا أن يترك إسلامه ، كما نص اللّه في كتابه على ما يطلبه اليهود والنصارى من المسلم ليرضوا عنه! .. إن هناك استحالة اعتقادية كما أن هناك استحالة عملية على السواء ..

ولقد كان اعتذار عبد اللّه بن أبي بن سلول ، وهو من الذين في قلوبهم مرض ، عن مسارعته واجتهاده في الولاء ليهود ، والاستمساك بحلفه معها ، هي قوله : إنني رجل أخشى الدوائر! إني أخشى أن تدور علينا الدوائر وأن تصيبنا الشدة ، وأن تنزل بنا الضائقة .. وهذه الحجة هي علامة مرض القلب وضعف الإيمان ..

فالولي هو اللّه والناصر هو اللّه والاستنصار بغيره ضلالة ، كما أنه عبث لا ثمرة له .. ولكن حجة ابن سلول ، هي حجة كل بن سلول على مدار الزمان وتصوره هو تصور كل منافق مريض القلب ، لا يدرك حقيقة الإيمان .. وكذلك نفر قلب عبادة بن الصامت من ولاء يهود بعد ما بدا منهم ما بدا. لأنه قلب مؤمن فخلع ولاء اليهود وقذف به ، حيث تلقاه وضم عليه صدره وعض عليه بالنواجذ عبد اللّه بن أبي بن سلول! إنهما نهجان مختلفان ، ناشئان عن تصورين مختلفين ، وعن شعورين متباينين ، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن وقلب لا يعرف الإيمان! ويهدد القرآن المستنصرين بأعداء دينهم ، المتألبين عليهم ، المنافقين الذين لا يخلصون للّه اعتقادهم ولا ولاءهم ولا اعتمادهم .. يهددهم برجاء الفتح أو أمر اللّه الذي يفصل في الموقف أو يكشف المستور من النفاق.

«فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ ، فَيُصْبِحُوا عَلى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ».

وعندئذ – عند الفتح – سواء كان هو فتح مكة أو كان الفتح بمعنى الفصل أو عند مجيء أمر اللّه – يندم أولئك الذين في قلوبهم مرض ، على المسارعة والاجتهاد في ولاء اليهود والنصارى وعلى النفاق الذي انكشف أمره ، وعندئذ يعجب الذين آمنوا من حال المنافقين ، ويستنكرون ما كانوا فيه من النفاق وما صاروا إليه من الخسران!

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا : أَهؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ؟ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ ، فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ!» ..ولقد جاء اللّه بالفتح يوما ، وتكشفت نوايا ، وحبطت

أعمال ، وخسرت فئات. ونحن على وعد من اللّه قائم بأن يجيء الفتح ، كلما استمسكنا بعروة اللّه وحده وكلما أخلصنا الولاء للّه وحده. وكلما وعينا منهج اللّه ، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا. وكلما تحركنا في المعركة على هدى اللّه وتوجيهه. فلم نتخذ لنا وليا إلا اللّه ورسوله والذين آمنوا ..

وإذ ينتهي السياق من النداء الأول للذين آمنوا ، أن ينتهوا عن موالاة اليهود والنصارى ، وأن يحذروا أن يصيروا منهم بالولاء لهم ، وأن يرتدوا بذلك عن الإسلام - وهم لا يشعرون أو لا يقصدون - يرسل بالنداء الثاني ، يهدد من يرتد منهم عن دينه - بهذا الولاء أو بسواه من الأسباب - بأنه ليس عند اللّه بشي ء ، وليس بمعجز اللّه ولا ضار بدينه ، وأن لدين اللّه أولياء وناصرين مدخرين في علم اللّه ، إن ينصرف هؤلاء يجيء بهؤلاء. ويصور ملامح هذه العصبة المختارة المدخرة في علم اللّه لدينه ، وهي ملامح محببة جميلة وضيئة.

ويبين جهة الولاء الوحيدة التي يتجه إليها المسلم بولائه. ويختم هذا النداء بتقرير النهاية المحتومة للمعركة التي يخوضها حزب اللّه مع الأحزاب!"[٢٩٤]

" ثم يجيء هذا التحذير في صورة شاملة خالدة ، ما نزال نرى مصداقها في كل وقت ، وفي كل أرض. صورة رسمها هذا القرآن الحي ، فغفل عنها أهل هذا القرآن. فأصابهم من غفلتهم وما يزال يصيبهم الشر والأذى والمهانة : «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبالًا. وَدُّوا ما عَنِتُّمْ. قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ ، وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ. قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ ، وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا : آمَنَّا ، وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ. قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ. إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها. وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً. إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ»..

[٢٩٤] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٩١٤)

إنها صورة كاملة السمات ، ناطقة بدخائل النفوس ، وشواهد الملامح ، تسجل المشاعر الباطنة ، والانفعالات الظاهرة ، والحركة الذاهبة الآئبة. وتسجل بذلك كله نموذجا بشريا مكرورا في كل زمان وفي كل مكان.

ونستعرضها اليوم وغدا فيمن حول الجماعة المسلمة من أعداء. يتظاهرون للمسلمين – في ساعة قوة المسلمين وغلبتهم – بالمودة. فتكذبهم كل خالجة وكل جارحة. وينخدع المسلمون بهم فيمنحونهم الود والثقة ، وهم لا يريدون للمسلمين إلا الاضطراب والخبال ، ولا يقصرون في إعنات المسلمين ونشر الشوك في طريقهم ، والكيد لهم والدس ، ما وأتتهم الفرصة في ليل أو نهار.

وما من شك أن هذه الصورة التي رسمها القرآن الكريم هذا الرسم العجيب ، كانت تنطبق ابتداء على أهل الكتاب المجاورين للمسلمين في المدينة وترسم صورة قوية للغيظ الكظيم الذي كانوا يضمرونه للإسلام والمسلمين ، وللشر المبيت ، وللنوايا السيئة التي تجيش في صدورهم في الوقت الذي كان بعض المسلمين ما يزال مخدوعا في أعداء اللّه هؤلاء ، وما يزال يفضي إليهم بالمودة ، وما يزال يأمنهم على أسرار الجماعة المسلمة ويتخذ منهم بطانة وأصحابا وأصدقاء ، لا يخشى مغبة الإفضاء إليهم بدخائل الأسرار .. فجاء هذا التنوير ، وهذا التحذير ، يبصر الجماعة المسلمة بحقيقة الأمر ، ويوعيها لكيد أعدائها الطبيعيين ، الذين لا يخلصون لها أبدا ، ولا تغسل أحقادهم مودة من المسلمين وصحبة. ولم يجيء هذا التنوير وهذا التحذير ليكون مقصورا على فترة تاريخية معينة ، فهو حقيقة دائمة ، تواجه واقعا دائما .. كما نرى مصداق هذا فيما بين أيدينا من حاضر مكشوف مشهود ..

والمسلمون في غفلة عن أمر ربهم : ألا يتخذوا بطانة من دونهم. بطانة من ناس هم دونهم في الحقيقة والمنهج والوسيلة. وألا يجعلوهم موضع الثقة والسر والاستشارة .. المسلمون في غفلة عن أمر ربهم هذا يتخذون من أمثال هؤلاء مرجعا في كل أمر ، وكل شأن ، وكل وضع ، وكل نظام ، وكل تصور ، وكل منهج ، وكل طريق! والمسلمون في غفلة من تحذير اللّه لهم ، يوادون من حاد اللّه ورسوله ويفتحون لهم صدورهم وقلوبهم.

واللّه سبحانه يقول للجماعة المسلمة الأولى كما يقول للجماعة المسلمة في أي جيل :«وَدُّوا ما عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضاءُ مِنْ أَفْواهِهِمْ وَما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ» ..

واللّه سبحانه يقول :«ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ ، وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ ، وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا : آمَنَّا ، وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ» ..

واللّه سبحانه يقول :«إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها» ..

ومرة بعد مرة تصفعنا التجارب المرة ، ولكننا لا نفيق .. ومرة بعد مرة نكشف عن المكيدة والمؤامرة تلبس أزياء مختلفة ولكننا لا نعتبر. ومرة بعد مرة تنفلت ألسنتهم فتنم عن أحقادهم التي لا يذهب بها ود يبذله المسلمون ، ولا تغسلها سماحة يعلمها لهم الدين .. ومع ذلك نعود ، فنفتح لهم قلوبنا ونتخذ منهم رفقاء في الحياة والطريق! .. وتبلغ بنا المجاملة ، أو تبلغ بنا الهزيمة الروحية أن نجاملهم في عقيدتنا فنتحاشى ذكرها ، وفي منهج حياتنا فلا نقيمه على أساس الإسلام ، وفي تزوير تاريخنا وطمس معالمه كي نتقي فيه ذكر أي صدام كان بين أسلافنا وهؤلاء الأعداء المتربصين! ومن ثم يحل علينا جزاء المخالفين عن أمر اللّه. ومن هنا نذل ونضعف ونستخذي. ومن هنا نلقى العنت الذي يوده أعداؤنا لنا ، ونلقى الخبال الذي يدسونه في صفوفنا ..

وها هو ذا كتاب اللّه يعلمنا - كما علم الجماعة المسلمة الأولى - كيف نتقي كيدهم ، وندفع أذاهم ، وننجو من الشر الذي تكنه صدورهم ، ويفلت على ألسنتهم منه شواظ : «وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً. إِنَّ اللَّهَ بِما يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» .. للنظام القويم الذي يستمتع الجميع في ظله بالعدل والسلام. لا لتركيز راية قومية ولا لبناء امبراطورية!

هذه حقيقة تقررها النصوص الكثيرة من القرآن والسنة ويترجمها تاريخ الجماعة المسلمة الأولى ، وهي تعمل في الأرض وفق هذه النصوص.

إن هذا المنهج خير. وما يصد البشرية عند إلا أعدى أعداء البشرية. الذين ينبغي لها أن تطاردهم ، حتى تقصيهم عن قيادتها .. وهذا هو الواجب الذي انتدبت له الجماعة المسلمة

، فأدته مرة خير ما يكون الأداء.وهي مدعوة دائما إلى أدائه ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة .. تحت هذا اللواء."[٢٩٥]

" إن الفتنة الكبرى في الأرض هي أن يقوم من بين العباد من يدعي حق الألوهية عليهم ، ثم يزاول هذا الحق فعلا! إنها الفتنة التي تجعل الناس شيعا ملتبسة لأنهم من ناحية المظهر يبدون أمة واحدة أو مجتمعا واحدا ، ولكن من ناحية الحقيقة يكون بعضهم عبيدا لبعض ويكون بعضهم في يده السلطة التي يبطش بها – لأنها غير مقيدة بشريعة من اللّه – ويكون بعضهم في نفسه الحقد والتربص .. ويذوق الذين يتربصون والذين يبطشون بعضهم بأس بعض! وهم شيع ولكنها ليست متميزة ولا منفصلة ولا مفاصلة! والأرض كلها تعيش اليوم في هذا العذاب البطيء المديد! وهذا يقودنا إلى موقف العصبة المسلمة في الأرض. وضرورة مسارعتها بالتميز من الجاهلية المحيطة بها – والجاهلية كل وضع وكل حكم وكل مجتمع لا تحكمه شريعة اللّه وحدها ، ولا يفرد اللّه سبحانه بالألوهية والحاكمية – وضرورة مفاصلتها للجاهلية من حولها باعتبار نفسها أمة متميزة من قومها الذين يؤثرون البقاء في الجاهلية ، والتقيد بأوضاعها وشرائعها وأحكامها وموازينها وقيمها.

إنه لا نجاة للعصبة المسلمة في كل أرض من أن يقع عليها هذا العذاب : «أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ» .. إلا بأن تنفصل هذه العصبة عقيديا وشعوريا ومنهج حياة عن أهل الجاهلية من قومها – حتى يأذن اللّه لها بقيام «دار إسلام» تعتصم بها – وإلا أن تشعر شعورا كاملا بأنها هي «الأمة المسلمة» وأن ما حولها ومن حولها ، ممن لم يدخلوا فيما دخلت فيه ، جاهلية وأهل جاهلية. وأن تفاصل قومها على العقيدة والمنهج وأن تطلب بعد ذلك من اللّه أن يفتح بينها وبين قومها بالحق وهو خير الفاتحين.

فإذا لم تفاصل هذه المفاصلة ، ولم تتميز هذا التميز ، حق عليها وعيد اللّه هذا. وهو أن تظل شيعة من الشيع في المجتمع ، شيعة تتلبس بغيرها من الشيع ، ولا تتبين نفسها ، ولا يتبينها الناس مما حولها. وعندئذ يصيبها ذلك العذاب المقيم المديد دون أن يدركها فتح اللّه الموعود! إن موقف التميز والمفاصلة قد يكلف العصبة المسلمة تضحيات ومشقات .. غير

---

[٢٩٥] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ٤٥١)

أن هذه التضحيات والمشقات لن تكون أشد ولا أكبر من الآلام والعذاب الذي يصيبها نتيجة التباس موقفها وعدم تميزه ، ونتيجة اندغامها وتميعها في قومها والمجتمع الجاهلي من حولها ..

ومراجعة تاريخ الدعوة إلى اللّه على أيدي جميع رسل اللّه ، يعطينا اليقين الجازم بأن فتح اللّه ونصره ، وتحقيق وعده بغلبة رسله والذين آمنوا معهم .. لم يقع في مرة واحدة ، قبل تميز العصبة المسلمة ومفاصلتها لقومها على العقيدة وعلى منهج الحياة – أي الدين – وانفصالها بعقيدتها ودينها عن عقيدة الجاهلية ودينها – أي نظام حياتها – وأن هذه كانت هي نقطة الفصل ومفرق الطريق في الدعوات جميعا.

وطريق هذه الدعوة واحد. ولن يكون في شأنها إلا ما كان على عهود رسل اللّه جميعا ، صلوات اللّه عليهم وسلامه :«انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ» ..واللّه نسأل أن يجعلنا ممن يصرف اللّه لهم الآيات فيفقهون .."[٢٩٦]

====================

[٢٩٦] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ١١٢٥)

٤- الصفة الرابعة: الشمولية:

نعني بهذه الصفة أن الطائفة المنصورة من صفاتهم أنهم يأخذون الإسلام أخذاً شمولياً من دون تفريط في جانب من جوانبه، أو اهتمام بجانب دون آخر، مع مراعاتهم لفقه الأولويات والموازنات، وما ينبغي أن يُقدم أو يؤخر بحسب ما تقتضيه المصالح الشرعية، وتقديم الأهم على المهم عند تزاحم المهام في وقت واحد، من دون استهانة بالمهم أو تفريط به.

فهم ليسوا جماعة يقوم منهاجُهم، ويتركز نشاطهم على عنصر الدعوة والتبليغ، أو الوعظ والإرشاد فقط ..!

وهم ليسوا جماعة يقوم منهاجهم وتتركز اهتماماتهم على الجهاد وحسب ..!

وهم كذلك ليسوا جماعة يقوم منهاجهم على طلب العلم والفقه من دون الاكتراث ببقية جوانب الدِّين .. أو الاكتراث بالجوانب العملية لهذا الدين!

وهم كذلك ليسوا جماعة يقوم منهاجهم على الإكثار من العبادات والذكر، والاهتمام بتهذيب النفوس وتربيتها وحسب ..!

وهم كذلك ليسوا جماعة يقوم جلُّ منهاجهم ونشاطهم على الاهتمام بالواقع وشؤون السياسة، منشغلين بذلك عن بقية جوانب الدين الأخرى ..!

فهم لا يُعرفون براية أو علامة دون أخرى؛ وإنما هم جماعةٌ تجتمعُ فيهم جميع عناصر الخير ومعانيه، من دون تجزئة للدين أو فصل بعضه عن بعض .. ولو نظرت إليهم ترى فيهم الإسلام بشموليته .. وتمامه وكماله.

فهم من جهة دعاةٌ إلى الحق، يقومون بمهمة الدعوة والتبليغ على أحسن وجه، وعلى أساس من العلم والفقه، والحكمة والموعظة الحسنة ..

ومن جهةٍ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويجاهدون في سبيل الله لا يخشون في الله لومة لائم ..

ومن جهة تراهم حريصين على طلب العلم والفقه؛ فهم إمَّا علماءُ أو طلاب علم .. وهم مع ذلك يهتمون بواقع وشؤون أمتهم، وما يحاكُ ضدها من مؤامرات تستهدف الإسلام والمسلمين .. فيعرفون سبيل المجرمين ومذاهبهم الهدامة .. أكثر من المجرمين ذاتهم!

كما قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام:٥٥.

" إنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة! إن هذا المنهج لا يعنى ببيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب. إنما يعنى كذلك ببيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضا .. إن استبانة سبيل المجرمين ضرورية لاستبانة سبيل المؤمنين. وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق! إن هذا المنهج هو المنهج الذي قرره اللّه – سبحانه – ليتعامل مع النفوس البشرية .. ذلك أن اللّه سبحانه يعلم أن إنشاء اليقين الاعتقادي بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضاد من الباطل والشر والتأكد من أن هذا باطل ممحض وشر خالص وأن ذلك حق ممحض وخير خالص .. كما أن قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنه على الحق ولكن كذلك من شعوره بأن الذي يحاده ويحاربه إنما هو على الباطل ..

وأنه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر اللّه في آية أخرى أنه جعل لكل نبي عدوا منهم «وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ» .. ليستقر في نفس النبي ونفوس المؤمنين ، أن الذين يعادونهم إنما هم المجرمون عن ثقة ، وفي وضوح ، وعن يقين.

إن سفور الكفر والشر والإجرام ضروري لوضوح الإيمان والخير والصلاح. واستبانة سبيل المجرمين هدف من أهداف التفصيل الرباني للآيات. ذلك أن أي غبش أو شبهة في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتد غبشا وشبهة في موقف المؤمنين وفي سبيلهم. فهما صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقتان .. ولا بد من وضوح الألوان والخطوط ..

ومن هنا يجب أن تبدأ كل حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين. يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ووضع العنوان المميز للمؤمنين. والعنوان المميز للمجرمين ، في عالم الواقع لا في عالم النظريات. فيعرف أصحاب الدعوة

الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون. بعد تحديد سبيل المؤمنين ومنهجهم وعلاماتهم ، وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلاماتهم. بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوانان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين ..

وهذا التحديد كان قائما ، وهذا الوضوح كان كاملا ، يوم كان الإسلام يواجه المشركين في الجزيرة العربية. فكانت سبيل المسلمين الصالحين هي سبيل الرسول – ﷺ – ومن معه. وكانت سبيل المشركين المجرمين هي سبيل من لم يدخل معهم في هذا الدين .. ومع هذا التحديد وهذا الوضوح كان القرآن يتنزل وكان اللّه – سبحانه – يفصل الآيات على ذلك النحو الذي سبقت منه نماذج في السورة – ومنها ذلك النموذج الأخير – لتستبين سبيل المجرمين! وحيثما واجه الإسلام الشرك والوثنية والإلحاد والديانات المنحرفة المتخلفة من الديانات ذات الأصل السماوي بعد ما بدّلتها وأفسدتها التحريفات البشرية .. حيثما واجه الإسلام هذه الطوائف والملل كانت سبيل المؤمنين الصالحين واضحة ، وسبيل المشركين الكافرين المجرمين واضحة كذلك .. لا يجدي معها التلبيس! ولكن المشقة الكبرى التي تواجه حركات الإسلام الحقيقية اليوم ليست في شيء من هذا .. إنها تتمثل في وجود أقوام من الناس من سلالات المسلمين ، في أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام ، يسيطر عليها دين اللّه ، وتحكم بشريعته .. ثم إذا هذه الأرض ، وإذا هذه الأقوام ، تهجر الإسلام حقيقة ، وتعلنه اسما.

وإذا هي تتنكر لمقومات الإسلام اعتقادا وواقعا. وإن ظنت أنها تدين بالإسلام اعتقادا! فالإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه .. وشهادة أن لا إله إلا اللّه تتمثل في الاعتقاد بأن اللّه – وحده – هو خالق هذا الكون المتصرف فيه. وأن اللّه – وحده – هو الذي يتقدم إليه العباد بالشعائر التعبدية ونشاط الحياة كله. وأن اللّه – وحده – هو الذي يتلقى منه العباد الشرائع ويخضعون لحكمه في شأن حياتهم كله .. وأيما فرد لم يشهد أن لا إله إلا اللّه – بهذا المدلول – فإنه لم يشهد ولم يدخل في الإسلام بعد. كائنا ما كان اسمه ولقبه ونسبه.

وأيما أرض لم تتحقق فيها شهادة أن لا إله إلا اللّه – بهذا المدلول – فهي أرض لم تدن بدين اللّه ، و لم تدخل في الإسلام بعد ..

وفي الأرض اليوم أقوام من الناس أسماؤهم أسماء المسلمين وهم من سلالات المسلمين. وفيها أوطان كانت في يوم من الأيام دارا للإسلام .. ولكن لا الأقوام اليوم تشهد أن لا إله إلا اللّه – بذلك المدلول – ولا الأوطان اليوم تدين للّه بمقتضى هذا المدلول ..

وهذا أشق ما تواجهه حركات الإسلام الحقيقية في هذه الأوطان مع هؤلاء الأقوام! أشق ما تعانيه هذه الحركات هو الغبش والغموض واللبس الذي أحاط بمدلول لا إله إلا اللّه ، ومدلول الإسلام في جانب وبمدلول الشرك وبمدلول الجاهلية في الجانب الآخر ..

الجهر بكلمة الفصل تهمة يؤخذ عليها بالنواصي والأقدام! .. تهمة تكفير «المسلمين»!!! ويصبح الحكم في أمر الإسلام والكفر مسألة المرجع فيها لعرف الناس واصطلاحهم ، لا إلى قول اللّه ولا إلى قول رسول اللّه! هذه هي المشقة الكبرى .. وهذه كذلك هي العقبة الأولى التي لا بد أن يجتازها أصحاب الدعوة إلى اللّه في كل جيل! يجب أن تبدأ الدعوة إلى اللّه باستبانة سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين .. ويجب ألا تأخذ أصحاب الدعوة إلى اللّه في كلمة الحق والفصل هوادة ولا مداهنة. وألا تأخذهم فيها خشية ولا خوف وألا تقعدهم عنها لومة لائم ، ولا صيحة صائح : انظروا! إنهم يكفرون المسلمين!

إن الإسلام ليس بهذا التميع الذي يظنه المخدوعون! إن الإسلام بيّن والكفر بيّن .. الإسلام شهادة أن لا إله إلا اللّه – بذلك المدلول – فمن لم يشهدها على هذا النحو ومن لم يقمها في الحياة على هذا النحو ، فحكم اللّه ورسوله فيه أنه من الكافرين الظالمين الفاسقين .. المجرمين ..

«وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ ، وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» ..أجل يجب أن يجتاز أصحاب الدعوة إلى اللّه هذه العقبة وأن تتم في نفوسهم هذه الاستبانة كي تنطلق طاقاتهم كلها في سبيل اللّه لا تصدها شبهة ، ولا يعوّقها غبش ، ولا يميعها لبس. فإن طاقاتهم لا تنطلق إلا إذا اعتقدوا في يقين أنهم هم «المسلمون» وأن الذين يقفون في طريقهم ويصدونهم

ويصدون الناس عن سبيل اللّه هم «المجرمون» .. كذلك فإنهم لن يحتملوا متاعب الطريق إلا إذا استيقنوا أنها قضية كفر وإيمان. وأنهم وقومهم على مفرق الطريق ، وأنهم على ملة وقومهم على ملة. وأنهم في دين وقومهم في دين : «وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ» .."[297]

فمن غايات تفصيل الآيات أن يستبين سبيل المجرمين .. ليتم اعتزاله واجتنابه والحذر منه.

وهم بعد ذلك لا يفوتهم أن يهتموا بالجانب التربوي لأنفسهم ولغيرهم، بالوسائل المشروعة الثابتة في الكتاب والسنة؛ فهم رهبان في الليل فرسان في النهار ..!

وهذه خصال جميعها تصبُّ في منهاج عملي واحد متكامل متماسك، من دون تفريق أو فصل فيما بينها، أو تقليل لشيء من أهميتها .. فتراهم يؤدون كل عبادة في وقتها ومكانها المناسبين.

قال تعالى:﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ جميع ما آتاكم به من عند ربه، وليس بعضه دون بعض، ﴿ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾الحشر: ٧. أي جميع ما نهاكم عنه.

فعَنْ يَزِيدَ بْنِ بَابَنُوسَ ، قَالَ : دَخَلْنَا عَلَى عَائِشَةَ ، فَقُلْنَا : يَا أم الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَتْ : كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ تَقْرَؤُنَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَتِ : إِقْرَأْ : (قَدْ افْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ) قَالَ يَزِيدُ : فَقَرَأْتُ : قَدْ افْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ – إِلَى : لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . قَالَتْ : كَانَ خُلُقُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ."[298] " القرآن كلُّه .. بجميع تعاليمه وأوامره ونواهيه .. و لم تقل كان خلقه سورة البقرة أو التوبة أو الأنفال من القرآن ..!

والمؤمنون لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، كما قال تعالى:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً ﴾ الأحزاب:٢١.

---

[297] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ١١٠٥)

[298] – المسند الجامع – (٢٠ / ٤٧٨) (١٧١٥٦) وأخرجه البخاري في (الأدب المفرد) (٣٠٨) صحيح

فهم يتأسون بالنبي ﷺ في جميع جوانب حياقم التعبدية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والجهادية .. وتراهم في جميع أقوالهم وأفعالهم وتقلباقم وأحوالهم يتوخون سنَّة النبي ﷺ ـــ قدر المستطاع ـــ ليقتدوا بها ويلتزموها .. فهم أهل اتباع لا ابتداع.

وهؤلاء هم الذين أثنى الله تعالى عليهم بقوله: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (١٥٧) سورة الأعراف .

إِنَّهُمْ الذِينَ يَتَّبِعُونَ مُحَمَّداً النَّبِيِّ الأُمِّيَّ ، الذِي لاَ يَكْتُبُ وَلاَ يَقْرَأُ ، وَقَدْ جَاءَ وَصْفُهُ وَالبِشَارَةُ بِهِ فِي التَّورَاةِ وَالإِنْجيلِ ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ بِفِعْلِ الخَيْرَاتِ ، وَبالأَمْرِ بالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ فِعْلِ المُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وَيَضَعُ عَنْهُمُ التَّكَالِيفَ الشَّاقَّةَ ، كَاشْتِرَاطِ قَتْلِ النَّفْسِ فِي صِحَّةِ التَّوْبَةِ ، وَالقِصَاصِ فِي القَتْلِ العَمْدِ أَوِ الخَطَإِ ، مِنْ غَيْرَ شَرْعٍ لِلدِّيَةِ ، وَقَطْعِ الأَعْضَاءِ الخَاطِئَةِ ، وَقَطْعِ مَوْضِعِ النَّجَاسَةِ مِنَ الثَّوْبِ ، وَتَحْرِيمِ السَّبْتِ . . . فَقَدْ جَاءَ مُحَمَّدٌ بِمَا هُوَ يُسْرٌ وسَمَاحَةٌ .

وَوَسَّعَ اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ أُمُورَهَا ، وَسَهَّلَهَا لَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ وَمَا استُكْرِهُوا عَلَيْهِ " فَالذِينَ آمَنُوا بالرَّسُولِ النَّبيِّ الأُميِّ ، حِينَ بُعِثَ ، مِنْ قَومِ مُوسَى وَعِيسَى ، وَمِنْ كُلِّ أُمَّةٍ ، وَعَزَّرُوهُ بِأَنْ مَنَعُوهُ وَحَمَوْهُ مِنْ كُلِّ مَنْ يُعَادِيهِ ، مَعَ التَّعْظِيمِ وَالإِجْلاَلِ ، وَنَصَرُوهُ باللِّسَانِ وَاليَدِ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ الأَعْظَمَ الذِي أُنْزِلَ مَعَ رِسَالَتِهِ ، وَهُوَ القُرآنُ . . فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، الفَائِزُونَ بالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ .[٢٩٩]

وقال تعالى: {وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} (٦٩) سورة النساء

[٢٩٩] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١١١٢)

وَمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرا بِهِ ، وَانْتَهَى عَمَّا نَهَيَا عَنْهُ ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُسْكِنُهُ دَارَ كَرَامَتِهِ ، وَيَجْعَلُهُ مُرَافِقاً لِلأَنْبياءَ ، ثُمَّ لِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الرُّتْبَةِ ، وَهُمُ الصِّدِّيقُونَ ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ، ثُمَّ عُمُومُ المُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ الذِينَ صَلُحَتْ سَرَائِرُهُمْ وَعَلاَنِيَتُهُمْ وَمَا أَحْسَنَ رِفْقَةَ هَؤُلاءِ الذِينَ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ .[٣٠٠]

وقال تعالى: { قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٣١) سورة آل عمران .

هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ حِينَ دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَعْبَ بنَ الأشْرَفِ وَمَنْ تَابَعَهُ مِنَ اليَهُودِ إلى الإِيمَانِ ، فَقَالوا : (نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ) . فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى هذِهِ الآيَةَ ، وَفِيهَا يَأْمُرُ اللهُ نَبِيَّهُ الكَرِيمَ بِأنْ يَقُولَ لَهُمْ : مَنِ ادَّعَى حُبَّ اللهِ دُونَ أن يَتَّبعَ شَرْعَ مُحَمَّدٍ ، فَهُوَ غَيْرُ صَادِقٍ ، فَدِينُ اللهِ وَاحِدٌ ، وَشَرْعُهُ وَاحِدٌ ، وَالأَدْيَانُ يَصَدِّقُ بَعْضُها بَعْضاً وَيُكَمِّلُها .

وَجَاءَ دِينُ مُحَمَّدٍ ﷺ لِيَخْتِمَ الأَدْيَانَ السَّابِقَةَ وَيُكَمِّلَها ، فَلاَ يُمْكِنُ أنْ يَدَّعِي أحَدٌ حُبَّ اللهِ ، وَهُوَ يَكْفُرُ بِشَرْعِهِ وَمَا أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِه . وَمَنْ يَتَّبعْ شَرْعَ مُحَمَّدٍ ﷺ وَيُخْلِصْ فِي ذَلِكَ يُحْبِبْهُ اللهُ ، وَاتِّبَاعِ أمْرِهِ . وَاللهُ كَثِيرُ الغُفْرَانِ لِعِبَادِهِ ، عَظِيمُ الرَّحْمَةِ بِهِمْ . وَجَاءَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ سَأَلْتُ الْقَاسِمَ بْنَ مُحَمَّدٍ عَنْ رَجُلٍ لَهُ ثَلاَثَةُ مَسَاكِنَ فَأَوْصَى بِثُلُثِ كُلِّ مَسْكَنٍ مِنْهَا قَالَ يُجْمَعُ ذَلِكَ كُلُّهُ فِى مَسْكَنٍ وَاحِدٍ ثُمَّ قَالَ أَخْبَرَتْنِى عَائِشَةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ « مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »[٣٠١].

أما الذين يبعّضون الدين؛ فيؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، أو يلتزمون ببعض الدين ويتركون بعضه الآخر ـــ كالعلمانيين الذين يفصلون الدين عن الدولة وشؤون الحياة ـــ أولئك يصدق فيهم قوله تعالى {..أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (٨٥) سورة البقرة .

---

[٣٠٠] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٦٢)

[٣٠١] - صحيح مسلم- المكتز - (١٤٥٩٠)

كَانَ فِي المَدِينَةِ ثَلاَثَ قَبَائِلَ مِنَ اليَهودِ : بَنُو قَيْنُقَاعَ وَبَنُو النَّضِيرِ ، وَهُمْ حُلَفَاءُ الخَزْرَجِ ، وَبَنُو قُرَيْظَةَ وَهُمْ حُلَفَاءُ الأَوْسِ ، وَكَانُوا إِذَا وَقَعَتِ الحَرْبُ بَيْنَ الأَوْسِ وَالخَزْرَجِ انتَصَرَ كُلُّ فَرِيقٍ مِنَ اليَهُودِ لِحُلَفَائِهِ ، وَانْضَمَّ إِلَيهِمْ يُقَاتِلُ خُصُومَهمْ . وَكَثِيراً مَا كَانَ اليَهودِيُّ يَقْتُلُ اليَهُودِيُّ فِي الحَرْبِ ، وَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْتِهِ ، وَيَنْتَهِبُ مَالَهُ وَأَثَاثَ مَنْزِلِهِ ، وَكلُّ ذلِكَ مُحَرَّمٌ عَلَيهِمْ فِعْلُهُ بِنَصِّ التَّوراةِ .

وَلكِنَّهُمْ كَانُوا إذا وَضَعَتِ الحرْبُ أَوْزَارَهَا يَقُومُونَ بافْتِكَاكِ الأَسْرَى وَمُفَادَاتِهِمْ ، عَمَلاً بنَصِّ التَّوراةِ ، فَاسْتَنْكَرَ اللهُ تَعَالَى أَفْعَالَهُمْ هذِهِ ، فَهُمْ يَقتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً خِلاَفاً للنَّصِّ ، وَلكِنَّهُمْ يَفْتَكُّونَ الأَسْرَى وَيُفَادُونَهُمْ عَمَلاً بِنَصِّ التَّوراةِ .

وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُمْ مُسْتَنْكِراً تَصَرُفَاتِهِمْ هذِهِ : أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَعْمَلُونَ بِهِ ، وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ وَتُخَالِفُونَهُ؟ وَتَوَعَّدَ اللهُ تَعَالَى مَنْ يُؤْمِنُ بِبَعْضِ الكِتَابِ ، وَيَكْفُرُ بِبَعْضِهِ الآخَرِ بالخِزْيِ وَالمَذَلَّةِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا ، وَبالعَذابِ الأَلِيمِ الشَّدِيدِ يَوْمَ القِيَامَةِ . ثُمَّ يُذَكِّرُهُمْ اللهُ بِأَنَّهُ غَيْرُ غَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ .[٣٠٢]

وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة : هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع اللّه ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم. فإن انقسامهم فريقين ، وانضمامهم إلى حلفين ، هي هي خطة إسرائيل التقليدية ، في إمساك العصا من الوسط والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال وضمان صوالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك! وهي خطة من لا يثق باللّه ، ولا يستمسك بميثاقة ، ويجعل اعتماده كله على الدهاء ، ومواثيق الأرض ، والاستنصار بالعباد لا برب العباد. والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف شريعتهم ، باسم

[٣٠٢] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٩٢)

المصلحة أو الوقاية ، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم.[٣٠٣]

وقوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٥٢) [النساء : ١٥٠ - ١٥٢] }

يَتَوَعَّدُ اللهُ تَعَالَى الكَافِرِينَ بِهِ ، وَالكَافِرِينَ بِرُسُلِهِ جَمِيعاً بِالعَذَابِ الشَّدِيدِ ، وَهَؤُلاءِ هُمُ الذِينَ يُنْكِرُونَ النُّبُوَّاتِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّ مَا أَتَى بِهِ الأَنْبِياءُ ، مِنَ الهُدَى وَالشَّرَائِعِ ، هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ ، لاَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، كَمَا يَتَوعَّدُ اللهُ ، بِالعُقُوبَةِ وَالعَذَابِ ، الكَافِرِينَ بِبَعْضِ رُسُلِهِ أَوْ أَحَدِهِمْ ، كَاليَهُودِ الذِينَ يَكْفُرُونَ بِمُحَمَّدٍ وَعِيسَى ، وَالنَّصَارَى الذِينَ يَكْفُرُونَ بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ ، وَهُمْ إِنَّمَا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ الهَوَى وَالعَادَةِ ، وَلأَنَّهُمْ وَجَدُوا آبَاءَهُمْ عَلَيهِ ، وَلاَ دَلِيلَ لَهُمْ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَ ، وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ طَرِيقاً وَسَطاً ، وَمَسْلَكاً (سَبِيلاً) .

يَقُولُ تَعَالَى إنَّ هَؤُلاءِ الذِينَ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ رُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ ، هُمُ الكَافِرُونَ المُمْعِنُونَ فِي الكُفْرِ ، وَقَدْ أَعَدَّ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ، عِقَاباً لَهُمْ عَلَى اسْتِهَانَتِهِمْ بِأوَامِرِ رَبِّهِمْ .

وَالذِينَ آمَنُوا بِاللهِ ، وَآمَنُوا بِجَمِيعِ رُسُلِهِ (وَهُمْ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ لأَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ بِكُلِّ كِتَابٍ أُنْزِلَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وَبِكُلِّ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ) ، وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الرُّسُلِ ، فَهَؤُلاءِ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ رَبُّهُمْ أُجُورَهُمْ بِحَسَبِ حَالِهِمْ فِي العَمَلِ ، وَيَجْزِيهِمْ عَلَى إِيمَانِهِمْ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ . وَاللهُ تَعَالَى غَفُورٌ يَغْفِرُ هَفَوَاتِ مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ ، وَلَمْ يُشْرِكْ بِرَبِهِ أَحَداً ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ رُسُلِهِ ، وَهُوَ

---

[٣٠٣] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٨٨)

تَعَالَى رَحِيمٌ يَرْحَمُ مَنْ يُعَامِلُهُ بِالإِحْسَانِ ، وَيُضَاعِفُ لَهُ الحَسَنَاتِ ، وَيَزِيدُهُ تَفَضُّلاً مِنْهُ [٣٠٤].

وقوله تعالى: { وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ} (١٤) سورة المائدة.

وَكَذَلِكَ أخَذَ اللهُ تَعَالَى المِيثَاقَ مِنَ النَّصَارَى عَلَى الثَّبَاتِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَالقِيَامِ بِمَا فَرَضَهُ عَلَيْهِمْ ، وَاتِّبَاعِ رُسُلِهِ ، وَالتَّصْدِيقِ بِهِمْ ، فَسَلَكُوا فِي مِيثَاقِ اللهِ طَرِيقَ اليَهُودِ ، فَبَدَّلُوا دِينَهُمْ ، وَنَقَضُوا المِيثَاقَ الذِي أَخَذَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَنَسُوا حَظّاً كَبِيراً مِنْ كِتَابِهِمْ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أنَّ المَسِيحَ عَلَيهِ السَّلاَمُ لَمْ يَكْتُبْ مَا ذَكَّرَهُمْ بِهِ مِنَ المَوَاعِظِ ، وَتَوحِيدِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ ، وَلاَ طُرُقَ الإِرْشَادِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ ، وَكَانَ الذِينَ اتَّبَعُوهُ مِنَ العَامَّةِ (الحَوَارِيُّونَ كَانُوا مِنَ الصَّيَّادِينَ) ، وَاشْتَدَّ اليَهُودُ فِي مُطَارَدَتِهِمْ فَتَفَرَّقُوا ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَاتٌ ذَاتِ قُوَّةٍ وَنُفُوذٍ وَعِلْمٍ تُدَوِّنُ مَا حَفِظُوهُ مِنَ الإِنْجِيلِ . وَالإِنْجِيلُ لَمْ يُكْتَبْ إلاَّ بَعْدَ ثَلاَثَةِ قُرُونٍ عِنْدَمَا دَخَلَ قُسْطَنْطِينُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَاً فِي تَفَرُّقِهِمْ وَتَعَادِيهِمْ ، وَاخْتِلاَفِهِمْ شِيَعاً وَطَوَائِفَ ، كُلُّ فِئَةٍ تُكَفِّرُ الأخْرَى وَتُعَادِيها .

وَيَقُولُ تَعَالَى : إِنَّهُ أَلْقَى بَيْنَهُمُ العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ بِسَبَبِ ذَلِكَ ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ حَتَّى قِيامِ السَّاعَةِ .

وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فِي الدُّنْيَا ، وَبِمَا اقْتَرَفُوهُ مِنَ الكَذِبِ عَلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَبِمَا نَسَبُوا إِلَيهِ مِنْ أنَّ لَهُ صَاحِبَةً وَوَلَداً سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .[٣٠٥]

فهذا مثل ضرب للمسلمين؛ أي أنكم إذا فعلتم فعل النصارى، فنسيتم حظاً من الدين والتوحيد، وعملتم ببعض الدين وتركتم بعضه الآخر، فإنه سيصيبكم ما أصابهم من التفرق والتنازع والعداوة والبغضاء ..!

---

[٣٠٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٦٤٣)

[٣٠٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٦٨٤)

وما أصاب المسلمين في هذا الزمان من خزي وفرقة وهوان ما هو إلا بسبب أهم نسوا حظاً من الدين والتوحيد، فعملوا ببعض الدين وأهملوا أو تركوا بعضه الآخر ..!

=======================

٥- الصفة الخامسة: الوسطيةُ والاعتدال:

من أبرز ما يميز الطائفة الناجية المنصورة عن غيرهم من الطوائف والفرق " الوسطية والاعتدال "؛ فهم وسط في جميع شؤون حياتهم الدينية والدنيوية؛ حيث لا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير.

كما قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (١٤٣) سورة البقرة

وعندما نتكلم عن صفة "الوسيطة" للطائفة المنصورة، نعني خصالاً دلت عليها الشريعة هي من أخص خصائص الوسيطة ولوازمها، وهي:

١- الخيريةُ والعدل:

كما في الحديث الذي أخرجه البخاري عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ . فَيَقُولُ هَلْ بَلَّغْتَ فَيَقُولُ نَعَمْ . فَيُقَالُ لأُمَّتِهِ هَلْ بَلَّغَكُمْ فَيَقُولُونَ مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ . فَيَقُولُ مَنْ يَشْهَدُ لَكَ فَيَقُولُ مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ . فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ » . (وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ[٣٠٦] . .

قال ابن كثير: والوسط ههنا الخيار والأجود، كما يقال قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها[٣٠٧].

وقال ابن تيمية : " وَالْأُمَّةُ الْوَسَطُ الْعَدْلُ الْخِيَارُ وَالشُّهَدَاءُ عَلَى النَّاسِ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونُوا عَالِمِينَ عَادِلِينَ كَالرَّسُولِ .."[٣٠٨]

[٣٠٦] – صحيح البخارى– المكنز – (٤٤٨٧)

[٣٠٧]– تفسير ابن كثير: ١/ ١٩٦.

ومما يؤكد على خيرية أمة الوسط قوله تعالى:﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾آل عمران: ١١٠.

قال ابن كثير { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ } يعني: خَيْرَ الناس للناس. والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس؛ ولهذا قال: { تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ }[٣٠٩]

وعَنْ بَهْزِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ فِي قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، قَالَ : أَنْتُمْ تُتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً ، أَنْتُمْ خَيْرُهَا ، وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ " "[٣١٠].

وذلك لا لنسب أو عرق أو جنس .. وإنما لكونها الأمة الأكثر أمراً بالمعروف، والأكثر نهياً عن المنكر.

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَنَّهُ سَمِعَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا هُوَ قَالَ ؟ : نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الأَرْضِ ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا ، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ. " "[٣١١].

قلت: وأولى أمة محمد ﷺ بصفة الخيرية والعدل هم الطائفةُ المنصورة، الذين يقومون بمهام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذود عن الدين وحرماته كما سبق بيان ذلك.

ونحن عندما نقرر صفة العدل للطائفة المنصورة، نريد أن نستلفت الانتباه إلى أن الطائفةَ المنصورة من خصالهم إنصافُ الناس ـــ ولو كانوا أعداء ـــ وإنزالهم منازلهم التي

---

[٣٠٨] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٠ / ٥٠١)

[٣٠٩] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٢ / ٩٣)

[٣١٠] - المستدرك للحاكم (٦٩٨٧) صحيح

[٣١١] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٢٩٥)(٧٦٣- حسن

يستحقونها من غير محاباة لأحد على حساب أحد، فيشهدون على المحسن بأنه محسن وعلى المسيء بأنه مسيء أياً كان ومهما كان، ومن غير غلو أو جفاء وتفريط.

فليس العظمةُ في أن تنصف الآخرين في حال الرضى والسلم .. وإنما العظمة أن تنصف الآخرين في حال السخط والحرب .. وتتعامل معهم بعدل من غير محاباة أو ميل لهوى أو نفس .. وهذا لا يتحقق إلا لأمة الإسلام؛ كما قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾المائدة:٨.

" لقد نهى اللّه الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام ، على الاعتداء. وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة يرفعهم اللّه إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم. فهاهم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل .. وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق. فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض! إن التكليف الأول أيسر لأنه إجراء سلبي ينتهي عند الكف عن الاعتداء. فأما التكليف الثاني فأشق لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبغوضين المشنوئين! والمنهج التربوي الحكيم يقدر ما في هذا المرتقى من صعوبة. فيقدم له بما يعين عليه : «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ ...»

ويعقب عليه بما يعين عليه أيضا : «وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ» ..

إن النفس البشرية لا ترتقي هذا المرتقى قط ، إلا حين تتعامل في هذا الأمر مباشرة مع اللّه. حين تقوم للّه ، متجردة عن كل ما عداه. وحين تستشعر تقواه ، وتحس أن عينه على خفايا الضمير وذات الصدور.

وما من اعتبار من اعتبارات الأرض كلها يمكن أن يرفع النفس البشرية إلى هذا الأفق ، ويثبتها عليه.

وما غير القيام للّه ، والتعامل معه مباشرة ، والتجرد من كل اعتبار آخر ، يملك أن يستوي بهذه النفس على هذا المرتقى.

وما من عقيدة أو نظام في هذه الأرض يكفل العدل المطلق للأعداء المشنوئين ، كما يكفله لهم هذا الدين حين ينادي المؤمنين به أن يقوموا للّه في هذا الأمر وأن يتعاملوا معه ، متجردين عن كل اعتبار.

وبهذه المقوّمات في هذا الدين كان الدين العالمي الإنساني الأخير الذي يتكفل نظامه للناس جميعا - معتنقيه وغير معتنقيه - أن يتمتعوا في ظله بالعدل وأن يكون هذا العدل فريضة على معتنقيه ، يتعاملون فيها مع ربهم ، مهما لاقوا من الناس من بغض وشنآن ..

وإنها لفريضة الأمة القوامة على البشرية : مهما يكن فيها من مشقة وجهاد.

ولقد قامت هذه الأمة بهذه القوامة وأدت تكاليفها هذه يوم استقامت على الإسلام. ولم تكن هذه في حياتها مجرد وصايا ، ولا مجرد مثل عليا ، ولكنها كانت واقعا من الواقع في حياتها اليومية ، واقعا لم تشهد البشرية مثله من قبل ولا من بعد ، ولم تعرفه في هذا المستوي إلا في الحقبة الإسلامية المنيرة .. والأمثلة التي وعاها التاريخ في هذا المجال كثيرة مستفيضة. تشهد كلها بأن هذه الوصايا والفرائض الربانية ، قد استحالت في حياة هذه الأمة منهجا في عالم الواقع يؤدى ببساطة ، ويتمثل في يوميات الأمة المألوفة .. إنها لم تكن مثلا عليا خيالية ، ولا نماذج كذلك فردية. إنما كانت طابع الحياة الذي لا يرى الناس أن هناك طريقا آخر سواه.

وحين نطل من هذه القمة السامقة على الجاهلية في كل أعصارها وكل ديارها - بما فيها جاهلية العصور الحديثة - ندرك المدى المتطاول بين منهج يصنعه اللّه للبشر ، ومناهج يصنعها الناس للناس. ونرى المسافة التي لا تعبر بين آثار هذه المناهج وآثار ذلك المنهج الفريد في الضمائر والحياة.

إن الناس قد يعرفون المبادئ ويهتفون بها .. ولكن هذا شي ء ، وتحقيقها في عالم الواقع شيء آخر ..

وهذه المبادئ التي يهتف بها الناس للناس طبيعي ، ألا تتحقق في عالم الواقع .. فليس المهم أن يدعى الناس إلى المبادئ ولكن المهم هو من يدعوهم إليها .. المهم هو الجهة التي تصدر منها الدعوة .. المهم هو سلطان هذه الدعوة على الضمائر والسرائر .. المهم هو المرجع الذي يرجع إليه الناس بحصيلة كدهم وكدحهم لتحقيق هذه المبادئ ..

وقيمة الدعوة الدينية إلى المبادئ التي تدعو إليها ، هو سلطان الدين المستمد من سلطان اللّه ، فما يقوله فلان وعلان علام يستند؟ وأي سلطان له على النفوس والضمائر؟ وماذا يملك للناس حين يعودون إليه بكدحهم وكدهم في تحقيق هذه المبادئ؟

يهتف ألف هاتف بالعدل. وبالتطهر. وبالتحرر. وبالتسامي. وبالسماحة. وبالحب. وبالتضحية. وبالإيثار ...

ولكن هتافهم لا يهز ضمائر الناس ولا يفرض نفسه على القلوب. لأنه دعاء ما أنزل اللّه به من سلطان! ليس المهم هو الكلام .. ولكن المهم من وراء هذا الكلام! ويسمع الناس الهتاف من ناس مثلهم بالمبادئ والمثل والشعارات – مجردة من سلطان اللّه – ولكن ما أثرها؟

إن فطرتهم تدرك أنها توجيهات من بشر مثلهم. تتسم بكل ما يتسم به البشر من جهل وعجز وهوى وقصور.

فتتلقاها فطرة الناس على هذا الأساس. فلا يكون لها على فطرتهم من سلطان! ولا يكون لها في كيانهم من هزة ، ولا يكون لها في حياتهم من أثر إلا أضعف الأثر! ثم إن قيمة هذه «الوصايا» في الدين ، أنها تتكامل مع «الإجراءات» لتكييف الحياة. فهو لا يلقيها مجردة في الهواء .. فأما حين يتحول الدين إلى مجرد وصايا وإلى مجرد شعائر فإن وصاياه لا تنفذ ولا تتحقق! كما نرى ذلك الآن في كل مكان ..

إنه لا بد من نظام للحياة كلها وفق منهج الدين وفي ظل هذا النظام ينفذ الدين وصاياه. ينفذها في أوضاع واقعية تتكامل فيها الوصايا والإجراءات! .. وهذا هو «الدين» في المفهوم الإسلامي دون سواه .. الدين الذي يتمثل في نظام يحكم كل جوانب الحياة.

وحين تحقق «الدين» بمفهومه هذا في حياة الجماعة المسلمة أطلت على البشرية كلها من تلك القمة السامقة والتي ما تزال سامقة على سفوح الجاهلية الحديثة كما كانت سامقة على سفوح الجاهلية العربية وغيرها على السواء .. وحين تحول «الدين» إلى وصايا على المنابر وإلى شعائر في المساجد وتخلى عن نظام الحياة ..

لم يعد لحقيقة الدين وجود في الحياة! ولا بد من جزاء للمؤمنين من اللّه ، الذي يتعاملون معه وحده يشجع ويقوي على النهوض بتكاليف القوامة وعلى الوفاء بالميثاق. ولا بد أن يختلف مصير الذين كفروا وكذبوا عن مصير الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند اللّه : «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ. لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَحِيمِ» ..

إنه الجزاء الذي يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا - وهم ينهضون بالتكاليف العليا - والذي تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها ولجاجها في هذه الأرض .. ثم هو العدل الإلهي الذي لا يسوي بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار! ولا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل وبذلك الجزاء. لتتعامل مع اللّه متجردة من كل النوازع المعوقة من ملابسات الحياة .. وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء اللّه وتتذوق حلاوة هذا الرضى كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق .. ولكن المنهج يتعامل مع الناس جميعا. مع الطبيعة البشرية. واللّه يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم. وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين! إن هذا وذلك يرضي هذه الطبيعة. يطمئنها على مصيرها وجزائها ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين! وبخاصة إذا كانت مأمورة بالعدل مع من تكره من هؤلاء! بعد أن تلقى منهم ما تلقى من الكيد والإيذاء .. والمنهج الرباني يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه اللّه من أمرها ويهتف لها بما تتفتح له مشاعرها ، وتستجيب له كينونتها .. ذلك فوق أن المغفرة والأجر

العظيم دليل رضى اللّه الكريم وفيهما مذاق الرضى فوق مذاق النعيم. " [٣١٢]

٢- الاستقامةُ على منهاج النبوة؛ صراط الله المستقيم:

وهي من أبرز خصائص "الوسطية" التي تتصف بها الطائفة المنصورة، كما قال تعالى: {لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} (٤٦) سورة النـــــور

وَلَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ لِلدَّلاَلَةِ عَلَى طَرِيقِ الحَقِّ والرَّشَادِ ، ولَكِنْ لاَ يَتَوصَّلُ إِلَى فَهْمِهَا إِلاَّ أُوتِي فَهْماً سَلِيماً وَبَصِيرَةً نَيِّرَةً ، وَاللهُ يُرْشِدُ مَنْ يَشاءُ إِلى الطَّرِيقِ القَويمِ الذي لاَ عِوَجَ فِيهِ ، طَرِيقِ الهُدَى والرَّشَادِ .[٣١٣]

وقال تعالى : {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللّهُ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} (١٤٣) سورة البقرة

كَانَ النَّاسُ ، قَبْلَ الإِسْلاَمِ ، فِئَتِينِ :

- فِئَةً مَادِّيَّةً لا هَمَّ لَهَا إِلاَّ تَحْقيقُ مَا يَتَطَلَّبُهُ الجَسَدُ وَلَذَائِذُهُ كَالُمْشْرِكينَ وَاليَهُودِ ، وَقَالُوا إِنْ هيَ إِلاَّ حَيَاتُنا الدُّنيا ، وَمَا يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهرُ .

وَفِئَةً طَغَتْ عَلَيها النَّزعَةُ الرُّوحَانِيَّةُ الخَالِصَةُ ، وَسَيْطَرَتْ عَلَيهَا فِكْرَةُ تَرْكِ الدُّنيا وَمَا فِيها مِنَ اللَّذائِذِ الجَسَدِيَّةِ كَالنَّصَارَى وَالصَابِئَةِ وَبَعْضِ طَوَائِفِ الهُنُودِ .

فَجَاءَ الإِسلامُ لِيَجْعَلَ المُسْلِمِينَ وَسَطاً بَيْنَ هؤلاءِ وَهؤُلاءِ ، فَقَالَ بتَحقيقِ مَطَالِبِ الجَسَدِ بلا إِسْرافٍ وَلاَ مُبَالَغَةٍ ، مَعَ المُحَافَظَةِ عَلَى السُمُوِّ الرُّوحِيِّ ، لأَنَّ الإِنسَانَ جَسَدٌ وَرُوحٌ .

وَقَدْ جَعَلَ اللهُ المُسْلِمِينَ أُمَّةً وَسَطاً لَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى المَادِيِّينَ الذِينَ فَرَّطُوا في جَنْبِ اللهِ ، وَأخلَدُوا إلى اللَّذاتِ ، وَصَرَفُوا أنفُسَهُمْ عَنْ قَضَايَا الرُّوحِ ، وَشُهَداءَ عَلَى الغُلاةِ فِي

---

[٣١٢] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٨٥٢)

[٣١٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢٧١٩)

الرُّوحَانيَّةِ الذِينَ قَالُوا بتَخَلِّي الإنسَانِ عَن اللَّذاتِ الجَسَدِيَّةِ ، وَبحِرْمَانِ النَّفْسِ مِنْ جَميعِ مَا أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ فِي هذهِ الحَيَاةِ الدُّنيا .

وَلِيَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ ، وَهُوَ القُدوَةُ والمَثَلُ الأَعلَى لِلمُؤْمِنينَ باللهِ ، شَهيداً عَلَى المُسلِمِينَ إن كَانُوا اتَّبعُوا سِيرَتَهُ وَشَرْعَهُ ، اوِ انحَرَفُوا وَحَادُوا عَنِ الاعتِدالِ .[314]

فهم أمة وسط لالتزامهم صراط الله المستقيم.

وقال تعالى في سورة الفاتحة:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ الفاتحة:٧ .

وفقنا إلى معرفة الطريق المستقيم الواصل ووفقنا للاستقامة عليه بعد معرفته .. فالمعرفة والاستقامة كلتاهما ثمرة لهداية اللّه ورعايته ورحمته. والتوجه إلى اللّه في هذا الأمر هو ثمرة الاعتقاد بأنه وحده المعين. وهذا الأمر هو أعظم وأول ما يطلب المؤمن من ربه العون فيه. فالهداية إلى الطريق المستقيم هي ضمان السعادة في الدنيا والآخرة عن يقين .. وهي في حقيقتها هداية فطرة الإنسان إلى ناموس اللّه الذي ينسق بين حركة الإنسان وحركة الوجود كله في الاتجاه إلى اللّه رب العالمين.

ويكشف عن طبيعة هذا الصراط المستقيم : «صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ» ..فهو طريق الذين قسم لهم نعمته. لا طريق الذين غضب عليهم لمعرفتهم الحق ثم حيدتهم عنه. أو الذين ضلوا عن الحق فلم يهتدوا أصلا إليه .. إنه صراط السعداء المهتدين الواصلين ..[315]

فهو صراطٌ بين صراطين، صراط المغضوب عليهم؛ وهم اليهود الذين فرطوا بحق الله تعالى وحقوق الأنبياء عليهم، وصراط الضالين؛ وهم النصارى الذين غالوا بالترهب وفي قولهم في عيسى عليه السلام بغير حق.

---

[314] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٥٠)

[315] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٦)

قال الطبري في التفسير:" إنما وصفهم بأنهم"وسَط"، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه – ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها "[316].

وقال تعالى: { فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْاْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (١١٢) سورة هود

فالاستقامة : الاعتدال والمضي على النهج دون انحراف. وهو في حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحري الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التي تميل الاتجاه قليلا أو كثيرا .. ومن ثم فهي شغل دائم في كل حركة من حركات الحياة.

وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهي الذي أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهيا عن القصور والتقصير ، إنما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة .. وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه في الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهي إلى الغلو والمبالغة التي تحول هذا الدين من يسر إلى عسر. واللّه يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو ، فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير. وهي التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء ..

«إِنَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» ..والبصر – من البصيرة – مناسب في هذا الموضع ، الذي تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير ..فاستقم – أيها الرسول – كما أمرت. ومن تاب معك ... [317]

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (٣٠) سورة فصلت ٣٠.

---

[316] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة – (٣ / ١٤٢)

[317] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٤ / ١٩٣١)

إنَّ الذِينَ آمَنُوا باللهِ ، وَأَخْلَصُوا لَهُ العِبَادَةَ ، وَثَبَتُوا عَلَى الإِيمَانِ (اسْتَقَامُوا) تَتَنَزَّلُ المَلاَئِكَةُ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالبُشْرَى التِي يُرِيدُونَهَا ، وَبِأَنَّهُمْ لاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ مِمّا يَقْدِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الآخِرَةِ ، وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ عَلَى مَا خَلَّفُوهُ فِي الدُّنْيَا مِنْ مَالٍ وَزَوْجٍ وَوَلَدٍ ، وَيُبَشِّرُونَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ التِي وَعَدَهُمْ اللهُ بِهَا عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ .[318]

وقال تعالى: { قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ} (٦) سورة فصلت

قُلْ يَا مُحَمَّدُ لِهَؤُلاَءِ المُكَذِّبِينَ مِنْ قَوْمِكَ : وَلَسْتُ مَلَكاً ، وَقَدْ اخْتَارَنِي اللهُ تَعَالَى لِيُوحِيَ إِلَيَّ رِسَالَتَهُ إِلَيكُمْ وَهُوَ يُوحِي إِلَيَّ أَنَمَا إِلهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ لا إِله إِلاَّ هُوَ ، وَهُوَ الخَالِقُ الرَّازِقُ المُدَبِّرُ ، وَأَنَّ الأَصْنَامَ والأَوْثَانَ والحِجَارَةَ التِي تَعْبُدُونَهَا لاَ تَمْلِكُ لِنَفْسِهَا وَلاَ لِعَابدِيهَا ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً . فَآمِنُوا بِاللهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ عَمَّا سَلَفَ مِنْكُمْ مِنْ ذُنُوبٍ وَمَعَاصٍ ، وَأَخْلِصُوا لَهُ العِبَادَةَ كَمَا أَمَرَكُمْ . والوَيْلُ وَالهَلاَكُ والخَسَارُ لِمَنْ أَشْرَكَ مَعَ رَبِّهِ فِي العِبَادَةِ سِوَاهُ .[319]

وقال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١٥٣) سورة الأنعام

دَلَّ اللهُ تَعَالَى العِبَادَ عَلَى الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ المُوصِلِ إِلَيْهِ تَعَالَى ، وَدَعَاهُمْ إِلى اتِّبَاعِهِ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً لاَ عِوَجَ فِيهِ ، فَعَلَيْكُمْ أَنْ تَتَّبِعُوهُ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الهِدَايَةَ ، وَالفَوْزَ بِرِضَا رَبِّكُمْ وَرِضْوَانِهِ . وعَنْ عَبْدِ اللهِ ، قَالَ : خَطَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، خَطًّا بِيَدِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَذَا سَبِيلُ اللهِ مُسْتَقِيمًا ، قَالَ : ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ ، وَشِمَالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : هَذِهِ السُّبُلُ ، لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلاَّ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ : {وَإِنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ}.[320]

---

[318] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٤١٢٧)

[319] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٤١٠٣)

[320] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٤٤٣٧)(٢١٠- صحيح

وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ : ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا ، وَلاَ تَتَعَرَّجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ ، قَالَ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، وَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ الله ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ : مَحَارِمُ الله ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ الله ، وَالدَّاعِي مِن فَوْقَ الصِّرَاطِ : وَاعِظُ الله فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ."[٣٢١]

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ ، فَقَالَ : هَذَا سَبِيلُ الله ، وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ ، وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ : هَذِهِ سَبِيلُ الشَّيْطَانِ ، ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الأَوْسَطِ ، ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ : {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ، فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ ، وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}.[٣٢٢]

فَاتَّبِعُوا سَبِيلَ الله يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ،لأَنَّهُ سَبِيلٌ وَاضِحٌ وَاحِدٌ،وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ الْمُتَفَرِّقَةَ الْمُضِلَّةَ،حَتَّى لا تَتَفَرَّقُوا شِيَعاً وَأَحْزَاباً ،وَتَبْعُدُوا عَنْ صِرَاطِ الله السَّوِيِّ .[٣٢٣]

وفي معنى الاستقامة،قال الزهري: تلا عمر هذه الآية على المنبر، ثم قال: استقاموا -والله- لله بطاعته، و لم يروغوا روغان الثعالب..[٣٢٤]

وقال ابن تيميه: " فَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْقَلْبِ إلَى اللَّهِ دُونَ مَا سِوَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : { فَاسْتَقِيمُوا إلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ } وَقَالَ تَعَالَى : { إنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا } قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : فَلَمْ يَلْتَفِتُوا عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً . فَلَمْ يَلْتَفِتُوا بِقُلُوبِهِمْ إلَى مَا سِوَاهُ لَا بِالْحُبِّ وَلَا بِالْخَوْفِ وَلَا بِالرَّجَاءِ ؛ وَلَا بِالسُّؤَالِ ؛ وَلَا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ

---

[٣٢١] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٦ / ٥٩)(١٧٦٣٤) ١٧٧٨٤- صحيح

[٣٢٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٥ / ٢٧٠)(١٥٢٧٧) ١٥٣٥١- صحيح لغيره

[٣٢٣] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٩٤٣)

[٣٢٤] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٧ / ١٧٦)

؛ بَلْ لَا يُحِبُّونَ إلَّا اللَّهَ وَلَا يُحِبُّونَ مَعَهُ أَنْدَادًا وَلَا يُحِبُّونَ إلَّا إيَّاهُ ؛ لَا لِطَلَبِ مَنْفَعَةٍ وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ وَلَا يَخَافُونَ غَيْرَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَلَا يَسْأَلُونَ غَيْرَهُ وَلَا يَتَشَرَّفُونَ "[٣٢٥]

قال ابن القيم: " فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق والوفاء بالعهد والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات فالاستقامة فيها: وقوعها لله وبالله وعلى أمر الله قال بعض العارفين: كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة وربك يطالبك بالاستقامة، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة" [٣٢٦].

وفي معنى "الصراط المستقيم" قال الطبري في قوله تعالى:﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾: قال أبو جعفر: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن "الصراط المستقيم"، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه.[٣٢٧]

وقال ابن كثير في التفسير:" اِخْتَلَفَتْ عِبَارَات الْمُفَسِّرِينَ مِنْ السَّلَف وَالْخَلَف فِي تَفْسِير الصِّرَاط وَإِنْ كَانَ يَرْجِع حَاصِلهَا إِلَى شَيْء وَاحِد وَهُوَ الْمُتَابَعَة لِلَّهِ وَلِلرَّسُول"[٣٢٨]

وقد تقدم أن الطائفة الناجية المنصورة هم أولى الناس استقامة واتباعاً لله ولرسوله ﷺ .

٣- التيسيرُ .. واجتنابُ الغلوِّ والتشدد في الدين:

فالتيسير في الدين .. واجتناب التشدد والغلو يُعدُّ من أبرز خصـــال ومدلولات الوسطية، تنتفي الوسطيةُ بانتفائها، وتوجد بوجودها.

حيث أن النبي ﷺ قد نهى عن الغلو والتشدد في الدين، وعد ذلك من خصال من لا خلاق لهم، كالخوارج الغلاة وغيرهم، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ :

---

[٣٢٥] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٨ / ٣٢)

[٣٢٦] - مدارج السالكين - (٢ / ١٠٥)

[٣٢٧] - تفسير الطبري - (١ / ١٧٠)

[٣٢٨]- تفسير ابن كثير - (١ / ١٣٧)

اُلْقُطْ لِي حَصًى ، قَالَ : فَلَقَطْتُ لَهُ حَصَيَاتٍ ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ ، قَالَ : فَقَالَ : بِمِثْلِ هَذَا فَارْمُوا : ثُمَّ قَالَ : إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ."[329] .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ « الْقُطْ لِى حَصًى ». فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِى كَفِّهِ وَيَقُولُ « أَمْثَالَ هَؤُلاَءِ فَارْمُوا ».ثُمَّ قَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِى الدِّينِ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِى الدِّينِ ».[330]

والغلوُّ هو كلُّ ما زاد عن المشروع.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لَنْ تَنَالَهُمَا شَفَاعَتِي: إِمَامٌ ظَلُومٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ".[331]

وعَنْ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي لا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وغَالٍ فِي الدِّينِ يَشْهَدُ عَلَيْهِمْ فَيَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ"

وفي رواية عَنْ مَعْقِلِ بن يَسَارٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :"رَجُلانِ مِنْ أُمَّتِي لا يَنَالُهُمَا شَفَاعَتِي: سُلْطَانٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَآخَرُ غَالٍ فِي الدِّينِ مَارِقٌ مِنْهُ"[332].

وعَنْ بُرَيْدَةَ، قَالَ: خَرَجْتُ يَوْمًا أَمْشِي فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَظَنَنْتُهُ يُرِيدُ حَاجَةً فَعَارَضْتُهُ، حَتَّى رَآنِي فَأَرْسَلَ إِلَيَّ فَأَتَيْتُهُ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي جَمِيعًا، فَإِذَا رَجُلٌ بَيْنَ أَيْدِينَا يُصَلِّي يُكْثِرُ الرُّكُوعَ وَالسُّجُودَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " تَرَاهُ مُرَائِيًا ؟ "، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَأَرْسَلَ يَدِي، فَقَالَ: " عَلَيْكُمْ هَدْيًا قَاصِدًا فَإِنَّهُ مَنْ يُشَادَّ هَذَا الدِّينَ يَغْلِبَهُ "[333]

---

[329] - مصنف ابن أبي شيبة - (٣ / ٦٦٥) (١٤٠٩٧) صحيح

[330] - سنن ابن ماجه - (٣١٤٤) صحيح

[331] - المعجم الكبير للطبراني - (٧ / ٣٢٧) (٨٠٠٥) حسن

[332] - المعجم الكبير للطبراني - (١٥ / ١٤٥)(١٦٨٨٩ - ١٦٨٩٠) حسن

[333] -شعب الإيمان - (٥ / ٣٩٣)(٣٦٠٠) صحيح

والهدي القاصد هو الهدي الوسط حيث لا إفراط ولا تفريط.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : لاَ يُنْجِي أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ قَالُوا : وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : وَلاَ أَنَا إِلاَّ أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ مِنْهُ بِرَحْمَةٍ ، فَسَدِّدُوا ، وَقَارِبُوا ، وَاغْدُوا ، وَرُوحُوا ، وَشَيْءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ ، وَ الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا[٣٣٤].

أي التزموا التوسط والاعتدال من غير جنوح إلى غلو أو جفاء .. تصلوا إلى النجاة وتفوزوا بالجنان والرضوان.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ ». قَالَهَا ثَلاَثًا." مسلم[٣٣٥].

قال النووي رحمه الله: أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم [٣٣٦].

وعن حُمَيْدَ الطَّوِيلِ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يَقُولُ : جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا ، فَقَالُوا : وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ ، قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ الآخَرُ : أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ ، وَقَالَ الآخَرُ : أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ ، فقَالَ : أَنْتُمُ الَّذِي قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي.".[٣٣٧]

وهذا حديث تتجلّى فيه جميع معاني ومدلولات الوسطية.

وقال ﷺ في الخوارج الغلاة، الذين يكفرون المسلمين بالذنوب والمعاصي التي هي دون الكفر، وبالشبهات والظن: فعَنْ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ ، قَالَ : لَمَّا خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ بِالنَّهْرَوَانِ ، قَامَ عَلِيٌّ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ قَدْ خُلِّفُوا فِي كَذَا وَالْمَالِ ،

---

[٣٣٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٣ / ٧٥٣)(١٠٦٧٧) ١٠٦٨٨- صحيح

[٣٣٥] - صحيح مسلم- المكتر - (٦٩٥٥)

[٣٣٦]- شرح صحيح مسلم:١٦/٢٢٠.

[٣٣٧] - صحيح ابن حبان - (٢ / ٢٠) (٣١٧) وصحيح البخارى- المكتر - (٥٠٦٣)

وَإِنِّي مُخْرِجٌ النَّاسَ ، وَهُمْ أَدْنَى الْعَدُوِّ إِلَيْكُمْ ، فَكَيْفَ تَسِيرُونَ إِلَى عَدُوِّكُمْ ، وَأَنَا أَخَافُ أَنْ يَخْلُفَكُمْ هَؤُلَاءِ بِأَعْقَابِكُمْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : " يَخْرُجُ خَارِجَةٌ مِنْ أُمَّتِي ، لَيْسَ صَلَوَاتُكُمْ إِلَى صَلَوَاتِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ ، وَلَا قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلًا لَهُ عَضُدٌ لَيْسَ لَهَا ذِرَاعٌ ، عَلَيْهَا مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ عَلَيْهَا شَعَرَاتٌ بِيضٌ " ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِي يَسِيرُونَ إِلَيْهِمْ مَا قَضَى اللَّهُ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ ، مَا نَكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ ، فَسِيرُوا عَلَى اسْمِ اللَّهِ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ . قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ زَيْدُ بْنُ وَهْبٍ : فَيُسَيِّرُنَا مَنْزِلًا مَنْزِلًا ، حَتَّى قَالَ : أَحَدُنَا عَلَى قَنْطَرَةِ الدَّارَيْنِ . فَلَمَّا الْتَقَيْنَا قَامَ فِيهِمْ أَمِيرُهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ الرَّاسِبِيُّ ، فَقَالَ : أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ ، أَلَا لَمَا أَلْقَيْتُمْ سِلَاحَكُمْ ، وَانْتَزَعْتُمُ السُّيُوفَ مِنْ جُفُونِهَا ، ثُمَّ حَمَلْتُمْ حَمَلَةً وَاحِدَةً . قَالَ : فَشَجَرَهُمُ النَّاسُ بِرِمَاحِهِمْ ، فَقُتِلُوا وَبَعْضُهُمْ قَرِيبٌ مِنْ بَعْضٍ ، مَا أُصِيبَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ ، وَقَدْ كَانَتْ فِيهِمْ جِرَاحٌ . فَقَالَ عَلِيٌّ : الْتَمِسُوا هَذَا الرَّجُلَ . فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ . فَقَامَ عَلِيٌّ وَإِنَّا لَنَرَى عَلَى وَجْهِهِ كَآبَةً ، حَتَّى أَتَى عَلَى كَتِيبَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ رَكِبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَأَمَرَ بِهِمْ ، فَفُرِّجُوا يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَوَجَدُوهُ مِمَّا يَلِي الْأَرْضَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ، صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَقَامَ إِلَيْهِ عُبَيْدَةُ السَّلْمَانِيُّ فَقَالَ : آللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَأَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَ : إِي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَأَنَا سَمِعْتُ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، يَقُولُ ذَلِكَ ثَلَاثًا ، كُلُّ ذَلِكَ يَحْلِفُ "[٣٣٨]

وعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِىِّ قَالَ بَعَثَ عَلِىٌّ وَهْوَ بِالْيَمَنِ إِلَى النَّبِىِّ – ﷺ – بِذُهَيْبَةٍ فِى تُرْبَتِهَا ، فَقَسَمَهَا بَيْنَ الأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ الْحَنْظَلِىِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِى مُجَاشِعٍ ، وَبَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ

---

[٣٣٨] – السنة لابن أبي عاصم – (٧٦٥) حسن

– التَّراقِي : جمع تَرْقُوَة : وهي عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق وهما ترقوتان –يمرقون : يجوزون ويخرقون ويخرجون –مرق السهم من الرمية : اخترقها وخرج من الجانب الآخر في سرعة – الرمية : الهدف الذي يرمى –العضد : ما بين المرفق والكتف –نكل : تأخر وامتنع –الجفن : غمد السيف – التمس الشيء : طلبه –الكتيبة : القِطْعة العَظيمة من الجَيْش

الْفَزَارِىِّ ، وَبَيْنَ عَلْقَمَةَ بْنِ عُلاَثَةَ الْعَامِرِىِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِى كِلاَبٍ ، وَبَيْنَ زَيْدِ الْخَيْلِ الطَّائِىِّ ثُمَّ أَحَدِ بَنِى نَبْهَانَ ، فَتَغَضَّبَتْ قُرَيْشٌ وَالأَنْصَارُ فَقَالُوا يُعْطِيهِ صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ وَيَدَعُنَا قَالَ « إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ » . فَأَقْبَلَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ ، نَاتِئُ الْجَبِينِ ، كَثُّ اللِّحْيَةِ ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ . فَقَالَ النَّبِىُّ – ﷺ – « فَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ فَيَأْمَنُنِى عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَلاَ تَأْمَنُونِى » . فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ – قَتْلَهُ أُرَاهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ – فَمَنَعَهُ النَّبِىُّ – ﷺ – فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِىُّ – ﷺ – « إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلاَمِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يَقْتُلُونَ أَهْلَ الإِسْلاَمِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الأَوْثَانِ ، لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ » . متفق عليه[٣٣٩].

قلت: فهم يقتلون أهل الإسلام لَمّا غالوا في تكفيرهم بغير حق، الذي من لوازمه استباحة حرماتهم وقتلهم، وعَنْ أَبِى قِلاَبَةَ أَنَّ ثَابِتَ بْنَ الضَّحَّاكِ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « مَنْ حَلَفَ عَلَى مِلَّةٍ غَيْرِ الإِسْلاَمِ فَهْوَ كَمَا قَالَ ، وَلَيْسَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَذْرٌ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشَىْءٍ فِى الدُّنْيَا عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ لَعَنَ مُؤْمِنًا فَهْوَ كَقَتْلِهِ ، وَمَنْ قَذَفَ مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهْوَ كَقَتْلِهِ »[٣٤٠] .

وعَنْ مِقْسَمٍ أَبِي الْقَاسِمِ ، مَوْلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ ، قَالَ : خَرَجْتُ أَنَا وَتَلِيدُ بْنُ كِلاَبٍ اللَّيْثِيُّ ، حَتَّى أَتَيْنَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي ، وَهُوَ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ ، مُعَلِّقًا نَعْلَيْهِ بِيَدِهِ ، فَقُلْنَا لَهُ : هَلْ حَضَرْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ يُكَلِّمُهُ التَّمِيمِيُّ يَوْمَ حُنَيْنٍ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ ، يُقَالُ لَهُ : ذُو الْخُوَيْصِرَةِ ، فَوَقَفَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ، وَهُوَ يُعْطِي النَّاسَ ، قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، قَدْ رَأَيْتَ مَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْيَوْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَجَلْ ، فَكَيْفَ رَأَيْتَ ؟ قَالَ : لَمْ أَرَكَ عَدَلْتَ قَالَ : فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ

---

[٣٣٩] – صحيح البخارى– المكنز – (٧٤٣٢) وصحيح مسلم– المكنز – (٢٤٩٩)

المُشرف : مرتفع الوجنتين –الصناديد : جمع صنديد وهو كل عظيم شريف رئيس متغلب –الضئضئ : النسل –الكث : الكثيف –الناتئ : المرتفع

[٣٤٠] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٠٤٧) و صحيح مسلم– المكنز – (٣١٦)

: وَيْحَكَ ، إِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَدْلُ عِنْدِي ، فَعِنْدَ مَنْ يَكُونُ ؟ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلاَ نَقْتُلُهُ ؟ قَالَ : لاَ ، دَعُوهُ ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شِيعَةٌ يَتَعَمَّقُونَ فِي الدِّينِ ، حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهُ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، يُنْظَرُ فِي النَّصْلِ ، فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ ، ثُمَّ فِي الْقِدْحِ ، فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ ، ثُمَّ فِي الْفُوقِ فَلاَ يُوجَدُ شَيْءٌ ، سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ "[٣٤١] .

وعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّ فِيكُمْ قَوْمًا يَتَعَبَّدُونَ حَتَّى يُعْجِبُوا النَّاسَ وَتُعْجِبَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّة "[٣٤٢] .

وعَنْ أَبِي بَكَرَةَ ،، أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ مَرَّ بِرَجُلٍ سَاجِدٍ وَهُوَ يَنْطَلِقُ إِلَى الصَّلاَةِ ، فَقَضَى الصَّلاَةَ وَرَجَعَ عَلَيْهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَقَالَ : مَنْ يَق[٣٤٣]تُلُ هَذَا ؟ فَقَامَ رَجُلٌ ، فَحَسَرَ عَنْ يَدَيْهِ ، فَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، كَيْفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِدًا يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ؟ ثُمَّ قَالَ : مَنْ يَقْتُلُ هَذَا ؟ فَقَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ : أَنَا ، فَحَسَرَ عَنْ ذِرَاعَيْهِ وَاخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَهَزَّهُ ، حَتَّى أَرْعَدَتْ يَدُهُ ، فَقَالَ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، كَيْفَ أَقْتُلُ رَجُلاً سَاجِدًا ، يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ قَتَلْتُمُوهُ لَكَانَ أَوَّلَ فِتْنَةٍ وَآخِرَهَا."

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي مَرَرْتُ بِوَادِي كَذَا وَكَذَا ، فَإِذَا رَجُلٌ مُتَخَشِّعٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ يُصَلِّي ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : اذْهَبْ إِلَيْهِ فَاقْتُلْهُ قَالَ : فَذَهَبَ إِلَيْهِ أَبُو بَكْرٍ فَلَمَّا رَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ كَرِهَ أَنْ يَقْتُلَهُ ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعُمَرَ : اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ ، فَذَهَبَ عُمَرُ فَرَآهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي رَآهُ أَبُو بَكْرٍ ، قَالَ : فَكَرِهَ أَنْ يَقْتُلَهُ ، قَالَ : فَرَجَعَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي رَأَيْتُهُ يُصَلِّي مُتَخَشِّعًا ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْتُلَهُ ، قَالَ : يَا عَلِيُّ اذْهَبْ فَاقْتُلْهُ ، قَالَ : فَذَهَبَ عَلِيٌّ فَلَمْ يَرَهُ ، فَرَجَعَ عَلِيٌّ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّهُ لَمْ يُرَهْ ، قَالَ : فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ

---

[٣٤١] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٢ / ٧١٢)(٧٠٣٨– صحيح

[٣٤٢] – مسند أبي يعلى الموصلي(٤٠٦٦) صحيح

[٣٤٣] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٦ / ٨٣١) (٢٠٤٣١) ٢٠٧٠٣– صحيح

: إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ ، لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ، ثُمَّ لاَ يَعُودُونَ فِيهِ حَتَّى يَعُودَ السَّهْمُ فِي فُوقِهِ ، فَاقْتُلُوهُمْ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ."[٣٤٤]

فتأمل كيف خسروا دنياهم وآخرتهم بسبب غلوهم وتشددهم في الدين.

ومن الأدلة على استحباب التيسير ـــ بل على وجوبه ـــ ورفع الحرج عن العباد في الدين، قوله تعالى: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ} (٧٨) سورة الحـــج ٧٨.

وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته. ملحوظ فيه تلبيته تلك الفطرة. وإطلاق هذه الطاقة ، والاتجاه بها إلى البناء والاستعلاء. فلا تبقى حبيسة كالبخار المكتوم. ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم![٣٤٥]

وقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاء أَحَدٌ مَّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُواْ مَاء فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٦) سورة المائدة .

ذلك أن اللّه - سبحانه - لا يريد أن يعنت الناس ، ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف. إنما يريد أن يطهرهم ، وأن ينعم عليهم بهذه الطهارة وأن يقودهم إلى الشكر على النعمة ، ليضاعفها لهم ويزيدهم منها ..فهو الرفق والفضل والواقعية في هذا المنهج اليسير القويم.[٣٤٦]

---

[٣٤٤] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٤ / ٤٣) (١١١١٨) ١١١٣٥- حسن

[٣٤٥] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٤٤٦)

[٣٤٦] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٨٥٠)

وقوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون} (٦١) سورة النـــــور.

وقوله تعالى: {إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (١٧٣) سورة البقرة. وقوله تعالى: {وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ} (١١٩) سورة الأنعام.

وقوله تعالى: {لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} (٢٨٦) سورة البقرة.

وقوله تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (١٨٥) سورة البقرة ١٨٥.

وقوله تعالى:﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (٨) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (٩) [الأعلى : ٨ - ٩] ﴾.

وَيُوفِّقُكَ رَبُّكَ إِلَى الطَّرِيقَةِ البَالِغَةِ اليُسْرِ ، وَيَشْرَعُ لَكَ شَرْعاً سَمْحاً يسْهُلُ عَلَى النُّفُوسِ قَبُولُهُ ، وَعَلَى العُقُولِ فَهْمُهُ [٣٤٧].

---

[٣٤٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٨٣٣)

وقوله تعالى:" فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)" [الشرح : ٥ ، ٦]
إنَّ مَعَ الضِّيقِ فَرَجاً ، وَمَعَ الشِّدَّةِ مَخْرَجاً إِذَا تَدَرَّعَ الإِنْسَانُ بِالصَّبْرِ ، وَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ . ثُمَّ أَكَّدَ تَعَالَى عَلَى أَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً إِذَا قَابَلَهُ الإِنْسَانُ بِالصَّبْرِ ، وَأَخَذَ بِالأَسْبَابِ لِتَفْرِيجِهِ .

وغيرها كثير من الآيات التي تحضُّ على التيسير وتجنب التعسير والتشدد في الدين!
وفي السنَّة عَنْ مِحْجَنِ بن الأَدْرَعِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى حَاجزٍ يَمِينَ الْمَدِينَةِ فِي حَاجَةٍ، فَلَمَّا رَجَعْتُ ذَهَبْتُ مَعَهُ حَتَّى صَعِدَ أُحُدًا فَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ، فَقَالَ:وَيْلٌ أُمِّكَ قَرْيَةً، يَدَعُكِ أَهْلُكِ وَأَنْتِ خَيْرُ مَا يَكُونُ، ثُمَّ نَزَلَ وَنَزَلْتُ مَعَهُ حَتَّى أَتَيْنَا بَابَ الْمَسْجِدِ، فَرَأَى رَجُلا يُصَلِّي فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَنْكِبِي فَأَنَارَهُ بِضَوْئِهِ، فَقَالَ:أَيَقُولُهُ صَادِقًا؟، قَالَهَا ثَلاثًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا وَهَذَا أَعْبُدُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :اتَّقِ، لا تُسْمِعْهُ فَتُهْلِكَهُقَالَهَا ثَلاثًا. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَضِيَ لِهَذِهِ الأُمَّةِ الْيُسْرَ، وَكَرِهَ لَهَا الْعُسْرَقَالَهَا ثَلاثًا."[٣٤٨]
وعَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا ، وَبَشِّرُوا وَلاَ تُنَفِّرُوا »[٣٤٩] .
وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ – فَوَجَدَ النَّاسَ جُلُوسًا بِبَابِهِ لَمْ يُؤْذَنْ لأَحَدٍ مِنْهُمْ – قَالَ – فَأُذِنَ لأَبِى بَكْرٍ فَدَخَلَ ثُمَّ أَقْبَلَ عُمَرُ فَاسْتَأْذَنَ فَأُذِنَ لَهُ فَوَجَدَ النَّبِىَّ –ﷺ – جَالِسًا حَوْلَهُ نِسَاؤُهُ وَاجِمًا سَاكِتًا – قَالَ – فَقَالَ لأَقُولَنَّ شَيْئًا أُضْحِكُ النَّبِىَّ –ﷺ – فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلَتْنِى النَّفَقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَأْتُ عُنُقَهَا.فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ – وَقَالَ « هُنَّ حَوْلِى كَمَا تَرَى يَسْأَلْنَنِى النَّفَقَةَ ». فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا فَقَامَ عُمَرُ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عُنُقَهَا كِلاَهُمَا يَقُولُ تَسْأَلْنَ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ – مَا لَيْسَ عِنْدَهُ. فَقُلْنَ وَاللَّهِ لاَ نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ –ﷺ – شَيْئًا أَبَدًا لَيْسَ عِنْدَهُ ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الآيَةُ (يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لأَزْوَاجِكَ) حَتَّى بَلَغَ (لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا) قَالَ فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ فَقَالَ « يَا عَائِشَةُ

[٣٤٨] – المعجم الكبير للطبراني – (١٥ / ٢٣٢)(١٧٠٩١و١٧٠٩٢) صحيح
[٣٤٩] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٩)

إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أُحِبُّ أَنْ لاَ تَعْجَلِى فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِى أَبَوَيْكِ ». قَالَتْ وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَتَلاَ عَلَيْهَا الآيَةَ قَالَتْ أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَىَّ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ لاَ تُخْبِرَ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِى قُلْتُ.قَالَ « لاَ تَسْأَلُنِى امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ إِلاَّ أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَبْعَثْنِى مُعَنِّتًا وَلاَ مُتَعَنِّتًا وَلَكِنْ بَعَثَنِى مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا ». مسلم[٣٥٠].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ – ﷺ – قَالَ « إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَىْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ »البخاري[٣٥١].

وعَنْ رَجَاءِ بْنِ أَبِي رَجَاءِ قَالَ : كَانَ بُرَيْدَةُ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، فَمَرَّ مِحْجَنٌ عَلَيْهِ وَسُكْبَةُ يُصَلِّي ، فَقَالَ بُرَيْدَةُ ، وَكَانَ فِيهِ مُرَاحٌ ، لِمِحْجَنٍ : أَلاَ تُصَلِّي كَمَا يُصَلِّي هَذَا ؟ فَقَالَ مِحْجَنٌ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَخَذَ بِيَدِي ، فَصَعِدَ عَلَى أُحُدٍ ، فَأَشْرَفَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ : وَيْلُ أُمِّهَا قَرْيَةً يَدَعُهَا أَهْلُهَا خَيْرَ مَا تَكُونُ ، أَوْ كَأَخْيَرِ مَا تَكُونُ ، فَيَأْتِيهَا الدَّجَّالُ ، فَيَجِدُ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهَا مَلَكًا مُصْلِتًا بِجَنَاحِهِ فَلاَ يَدْخُلُهَا ، قَالَ : ثُمَّ نَزَلَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِي ، فَدَخَلَ الْمَسْجِدَ ، وَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يُصَلِّي ، فَقَالَ لِي : مَنْ هَذَا ؟ فَأَثْنَيْتُ عَلَيْهِ خَيْرًا فَقَالَ : اسْكُتْ لاَ تُسْمِعْهُ فَتُهْلِكَهُ قَالَ : ثُمَّ أَتَى حُجْرَةَ امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ ، فَنَفَضَ يَدَهُ مِنْ يَدِي ، قَالَ : إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ ، إِنَّ خَيْرَ دِينِكُمْ أَيْسَرُهُ." [٣٥٢]

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ – رضى الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – قَالَ « لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ » [٣٥٣]

---

[٣٥٠] – صحيح مسلم– المكنز – (٣٧٦٣) – وجأت : طعنت –الواجم : من اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام

[٣٥١] – صحيح البخارى– المكنز – (٣٩)

الحنتم : جرار مدهونة خضر تسرع الشدة فيها لأجل دهنها –الدباء : القرع كانوا ينتبذون فيه –الدلجة : السير بالليل –المزفت : الإناء المطلى بالزفت –المقير : ما طلى بالقار وهو نبت يحرق إذا يبس تطلى به السفن وغيرها –النقير : أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينتبذ فيه

[٣٥٢] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٦ / ٤٤٨)(١٨٩٧٦) ١٩١٨٥– صحيح

[٣٥٣] – صحيح البخارى– المكنز – (٧٢٤٠)

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِى قَتَادَةَ الأَنْصَارِىِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « إِنِّى لأَقُومُ إِلَى الصَّلاَةِ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا ، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِىِّ ، فَأَتَجَوَّزُ فِى صَلاَتِى كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ » . البخاري[٣٥٤].

وعَنْ أَبِى مَسْعُودٍ الأَنْصَارِىِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَقَالَ إِنِّى لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا. فَمَا رَأَيْتُ النَّبِىَّ -ﷺ- غَضِبَ فِى مَوْعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَوْمَئِذٍ فَقَالَ « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ فَإِنَّ مِنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ ». متفق عليه[٣٥٥].

وعَنْ أَبِي قِلَابَةَ ، قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ : " إِيَّاكُمْ وَالتَّبَدُّعَ وَالتَّنَطُّعَ وَالتَّعَمُّقَ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعَتِيقِ "[٣٥٦]

وعَنْ أَنَسٍ قَالَ كُنَّا عِنْدَ عُمَرَ فَقَالَ نُهِينَا عَنِ التَّكَلُّفِ[٣٥٧] .

وعَنْ نَافِعٍ قَالَ : سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ عَنِ الْجُبْنِ الَّذِي يَصْنَعُهُ الْمَجُوسُ ؟ فَقَالَ : " مَا وَجَدْتُهُ فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ اشْتَرَيْتُهُ ، وَلَمْ أَسْأَلْ عَنْهُ " ، قَالَ أَيُّوبُ : قَالَ نَافِعٌ : " وَلَوْ رَأَى ابْنُ عُمَرَ مِنَ الْمَجُوسِ مَا رَأَيْتُ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَكْرَهُهُ ، وَكَانَ نَافِعٌ قَدْ أَتَى بَعْضَ أَرْضِ فَارِسٍ "[٣٥٨]

وعَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : سَأَلْتُ الزُّهْرِيَّ عَنِ الْجُبْنِ ؟ فَقَالَ : " مَا وَجَدْتُ فِي سُوقِ الْمُسْلِمِينَ اشْتَرَيْتُ ، وَلَمْ أَسْأَلْ عَنْهُ "[٣٥٩]

وعَنْ مَعْمَرٍ قَالَ : " إِنَّمَا الْعِلْمُ أَنْ تَسْمَعَ بِالرُّخْصَةِ مِنْ ثِقَةٍ فَأَمَّا التَّشْدِيدُ فَيُحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ "[٣٦٠].

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ ، أَنَّهُ قَالَ : " إِذَا تَخَالَجَكَ أَمْرَانِ فَظُنَّ أَنَّ أَحَبَّهُمَا إِلَى اللَّهِ أَيْسَرُهُمَا "[٣٦١]

---

[٣٥٤] - صحيح البخارى- المكنز - (٨٦٨)

[٣٥٥] - صحيح مسلم- المكنز - (١٠٧٢) وصحيح البخارى- المكنز - (٦١١٠)

[٣٥٦] - الْإِبَانَةُ الْكُبْرَى لِابْنِ بَطَّةَ (١٧٦) حسن

[٣٥٧] - صحيح البخارى- المكنز - (٧٢٩٣)

[٣٥٨] - مُصَنَّفُ عَبْدِ الرَّزَّاقِ الصَّنْعَانِيِّ (٨٥٢٢) صحيح

[٣٥٩] - نفسه (٨٥٢٣) صحيح

[٣٦٠] - جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (٩٣١) صحيح

وعَنْ إِبْرَاهِيمَ ، قَالَ : " إِذَا تَخَالَجَكَ أَمْرَانِ ، فَظُنَّ أَنَّ أَقْرَبَهُمَا إِلَى الْحَقِّ أَوْسَعُهُمَا "[362]

ولكن طلب الأيسر لا ينبغي أن يكون ذريعة ــ كما يفعل أصحاب النفوس المريضة ــ لتجاوز المشروع المسنون عن النبي ﷺ، فعَنْ عَائِشَةَ – رضى الله عنها – قَالَتْ مَا خُيِّرَ النَّبِىُّ – ﷺ – بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلاَّ اخْتَارَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَمْ يَأْثَمْ ، فَإِذَا كَانَ الإِثْمُ كَانَ أَبْعَدَهُمَا مِنْهُ ، وَاللَّهِ مَا انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ فِى شَىْءٍ يُؤْتَى إِلَيْهِ قَطُّ ، حَتَّى تُنْتَهَكَ حُرُمَاتُ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِمُ لِلَّهِ "[363] ..

كما أن الوقوف على المشروع المسنون من غير إفراط ولا تفريط، لا يجوز أن يسمَّى غلواً .. أو مغايراً للتيسير .. كما يفعلُ من تسوِّلُ لهم أنفسهم الرغبة في التفلُّت من قيود الشريعة بزعم التماس التيسير ..!!

فإنَّ اتهام من يلتزمون بالسنَّة ولا يتجاوزونها إلى زيادة أو نقصان بأنهم من أهل الغلو أو التشدد .. هو ــ أي هذا الاتهام ــ من الغلوِّ والتنطع .. وهو اتهامٌ لشرع الله تعالى بالغلو .. وللنبي ﷺ بالغلو والتشدد .. ومن يتهم شرع الله تعالى بالغلو أو يرمي نبي الله ﷺ بالغلو .. كمن يتهمُه بالنقص أو التفريط، وهذا عين الكفر والمروق من الدِّين.

لذا ينبغي على الناس أن ينتبهوا لاطلاقاتهم وكلامهم عندما يصفون شيئاً بأنه من الغلو .. أو ليس من الغلو .. فربَّ كلمة يطلقها المرء لا يُلقي لها بالاً توبقه في جهنم سبعين خريفاً!!

٤– التوسطُ بين خُلُقين كلاهما مذموم وسيءٌ:

ومن معاني الوسطية التوسط بين أمرين كلاهما باطل؛ حيث أن الحقَّ وسطٌ بين باطـــل وباطل، من غير جنوح إلى زيادة أو نقصان.

قال الإمام الطحاوي في متن العقيدة الطحاوية: "ودين الله في الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ} . وقال تعالى: {وَرَضِيتُ لَكُمُ

---

[361] – الْآثَارُ لِأَبِي يُوسُفَ (٨٧٧) صحيح

[362] – الْآثَارُ لِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ (١٧٥) صحيح

[363] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٧٨٦)

الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣]. وهو بين [الغلو و] التقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس".[٣٦٤] .

وقال ابن القيم: قال بعض السلف: ما أمر الله إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة؛ وهي الإفراط. ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان[٣٦٥].

قال ابن تيمية: " فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ – أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ – يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ؛ بَلْ هُمْ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ . فَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ صِفَاتِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّة ؛ وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ . وَهُمْ وَسَطٌ فِي (بَابِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ وَفِي بَابِ (وَعِيدِ اللَّهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ والوعيدية : مِنْ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ وَفِي (بَابِ أَسْمَاءِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الحرورية وَالْمُعْتَزِلَةِ وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّة (وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ "[٣٦٦].

وقد تقدم قول الإمام الطبري في تفسيره حيث قال: إنما وصفهم بأنهم"وسَط"، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، غلوَّ النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه – ولا هُم أهلُ تقصير فيه، تقصيرَ اليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها[٣٦٧]..

ـــ خلاصة القول: أنَّ الوسطية في الإسلام هي من أبرز سمات وخصائص الطائفة الناجية المنصورة التي تميزها عن غيرها من الطوائف .. حيث لا يمكن أن نتصور وجود طائفة مرضية منصورة ـــ يحقق الله على أيديهم النصر والتمكين لدينه ـــ ثم هم في سلوكهم واعتقادهم وأخلاقهم وفهمهم لهذا الدين ينحرفون عن الوسطية والاعتدال إلى غلو أو جفاء .. لا يمكن أن تكون الطائفة المنصورة كذلك .. ولا يمكن أن يكونوا منصورين

---

[٣٦٤] – شرح الطحاوية – ط دار السلام – (١ / ٥١٨) وشرح الطحاوية في العقيدة السلفية – (٣ / ٢٧٩)

[٣٦٥] –مدارج السالكين:١٠٨/٢.

[٣٦٦] – شرح العقيدة الواسطية – (١ / ٢٣٧) ومجموع الفتاوى لابن تيمية – (٣ / ١٤١)

[٣٦٧] – تفسير الطبري – مؤسسة الرسالة – (٣ / ١٤٢)

وهم كذلك .. نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يلتزمون الوسطية والاعتدال من غير إفراط ولا تفريط.

=======================

٦- الصفة السادسة:العلم:

من الخصائص الهامة للطائفة المنصورة كذلك " العلم "؛ وأنهم علماء في أمور دينهم ومعاشهم، إذ من لوازم صفاتهم الأخرى الآنفة الذكر أن يكونوا علماء .. وهذا لا يعني أن جميع أفراد الطائفة المنصورة علماء ومبرزون في طلب العلم وتحصيله، وهم على درجة واحدة من العلم والتحصيل، إلا أن صفهم لا يجوز أن يخلو من العلماء الربانيين العاملين، والذي يقرر ذلك أن الطائفة المنصورة من صفاتهم ــ كما تقدم ــ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقاتلون في سبيل الله تعالى، وأن الدين قائم وظاهر بهم، وأنهم أهل عدل وتوسط .. وأهل اتباع واقتداء .. وهذه مهام لا يمكن أن ينهض بها إلا العلماء العاملون أو من يتوفر لديهم قسطٌ لا بأس به من العلم الشرعي .. وإلا فإن جاهل الشيء كفاقده لا يمكن أن يُعطيه.

قال تعالى:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ آل عمران:١٠٤.

ولتكن منكم -أيها المؤمنون- جماعة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف، وهو ما عُرف حسنه شرعًا وعقلا وتنهى عن المنكر، وهو ما عُرف قبحه شرعًا وعقلا وأولئك هم الفائزون بجنات النعيم.[٣٦٨]

عن الضحاك:"ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر"، قال: هم خاصة أصحابِ رسول الله، وهم خاصَّة الرواة. "[٣٦٩]

قال الضحاك في تفسير"الأمة":" هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء ".[٣٧٠]

وقال ابن كثير : " يعني: المجاهدين والعلماء. "[٣٧١]

---

[٣٦٨] - التفسير الميسر - (١ / ٤٠٣)

[٣٦٩] - تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (٧ / ٩٢) (٧٥٩٧) فيه جويبر متروك

[٣٧٠] تفسير ابن كثير:١/٣٩٨.

[٣٧١] - تفسير ابن كثير - دار طيبة - (٢ / ٩١) وانظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة - (٢ / ٤٥٩٢) رقم الفتوى ٩٣٥٨ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ضوابطه وشروطه

قال القرطبي في التفسير: ومعناه أن الآمرين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء. وقيل : لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك.[٣٧٢]

وكذلك قوله تعالى: { وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) } [آل عمران : ١٤٦ - ١٤٨].

فِي هَذِهِ الآيَةِ يُسَلِّي اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ عَمَّا وَقَعَ فِي نُفُوسِهِمْ يَوْمَ أحُدٍ ، فَقَالَ لَهُمْ : كَمْ مِنْ نَبيٍّ قُتِلَ وَهُوَ يُقَاتِلُ ، وَكَانَ مَعَه جَمَاعَاتٍ كَثِيرَةٌ (رِبِّيُّونَ) مِمَّنْ آمَنُوا بِهِ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ، فَمَا وَهِنُوا ، وَمَا ضَعُفُوا بَعْدَ قَتْلِ النَّبيِّ ، وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَمَا اسَتَذَلُّوا لِمَا أصَابَهُمْ فِي الجِهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ ، وَفِي سَبيلِ إعْلاَءِ دِينهِ ، وَإِنَّمَا صَبَرُوا عَلَى قِتَالِ الأَعْدَاءِ ، وَلَمْ يَهْرُبُوا مُوَلِّينَ الأَدْبَارَ ، لأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبيلِ اللهِ لاَ فِي سَبيلِ نَبيِّهِمْ ، فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا المُسْلِمُونَ أنْ تَعْتَبرُوا بأولَئِكَ الرِّبِّيِّينَ ، وَتَصْبرُوا كَمَا صَبَرُوا فَإنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ ، وَسُنَّتَهُ فِي خَلْقِهِ وَاحِدَةٌ .

فَاحْتَسَبَ هَؤُلاءِ المُؤْمِنُونَ (الرِّبِّيُّونَ) اللهَ عِنْدَ اشْتِدَادِ الخَطْبِ ، وَهُمْ يُقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ قَوْلٍ عِنْدَ نُزُولِ الكَوَارِث إلاَ الدُّعَاءُ إِلَى اللهِ أنْ يَغْفِرَ لَهُمْ بجِهَادِهِمْ مَا كَانُوا أَلَمُّوا بِهِ مِنْ ذنُوبٍ ، وَتَجَاوُزَوا فِيهِ حُدُودَ الشَّرائِعِ ، وَأن يُثَبِّتَ أَقْدَامَهُمْ عَلَى الصِّرَاطِ القَويمِ ، حَتَّى لا تُزَحْزِحَهُم الفِتَنُ ، وَلاَ يَعْرُوهُمُ الفَشَلُ حِينَ مُقَابَلَةِ الأعْدَاءِ فِي سَاحَةِ الحَرْبِ .

فَآتَاهُمُ اللهُ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ عَلَى الأَعْدَاءِ ، وَهُمَا ثَوَابُ الدُّنْيا ، وَجَمَعَ لَهُمْ ، إلَى ذَلِكَ الظَّفَرِ ، حُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ ، وَهُوَ الفَوْزُ بِرُضْوَانِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَاللهُ يُحِبُّ الذِينَ يُحْسِنُونَ

[٣٧٢] - تفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع - (٤ / ١٦٥)

العَمَلَ ، لأَنَّهُمْ يُقِيمُونَ سُنَّتَهُ فِي أَرْضِهِ ، وَيُظْهِرُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَنَّهُمْ جَدِيرُونَ بِخِلاَفَةِ اللهِ فِيهَا [٣٧٣].

وهذه صفة الطائفة المقاتلة المنصورة، قال الحسن:" ربيون " هم العلماء الصُّبُر [٣٧٤].

فدل أن الطائفة المنصورة إذا لم يكونوا كلهم علماء، لا بد أن يتخلل صفوفهم العلماء العاملون.

قال ابن تيمية وَالْقِيَامُ بِالْوَاجِبَاتِ : مِنْ الدَّعْوَةِ الْوَاجِبَةِ وَغَيْرِهَا يَحْتَاجُ إلَى شُرُوطٍ يُقَامُ بِهَا كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : { يَنْبَغِي لِمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنْ الْمُنْكَرِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ فَقِيهًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ رَفِيقًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ رَفِيقًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ حَلِيمًا فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ حَلِيمًا فِيمَا يَنْهَى عَنْهُ } فَالْفِقْهُ قَبْلَ الْأَمْرِ لِيُعَرِّفَ الْمَعْرُوفَ وَيُنْكِرَ الْمُنْكَرَ وَالرِّفْقُ عِنْدَ الْأَمْرِ لِيَسْلُكَ أَقْرَبَ الطُّرُقِ إلَى تَحْصِيلِ الْمَقْصُودِ وَالْحِلْمُ بَعْدَ الْأَمْرِ لِيَصْبِرَ عَلَى أَذَى الْمَأْمُورِ الْمَنْهِيِّ فَإِنَّهُ كَثِيرًا مَا يَحْصُلُ لَهُ الْأَذَى بِذَلِكَ . "[٣٧٥].

والقصدُ من بيان هذه الصفة للطائفة المنصورة، أن يدرك القارئ أن من اهتمامات الطائفة المنصورة طلب العلم وتحصيله، وبخاصة العلم المتعلق بشهادة التوحيد" لا إله إلا الله " ومتطلباتها ونواقضها، أفضل وأشرف العلوم على الإطلاق، وهو أول ما ينبغي الابتداء به تعلماً وتعليماً.

كما قال تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ} (١٩) سورة محمد ١٩.

والعلم بـــ "لا إله إلا الله" يكون بفقه معناها، ومعرفة لوازمها ونواقضها، فيأتي باللوازم والشروط اعتقاداً وقولاً وعملاً، وينتهي عن النواقض ويكفر بها، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (٣٦) سورة النحل

---

[٣٧٣] – أيسر التفاسير لأسعد حومد – (١ / ٤٣٩)

[٣٧٤] – تفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع – (٤ / ٢٣٠)

[٣٧٥] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (١٥ / ١٦٧)

فَقَدْ بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ) ، وَعَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَعَنِ الشِّرْكِ باللهِ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ باللهِ ، وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ فَاهْتَدَى ، وَمِنْهُمْ مَنَ ضَلَّ وَاسْتَكْبَرَ وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ ، لِهؤُلاَءِ المُشْرِكِينَ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ المُكَذِبِينَ ، وَكَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ ، وَجَعَلَ عَاقِبَتَهُمْ أَسْوَأَ عَاقِبَةٍ ، وَلِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ بُرْهَانَ لَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ إِنَّ اللهَ رَضِيَ لَهُمُ الكُفْرَ .[٣٧٦]

وقال: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (٢٥٦) سورة البقرة

يَأْمُرُ اللهُ تَعَالَى المُؤْمِنِينَ بألاَّ يُكْرِهُوا أَحَداً عَلَى الدُّخُولِ فِي الإِسْلاَمِ ، لأنَّ الإِسْلاَمَ بَيِّنٌ وَاضِحٌ لاَ يَحْتَاجُ إلى أنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ عَلَى الدُّخُولِ فِيهِ . وَالإيمانُ إِذْعَانٌ وخُضُوعٌ ، وَلا يَكُونَ ذَلِكَ بالإِلْزامِ وَالإِكراهِ . وَإنما يَكونُ بالحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ وَالبُرْهَانِ ، وَقَدْ ظَهَرَ أنَّ فِي هذا الدِّينِ الرُّشْدَ والصَّلاَحَ ، وَأنَّ مَا خَالَفَهُ مِنَ المِلَلِ الأخرى غَيٌّ وَضَلالٌ .

فَمَنْ كَفَرَ بالأَنْدَادِ وَالأَوْثَانِ وَمَا يَدْعُو إِلَيهِ الشَّيْطَانُ مِنْ عِبادَةِ كُلِّ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (أَيْ وَمَنْ كَفَرَ بمَا تَكُونُ عِبَادَتُهُ وَالإِيمَانُ بهِ سَبَباً فِي الطُّغْيَانِ وَالخُرُوجِ عَنِ الحَقِّ مِنْ عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ) فَقَدْ ثَبَتَ أَمْرُهُ ، وَاسْتَقَامَ عَلَى الطَّرِيقَةِ المُثْلَى ، وَأَمْسَكَ بأَوْثَقِ عُرَى النَّجَاةِ التي تَمْنَعُهُ مِنَ التَّرَدِّي فِي مَهَاوِي الضَّلاَلاَتِ .وَاللهُ سَمِيعٌ لأَقْوَالِ مَنْ يَدَّعِي الكُفْرَ بالطَّاغُوتِ ، وَالإِيمَانَ باللهِ . عَلِيمٌ بِمَا يُكِنُّهُ قَلْبُهُ مِمّا يُصَدِّقُ هَذا أَوْ يُكَذِّبُهُ[٣٧٧]

إن الكفر ينبغي أن يوجه إلى ما يستحق الكفر ، وهو «الطاغوت». وإن الإيمان يجب أن يتجه إلى من يجدر الإيمان به وهو «اللَّهُ».

والطاغوت صيغة من الطغيان ، تفيد كل ما يطغى على الوعي ، ويجور على الحق ، ويتجاوز الحدود التي رسمها اللّه للعباد ، ولا يكون له ضابط من العقيدة في اللّه ، ومن الشريعة التي يسنها اللّه ، ومنه كل منهج غير مستمد من اللّه ، وكل تصور أو وضع أو

[٣٧٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٩٣٨)

[٣٧٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢٦٣)

أدب أو تقليد لا يستمد من اللّه. فمن يكفر بهذا كله في كل صورة من صوره ويؤمن باللّه وحده ويستمد من اللّه وحده فقد نجا .. وتتمثل نجاته في استمساكه بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

وهنا نجدنا أمام صورة حسية لحقيقة شعورية ، ولحقيقة معنوية .. إن الإيمان باللّه عروة وثيقة لا تنفصم أبدا .. إنها متينة لا تنقطع .. ولا يضل الممسك بها طريق النجاة .. إنها موصولة بمالك الهلاك والنجاة .. والإيمان في حقيقته اهتداء إلى الحقيقة الأولى التي تقوم بها سائر الحقائق في هذا الوجود .. حقيقة اللّه .. واهتداء إلى حقيقة الناموس الذي سنه اللّه لهذا الوجود ، وقام به هذا الوجود. والذي يمسك بعروته يمضي على هدى إلى ربه فلا يرتطم ولا يتخلف ولا تتفرق به السبل ولا يذهب به الشرود والضلال.

«وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» ..يسمع منطق الألسنة ، ويعلم مكنون القلوب. فالمؤمن الموصول به لا يبخس ولا يظلم ولا يخيب.[٣٧٨]

وفي صحيح ابن حبان عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْجَعِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي ، يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ، يَقُولُ : مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ.".[٣٧٩]

وفي رواية عَنْ أَبِى مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ « مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ »[٣٨٠].

مفهوم الحديث أن من وحد الله تعالى، أو قال لا إله إلا الله، لكنه لم يكفر بما يعبد من دون الله لا يحرم ماله ودمه [٣٨١].

---

[٣٧٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٩٢)

[٣٧٩] - صحيح ابن حبان - (١ / ٣٩٤) (١٧١) صحيح

[٣٨٠] - صحيح مسلم- المكتر - (١٣٩)

[٣٨١]- لا يعني ذلك أنه بقوله:"لا إله إلا الله" لا يدخل الإسلام، وأن الشهادة لا تنفعه حتى يأتي بلوازمها وشروطها، فالأمر ليس كذلك؛ فإن شهادة التوحيد تدخل صاحبها الإسلام وهي تنفعه وتحميه وتصون حرماته .. إلا أنه إذا أتى بعد ذلك بناقض للإيمان ـــ من غير عذر شرعي معتبر ـــ يكون قد أتى بالشيء وضده في آن واحد، وبالتالي فإن شهادة التوحيد هنا لا تنفعه ولا تحفظه إلا إذا استدرك على نفسه فتاب وأقلع عن الناقضة التي كانت سبباً في خروجه من دائرة الإسلام، انظر كتاب" قواعد في التكفير " وكتاب " شروط لا إله إلا الله ". وكتابي الواضح في أركان الإيمان .

ومن الأدلة كذلك على أولوية هذا العلم العظيم، ما صحَّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا – رضى الله عنه – عَلَى الْيَمَنِ قَالَ « إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ ، فَإِذَا فَعَلُوا ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً { تُؤْخَذُ } مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ »[٣٨٢]

وعَنْ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ صَيْفِىٍّ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا مَعْبَدٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ لَمَّا بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ –ﷺ– مَعَاذًا نَحْوَ الْيَمَنِ قَالَ لَهُ « إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ تَوْحِيدُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا ذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِى يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ غَنِيِّهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقِيرِهِمْ فَإِذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ فَخُذْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ ».[٣٨٣]

وعَنْ أَبِي عِمْرَانَ الْجَوْنِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ جُنْدُبًا الْبَجَلِيَّ قَالَ: " كُنَّا فِتْيَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ نَبِيِّنَا ﷺ ، فَتَعَلَّمْنَا الْإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تَعَلَّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الْإِيمَانِ "[٣٨٤]

ومنه يعلم خطأ من يزهد بهذا العلم العظيم ويجعله في آخر أولوياته،واهتماماته، وتراه يؤثر أن يكون على إيمان العجائز بدلاً من أن يجتهد في أن يكون على إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

[٣٨٢] – صحيح البخارى– المكنز – (١٤٥٨) وصحيح مسلم– المكنز – (١٣٢) –الكرائم : جمع كريمة وهى خيـــار المال وأفضله

[٣٨٣] – سنن الدارقطنى– المكنز – (٢٠٨٢) صحيح

[٣٨٤] – شعب الإيمان – (١ / ١٥٢) (٥٠) صحيح – حزاورة : جمع حَزْوَر وهو الغلام إذا اشتد وقَوِيَ وحزم والتاء لتأنيث الجمع

كذلك مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والجهاد في سبيل الله فهذا كله يقتضي منهم الاهتمام بطلب العلم وتحصيله؛ ليقوموا بالمهام والواجبات الشرعية الملقاة على عاتقهم على أفضل وأتم وجه.

خلاصة القول:أنَّ من خصائص الطائفة المنصورة العلم،وبخاصة منه العلم بالتوحيد الذي يعني بمجموعه شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله .. فإنه إن يكن يحتمل على أفراد الطائفة المنصورة الجهل ببعض مسائل الدين، إلا أنه لا يمكن أن نتصور أحداً منهم يجهل" لا إله إلا الله " ومدلولاتها، وشروطها .. ثم بعد ذلك نشير إليه بأنه من الطائفة المنصورة!

====================

٧ــ الصفة السابعة:الصبرُ والثباتُ:

للمهام العظام الملقاة على كاهل الطائفة المنصورة فهي طائفة مبتلاة .. فهي والبلاء قرينان لا يفترقان .. فإذا ذُكرت الطائفةُ المنصورة ذُكر البلاء .. وذُكرت الآلام والجراحاتُ ..!

ومن لوازم البلاء والاحتساب .. الصبرُ والثباتُ على الحقِّ مهما تكاثرت سهام الباطل واشتدت عليهم ..!

بلاء من غير صبر ولا ثبات، ولا احتساب .. يتبعه تسخُّطٌ ونكوصٌ .. يكون نقمةً على صاحبه في الدنيا والآخرة .. وهو بلاءٌ غير محمود .. وهو علامةٌ على شقاء وضعفِ إيمانِ صاحبه .. والطائفةُ المنصورة أبعدُ الخلق عن هذا الخُلقِ المذموم ..!

طائفةٌ منصورةٌ من دون بلاء .. ولا جراحاتٍ .. ولا أشلاءَ .. ولا آلامَ ولا دماءَ .. ولا صبرٍ ولا ثباتٍ .. لن تكونَ هي الطائفةُ المنصورةُ المرضيةُ التي خصَّها النبي ﷺ بكوكبةٍ عظيمةٍ من الأحاديث ..!

الطائفةُ المنصورةُ .. هم الطليعةُ في كل ميدان من ميادين الخير والعطاء .. عُرفوا بالجهاد والقتال .. والصدع بالحق .. والظهورِ على من ناوأهم وخالفهم .. لا يهابون في الله لومةَ لائمٍ .. وهذه خصالٌ لا يمكن أن تتأتى إلا مع البلاء .. والصبر والثبات على الحق مهما كانت التضحيات، كما قال تعالى {إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ} (١١١) سورة المؤمنون.

إِنِّي جَزَيْتُهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، وَكَافَأْتُهم عَلَى صَبْرِهِمْ عَلَى أَذَكُمْ لَهُمْ ، وَاسْتِهْزَائِكُم بِهِمْ ، وَجَعَلْتُهُم الفَائِزِينَ بالسَّعَادَةِ والسَّلاَمَةِ والجَنَّةِ والنَّجَاةِ مِنَ النَّارِ [٣٨٥].

وقال تعالى: { الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا

---

[٣٨٥] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٢٦٦٤)

عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) } [القصص : ٥٢ - ٥٥٦]

والذِينَ آمَنُوا بالتَّوراةِ والإِنْجيلِ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ثُمَّ أدركُوا مُحَمَّداً ، يُؤمِنُونَ بالقُرآنِ لأَنَّهُمْ يَجدُونَ في كُتُبِهم البُشْرى بهِ ، وانطبَاقَ الأَوصَافِ عليهِ ، وإذا تُلِيَ عَلَيهِمْ هذا القُرآنُ قَالُوا : صَدَّقْنا بأَنَّهُ أُنزِلَ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا حَقّاً وَصِدْقاً .

وإذا تُلِي عَلَيهِم القُرآنُ قَالُوا : آمَنَّا بأَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّنا وَقَدْ أَسْلَمْنا إِلى رَبِّنا ، وَكُنّا مُوَحِّدِينَ مُخْلِصِينَ للهِ ، مُسْتَجيبينَ لَهُ ، قَبلَ أَنْ نَسْمَعَ هذا القُرآنَ ، لأَنَّنا وَجَدْنا في كُتُبِنا نَعْتَ مَحَمَّدٍ ، وَنَعْتَ كِتَابِهِ ، لِذَلِكَ آمنَّا بِهِ قَبلَ نُزُولِهِ .

وَالذينَ آمنُوا بالكِتَابِ الأَوَّلِ ، ثُمَّ آمنُوا بالقُرآنِ ، سَيُؤْتِيهم اللهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَين ، جَزَاءً لَهُم عَلَى صَبْرِهِمْ على اتِّباعِ الحَقِّ ، وَعَلَى الإِيمَانِ بكِتَابِهِمْ أَوَّلاً ، ثُمَّ عَلَى إِيمَانِهِمْ بالقُرآنِ ، لأَنَّ اتِّبَاعَ الحَقِّ فيهِ مَشَقَّةٌ على النُّفُوسِ . وَيَتَّصِفُ هؤلاءِ الذينَ آمنُوا بكِتَابِهِمْ ، ثُمَّ آمنُوا بالقُرآنِ بأَنَّهمْ لا يُقَابِلُونَ السَّيِّئَةَ بمِثْلِها ، وإِنَّما يَعفُونَ ويَصْفَحُونَ ، ويُنْفِقُونَ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ مِنَ الرِّزْقِ الحَلالِ ، عَلَى خَلْقِ اللهِ ، وعَلَى ذَوِي قُرْبَاهُم ويُؤَدُّونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِم .

وَهُمْ لا يَخالِطُونَ أَهلَ اللَّغْوِ واللَّهوِ ، والخَوْضِ فِيما لا يَنْفَعُ في دِينٍ ولا دُنْيَا ، ولا يُعَاشِرُونَهُمْ بَلْ يُعرِضُونَ عَنهُم ، ويَتَجَنَّبُونَ مُجَالَسَتَهُمْ ، وإذا سَفِهَ عَلَيهِمْ أَحَدٌ ، وَكَلَّمَهُمْ بِمَا لا يَلِيقُ ، أَعْرَضُوا عَنْهُ ، وَلَمْ يُقَابِلُوهُ بمِثْلِهِ مِنَ الكَلاَمِ القَبيحِ ، وَلاَ يَصدُرُ عَنْهُمْ إلا كَلاَمٌ طَيِّبٌ . وَيَقُولُونَ لِمَنْ سَفِهَ عَلَيهِمْ : سَلامٌ عَلَيكُم سَلاَم مُتَارَكَةٍ وَتَوْدِيعٍ ، إِنَّنا لا نُرِيدُ اتِّبَاعَ طَرِيقِ الجَاهِلِينَ السُّفَهَاءِ ، وَلاَ نُحِبُّهَا .[٣٨٦]

وقال تعالى: {وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا } (١٢) سورة الإنسان.

وَجَزَاهُمُ اللهُ بِصَبْرِهِمْ عَلَى الإِيْثَارِ ، وَمَا يُؤَدِّي إِلَيهِ مِنَ الجُوعِ وَالعُرْيِ ، جَنَّةً لَهُمْ فِيهَا مَنْزِلٌ رَحْبٌ ، وَعَيْشٌ رَغْدٌ ، وَلِبَاسٌ مِنْ حَرِيرٍ .[٣٨٧]

---

[٣٨٦] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٣١٨٦)

[٣٨٧] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ٥٤٨١)

وقال تعالى: { وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) } [البقرة : ١٥٥ - ١٥٧]

" الناس جميعا مبتلون فى هذه الحياة ــ سواء أكانوا أفرادا أو جماعات أو أمما ــ بشىء من الخوف والجوع ــ يختلف قلة وكثرة ــ وبنقص فى الأموال والأنفس والثمرات .. فليس أحد فى هذه الدنيا بمأمن أبدا من أن تنزل به هذه النوازل ، متفرقة أو مجتمعة ..والجزع فى هذه المواطن هو الذي يثقّل المصيبة ، ويولّد منها مصائب ، فيضاعف معها البلاء ، ويعظم الألم ، ويطبق اليأس ، ويغلق كل باب للأمل والرجاء!.

أما الذي يلقى أحداث الحياة ومصائبها بالصبر ، ويواجهها بالتسليم والرضا ، عن يقين وإيمان بأن ما وقع إنما هو بقضاء اللّه وقدره ــ فإن ذلك يهوّن عليه من وقع المصائب وإن عظمت ، ويمدّه بمعين عظيم من الصبر والاحتمال ، ويفتح له بابا واسعا من الأمل والرجاء فيما هو خير عند اللّه وأبقى : « وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ » فحين يذكر المؤمن أنه ــ ذاتا ومالا وأهلا وولدا ــ ملك للّه ، لا يملك مثقال ذرة مما فى ملك اللّه ، وأن مصائر الأمور كلها إلى اللّه ، ومردّها جميعا إليه ــ حين يذكر المؤمن هذا لا يأسى على فائت ، ولا يحزن على مفقود ،وتلك هى أولى بشريات المؤمنين فى هذه الدنيا ، لا ينزل الحزن ساحتهم ، ولا يرهق الهمّ والكرب قلوبهم : « أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ »."[٣٨٨]

لا بد من تربية النفوس بالبلاء ، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد ، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات .. لا بد من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة ، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن

[٣٨٨] -التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع - (١ / ١٧٦)

تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها ، وكلما بذلوا من أجلها .. كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها .. إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم : لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ، ولا صبروا عليه .. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها ، مقدرين لها ، مندفعين إليها .. وعندئذ يجيء نصر اللّه والفتح ويدخل الناس في دين اللّه أفواجا ..

ولا بد من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد. والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون ، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله ، أو القاعدة لهذا كله .. الالتجاء إلى اللّه وحده حين تهتز الأسناد كلها ، وتتوارى الأوهام وهي شتى ، ويخلو القلب إلى اللّه وحده. لا يجد سندا إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات ، وتتفتح البصيرة ، وينجلي الأفق على مد البصر .. لا شيء إلا اللّه .. لا قوة إلا قوته .. لا حول إلا حوله .. لا إرادة إلا إرادته .. لا ملجأ إلا إليه .. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح ..

والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق :«وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذا أَصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ» ..إنا للّه .. كلنا .. كل ما فينا .. كل كياننا وذاتيتنا .. للّه .. وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير .. التسليم .. التسليم المطلق .. تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجها لوجه بالحقيقة الوحيدة ، وبالتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون .. الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل ..

وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل :«أُولئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ» .. صلوات من ربهم .. يرفعهم بها

إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه .. وهو مقام كريم .. ورحمة .. وشهادة من اللّه بأنهم هم المهتدون ..وكل أمر من هذه هائل عظيم ..

وبعد .. فلا بد من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي. التعبئة في مواجهة المشقة والجهد ، والاستشهاد والقتل ، والجوع والخوف ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات. والتعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف.

إن اللّه يضع هذا كله في كفة. ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا .. صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون .. إنه لا يعدهم هنا نصرا ، ولا يعدهم هنا تمكينا ، ولا يعدهم هنا مغانم ، ولا يعدهم هنا شيئا إلا صلوات اللّه ورحمته وشهادته .. لقد كان اللّه يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها.

فكان من ثم يجردها من كل غاية ، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية – حتى الرغبة في انتصار العقيدة – كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته .. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى اللّه وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون .. هذا هو الهدف ، وهذه هي الغاية ، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها .. فأما ما يكتبه اللّه لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم ، إنما هو لدعوة اللّه التي يحملونها.

إن لهم في صلوات اللّه ورحمته وشهادته جزاء. جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات. وجزاء على الخوف والجوع والشدة. وجزاء على القتل والشهادة .. إن الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء. أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور ..

هذه هي التربية التي أخذ اللّه بها الصف المسلم ليعده ذلك الإعداد العجيب ، وهذا هو المنهج الإلهي في التربية لمن يريد استخلاصهم لنفسه ودعوته ودينه من بين البشر أجمعين.[٣٨٩]

---

[٣٨٩] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١ / ١٤٥)

وقد أثنى الله تعالى على الصبر والصابرين، وعلى الذين يتواصون بالصبر، فقال تعالى:﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ سورة العصر.

وقال تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} (٣٥) سورة الأحزاب

وقال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (١٤٦) سورة آل عمران

وقال تعالى :{ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} (٢٤٩) سورة البقرة.

ومن كان الله معه فلا ضيعة عليه .. ولا خوف عليه.

وفي السنّة فقد صح عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ ، وَأَنَا غُلَامٌ قَالَ: فَقَالَ لِي: " يَا غُلَامُ ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، وَاحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْخَلَائِقَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُرِدِ اللَّهُ ، أَنْ يُعْطِيَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ أَوْ يَمْنَعُوا شَيْئًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يُعْطِيَكَهُ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْقَلَمَ قَدْ جَفَّ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اعْتَصَمْتَ فَاعْتَصِمْ بِاللَّهِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا " [٣٩٠]

---

[٣٩٠] - شعب الإيمان - (١٢ / ٣٥٤)(٩٥٢٩) صحيح

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: " يَا غُلَامُ أَوْ يَا بُنَيَّ أَوَ لَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ ؟ " قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: " احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْمَلْ لِلَّهِ بِالشُّكْرِ فِي الْيَقِينِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "[٣٩١]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، كَذَا قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: " يَا غُلَامُ ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَكَ بِهِنَّ ؟ " قُلْتُ: بَلَى ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: " احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ ، تَعَرَّفْ إِلَى اللَّهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ، وَلَوِ اجْتَمَعَ الْخَلْقُ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا وَالْيَقِينِ فَافْعَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا "[٣٩٢]

طالما اشتد البلاء على الصحابة ـــ رضوان الله تعالى عليهم ـــ وهم في مكة، شكوا إلى النبي ﷺ شدة ما يلاقونه من أذى الأعداء، وسألوه أن يستنصر لهم ويدعو لهم، فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – ﷺ – وَهْوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِى ظِلِّ الْكَعْبَةِ فَقُلْنَا أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا . فَقَالَ « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِى الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ ، وَيُمَشَّطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ

---

[٣٩١] - شعب الإيمان - (٢ / ٣٥١) (١٠٤٣) صحيح

[٣٩٢] - شعب الإيمان - (١٢ / ٣٥٤) (٩٥٢٨) صحيح

، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » رواه البخاري[٣٩٣].

والشاهد مما تقدم أن الذي يتطلع لأن يكون من الطائفة المنصورة .. وإلى النصر والفتح والتمكين .. لا بدَّ له من التحلي بالصبر والثبات على الحق وعلى تحمل تبعات هذا الثبات مهما اشتدت ضراوة هذه التبعات، ومهما كان حجم التكاليف ..!

فالطائفة المنصورة هم ورثة الأنبياء .. ودعوة الأنبياء لها أعداء .. ولا بد لمن يرث دعوة الأنبياء من أن يتصدى لأعداء الأنبياء، وأن يُعادى من قبل أعداء الأنبياء .. فعَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – مِنَ الْوَحْىِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِى النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِىَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِى غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ . قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » . قَالَ « فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ . قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّى الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ اقْرَأْ . فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِى فَغَطَّنِى الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِى فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) » . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضى الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِى زَمِّلُونِى » . فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِى » . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِى الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِىَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِىَ – فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِى مَاذَا تَرَى

---

[٣٩٣] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٩٤٣)

فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِى نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى – ﷺ – يَا لَيْتَنِى فِيهَا جَذَعًا ، لَيْتَنِى أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « أَوَمُخْرِجِىَّ هُمْ » . قَالَ نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِىَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِى يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّىَ وَفَتَرَ الْوَحْىُ . "البخاري[٣٩٤] .

فمَن كان من ورثة الأنبياء .. ويسير على منهج الأنبياء لا بد من أن يتعرض لما تعرَّض له الأنبياء من عداء مِلل الباطل كلها[٣٩٥] .

أما من أراد أن يسير على منهج الأنبياء .. ويكون صادقاً وموفقاً في مسيره .. ثم هو مع ذلك لا يريد أن يُبتلَى أو أن يكون له أعداء .. فهذا يحلم بالمستحيل .. وهو مثله مثل من أراد أن يجمع بين الشيء وضده معا!

وكذلك لما أراد أهل المدينة مبايعة النبي ﷺ في العقبة الثانية .. أستوقفهم سعد بن زرارة ﷺ ليذكرهم خطورة ما هم قادمين عليه، فعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : مَكَثَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ ، يَتَتَبَّعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظَ وَمَجَنَّةَ وَالْمَوَاسِمِ بِمِنًى ، يَقُولُ : مَنْ يُؤْوِينِي وَيَنْصُرَنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالاَتِ رَبِّي ؟ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مِصْرَ فَيَأْتِيهُ قَوْمُهُ ، فَيَقُولُونَ : احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ ، لاَ يَفْتِنُكَ. وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ مِنْ يَثْرِبَ ، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ ،فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا وَيُؤْمِنُ بِهِ

---

[٣٩٤] – صحيح البخارى– المكنز – (٣)

المؤزر : القوى –جذعا : شابا فتيا –يتحنث : يتعبد –الروع : الفزع –زمل : لف وغطى –زمل : لف وغطى – المعدوم : الشىء المعدوم الذى لا يجدونه أو الفقير الذى صار كالمعدوم –فتر : انقطع –تقرى : تكرم الضيف وتقوم بحق ضيافته –تكسب : تعطى المال للفقير –الكل : أصله الثقل ويدخل فى حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال –الناموس : الوحى

[٣٩٥] –كثير هم الذين يفهمون حديث النبي ﷺ:" العلماء ورثة الأنبياء " فهماً خاطئاً .. حيث تراهم يحصرون الحديث في وراثة العلم .. وحفظ المتون .. من دون مراعاة للعمل ..!

والحقُّ أن العلماء ورثة الأنبياء في العلم والعمل .. ورثة الأنبياء في الجهاد والتضحية، والصدع بالحق .. والصبر على البلاء .. ورثة الأنبياء في الخشية والتقوى .. ورثة الأنبياء في أخلاقهم وكل ما يصدر عنهم من مواقف وأعمال .. فهذا هو الوارث الحقيقي .. وهكذا ينبغي أن يُفهم الحديث .. وعلى هذا المعنى والتفسير ينبغي أن يُحمل!

وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلاَمِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ ، ثُمَّ إِنَّا اجْتَمَعْنَا ، فَقُلْنَا : حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ النَّبِيَّ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهَا مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ ، حَتَّى تَوَافَيْنَا ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ عَلاَمَ نُبَايِعُكَ ؟ قَالَ : تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَنْ يَقُولَهَا لاَ يُبَالِي فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِيَ ، وَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ ، فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ ، فَقَالَ : رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَأَنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُنَازَعَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً ، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْ تَصْبِرُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جُبْنًا ، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ ، فَقَالُوا : أَمِطْ عَنَّا فَوَاللَّهِ لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا ، فَقُمْنَا إِلَيْهِ ، فَبَايَعْنَاهُ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا ، وَشَرَطَ أَنْ يُعْطِيَنَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٣٩٦]

وعَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: لَمَّا جَاءَتِ الْأَنْصَارُ وَعَدَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ الْعَقَبَةَ ، فَأَتَاهُمْ وَمَعَهُ الْعَبَّاسُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : " يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ تَكَلَّمُوا وَأَوْجِزُوا فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا " فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اشْتَرِطْ لِرَبِّكَ وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِكَ ، فَقَالَ ﷺ : " أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَلِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ ، وَلِأَصْحَابِي الْمُسَاوَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ " ثُمَّ خَطَبَ خُطْبَةً لَمْ يَخْطُبِ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ خُطْبَةً مِثْلَهَا قَالَ: فَمَا لَنَا قَالَ: " الْجَنَّةُ " قَالَ: ابْسُطْ يَدَكَ فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُكَ .ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ جَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: فَقَالَ يَعْنِي أَبَا أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، إِنَّا لَمْ نَضْرِبْ إِلَيْهِ أَكْبَادَ الْمَطِيِّ إِلَّا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَإِنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ وَأَنْ تَعَضَّكُمُ

[٣٩٦] - صحيح ابن حبان - (١٤ / ١٧٢) (٦٢٧٤) صحيح

السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْتُمْ قَوْمٌ تَصْبِرُونَ عَلَيْهَا إِذَا مَسَّتْكُمْ وَقُتِلَ خِيَارُكُمْ وَمُفَارَقَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً فَخُذُوهُ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ خِيفَةً فَذَرُوهُ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ ، فَقَالُوا يَا أَسْعَدُ أَمِطْ عَنْهُ يَدَكَ فَوَاللهِ لَا نَذَرُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ وَلَا نَسْتَقِيلُهَا ، قَالَ: فَقُمْنَا إِلَيْهِ رَجُلًا رَجُلًا يَأْخُذُ عَلَيْنَا بِشَرْطِ الْعَبَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَيُعْطِينَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ ."[٣٩٧]

هذه هي حجم التبعات والتكاليف: مفارقة للقوم ـــ إن كانوا على الضلالة والكفر ـــ وقتل وتشريد لخيار الدعاة .. وتكالب سيوف أمم الكفر على أهل الحق والإيمان .. فمن كان من ورثة الأنبياء بحق، وأراد المسير على طريق الأنبياء .. لا بد له من أن يروِّضَ نفسه على تحمل تبعات الدعوة إلى الله .. وتبعات المسير على منهاج وخطى النبي ﷺ .. ويتوقع من الأعداء المزيد من الكيد والمكر .. وأجره على الله.

عجيب أن سعد بن زرارة ومن معه يعرفون كلَّ ذلك في الأيام الأولى من إسلامهم .. وقبل أن يمضوا بيعتهم للنبي ﷺ .. بينما أساتذة زماننا .. وكثير غيرهم ممن يتشبعون بالعلم .. الذين يدرسون العلوم الشرعية السنوات الطوال في الجامعات .. وعلى يد المشايخ .. تراهم في شكٍّ من ذلك .. ويجادلون عليه .. بل وأكثرهم لا يعرفه!!

قال الله تعالى {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (٢١٧) سورة البقرة ٢١٧.

وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل .. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ،

---

[٣٩٧] – أخبار مكة للفاكهي – (٤ / ٢٣٢)(٢٥٤٠) صحيح لغيره

ويرهبه كل باغ ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج ، ومن منهج قويم ، ومن نظام سليم .. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون.وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا .. أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها .. والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب[٣٩٨]

وقال تعالى : {وَلاَ تَهِنُواْ فِي ابْتِغَاء الْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللّهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (١٠٤) سورة النساء.

وحيث لا يزال المؤمنون هنا فى مواقع الجهاد ، فقد جاء قول اللّه تعالى : « وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغاءِ الْقَوْمِ » دعوة من اللّه ، تستحثّ عزائم المسلمين ، وتوقظ مشاعرهم للجهاد فى سبيل اللّه ، بعد أن طال وقوفهم فى هذا المقام ، وما واجهوا فيه من شدائد وأهوال .. وابتغاء القوم : هو طلبهم ، ولقاؤهم فى ميدان القتال .. والوهن الضعف ، أي ولا تضعفوا ولا تفتروا فى طلب العدو الذي يطلبكم للقتال.ونعم .. إن أعباء الجهاد ثقيلة ، ولكنها على نفس المؤمن أخفّ وأهون مما هى على غير المؤمنين ..

فالكافرون يجدون من أهوال الحرب ، وشدائدها ما يجد المؤمنون ، ولكن المؤمنين يستعذبون هذا المورد ، الذي يفتح لهم طريق الرحمة ، ويترلهم عند اللّه منازل الرضوان .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَما تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ ».

فالمؤمنون فى قتالهم العدو يقاتلون وهم على شعور بأنهم إن كتب لهم النصر رجعوا بالسلامة والغنيمة ، وإن كتب لهم الاستشهاد ظفروا بما عند اللّه للشهداء من رضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم .. إنها إحدى الحسنيين للمجاهدين : النصر أو الاستشهاد .. وليس للعدو إلّا واحدة منهما .. وهى النصر ، أو الموت على الكفر! وقد يقال : إن

---

[٣٩٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٢٧)

الكافرين يقاتلون ومعهم هذا الشعور بأنهم على الحقّ ، وأنهم إنما ينتصرون لمبدأ ، وأنهم إذا فاتهم النصر لم يفتهم الموت فى سبيل المبدأ!

والجواب على هذا ، هو أن الخطاب هنا للمسلمين ، وأنهم على يقين من أمرهم وأمر عدوّهم ، وأنه يكفى هنا أن يدرك المؤمنون هذه الحقيقة وأن يستحضروها ، وأن يقاتلوا عدوّهم عليها ، ولا عليهم ما يعتقده عدوهم فيهم أو فى نفسه! وإن أي حال يكون عليها العدوّ لن تبلغ الحال التي يكونون هم عليها ، من وثاقة الإيمان باللّه ، والثقة فيما عنده لهم عن حسن الجزاء ، وعظيم الثواب![399]

وبهذا التصوير يفترق طريقان ويبرز منهجان ويصغر كل ألم ، وتهون كل مشقة. ولا يبقى مجال للشعور بالضنى وبالكلال .. فالآخرون كذلك يألمون. ولكنهم يرجون من اللّه ما لا يرجون! ويرسم هذا الدرس – بجملة الموضوعات التي يعالجها ، وبطرائق العلاج التي يسلكها – ما كان يعتمل في جسم الجماعة المسلمة ، وهي تواجه مشاق التكوين الواقعية ومشكلات التكوين العملية. وما كان يشتجر في النفوس من عوامل الضعف البشري ومن رواسب الماضي الجاهلي ، ومن طبيعة الفطرة البشرية وهي تواجه التكاليف بمشاقها وآلامها مع ما يصاحب هذه المشاق والآلام من أشواق ومن تطلع إلى الوفاء كذلك يستثيرها المنهج الحكيم ، ويستجيشها في الفطرة لتنهض بهذا الأمر العظيم.

ونرى ذلك كله مرتسما من خلال الوصف للواقع ومن خلال التشجيع والاستجاشة ومن خلال المعالجة للمخاوف الفطرية والآلام الواقعية ومن خلال التسليح في المعركة بالصلاة! وبالصلاة خاصة – إلى جانب التسلح بالعدة واليقظة – وبالثقة في ضمانة اللّه للمهاجرين ، وثوابه للمجاهدين ، وعونه للخارجين في سبيله ، وما أعده للكافرين من عذاب مهين.

ونرى طريقة المنهج القرآني الرباني في التعامل مع النفس البشرية في قوتها وضعفها وفي التعامل مع الجماعة الإنسانية في أثناء تكوينها وإنضاجها. ونرى شتى الخيوط التي يشدها منها في الوقت الواحد وفي الآية الواحدة ..

---

[399] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٣ / ٨٨٦)

ونرى – على الأخص – كيف يملأ مشاعر الجماعة المسلمة بالتفوق على عدوها ، في الوقت الذي يملأ نفوسها بالحذر واليقظة والتهيؤ الدائم للخطر ، وفي الوقت الذي يدلها كذلك على مواطن الضعف فيها ، ومواضع التقصير ، ويحذرها إياها أشد التحذير.

إنه منهج عجيب في تكامله وفي تقابله مع النفس البشرية وفي عدد الأوتار التي يلمسها في اللمسة الواحدة ، وعدد الخيوط التي يشدها في هذه النفس ، فتصوت كلها وتستجيب!

لقد كان التفوق في منهج التربية ، والتفوق في التنظيم الاجتماعي الذي قام عليه هو الأمر البارز الظاهر فيما بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله من فروق .. ولقد كان هذا التفوق البارز هو كذلك أوضح الأسباب – التي يراها البشر – لتمكن هذا المجتمع الناشئ الشاب – بكل ما كان في حياته من ملابسات ومن ضعف أحيانا وتقصير – من طي تلك المجتمعات الأخرى ، والغلبة عليها. لا غلبة معركة بالسلاح فحسب ولكن غلبة حضارة فتية على حضارات شاخت. غلبة منهج على مناهج ، ونموذج من الحياة على نماذج ومولد عصر جديد على مولد إنسان جديد ..[400]

إنهن كلمات معدودات. يضعن الخطوط الحاسمة ، ويكشفن عن الشقة البعيدة ، بين جبهتي الصراع ..

إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح في المعركة .. ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يحتملونه .. إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء .. ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء .. إن المؤمنين يتوجهون إلى اللّه بجهادهم ، ويرتقبون عنده جزاءهم .. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون ، لا يتجهون للّه ، ولا يرتقبون عنده شيئا في الحياة ولا بعد الحياة ..

فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارا ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام. وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين للّه.

---

[400] – في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٢ / ٧٣٩)

وإن هذا لهو فضل العقيدة في اللّه في كل كفاح. فهناك اللحظات التي تعلو فيها المشقة على الطاقة ، ويربو الألم على الاحتمال. ويحتاج القلب البشري إلى مدد فائض وإلى زاد. هنالك يأتي المدد من هذا المعين ، ويأتي الزاد من ذلك الكنف الرحيم.

ولقد كان هذا التوجيه في معركة مكشوفة متكافئة. معركة يألم فيها المتقاتلون من الفريقين. لأن كلا الفريقين يحمل سلاحه ويقاتل.

ولربما أتت على العصبة المؤمنة فترة لا تكون فيها في معركة مكشوفة متكافئة .. ولكن القاعدة لا تتغير.

فالباطل لا يكون بعافية أبدا ، حتى ولو كان غالبا! إنه يلاقي الآلام من داخله. من تناقضه الداخلي ومن صراع بعضه مع بعض. ومن صراعه هو مع فطرة الأشياء وطبائع الأشياء.

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار. وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم.

والألم أنواع. والقرح ألوان .. «وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ ما لا يَرْجُونَ» .. وهذا هو العزاء العميق. وهذا هو مفرق الطريق ..

«وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً» ..يعلم كيف تعتلج المشاعر في القلوب. ويصف للنفس ما يطب لها من الألم والقرح ..[401]

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، أَنَّهُ قَالَ : مَا نَصَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَوْطِنٍ ، كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أُحُدٍ . قَالَ : فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : بَيْنِي وَبَيْنَ مَنِ انْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ : {وَلَقَدْ صَدَقَكُمِ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ} ، يَقُولُ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالْحَسُّ : الْقَتْلُ ، {حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ} ، إِلَى قَوْلِهِ ، {وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} ، وَإِنَّمَا عَنَى بِهَذَا الرُّمَاةَ ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَقَامَهُمْ فِي مَوْضِعٍ ، ثُمَّ قَالَ : احْمُوا ظُهُورَنَا ، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نُقْتَلُ ، فَلا تَنْصُرُونَا ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلا تُشْرِكُونَا فَلَمَّا غَنِمَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَأَبَاحُوا عَسْكَرَ الْمُشْرِكِينَ ، أَكَبَّ الرُّمَاةُ جَمِيعًا ، فَدَخَلُوا فِي الْعَسْكَرِ يَنْهَبُونَ ، وَقَدِ الْتَقَتْ صُفُوفُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَهُمْ كَذَا ،

---

[401] - في ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٢ / ٧٤٩)

وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِ يَدَيْهِ ، وَالْتَبَسُوا ، فَلَمَّا أَخَلَّ الرُّمَاةُ تِلْكَ الْخَلَّةَ الَّتِي كَانُوا فِيهَا ، دَخَلَتِ الْخَيْلُ مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَضَرَبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَالْتَبَسُوا ، وَقُتِلَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ نَاسٌ كَثِيرٌ ، وَقَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَوَّلُ النَّهَارِ ، حَتَّى قُتِلَ مِنْ أَصْحَابِ لِوَاءِ الْمُشْرِكِينَ سَبْعَةٌ ، أَوْ تِسْعَةٌ ، وَجَالَ الْمُسْلِمُونَ جَوْلَةً نَحْوَ الْجَبَلِ ، وَلَمْ يَبْلُغُوا حَيْثُ يَقُولُ النَّاسُ الْغَارَ ، إِنَّمَا كَانُوا تَحْتَ الْمِهْرَاسِ ، وَصَاحَ الشَّيْطَانُ : قُتِلَ مُحَمَّدٌ ، فَلَمْ يُشَكَّ فِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ ، فَمَا زِلْنَا كَذَلِكَ مَا نَشُكُّ أَنَّهُ قَدْ قُتِلَ ، حَتَّى طَلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ السَّعْدَيْنِ نَعْرِفُهُ بِتَكَفُّئِهِ إِذَا مَشَى ، قَالَ : فَفَرِحْنَا حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يُصِبْنَا مَا أَصَابَنَا ، قَالَ : فَرَقِيَ نَحْوَنَا ، وَهُوَ يَقُولُ : اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ دَمَّوْا وَجْهَ رَسُولِهِ قَالَ : وَيَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى : اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُمِ أَنْ يَعْلُونَا حَتَّى انْتَهَى إِلَيْنَا . فَمَكَثَ سَاعَةً ، فَإِذَا أَبُو سُفْيَانَ يَصِيحُ فِي أَسْفَلِ الْجَبَلِ : اعْلُ هُبَلُ ، مَرَّتَيْنِ ، يَعْنِي آلِهَتَهُ ، أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ أَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَلاَ أُجِيبُهُ ؟ قَالَ : بَلَى فَلَمَّا قَالَ : اعْلُ هُبَلُ ، قَالَ عُمَرُ : اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ . قَالَ : فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ، إِنَّهُ قَدِ انْعَمَتْ عَيْنُهَا ، فَعَادِ عَنْهَا ، أَوْ فَعَالِ عَنْهَا ، فَقَالَ : أَيْنَ ابْنُ أَبِي كَبْشَةَ ؟ أَيْنَ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ ؟ أَيْنَ ابْنُ الْخَطَّابِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ : هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَهَذَا أَبُو بَكْرٍ ، وَهَا أَنَا ذَا عُمَرُ . قَالَ : فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ : يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ ، الأَيَّامُ دُوَلٌ ، وَإِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ . قَالَ : فَقَالَ عُمَرُ : لاَ سَوَاءً ، قَتْلاَنَا فِي الْجَنَّةِ ، وَقَتْلاَكُمْ فِي النَّارِ . قَالَ : إِنَّكُمْ لَتَزْعُمُونَ ذَلِكَ ، لَقَدْ خِبْنَا إِذَنْ وَخَسِرْنَا . ثُمَّ قَالَ أَبُو سُفْيَانَ : أَمَا إِنَّكُمْ سَوْفَ تَجِدُونَ فِي قَتْلاَكُمْ مُثْلاً ، وَلَمْ يَكُنْ ذَاكَ عَنْ رَأْيِ سَرَاتِنَا . قَالَ : ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ حَمِيَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ ، قَالَ : فَقَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَانَ ذَاكَ ، وَلَمْ نَكْرَهْهُ."[٤٠٢]

وعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، قَالَ: سَمِعْتُ الْبَرَاءَ، يُحَدِّثُ قَالَ: جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرُّمَاةِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَكَانُوا خَمْسِينَ رَجُلا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقَالَ: إِنْ رَأَيْتُمُونَا يَتَخَطَّفُنَا الطَّيْرُ، فَلا تَبْرَحُوا مِنْ مَكَانِكُمْ هَذَا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا هَزَمْنَا الْقَوْمَ وَأَوْطَأْتُهُمْ، وَقَالَ حُسَيْنٌ: وَأَوْطَأْنَاهُمْ فَلا تَبْرَحُوا حَتَّى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ، قَالَ: فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ،

[٤٠٢] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٧٤١)(٢٦٠٩- صحيح

فَأَنَا وَاللَّهِ رَأَيْتُ النِّسَاءَ يَشْتَدُّونَ عَلَى الْجَبَلِ قَدْ بَدَتْ خَلاخِلُهُنَّ وَسُوقُهُنَّ رَافِعَاتٍ ثِيَابَهُنَّ، فَقَالَ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرٍ الْغَنِيمَةَ: أَيْ قَوْمِ الْغَنِيمَةَ ظَهْرَ أَصْحَابُكُمْ فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَسِيتُمْ مَا قَالَ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا: إِنَّا وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّ النَّاسَ، فَلَنُصِيبَنَّ مِنَ الْغَنِيمَةِ، فَلَمَّا أَتَوْهُمْ صُرِفَتْ وجُوهُهُمْ فَأَقْبَلُوا مُنْهَزِمِينَ، وَقَالَ حُسَيْنٌ: فَذَلِكَ إِذْ يَدْعُوهُمُ الرَّسُولُ فِي أُخْرَاهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلا فَأَصَابُوا مِنَّا سَبْعِينَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ بَدْرٍ أَرْبَعِينَ وَمِائَةً سَبْعِينَ أَسِيرًا وَسَبْعِينَ قَتِيلا، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ أَفِي الْقَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ فَنَهَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجِيبُوهُ، ثُمَّ قَالَ: أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، أَفِي الْقَوْمِ ابْنُ الْخَطَّابِ؟ ثَلاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: أَمَّا هَؤُلاءِ فَقَدْ قُتِلُوا، قَالَ فَمَا مَلَكَ عُمَرُ نَفْسَهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ وَاللَّهِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ، فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، وَالْحَرْبُ سِجَالٌ، إِنَّكُمْ سَتَجِدُونَ فِي الْقَوْمِ مُثْلَةً لَمْ آمُرْ بِهَا وَلَمْ تَسُؤْنِي، ثُمَّ أَخَذَ يَرْتَجِزُ اعْلُ هُبَلْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلا تُجِيبُوهُ؟، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟، قَالَ: قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، قَالَ: إِنَّ لَنَا الْعُزَّى وَلا عُزَّى لَكُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلا تُجِيبُوهُ؟، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا نَقُولُ؟، قَالَ: قُولُوا: اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَهُمْ، هَذَا لَفْظُ حَدِيثِ أَبِي دَاوُدَ، وَحَدِيثِ الْحَسَنِ بِمِثْلِهِ، وَقَالَ: اعْلُ هُبَلْ، اعْلُ هُبَلْ مَرَّتَيْنِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلا تُجِيبُونَهُ؟، وَقَالَ: قُولُوا: اللَّهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَهُمْ، أَوْ لَكُمْ.."[٤٠٣]

وعَنْ أَبِي الْوَازِعِ جَابِرِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الْمُغَفَّلِ ، يَقُولُ : أَتَى رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : إِنَّ الْبَلاَيَا أَسْرَعُ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُنْتَهَاهُ."[٤٠٤]

[٤٠٣] - مسند أبي عوانة (٥٤٨٦) صحيح

[٤٠٤] - صحيح ابن حبان - (٧ / ١٨٥) (٢٩٢٢) صحيح لغيره

أي خذ حذرك واستعداداتك في تقبل البلاء .. إن كنت صادقاً فيما تقول .. فللمحبة برهانٌ .. وبرهانها البلاء والصبر على البلاء .. وإلا ما أسهل أن يدَّعي المحبة كل امرئٍ !؟..

وأكثر الناس حباً لله تعالى وللنبيه ﷺ أكثرهم بلاء في الله .. وأكثرهم اتباعاً لمنهاجه وسنته وسيرته، وتخلقاً بأخلاقه ﷺ، كما قال تعالى :{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } (٣١) سورة آل عمران

إن حب اللّه ليس دعوى باللسان ، ولا هياما بالوجدان ، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول اللّه ، والسير على هداه ، وتحقيق منهجه في الحياة .. وإن الإيمان ليس كلمات تقال ، ولا مشاعر تجيش ، ولا شعائر تقام.ولكنه طاعة للّه والرسول ، وعمل بمنهج اللّه الذي يحمله الرسول ..

يقول الإمام ابن كثير في التفسير عن الآية الأولى : «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة اللّه وليس هو على الطريقة المحمدية. فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأعماله ، كما ثبت في الصحيح عن رسول اللّه – ﷺ – أنه قال : «من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد» ..

ويقول عن الآية الثانية : «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ. فَإِنْ تَوَلَّوْا» .. أي تخالفوا عن أمره – «فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكافِرِينَ» .. فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر ، واللّه لا يحب من اتصف بذلك ، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه محب للّه ..

ويقول الإمام شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن قيم الجوزية في كتابه : «زاد المعاد في هدى خير العباد» :

«ومن تأمل في السير والأخبار الثابتة من شهادة كثير من أهل الكتاب والمشركين له – ﷺ – بالرسالة وأنه صادق ، فلم تدخلهم هذه الشهادة في الإسلام .. علم أن الإسلام أمر وراء ذلك ، وأنه ليس مجرد المعرفة فقط. ولا المعرفة والإقرار فقط. بل المعرفة والإقرار والانقياد والتزام طاعته ودينه ظاهرا وباطنا ..»

إن هذا الدين له حقيقة مميزة لا يوجد إلا بوجودها .. حقيقة الطاعة لشريعة اللّه ، والاتباع لرسول اللّه ، والتحاكم إلى كتاب اللّه .. وهي الحقيقة المنبثقة من عقيدة التوحيد كما جاء بها الإسلام. توحيد الألوهية التي لها وحدها الحق في أن تعبد الناس لها ، وتطوّعهم لأمرها ، وتنفذ فيهم شرعها ، وتضع لهم القيم والموازين التي يتحاكمون إليها ويرتضون حكمها. ومن ثم توحيد القوامة التي تجعل الحاكمية للّه وحده في حياة البشر وارتباطاتها جميعا ، كما أن الحاكمية للّه وحده في تدبير أمر الكون كله. وما الإنسان إلا قطاع من هذا الكون الكبير.

وهذا الدرس الأول من السورة يقرر هذه الحقيقة - كما رأينا - في صورة ناصعة كاملة شاملة ، لا مهرب من مواجهتها والتسليم بها لمن شاء أن يكون مسلما. إن الدين عند اللّه الإسلام .. وهذا - وحده - هو الإسلام كما شرعه اللّه ، لا كما تصوره المفتريات والأوهام ..[405]

وعَنْ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي نِسَاءٍ نَعُودُهُ ، فَإِذَا سِقَاءٌ يَقْطُرُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُهُ مِنَ الْحُمَّى ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ، لَوْ دَعَوْتَ اللهَ أَنْ يَكْشِفَ عَنْكَ . فَقَالَ: " إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ "[406]

وعَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاَءً ؟ قَالَ : الأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الأَمْثَلُ ، فَالأَمْثَلُ ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاَؤُهُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلاَءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ."[407]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، قَالَ : دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ قَالَ : " إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْ بَلَاءُ ، وَيُضَعَّفُ لَنَا الْأَجْرُ " قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ " ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : " ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، إِنْ كَانَ

[405] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٣٨٧)

[406] - شعب الإيمان - (١٢ / ٢٣٠) (٩٣١٩) صحيح

[407] - صحيح ابن حبان - (٧ / ١٦١) (٢٩٠١) صحيح

أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ ، حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ "[408]

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ، أَنَّهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ فَقَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ " ، قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : " ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَجُوبُهَا ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْقُمَّلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ "[409]

وعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ ، أَنَّ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مَوْعُوكٌ ، عَلَيْهِ قَطِيفَةٌ ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ فَوَجَدَ حَرَارَتَهَا فَوْقَ الْقَطِيفَةِ ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : مَا أَشَدَّ حَرَّ حُمَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّا كَذَلِكَ يُشَدَّدُ عَلَيْنَا الْبَلَاءُ ، وَيُضَاعَفُ لَنَا الْأَجْرُ " ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَنْ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ؟ قَالَ : " الْأَنْبِيَاءُ " قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : " ثُمَّ الْعُلَمَاءُ " قَالَ : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : " ثُمَّ الصَّالِحُونَ ، كَانَ أَحَدُهُمْ يُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَلْبَسُهَا ، وَيُبْتَلَى بِالْقُمَّلِ حَتَّى يَقْتُلَهُ ، وَلَأَحَدُهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِالْبَلَاءِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِالْعَطَاءِ "[410]

وعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا لِي طَعَامٌ إِلَّا مَا وَارَاهُ إِبِطُ بِلَالٍ "[411]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : " لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، وَمَا لِي وَلَا لِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبِطُ بِلَالٍ "[412]

---

[408] - سُنَنُ ابْنِ مَاجَهْ (٤٠٥٥) صحيح

[409] - تَهْذِيبُ الْآثَارِ لِلطَّبَرِيِّ (٢٤٧٦) صحيح

[410] - السُّنَنُ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (٦١٥٥) صحيح

[411] - صَحِيحُ ابْنِ حِبَّانَ(٦٦٧٨) صحيح

[412] - مُسْنَدُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ (١٣٨٢٨) صحيح

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ – ﷺ – طَرَقَهُ وَجَعٌ ، فَجَعَلَ يَشْتَكِي وَيَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ : لَوْ صَنَعَ هَذَا بَعْضُنَا لَوَجدْتَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : إِنَّ الصَّالِحِينَ يُشَدَّدُ عَلَيْهِمْ ، وَإِنَّهُ لاَ يُصِيبُ مُؤْمِنًا نَكْبَةٌ مِنْ شَوْكَةٍ ، فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ ، إِلاَّ حُطَّتْ بِهِ عَنْهُ خَطِيئَةٌ ، وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً" رَوَاهُ أَحْمَدُ[٤١٣]

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَالصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ "[٤١٤]

وعَنْ صُهَيْبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: " كَانَ مَلِكٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ السَّاحِرُ، قَالَ السَّاحِرُ: إِنِّي قَدْ كَبِرَتْ سِنِّي وَحَضَرَ أَجَلِي، فَادْفَعْ إِلَيَّ غُلَامًا لِأُعَلِّمَهُ السِّحْرَ، فَدَفَعَ إِلَيْهِ غُلَامًا، فكَانَ يُعَلِّمُهُ السِّحْرَ، وَكَانَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ السَّاحِرِ رَاهِبٌ، فَأَتَى الْغُلَامُ عَلَى الرَّاهِبِ فَسَمِعَ كَلَامَهُ، فَأَعْجَبَهُ نَحْوُهُ وَكَلَامُهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، وَيَقُولُ: مَا حَبَسَكَ ؟ فَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ جَلَسَ عِنْدَ الرَّاهِبِ، فَيُبْطِئُ عَلَى أَهْلِهِ، فَإِذَا أَتَى أَهْلَهُ ضَرَبُوهُ، وَقَالُوا: مَا حَبَسَكَ ؟ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا أَرَادَ السَّاحِرُ أَنْ يَضْرِبَكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي، فَإِذَا أَرَادَ أَهْلُكَ أَنْ يَضْرِبُوكَ، فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى يَوْمًا عَلَى دَابَّةٍ فَظِيعَةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَجُوزُوا ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ، أَمْ أَمْرُ السَّاحِرِ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ وَأَرْضَى لَكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَجُوزَ النَّاسُ، وَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَخْبَرَ الرَّاهِبَ بذَلِكَ، فَقَالَ: أَيْ بُنَيْ، أَنْتَ أَفْضَلُ مِنِّي، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ، فَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَسَائِرَ الْأَدْوَاءِ ويشفيهِمْ، وَكَانَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ، فَعَمِيَ فَسَمِعَ بِهِ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: اشْفِنِي، وَلَكَ مَا هَاهُنَا أَجْمَعُ، فَقَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ آمَنْتَ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ، فَدَعَا لَهُ فَشَفَاهُ، ثُمَّ أَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ مَعَهُ نَحْوَ

---

[٤١٣] – مسند أحمد (عالم الكتب) – (٨ / ٢٩٧)(٢٥٢٦٤) ٢٥٧٧٨– صحيح

[٤١٤] – شعب الإيمان – (١٢ / ٢٣٤) (٩٣٢٥) صحيح

مَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ، مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ: رَبِّي، قَالَ: أَنَا ؟ قَالَ: لَا وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ، قَالَ: أَوَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَيْ بُنَيْ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ أَنَّكَ تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَهَذِهِ الْأَدْوَاءَ، فَقَالَ: مَا أَشْفِي أَنَا أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، قَالَ: أَنَا ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَوَ لَكَ رَبٌّ غَيْرِي ؟ قَالَ: نَعَمْ رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ فَأَخَذَهُ أَيْضًا بِالْعَذَابِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَأَتَى الرَّاهِبَ، فَقَالَ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ لِلْأَعْمَى ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ إِلَى الْأَرْضِ فَقَالَ: لِلْغُلَامِ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، وَقَالَ: إِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ مِنْ فَوْقِهِ فَذَهَبُوا بِهِ، فَلَمَّا عَلَوْا بِهِ الْجَبَلَ قَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ، فَتَدَهْدَهُوا أَجْمَعُونَ، وَجَاءَ الْغُلَامُ يَمْشِي حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ ؟ فَقَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، قَالَ: فَبَعَثَ بِهِ مَعَ نَفَرٍ فِي قُرْقُورٍ ، وَقَالَ: إِذَا لَجَجْتُمْ بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَغَرِّقُوهُ، فَلَجَّجُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَقَالَ الْغُلَامُ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَغَرِقُوا أَجْمَعُونَ وَجَاءَ الْغُلَامُ يَتَلَمَّسُ حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ، فَقَالَ كَفَانِيهِمْ اللهُ، ثُمَّ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ، فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلِي، قَالَ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ ، ثُمَّ تَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ فتَأْخُذُ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ، ثُمَّ قُلْ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَتَلْتَنِي، وَإِلَّا فَإِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ قَتْلِي، فَفَعَلَ وَوَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ قَوْسِهِ ثُمَّ رَمَى، فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ ، فَوَضَعَ الْغُلَامُ يَدَهُ عَلَى مَوْضِعِ السَّهْمِ وَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَقِيلَ لِلْمَلِكِ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ وقَدْ آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَأَمَرَ بِأَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ فِيهَا الْأُخْدُودُ، وَأُضْرِمَتْ فِيهَا النِّيرَانُ، وَقَالَ: مَنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ فَدَعُوهُ وَإِلَّا فَأَقْحِمُوهُ فِيهَا، فَكَانُوا يَتَقَاعَدُونَ فِيهَا وَيَتَدَافَعُونَ، فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ بِابْنٍ لَهَا تُرْضِعُهُ، فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِي النَّارِ، فَقَالَ الصَّبِيُّ: يَا أُمَّهِ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ " رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي الصَّحِيحِ، عَنْ هُدْبَةَ

بْنِ خَالِدٍ، عَنْ حَمَّادٍ، وَقَالَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ: " وَجَاءَ الْغُلَامُ يَمْشِي حَتَّى دَخَلَ عَلَى الْمَلِكِ، وَقَالَ: فانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا " وَرَوَاهُ مَعْمَرٌ، عَنْ ثَابِتٍ بِإِسْنَادِهِ وَقَالَ فِي آخِرِهِ: " فَجَعَلَ يُلْقِيهِمْ فِي تِلْكَ الْأُخْدُودِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ } [البروج: ٥] حَتَّى بَلَغَ { الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ } [البروج: ٨] وَأَمَّا الْغُلَامُ، فَإِنَّهُ دُفِنَ فَيُذْكَرَ أَنَّهُ خَرَجَ فِي زَمَانِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَإِصْبَعُهُ عَلَى صُدْغِهِ كَمَا وَضَعَهَا حِينَ قُتِلَ " أَخْبَرَنَاهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْحَافِظُ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ اللهِ الصّنعانيُّ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، فَذَكَرَهُ بِمَعْنَاهُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: " وَالْأُخْدُودُ بِنَجْرَانَ "[٤١٥]

أمَّا الذين يعبدون الله على حرف؛ فيجعلون فتنة الناس كعذاب الله؛ فينقلبون على أعقابهم متسخطين ومنفرين لأدنى بلاء يترل بساحتهم .. ويكثرون من الولولة وقولهم لو كان لما كان كذا .. هؤلاء لا يحسبون أنفسهم على خير أو أهم على هدى ..!

فيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} (١١) سورة الحـــج.

إن العقيدة هي الركيزة الثابتة في حياة المؤمن ، تضطرب الدنيا من حوله فيثبت هو على هذه الركيزة وتتجاذبه الأحداث والدوافع فيتشبث هو بالصخرة التي لا تتزعزع وتتهاوى من حوله الأسناد فيستند هو إلى القاعدة التي لا تحول ولا تزول.

هذه قيمة العقيدة في حياة المؤمن. ومن ثم يجب أن يستوي عليها ، متمكنا منها ، واثقا بها ، لا يتلجلج فيها ، ولا ينتظر عليها جزاء ، فهي في ذاهّا جزاء. ذلك أهّا الحمى الذي يلجأ إليه ، والسند الذي يستند عليه. أجل هي في ذاهّا جزاء على تفتح القلب للنور ، وطلبه للهدى. ومن ثم يهبه اللّه العقيدة ليأوي إليها ، ويطمئن بها.

[٤١٥] – شعب الإيمان – (٣ / ١٧٦) (١٥١٨) وصحيح ابن حبان – (٣ / ١٥٣) (٨٧٣) صحيح وهـــو في مـــسلم بنحوه

هي في ذاتها جزاء يدرك المؤمن قيمته حين يرى الحيارى الشاردين من حوله ، تتجاذبهم الرياح ، وتتقاذفهم الزوابع ، ويستبد بهم القلق. بينما هو بعقيدته مطمئن القلب ، ثابت القدم ، هادئ البال ، موصول باللّه ، مطمئن بهذا الاتصال أما ذلك الصنف من الناس الذي يتحدث عنه السياق فيجعل العقيدة صفقة في سوق التجارة : «فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ» وقال : إن الإيمان خير. فها هو ذا يجلب النفع ، ويدر الضرع ، وينمي الزرع ، ويربح التجارة ، ويكفل الرواج «وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ» .. خسر الدنيا بالبلاء الذي أصابه فلم يصبر عليه ، ولم يتماسك له ، ولم يرجع إلى اللّه فيه. وخسر الآخرة بانقلابه على وجهه ، وانكفائه عن عقيدته ، وانتكاسه عن الهدى الذي كان ميسرا له.

والتعبير القرآني يصوره في عبادته للّه «عَلى حَرْفٍ» غير متمكن من العقيدة ، ولا متثبت في العبادة.

يصوره في حركة جسدية متأرجحة قابلة للسقوط عند الدفعة الأولى. ومن ثم ينقلب على وجهه عند مس الفتنة ، ووقفته المتأرجحة تمهد من قبل لهذا الانقلاب! إن حساب الربح والخسارة يصلح للتجارة ، ولكنه لا يصلح للعقيدة. فالعقيدة حق يعتنق لذاته ، بانفعال القلب المتلقي للنور والهدى الذي لا يملك إلا أن ينفعل بما يتلقى. والعقيدة تحمل جزاءها في ذاتها ، بما فيها من طمأنينة وراحة ورضى ، فهي لا تطلب جزاءها خارجا عن ذاتها.

والمؤمن يعبد ربه شكرا له على هدايته إليه ، وعلى اطمئنانه للقرب منه والأنس به. فإن كان هنالك جزاء فهو فضل من اللّه ومنة. استحقاقا على الإيمان أو العبادة! والمؤمن لا يجرب إلهه. فهو قابل ابتداء لكل ما يقدره له ، مستسلم ابتداء لكل ما يجربه عليه راض ابتداء بكل ما يناله من السراء والضراء. وليست هي صفقة في السوق بين بائع وشار ، إنما هي إسلام المخلوق للخالق ، صاحب الأمر فيه ، ومصدر وجوده من الأساس.

والذي ينقلب على وجهه عند مس الفتنة يخسر الخسارة التي لا شبهة فيها ولا ريب : «ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ» .. يخسر الطمأنينة والثقة والهدوء والرضى. إلى جوار خسارة المال أو الولد ، أو الصحة ، أو أعراض الحياة الأخرى التي يفتن اللّه بها عباده ، ويبتلي بها

ثقتهم فيه ، وصبرهم على بلائه ، وإخلاصهم أنفسهم له ، واستعدادهم لقبول قضائه وقدره .. ويخسر الآخرة وما فيها من نعيم وقربى ورضوان. فيا له من خسران! وإلى أين يتجه هذا الذي يعبد اللّه على حرف؟ إلى أين يتجه بعيدا عن اللّه؟ إنه «يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُ وَما لا يَنْفَعُهُ» .. يدعو صنما أو وثنا على طريقة الجاهلية الأولى. ويدعو شخصا أو جهة أو مصلحة على طريقة الجاهليات المتناثرة في كل زمان ومكان ، كلما انحرف الناس عن الاتجاه إلى اللّه وحده ، والسير على صراطه ونهجه .. فما هذا كله؟ إنه الضلال عن المتجه الوحيد الذي يجدي فيه الدعاء : «ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ» المغرق في البعد عن الهدى والاهتداء .. «يَدْعُوا لَمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ» من وثن أو شيطان ، أو سند من بني الإنسان .. وهذا كله لا يملك ضرا ولا نفعا وهو أقرب لأن ينشأ عنه الضر. وضره أقرب من نفعه. ضره في عالم الضمير بتوزيع القلب ، وإثقاله بالوهم وإثقاله بالذل. وضره في عالم الواقع وكفى بما يعقبه في الآخرة من ضلال وخسران «لَبِئْسَ الْمَوْلى » ذلك الضعيف لا سلطان له في ضر أو نفع «وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ» ذلك الذي ينشأ عنه الخسران. يستوي في ذلك المولى والعشير من الأصنام والأوثان ، والمولى والعشير من بني الإنسان ، ممن يتخذهم بعض الناس آلهة أو أشباه آلهة في كل زمان ومكان! واللّه يدخر للمؤمنين به ما هو خير من عرض الحياة الدنيا كله ، حتى لو خسروا ذلك العرض كله في الفتنة والابتلاء : «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ ما يُرِيدُ» ..فمن مسه الضر في فتنة من الفتن ، وفي ابتلاء من الابتلاءات ، فليثبت ولا يتزعزع ، وليستبق ثقته برحمة اللّه وعونه ، وقدرته على كشف الضراء ، وعلى العوض والجزاء.[٤١٦]

وعَنْ جَابِرٍ قَالَ كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ النَّبِىِّ -ﷺ- فَخَطَّ خَطًّا هَكَذَا أَمَامَهُ فَقَالَ « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ». وَخَطَّيْنِ عَنْ يَمِينِهِ وَخَطَّيْنِ عَنْ شِمَالِهِ قَالَ « هَذِهِ سُبُلُ الشَّيْطَانِ ». ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِى الْخَطِّ الأَوْسَطِ ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ

[٤١٦] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (٤ / ٢٤١٢)

تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} (١٥٣) سورة الأنعام[٤١٧]

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ} (٣٠) سورة فصلت.

هو عرض للوجه الآخر ، من وجوه الإنسانية ، وهو وجه المؤمنين باللّه ، المستقيمين على طريق الهدى ، بعد أن عرضت الآيات السابقة أهل الضلالة والكفر ، وما أعد اللّه لهم من عذاب أليم.

فالذين قالوا ربنا اللّه ، وحده ، لا شريك له ، ولا نعبد إلها غيره ، ولا نتخذ معه شركاء ، ثم إنهم مع إيمانهم هذا ، قد عملوا بمقتضى هذا الإيمان فاستقاموا على ما يدعو إليه الإيمان باللّه ، من امتثال ما يأمر به ، واجتناب ما ينهى عنه ـــ هؤلاء المؤمنون تتنزل عليهم الملائكة بالرحمات والبركات من ربهم ، فيلقونهم عند كل مطلع من مطالع القيامة ، وعند كل شدة من شدائدها ، بما يملأ قلوبهم أمنا وسكينة ورضا ، قائلين لهم : ألّا تخافوا مما أنتم مقدمون عليه من حساب وجزاء ، ولا تحزنوا على فائت فاتكم فى الدنيا ، فقد أخذتم خير ما فيها ، وهو الإيمان باللّه ، والعمل الصالح الذي تقبله اللّه منكم ، وأعد لكم الجزاء الطيب عليه ، وهو الجنة التي وعدكم .. واللّه منجز وعده ..[٤١٨]

والاستقامة على قولة : «رَبُّنَا اللَّهُ». الاستقامة عليها بحقها وحقيقتها. الاستقامة عليها شعورا في الضمير ، وسلوكا في الحياة. الاستقامة عليها والصبر على تكاليفها. أمر ولا شك كبير. وعسير. ومن ثم يستحق عند اللّه هذا الإنعام الكبير. صحبة الملائكة ، وولاءهم ، ومودتهم. هذه التي تبدو فيما حكاه اللّه عنهم. وهم يقولون لأوليائهم المؤمنين : لا تخافوا. لا تحزنوا. أبشروا بالجنة التي كنتم توعدون.[٤١٩]

قالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – : فَلَمْ يَلْتَفِتُوا عَنْهُ يَمْنَةً وَلَا يَسْرَةً . فَلَمْ يَلْتَفِتُوا بِقُلُوبِهِمْ إلَى مَا سِوَاهُ لَا بِالْحُبِّ وَلَا بِالْخَوْفِ وَلَا بِالرَّجَاءِ ؛ وَلَا بِالسُّؤَالِ ؛ وَلَا بِالتَّوَكُّلِ

---

[٤١٧] – مسند أحمد – المكنز – (١٥٦٧١) حسن

[٤١٨] – التفسير القرآني للقرآن ـــ موافقا للمطبوع – (١٢ / ١٣١٣)

[٤١٩] – فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع – (٥ / ٣١٢١)

عَلَيْهِ ؛ بَلْ لَا يُحِبُّونَ إلَّا اللَّهَ وَلَا يُحِبُّونَ مَعَهُ أَنْدَادًا وَلَا يُحِبُّونَ إلَّا إيَّاهُ ؛ لَا لِطَلَبِ مَنْفَعَةٍ وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ وَلَا يَخَافُونَ غَيْرَهُ كَائِنًا مَنْ كَانَ وَلَا يَسْأَلُونَ غَيْرَهُ وَلَا يَتَشَرَّفُونَ بِقُلُوبِهِمْ إلَى غَيْرِهِ .[٤٢٠]

ومن الأنبياء ــ عليهم الصلاة والسلام ــ من استمرَّ في دعوته السنين الطوال، فما آمن معه إلا قليل من الناس، كما قال تعالى عن نوح عليه السلام، الذي ظل يدعو قومه ما يزيد عن تسعمائة عام، فكانت النتيجة كما قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} (٤٠) سورة هود

وعَنِ الْمُخْتَارِ بْنِ فُلْفُلٍ قَالَ قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ النَّبِىُّ -ﷺ- « أَنَا أَوَّلُ شَفِيعٍ فِى الْجَنَّةِ لَمْ يُصَدَّقْ نَبِىٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ مَا صُدِّقْتُ وَإِنَّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيًّا مَا يُصَدِّقُهُ مِنْ أُمَّتِهِ إِلاَّ رَجُلٌ وَاحِدٌ »[٤٢١].

لكنْ كلُّ ذلك لم يكن يجعلهم يستعجلون النصر على الله تعالى، أو يحيدون عن صراط الله المستقيم، ويطلبون السبل الملتوية الخاطئة أملاً في استجلاب الناس إلى دعوتهم ، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، قَالَ : " تَكُونُ فِتْنَةٌ يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ ، حَتَّى يَقْرَأَهُ الْمُؤْمِنُ ، وَالْمُنَافِقُ ، وَالرَّجُلُ ، وَالْمَرْأَةُ ، وَالصَّغِيرُ ، وَالْكَبِيرُ ، فَيَقْرَأُهُ الرَّجُلُ سِرًّا فَلَا يُتَّبَعُ ، فَيَقُولُ : مَا أُتَّبَعُ ، فَوَاللَّهِ لَأَقْرَأَنَّهُ عَلَانِيَةً ، فَيَقْرَأُهُ عَلَانِيَةً فَلَا يُتَّبَعُ ، فَيَتَّخِذُ مَسْجِدًا وَيَبْتَدِعُ كَلَامًا لَيْسَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ، وَلَا مِنْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُ ؛ فَإِنَّهَا بِدْعَةُ ضَلَالَةٍ ، وَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُ ؛ فَإِنَّهَا بِدْعَةُ ضَلَالَةٍ ، فَإِيَّاكُمْ وَإِيَّاهُ ؛ فَإِنَّهَا بِدْعَةُ ضَلَالَةٍ ثَلَاثًا "[٤٢٢]

---

[٤٢٠] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٨ / ٣٢)

[٤٢١] - صحيح مسلم- المكتر - (٥٠٦)

[٤٢٢] - الْبِدَعُ لِابْنِ وَضَّاحٍ (٦٢) صحيح

-البدعة بِدْعَتَان : بدعة هُدًى، وبدعة ضلال، فما كان في خلاف ما أَمَر اللّه به ورسوله صلى اللّه عليه وسلم فهو في حَيِّز الذّم والإنكار، وما كان واقعا تحت عُموم ما نَدب اللّه إليه وحَضَّ عليه اللّه أو رسوله فهو في حيز المدح، ومـــا لم يكن له مثال موجود كنَوْع من الجُود والسخاء وفعْل المعروف فهو من الأفعال المحمودة، ولا يجوز أن يكون ذلـــك في خلاف ما وَردَ الشرع به - الضلالة : الباطل والبعد عن الحق والميل عن الصواب

وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ ، قَالَ : أَدْرَكْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَعَيْتُ عَنْهُ ، وَأَدْرَكْتُ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَوَعَيْتُ عَنْهُ ، وَفَاتَنِي مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَأَخْبَرَنِي يَزِيدُ بْنُ عُمَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي كُلِّ مَجْلِسٍ يُجْلِسُهُ : " اللَّهُ حَكَمٌ قِسْطٍ تَبَارَكَ اسْمُهُ ، هَلَكَ الْمُرْتَابُونَ ، إِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ فِتَنًا يَكْثُرُ فِيهَا الْمَالُ ، وَيُفْتَحُ فِيهَا الْقُرْآنُ حَتَّى يَأْخُذَهُ الرَّجُلُ وَالْمَرْأَةُ وَالْحُرُّ وَالْعَبْدُ وَالصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ ، فَيُوشِكُ الرَّجُلُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ فَيَقُولُ : قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَمَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ؟ ثُمَّ يَقُولُ : مَا هُمْ مُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَبْتَدِعَ لَهُمْ غَيْرَهُ فَإِيَّاكُمْ ، وَمَا ابْتَدَعَ فَإِنَّ مَا ابْتَدَعَ ضَلَالَةٌ ، اتَّقُوا زَلَّةَ الْحَكِيمِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي عَلَى فِي الْحَكِيمِ الضَّلَالَةَ ، وَيُلْقِي لِلْمُنَافِقِ كَلِمَةَ الْحَقِّ " ، قَالَ : قُلْنَا : وَمَا يُدْرِيكَ يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَنَّ الْمُنَافِقَ يُلَقَّى كَلِمَةَ الْحَقِّ وَأَنَّ الشَّيْطَانَ يُلْقِي عَلَى فِي الْحَكِيمِ كَلِمَةَ الضَّلَالَةِ ؟ قَالَ : " اجْتَنِبُوا مِنْ كَلَامِ الْحَكِيمِ كُلَّ مُتَشَابِهٍ ، الَّذِي إِذَا سَمِعْتَهُ قُلْتَ : مَا هَذَا ؟ وَلَا يُنَبِّئُكَ ذَلِكَ عَنْهُ فَإِنَّهُ لَعَلَّهُ أَنْ يُرَاجِعَ وَيُلْقِي الْحَقَّ فَاسْمَعْهُ فَإِنَّ عَلَى الْحَقِّ نُورًا "[423]

حاشاهم .. بل كانوا المثل الأعلى في الوقوف عند الحق لا يتجاوزونه إلى غيره مهما كانت النتائج .. وعظمت التضحيات .. وكانوا دعاة إلى الله تعالى وإلى عبادته وتوحيده .. واجتناب كل ما يُعبد سواه، كما أمرهم الله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} (٣٦) سورة النحل.

فَقَدْ بَعَثَ اللهُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً دَعَاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّيْطَانِ (الطَّاغُوتِ) ، وَعَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَعَنِ الشِّرْكِ باللهِ ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ آمَنَ باللهِ ، وَاتَّبَعَ الرُّسُلَ فَاهْتَدَى ، وَمِنْهُمْ مَنَ ضَلَّ وَاسْتَكْبَرَ وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ . فَقُلْ يَا مُحَمَّدُ ، لِهؤُلاَءِ الْمُشْرِكِينَ : سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ نِهَايَةُ الْمُكَذِبِينَ ،

---

[423] - الْمُسْتَدْرَكُ عَلَى الصَّحِيحَيْنِ لِلْحَاكِمِ (٨٥٥٤) صحيح

وَكَيْفَ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَأَهْلَكَهُمْ ، وَجَعَلَ عَاقِبَتَهُمْ أَسْوَأَ عَاقِبَةٍ ، وَلِذَلِكَ كُلِّهِ فَإِنَّ هَؤُلاَءِ لاَ بُرْهَانَ لَهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ إِنَّ اللهَ رَضِيَ لَهُمُ الكُفْرَ .[٤٢٤]

هذه هي مهمتهم الأساسية ومهمة الدعاة العاملين من بعدهم إلى يوم القيامة؛ وهي إخراج العباد من عبادة الطاغوت إلى عبادة الله تعالى وحده.

قال ابن نيمية رحمه الله : " وَالطَّاغُوتُ فعلوت مِنْ الطُّغْيَانِ . كَمَا أَنَّ الْمَلَكُوتَ فعلوت مِنْ الْمُلْك . وَالرَّحَمُوتُ وَالرَّهَبُوتُ والرغبوت . فعلوت مِنْ الرَّحْمَةِ وَالرَّهْبَةِ وَالرَّغْبَةُ . وَالطُّغْيَانُ : مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ ؛ وَهُوَ الظُّلْمُ وَالْبَغْيُ . فَالْمَعْبُودُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إذَا لَمْ يَكُنْ كَارِهًا لِذَلِكَ : طَاغُوتٌ ؛ وَلِهَذَا سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ الْأَصْنَامَ طَوَاغِيتَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ لَمَّا قَالَ : { وَيَتَّبِعُ مَنْ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ } . وَالْمُطَاعُ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالْمُطَاعُ فِي اتِّبَاعِ غَيْرِ الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ - سَوَاءٌ كَانَ مَقْبُولًا خَبَرُهُ الْمُخَالِفُ لِكِتَابِ اللَّهِ أَوْ مُطَاعًا أَمْرُهُ الْمُخَالِفُ لِأَمْرِ اللَّهِ - هُوَ طَاغُوتٌ ؛ وَلِهَذَا سُمِّيَ مَنْ تُحُوكِمَ إلَيْهِ مَنْ حَاكَمَ بِغَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ طَاغُوتٌ وَسَمَّى اللَّهُ فِرْعَوْنَ وَعَادًا طُغَاةً " .[٤٢٥]

هذه القضية ــــ قضية مَن المعبود بحق ــــ هي قضية القضايا التي لا تعلوها قضية .. التي يجب أن ينهض لها العلماء العاملين بكل جد وإخلاص .. لا يلتفتون عنها إلى غيرها قبل أن يفرغوا منها .. وقبل أن يُعطوا الإجابة الصادقة عليها من الناس كل الناس ..!

هذه القضيةُ الهامة التي لم تكن تقبل المساومة عند سلفنا الصالح .. والتي كان على أساسها يُعقد الولاء والبراء، ولأجلها تُسلُّ السيوف، وتُجيش الجيوش ويُعقد السلم والحرب .. إلا أنه وجد في زماننا كثير ممن يُسمون بالدعاة .. قد فرطوا بها، وتجاوزوها إلى غيرها من المهام والمسائل قبل أن تحسمَ مع الطواغيت الظالمين، وقبل أن يتفقوا معهم على قضية من المعبود بحق في الوجود .. ورضوا بالفتات اليسير الذي يُرمَى إليهم ..فباركوه وحسنوه، واستكثروه في أعين الناس .. وعدوه فتحاً ونصراً للدعوة ما بعده من نصر .[٤٢٦]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٤٢٤] - أيسر التفاسير لأسعد حومد - (١ / ١٩٣٨)

[٤٢٥] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٨ / ٢٠٠)

[٤٢٦] - انظر كتاب صفة الطائفة المنصورة لأبي بصير

المبحث السابع

الراجح في شأن الطائفة المنصورة

قال بعض العلماء : فمنْ يا أخي هذه الطائفة؟ وهل أنْتَ واحدٌ منْها ! ؟

ذهب كثير من السلف إلى أنّ هذه الطائفة المذكورة في الحديث الأول المذكور آنفاً هم العلماء كما صرّح بذلك البخاري رحمه الله حيث قال في صحيحه (باب قول النبي ﷺ : لا تزال طائفة من أمتي.. وهم أهل العلم) قال ابن حجر: (وهم أهل العلم) هو من كلام المصنف - يعني البخاري - وقال بعضهم هم أهل الحديث كما صرح بذلك الإمام أحمد حيث قال:(إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري مَنْ هم؟) ..لكن ورود لفظ القتال في الحديث الثاني وفي بقية الروايات يبين صراحة أنّ القتال هو من خصائص هذه الطائفة،.

لذا فلا يمكن حصر هذه الطائفة في العلماء وأهل الحديث فقط بل هناك أصناف أخرى بينها أهل العلم ، قال الإمام النووي رحمه الله في شرح مسلم: " وَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَة فَقَالَ الْبُخَارِيّ : هُمْ أَهْل الْعِلْم ، وَقَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل : إِنْ لَمْ يَكُونُوا أَهْل الْحَدِيث فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ ؟ قَالَ الْقَاضِي عِيَاض : إِنَّمَا أَرَادَ أَحْمَد أَهْل السُّنَّة وَالْجَمَاعَة ، وَمَنْ يَعْتَقِد مَذْهَب أَهْل الْحَدِيث ، قُلْت : وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَة مُفَرَّقَة بَيْن أَنْوَاع الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ شُجْعَان مُقَاتِلُونَ ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاء ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ ، وَمِنْهُمْ زُهَّاد وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنْ الْمُنْكَر ، وَمِنْهُمْ أَهْل أَنْوَاع أُخْرَى مِنْ الْخَيْر ، وَلَا يَلْزَم أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَقْطَار الْأَرْض . وَفِي هَذَا الْحَدِيث مُعْجِزَة ظَاهِرَة ؛ فَإِنَّ هَذَا الْوَصْف مَا زَالَ بِحَمْدِ اللَّه تَعَالَى مِنْ زَمَن النَّبِيّ ﷺ إِلَى الْآن ، وَلَا يَزَال حَتَّى يَأْتِي أَمْر اللَّه الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث . وَفِيهِ دَلِيل لِكَوْنِ الْإِجْمَاع حُجَّة ، وَهُوَ أَصَحّ مَا اُسْتُدِلَّ بِهِ لَهُ مِنْ الْحَدِيث ، وَأَمَّا حَدِيث " لَا تَجْتَمِع أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَة " فَضَعِيف . وَاللَّهُ أَعْلَم "[٤٢٧].

---

[٤٢٧] - شرح النووي على مسلم - (٦ / ٤٠٠) وعون المعبود - (٥ / ٣٧٢)

وانظر إلى شيخ لإسلام في فتواه بقتال التتار الناطقين بالشهادتين الحاكمين بغير شريعة الإسلام : " أَمَّا الطَّائِفَةُ بِالشَّامِ وَمِصْرَ وَنَحْوِهِمَا فَهُمْ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْمُقَاتِلُونَ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَهُمْ مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ دُخُولًا فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ الَّتِي ذَكَرَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ فِي الْأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ عَنْهُ : { لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ } .وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ : { لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ } .وَالنَّبِيُّ ﷺ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ بِمَدِينَتِهِ النَّبَوِيَّةِ ، فَغَرْبُهُ مَا يَغْرُبُ عَنْهَا ، وَشَرْقُهُ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا ، فَإِنَّ التَّشْرِيقَ وَالتَّغْرِيبَ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ ، إذْ كُلُّ بَلَدٍ لَهُ شَرْقٌ وَغَرْبٌ ، وَلِهَذَا إذَا قَدِمَ الرَّجُلُ إلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ مِنْ الْغَرْبِ يَقُولُونَ : سَافَرَ إلَى الشَّرْقِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يُسَمُّونَ أَهْلَ الشَّامِ أَهْلَ الْغَرْبِ ، وَيُسَمُّونَ أَهْلَ نَجْدٍ وَالْعِرَاقِ أَهْلَ الشَّرْقِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَدِمَ رَجُلَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَشْرِقِ فَخَطَبَا وَفِي رِوَايَةٍ : { مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ } .

وَلِهَذَا قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : أَهْلُ الْغَرْبِ هُمْ أَهْلُ الشَّامِ .يَعْنِي هُمْ أَهْلُ الْغَرْبِ كَمَا أَنَّ نَجْدًا وَالْعِرَاقَ أَوَّلُ الشَّرْقِ ، وَكُلُّ مَا يَشْرُقُ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ الشَّرْقِ ، وَكُلّ مَا يَغْرُبُ عَنْ الشَّامِ مِنْ مِصْرَ وَغَيْرِهَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي الْغَرْبِ .وَفِي الصَّحِيحَيْنِ : أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ فِي الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَهُمْ بِالشَّامِ فَإِنَّهَا أَصْلُ الْمَغْرِبِ ، وَهُمْ فَتَحُوا سَائِرَ الْمَغْرِبِ : كَمِصْرِ ، وَالْقَيْرَوَانِ ، وَالْأَنْدَلُسِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَإِذَا كَانَ غَرْبُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ مَا يَقْرُبُ عَنْهَا فَالنَّيِّرَةُ وَنَحْوُهَا عَلَى مُسَامَتَةِ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ كَمَا أَنَّ حَرَّانَ وَالرَّقَّةَ وسمنصاط وَنَحْوَهَا عَلَى مُسَامَتَةِ مَكَّةَ ، فَمَا يَغْرُبُ عَنْ النَّيِّرَةِ فَهُوَ مِنْ الْغَرْبِ الَّذِينَ وَعَدَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ لِمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ فِي صِفَةِ الطَّائِفَةِ الْمَنْصُورَةِ أَنَّهُمْ بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ هِيَ الَّتِي بِأَكْنَافِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ الْيَوْمَ وَمَنْ يَدَّبَّرُ أَحْوَالَ الْعَالَمِ فِي هَذَا الْوَقْتِ فَعَلِمَ أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ هِيَ أَقْوَمُ الطَّوَائِفِ بِدِينِ الْإِسْلَامِ عِلْمًا وَعَمَلًا وَجِهَادًا عَنْ شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا ، فَإِنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ أَهْلَ الشَّوْكَةِ الْعَظِيمَةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، وَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَمَغَازِيهِمْ مَعَ النَّصَارَى ، وَمَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ التُّرْكِ ، وَمَعَ الزَّنَادِقَةِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ الدَّاخِلِينَ فِي الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ : كَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ ، وَنَحْوِهِمْ مِنْ الْقَرَامِطَةِ ، مَعْرُوفَةٌ مَعْلُومَةٌ قَدِيمًا

وَحَدِيثًا وَالْعِزُّ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ بِمَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا هُوَ بِعِزِّهِمْ وَلِهَذَا لَمَّا هُزِمُوا سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَسِتِّمِائَةٍ دَخَلَ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ الذُّلِّ وَالْمُصِيبَةِ بِمَشَارِقِ

وَأَمَّا سُكَّانُ الْحِجَازِ فَأَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ خَارِجُونَ عَنْ الشَّرِيعَةِ ، وَفِيهِمْ مِنْ الْبِدَعِ وَالضَّلَالِ وَالْفُجُورِ مَا لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ ، وَأَهْلُ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ فِيهِمْ مُسْتَضْعَفُونَ عَاجِزُونَ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ لَهُمْ الْقُوَّةُ وَالْعِزَّةُ فِي هَذَا الْوَقْتِ لِغَيْرِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، فَلَوْ ذَلَّتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ وَالْعِيَاذُ بِاَللَّهِ تَعَالَى لَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِالْحِجَازِ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ لَا سِيَّمَا وَقَدْ غَلَبَ فِيهِمْ الرَّفْضُ ، وَمَلَكَ هَؤُلَاءِ التَّتَارُ الْمُحَارِبُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ الْآنَ مَرْفُوضُونَ فَلَوْ غَلَبُوا لَفَسَدَ الْحِجَازُ بِالْكُلِّيَّةِ .

وَأَمَّا بِلَادُ إفْرِيقِيَّةَ فَأَعْرَابُهَا غَالِبُونَ عَلَيْهَا ، وَهُمْ مِنْ شَرِّ الْخَلْقِ بَلْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِلْجِهَادِ وَالْغَزْوِ .

وَأَمَّا الْغَرْبُ الْأَقْصَى فَمَعَ اسْتِيلَاءِ الْإِفْرِنْجِ عَلَى أَكْثَرِ بِلَادِهِمْ لَا يَقُومُونَ بِجِهَادِ النَّصَارَى الَّذِينَ هُنَاكَ بَلْ فِي عَسْكَرِهِمْ مِنْ النَّصَارَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصُّلْبَانَ خَلْقٌ عَظِيمٌ لَوْ اسْتَوْلَى التَّتَارُ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ لَكَانَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ مَعَهُمْ مِنْ أَذَلِّ النَّاسِ لَا سِيَّمَا وَالنَّصَارَى تَدْخُلُ مَعَ التَّتَارِ فَيَصِيرُونَ حِزْبًا عَلَى أَهْلِ الْمَغْرِبِ ، فَهَذَا وَغَيْرُهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّ هَذِهِ الْعِصَابَةَ الَّتِي بِالشَّامِ وَمِصْرَ فِي هَذَا الْوَقْتِ هُمْ كَتِيبَةُ الْإِسْلَامِ ، وَعِزُّهُمْ عِزُّ الْإِسْلَامِ ، وَذُلُّهُمْ ذُلُّ الْإِسْلَامِ ، فَلَوْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمْ التَّتَارُ لَمْ يَبْقَ لِلْإِسْلَامِ عِزٌّ وَلَا كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ ، وَلَا طَائِفَةٌ ظَاهِرَةٌ عَالِيَةٌ يَخَافُهَا أَهْلُ الْأَرْضِ تُقَاتِلُ عَنْهُ ، فَمَنْ قَفَزَ عَنْهُمْ إلَى التَّتَارِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقِتَالِ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ التَّتَارِ ، فَإِنَّ التَّتَارَ فِيهِمْ الْمُكْرَهُ وَغَيْرُ الْمُكْرَهِ ."[٤٢٨]

ونقول كما قال شيخ الإسلام، فإذا استولى عدونا اليوم على المجاهدين لم يبق عزٌّ ولا كلمةٌ مرفوعة ،ومن يتدبرُ حال العالم اليوم يعلم يقيناً بأن الشوكة في أعين الأعداء من الكافرين وأعوانهم الموالين لهم هم المجاهدون، فالكفار اليوم لا يخافون من الدول الإسلامية لا من حكامها ولا من جيوشها،بل على العكس هم اليوم العيون الساهرة على حماية الكافرين بحربهم وملاحقتهم للمجاهدين،ولا شك أنّ العلماء العاملين المجاهدين هم أوّل

---

[٤٢٨] – الفتاوى الكبري لابن تيمية – (٥ / ٢٥٠) ومجموع الفتاوى لابن تيمية – (٢٨ / ٥٣١)

الناس دخولاً في هذه الطائفة والبقية الذين ذكرهم النووي هم تبع لهم ، والـــذي جعـــل بعضاً من السلف يقول أنّ الطائفة هم العلماء هو أنّ الجهاد لم يكنْ عليه خـــلاف بـــين المسلمين – كما هو الحال اليوم – وكانت الثغور مشحونة بالجند ، والجيوش موجهة إلى ديار الحرب وكان أكثر ما يخلّ بالدين هي البدع والضلالات الكبرى ، وفرســـان هـــذا الميدان هم العلماء ، أما نحن اليوم فبحاجة إلى جهد العلماء والمجاهدين كلٌ في ميدانـــه ، فالدّين لا يقوم بالعلم وحده ! ولا بالجهاد وحده ! بل بهما معاً كما قال تعـــالى : ﴿ لَقَـــدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَـــوِيٌّ عَزِيـــزٌ ﴾ (الحديد:٢٥)

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ قَدَّسَ رُوحَهُ : " اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالْهُـــدَى وَدِيـــنِ الْحَقِّ ؛ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَأَكْمَلَ لِأُمَّتِهِ الدِّينَ وَأَتَمَّ عَلَيْهِمْ النِّعْمَةَ وَجَعَلَهُ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنْ الْأَمْرِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَتَّبِعَهَا وَلَا يَتَّبِعْ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ وَجَعَلَ كِتَابَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكُتُبِ وَمُصَدِّقًا لَهَا وَجَعَلَ لَهُ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَشَرَعَ لِأُمَّتِهِ سُنَنَ الْهُدَى ؛ وَلَـــنْ يَقُومَ الدِّينُ إلَّا بِالْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ وَالْحَدِيدِ . كِتَابٌ يَهْدِي بِهِ وَحَدِيدٌ يَنْصُرُهُ كَمَـــا قَـــالَ تَعَالَى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ } فَالْكِتَابُ بِهِ يَقُومُ الْعِلْمُ وَالدِّينُ . وَالْمِيزَانُ بِهِ تَقُومُ الْحُقُوقُ فِي الْعُقُودِ الْمَالِيَّةِ والقبوض . وَالْحَدِيدُ بِهِ تَقُومُ الْحُدُودُ عَلَى الْكَـــافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ . وَلِهَذَا كَانَ فِي الْأَزْمَانِ الْمُتَأَخِّرَةِ الْكِتَابُ لِلْعُلَمَاءِ وَالْعِبَادِ . وَالْمِيزَانُ لِلْـــوُزَرَاءِ وَالْكُتَّابِ وَأَهْلِ الدِّيوَانِ . وَالْحَدِيدُ لِلْأُمَرَاءِ وَالْأَجْنَادِ . وَالْكِتَابُ لَهُ الصَّلَاةُ ؛ وَالْحَدِيدُ لَـــهُ الْجِهَادُ ؛ وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ فِي الصَّلَاةِ وَالْجِهَادِ وَكَانَ { النَّبِـــيُّ ﷺ يَقُولُ فِي عِيَادَةِ الْمَرِيضِ : اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَك يَشْهَدْ لَك صَلَاةً ؛ وَيَنْكَأْ لَك عَـــدُوًّا } وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ { رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِـــي سَبِيلِ اللَّهِ }وَلِهَذَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ الْقُرْآنِ ؛ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : { إنَّمَا الْمُؤْمِنُـــونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّـــهِ } .

وَالصَّلَاةُ أَوَّلُ أَعْمَالِ الْإِسْلَامِ ؛ وَأَصْلُ أَعْمَالِ الْإِيمَانِ ؛ وَلِهَذَا سَمَّاهَا إيمَانًا فِي قَوْلِهِ : { وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إيمَانَكُمْ } أَيْ صَلَاتَكُمْ إلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ . هَكَذَا نُقِلَ عَنْ السَّلَفِ وَقَالَ تَعَالَى : { أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ } وَقَالَ : { فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ } فَوَصَفَهُمْ بِالْمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَقِيقَةُ الصَّلَاةِ كَمَا قَالَ : { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا } فَوَصَفَهُمْ بِالشِّدَّةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالضُّلَّالِ . وَفِي الصَّحِيحِ { أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سُئِلَ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : إيمَانٌ بِاَللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ فَقِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : ثُمَّ حَجٌّ مَبْرُورٌ } مَعَ قَوْلِهِ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ { لَمَّا سَأَلَهُ ابْنُ مَسْعُودٍ : أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ الصَّلَاةُ فِي وَقْتِهَا قَالَ ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : بِرُّ الْوَالِدَيْنِ قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } فَإِنَّ قَوْلَهُ " إيمَانٌ بِاَللَّهِ " دَخَلَ فِيهِ الصَّلَاةُ ؛ وَلَمْ يَذْكُرْ فِي الْأَوَّلِ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ ؛ إذْ لَيْسَ لِكُلِّ أَحَدٍ وَالِدَانِ . فَالْأَوَّلُ مُطْلَقٌ وَالثَّانِي مُقَيَّدٌ بِمَنْ لَهُ وَالِدَانِ . وَلِهَذَا كَانَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَسَائِرِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَمَنْ سَلَكَ سَبِيلَهُمْ مِنْ وُلَاةِ الْأُمُورِ - فِي الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ وَالْعَبَّاسِيَّةِ - أَنَّ الْإِمَامَ يَكُونُ إمَامًا فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ جَمِيعًا : الصَّلَاةُ وَالْجِهَادُ . فَاَلَّذِي يَؤُمُّهُمْ فِي الصَّلَاةِ يَؤُمُّهُمْ فِي الْجِهَادِ وَأَمْرُ الْجِهَادِ وَالصَّلَاةِ وَاحِدٌ فِي الْمُقَامِ وَالسَّفَرِ "[429]

وقال أيضاً رحمه الله : " وَاَللَّهُ أَوْجَبَ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ أَنْ يُؤْمِنُوا بِجَمِيعِ كُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَمُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمُ الرُّسُلِ ؛ فَعَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ وَاتِّبَاعُ مَا شَرَعَهُ مِنْ الدِّينِ وَهُوَ مَا أَتَى بِهِ مِنْ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَمَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَهُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ اتِّبَاعُهُ ؛ - وَلَيْسَ لِأَحَدِ الْخُرُوجُ عَنْهُ وَهُوَ الشَّرْعُ الَّذِي يُقَاتِلُ عَلَيْهِ الْمُجَاهِدُونَ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ . وَسُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ تَنْصُرُ هَذَا الشَّرْعَ وَهُوَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ كَمَا قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : { أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَضْرِبَ بِهَذَا - يَعْنِي السَّيْفَ - مَنْ خَالَفَ

[429] - الفتاوى الكبري لابن تيمية - (٧ / ٢٠٠) ومجموع الفتاوى لابن تيمية - (٣٥ / ٣٦)

ما في هَذَا . يَعْنِي الْمُصْحَفَ } [٤٣٠]قَالَ تَعَالَى : { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ وَأَنْزَلَ الْعَدْلَ وَمَا بِهِ يُعْرَفُ الْعَدْلُ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلَ الْحَدِيدَ . فَمَنْ خَرَجَ عَنْ الْكِتَابِ وَالْمِيزَانِ قُوتِلَ بِالْحَدِيدِ . فَالْكِتَابُ وَالْعَدْلُ مُتَلَازِمَانِ وَالْكِتَابُ هُوَ الْمُبَيِّنُ لِلشَّرْعِ ؛ فَالشَّرْعُ هُوَ الْعَدْلُ وَالْعَدْلُ هُوَ الشَّرْعُ وَمَنْ حَكَمَ بِالْعَدْلِ فَقَدْ حَكَمَ بِالشَّرْعِ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَنْسُبُونَ مَا يَقُولُونَهُ إلَى الشَّرْعِ وَلَيْسَ مِنْ الشَّرْعِ ؛ بَلْ يَقُولُونَ ذَلِكَ إمَّا جَهْلًا وَإِمَّا غَلَطًا وَإِمَّا عَمْدًا وَافْتِرَاءً وَهَذَا هُوَ الشَّرْعُ الْمُبَدَّلُ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَصْحَابُهُ الْعُقُوبَةَ "[٤٣١]

لذا فقد رأيت أخي المسلم أنْ الطائفة المنصورة تشمل أصنافاً كثيرة من المسلمين لكنْ كلهم يندرجون تحت طائفة أهل السنة والجماعة ،وكلٌ حسب عمله وطاقته ،فمن غير الإنصاف حصر تلك الطائفة بصنف معين من أهل السنة أو القول فقط هم أهل العلم،كما قال شيخ الإسلام : " وَالْمُسْلِمُونَ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا قُلُوبُهُمْ وَاحِدَةٌ مُوَالِيَةٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ مُعَادِيَةٌ لِأَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَعْدَاءِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَقُلُوبُهُمْ الصَّادِقَةُ وَأَدْعِيَتُهُمْ الصَّالِحَةُ هِيَ الْعَسْكَرُ الَّذِي لَا يُغْلَبُ وَالْجُنْدُ الَّذِي لَا يُخْذَلُ فَإِنَّهُمْ هُمْ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ." [٤٣٢]

بعد هذا كله أخي الحبيب فكّر جيداً مع نفسك وانظر أينَ أنتَ من هذه الطائفة المباركة واسألِ الله تعالى أنْ يجعلك منهم، ولا تكنْ من المخذّلين لهم الذين ينبزونهم بالألقاب تارة ، وينتقصون منهم تارة أخرى ، فاحذر ذلك كلّه ودافع عن عباد الله المؤمنين المجاهدين وكن في صفّهم ومعهم ، ولا تكن من المخالفين لهم – والعياذ بالله – لأن المخالفة لهم تعني أنْ تكون في غير صفّهم كما قال شيخ الإسلام– عند دخول التتار بلاد الإسلام في زمنه– " حَيْثُ تَحَزَّبَتْ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَحْزَابٍ : حِزْبٌ مُجْتَهِدٌ فِي نَصْرِ الدِّينِ . وَآخَرُ خَاذِلٌ لَهُ . وَآخَرُ خَارِجٌ عَنْ شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ . وَانْقَسَمَ النَّاسُ مَا بَيْنَ مَأْجُورٍ وَمَعْذُورٍ . وَآخَرُ قَدْ

---

[٤٣٠] – أخرجه ابن عساكر (٢٧٩/٥٢) وجامع الأحاديث – (٣٤ / ٧٥)

[٤٣١] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٣٥ / ٣٦٥)

[٤٣٢] – مجموع الفتاوى لابن تيمية – (٢٨ / ٦٤٤)

غَرَّهُ بِاللَّهِ الْغَرُورُ . وَكَانَ هَذَا الِامْتِحَانُ تَمْيِيزًا مِنْ اللَّهِ وَتَقْسِيمًا . {لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (٢٤) سورة الأحزاب"[٤٣٣]

فيا سبحان الله فقد عادت الكرّة من جديد ولكن المصيبة أن التخذيل اليوم لبس ثوباً جديداً باسم العلم والسَّلَفية وحقيقته سياسة حكومية، فشيخ الإسلام عدَّ في زمنه المجاهدين بأنهم أولى الناس دخولاً في الطائفة المنصورة ومخذلة اليوم عَدّوا المجاهدين من الطائفة المخذولة، فخذلوا إخوانهم وهم بأمسّ الحاجة لهم ولكن حسب المجاهدين قول الله تبارك وتعالى: { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)} [الصافات : ١٧١ - ١٧٣]

فإياك .. إياك .. أنْ تمسّ المجاهدين بسوء سواءاً بالكلمة أو بالإشارة أو بالهمز واللمز لأنّ ذلك كلّه منهي عنه كما جاء في الحديث الذي يرويه الإمام مسلم في صحيحه عَنْ عَائِذِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ فِى نَفَرٍ فَقَالُوا وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ فَأَتَى النَّبِىَّ -ﷺ- فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ « يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ يَا إِخْوَتَاهْ أَغْضَبْتُكُمْ قَالُوا لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أُخَىَّ.[٤٣٤] .

فهذا في حق أبي بكر وهو خير الأمة بعد رسول اللهﷺ ، فكيف بنا نحن في زماننا هذا !!! والله المستعان .

قال ابن تيمية : " وَلِهَذَا كَانَ الصَّبْرُ وَالْيَقِينُ - اللَّذَيْنِ هَمَّا أَصْلُ التَّوَكُّلِ - يُوجِبَانِ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ } . وَلِهَذَا كَانَ الْجِهَادُ مُوجِبًا لِلْهِدَايَةِ الَّتِي هِيَ مُحِيطَةٌ بِأَبْوَابِ الْعِلْمِ . كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } فَجَعَلَ لِمَنْ جَاهَدَ

---

[٤٣٣] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٨ / ٤٢٨)

[٤٣٤] - صحيح مسلم- المكتر - (٦٥٦٨)

فِيهِ هِدَايَةَ جَمِيعِ سُبُلِهِ تَعَالَى ؛ وَلِهَذَا قَالَ الْإِمَامَانِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا : إذَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي شَيْءٍ فَانْظُرُوا مَاذَا عَلَيْهِ أَهْلُ الثَّغْرُ فَإِنَّ الْحَقَّ مَعَهُمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا } . وَفِي الْجِهَادِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الزُّهْدِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ الدُّنْيَا . وَفِيهِ أَيْضًا : حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ . فَإِنَّ الْكَلَامَ فِيمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا فِي سَبِيلِ الرِّيَاسَةِ وَلَا فِي سَبِيلِ الْمَالِ وَلَا فِي سَبِيلِ الْحَمِيَّةِ وَهَذَا لَا يَكُونُ إلَّا لِمَنْ قَاتَلَ لِيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ وَلِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا . وَأَعْظَمُ مَرَاتِبِ الْإِخْلَاصِ : تَسْلِيمُ النَّفْسِ وَالْمَالِ لِلْمَعْبُودِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة "[٤٣٥]

==============

[٤٣٥] - مجموع الفتاوى لابن تيمية - (٢٨ / ٤٤٢)

الطائفة المنصورة هي من أهل السنة والجماعة

وقال حسين بن محمود :

"الطائفة المنصورة هي من أهل السنة والجماعة ، ويجوز أن يُقال : أهل السنة والجماعة ويُقصد بها الطائفة المنصورة ، أو الفرقة الناجية ، فهذه المصطلحات على إطلاقها تدل على معنى يكاد يكون واحداً ، ولكنها إذا ذكرت مجتمعة فبينها عموم وخصوص ، وأكثر ألفاظ الحديث وصفت الطائفة المنصورة بـــ "المقاتلة" ، وهذا لا يغيب على من تتبع روايات الحديث.

وأما القول بأن كل أهل السنة من الطائفة المنصورة ، فهذا لا يستقيم ، وإذا علمنا أن الإمام النووي وغيره من الأئمة قد خصوا بعض الطوائف بكونهم من الطائفة المنصورة ، والإمام أحمد قال بأنهم "أهل الحديث" فما فائدة التخصيص في نصوص الحديث وفي أقوال الأئمة إذا كان جميع أهل السنَّة هم الطائفة المنصورة ، إلا إذا كان أهل السنَّة هم أهل الحديث فقط ، وهذا يحتاج إلى دليل !!

وأما تخصيص الإمام أحمد أهل الحديث بالطائفة المنصورة : فهذا حق ، ولكن من هم أهل الحديث في زمن الإمام أحمد ، وماذا كان عليه هؤلاء من علم واعتقاد وعمل ، هذا هو بيت القصيد ..

إن اعتقاد النجاة باعتقاد عقيدة أهل الحديث دون عمل أهل الحديث هو عين الإرجاء ، ومن أراد أن يعرف حقيقة قول الإمام أحمد فليرجع إلى كتب التراجم ولينظر حال أئمة أهل الحديث في زمانه ثم يقارن بينهم وبين مَن يدعون أنهم أهل الحديث والطائفة المنصورة في هذا الزمان ، بل لينظر حال الإمام أحمد نفسه ..

لو أطلقنا لقب الطائفة المنصورة على أهل السنَّة ، فيجب أن نسأل : من هم أهل السنة !! وسنَّة من هذه التي اشتقوا منها هذا اللقب !!

أليس صاحب هذه السنَّة هو القائل " « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَإِيمَانًا بِى وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِى فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا

مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّى وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ». (مسلم)[٤٣٦] ..

إن الذي يقرأ السيرة النبوية – بعد الإذن بالقتال – يجد أن البعثات والسرايا والغزوات قد طغى ذكرها في تلك الفترة على ذكر غيرها من الأمور التي حصلت للمسلمين .. لقد شُرع الجهاد بعد ستة أشهر من الهجرة ، واشترك النبي ﷺ في ٢٦ غزوة لقي في تسع منها قتال ، وأرسل ٦٠ بعثة وسرية في تلك السنوات .. أي أن معدل غزوات النبي ﷺ شارك : أكثر من غزوتين في السنة (غزوة كل خمسة أشهر) ، ولو استثنينا الأشهر الحُرم (أربعة أشهر في السنة) لكان معدل الغزوات النبوية : غزوة كل ثلاثة أشهر ونصف ، في السنة ..

ومعدل الغزوات والسرايا الإسلامية في العهد النبوي هو غزوة أو سرية كل شهرين ، ولو استثنينا الأشهر الحُرم يكون المعدل غزوة كل شهر ، وإذا قلنا بأن وقت الغزوة يتراوح بين ١٥ إلى ٢٠ يوماً في الشهر (ذهاباً وإياباً) ، فيكون الصحابة قد قضوا ثلاثة أرباع حياتهم مع النبي ﷺ في الجهاد ..

فإذا كان هؤلاء الصحابة هم أهل السنَّة وسلف الأمة ، فليقارن من يدَّعي السلفية والسنّية تاريخه بتاريخ سلفه الذين يتشدق باتباعهم ..

إن الإخلاص والعلم والعمل والجهاد لنصرة الدين هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وليس هناك شك بأن الصحابة هم الطائفة المنصورة في زمانهم ، والدين كل لا يتجزأ ، وليس لنا أن نختار ما يوافق أهواءنا ثم نقول : نحن الطائفة المنصورة ،والله سبحانه وتعالى يقول :{.. أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ

---

[٤٣٦] – صحيح مسلم– المكنز – (٤٩٦٧)–الكلم : الجرح

خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}
(٨٥) سورة البقرة..

إذا أتى وقت الصيام فلا يقول المسلم : أعتمر في رمضان ولا أصوم ، وإذا جاء وقت الصلاة فلا يقول المسلم : أحسب أموال الزكاة ومقدارها ولا أصلي ، وإذا أتى وقت الجهاد فلا يقول المسلم : أقعد في بيتي وأُحسن إلى زوجتي ولا أجاهد " خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ ، وَأَنَا مِنْ خَيْرِكُمْ لأَهْلِي " !![٤٣٧] .

وعَنِ الزُّهْرِيِّ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا ، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةَ تَبُوكَ إِلاَّ بَدْرٍ ، وَلَمْ يُعَاتِبِ النَّبِيُّ ﷺ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْ بَدْرٍ ، إِنَّمَا خَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ يُرِيدُ الْعِيرَ ، وَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ مُغِيثِينَ لِعِيرِهِمْ ، فَالْتَقَوْا عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ ، وَلَعَمْرِي إِنَّ أَشْرَفَ مَشَاهِدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي النَّاسِ لَبَدْرٌ ، وَمَا أُحِبُّ أَنِّي كُنْتُ شَهِدْتُهَا مَكَانَ بَيْعَتِي لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلاَمِ ، وَلَمْ أَتَخَلَّفْ بَعْدُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا ، حَتَّى كَانَتْ غَزْوَةُ تَبُوكَ ، وَهِيَ آخِرُ غَزْوَةٍ غَزَاهَا ، آذَنَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ وَأَرَادَ أَنْ يَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ ، وَذَلِكَ حِينَ طَابَ الظِّلاَلُ وَطَابَتِ الثِّمَارُ ، وَكَانَ قَلَّمَا أَرَادَ غَزْوَةً إِلاَّ وَرَّى غَيْرَهَا ، وَكَانَ يَقُولُ : الْحَرْبُ خُدْعَةٌ ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنْ يَتَأَهَّبَ النَّاسُ أُهْبَتَهُ ، وَأَنَا أَيْسَرُ مَا كُنْتُ ، قَدْ جَمَعْتُ رَاحِلَتَيْنِ لِي ، فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قَامَ النَّبِيُّ ﷺ غَادِيًا بِالْغَدَاةِ ، وَذَلِكَ يَوْمُ الْخَمِيسِ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَأَصْبَحَ غَادِيًا ، فَقُلْتُ : أَنْطَلِقُ إِلَى السُّوقِ وَأَشْتَرِي جِهَازِي ، ثُمَّ أَلْحَقُ بِهَا ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى السُّوقِ مِنَ الْغَدِ ، فَعَسُرَ عَلَيَّ بَعْضُ شَأْنِي فَرَجَعْتُ ، فَقُلْتُ : أَرْجِعُ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَأَلْحَقُ بِهِمْ ، فَعَسُرَ عَلَيَّ بَعْضُ شَأْنِي أَيْضًا ، فَلَمْ أَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى لَبَّسَ بِيَ الذَّنْبُ ، وَتَخَلَّفْتُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ وَأَطْرَافِ الْمَدِينَةِ فَيُحْزِنُنِي أَنْ لاَ أَرَى أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلاَّ رَجُلاً مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، وَكَانَ لَيْسَ أَحَدٌ تَخَلَّفَ إِلاَّ أَرَى ذَلِكَ سَيَخْفَى لَهُ ، وَكَانَ النَّاسُ كَثِيرًا لاَ يَجْمَعُهُمْ دِيوَانٌ ، وَكَانَ جَمِيعُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ

[٤٣٧] - صحيح ابن حبان - (٩ / ٤٩٢) (٤١٨٦) صحيح

بَضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلاً ،وَلَمْ يَذْكُرْنِي النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فَلَمَّا بَلَغَ تَبُوكَ ، قَالَ : مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِي : خَلَّفَهُ يَا رَسُولَ اللهِ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : بِئْسَ مَا قُلْتَ ، وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللهِ مَا نَعْلَمُ إِلاَّ خَيْرًا ، قَالَ : فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ إِذَا رَجُلٌ يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : كُنَّ أَبَا خَيْثَمَةَ ، فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ ، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ غَزْوَةَ تَبُوكَ ، وَقَفَلَ وَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ جَعَلْتُ أَتَذَكَّرُ مَاذَا أَخْرُجُ بِهِ مِنْ سَخَطِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، حَتَّى إِذَا قِيلَ : النَّبِيُّ ﷺ مُصَبِّحُكُمْ بِالْغَدَاةِ ، رَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ ، وَعَرَفْتُ أَنِّي لاَ أَنْجُو إِلاَّ بِالصِّدْقِ ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ ضَحًى ، فَصَلَّى فِي الْمَسْجِدِ رَكْعَتَيْنِ ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَعَلَ ذَلِكَ ، دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَصَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، ثُمَّ جَلَسَ فَجَعَلَ يَأْتِيهِ مَنْ تَخَلَّفَ ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ وَيَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، فَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ وَيَقْبَلُ عَلاَنِيَتَهُمْ ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ ،فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ ، فَلَمَّا رَآنِي تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، فَجِئْتُ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَلَمْ تَكُنِ ابْتَعْتَ ظَهْرًا ، قُلْتُ : بَلَى يَا نَبِيَّ اللهِ ، فَقَالَ : مَا خَلَّفَكَ عَنِّي ؟ فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لَوْ بَيْنَ يَدَيْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ غَيْرِكَ جَلَسْتُ لَخَرَجْتُ مِنْ سَخَطِهِ عَلَيَّ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُوتِيتُ جَدَلاً وَلَكِنِّي قَدْ عَلِمْتُ يَا نَبِيَّ اللهِ أَنِّي إِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِقَوْلٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ وَهُوَ حَقٌّ ، فَإِنِّي أَرْجُو فِيهِ عُقْبَى اللهِ ، وَإِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ بِحَدِيثٍ تَرْضَى عَنِّي فِيهِ وَهُوَ كَذِبٌ أَوْشَكَ أَنْ يُطْلِعَكَ اللَّهُ عَلَيَّ ، وَاللَّهِ يَا نَبِيَّ اللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَيْسَرَ ، وَلاَ أَخَفَّ حَاذًا مِنِّي ، حَيْثُ تَخَلَّفْتُ عَلَيْكَ ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَكُمُ الْحَدِيثَ ، قُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ.

فَقُمْتُ فَثَارَ عَلَى أَثَرِي نَاسٌ مِنْ قَوْمِي يُؤَنِّبُونَنِي ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَطُّ قَبْلَ هَذَا ، فَهَلاَّ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِعُذْرٍ يَرْضَاهُ عَنْكَ فِيهِ ، وَكَانَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَيَأْتِي مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ ، وَلَمْ تَقِفْ مَوْقِفًا لاَ نَدْرِي مَاذَا يُقْضَى لَكَ فِيهِ ، فَلَمْ يَزَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى هَمَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، فَقُلْتُ هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ غَيْرِي ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَهُ هِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ وَمُرَارَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، فَذَكَرُوا رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ شَهِدَا بَدْرًا لِيَ فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، فَقُلْتُ : وَاللَّهِ لاَ أَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي هَذَا أَبَدًا ، وَلاَ أُكَذِّبُ نَفْسِي.

وَنَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ ، فَجَعَلْتُ أَخْرُجُ إِلَى السُّوقِ وَلاَ يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَتَنَكَّرَ لَنَا النَّاسُ ، حَتَّى مَا هُمْ بِالَّذِينَ نَعْرِفُ ، وَتَنَكَّرَ لَنَا الْحِيطَانُ حَتَّى مَا هِيَ بِالْحِيطَانِ الَّتِي نَعْرِفُ ، وَتَنَكَّرَتْ لَنَا الأَرْضُ حَتَّى مَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي نَعْرِفُ ، وَكُنْتُ أَقْوَى أَصْحَابِي ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ فَآتِي الْمَسْجِدَ ، وَآتِي النَّبِيَّ ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ ، وَأَقُولُ : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِالسَّلاَمِ ، فَإِذَا قُمْتُ أُصَلِّي إِلَى سَارِيَةٍ ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى صَلاَتِي ، نَظَرَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ بِمُؤَخَّرِ عَيْنَيْهِ ، وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ أَعْرَضَ عَنِّي ، وَاشْتَكَى صَاحِبَايَ فَجَعَلاَ يَبْكِيَانِ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَلاَ يُطْلِعَانِ رُؤُوسَهُمَا ،قَالَ : فَبَيْنَا أَنَا أَطُوفُ فِي الأَسْوَاقِ إِذَا رَجُلٌ نَصْرَانِيٌّ قَدْ جَاءَ بِطَعَامٍ لَهُ يَبِيعُهُ ، يَقُولُ : مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ ، فَأَتَانِي بِصَحِيفَةٍ مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ ، فَإِذَا فِيهَا : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَأَقْصَاكَ وَلَسْتَ بِدَارِ هَوَانٍ وَلاَ مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ ، فَقُلْتُ : هَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلاَءِ ، فَسَجَرْتُ لَهَا التَّنُّورَ ، فَأَحْرَقْتُهَا فِيهِ.

فَلَمَّا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً إِذَا رَسُولٌ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ أَتَانِي ، فَقَالَ : اعْتَزِلِ امْرَأَتَكَ ، فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا ، قَالَ : لاَ ، وَلَكِنْ لاَ تَقْرَبْهَا ، فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلاَلِ بْنِ أُمَيَّةَ ، فَقَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ هِلاَلَ بْنَ أُمَيَّةَ شَيْخٌ ضَعِيفٌ ، فَهَلْ تَأْذَنْ لِي أَنْ أَخْدُمَهُ ، قَالَ : نَعَمْ ، وَلَكِنْ لاَ يَقْرَبَنَّكِ ، قَالَتْ : يَا نَبِيَّ اللهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ لِشَيْءٍ ، مَا زَالَ مُتَّكِئًا يَبْكِي اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ مُذْ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ.

قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا طَالَ عَلَيَّ الْبَلاَءُ ، اقْتَحَمْتُ عَلَى أَبِي قَتَادَةَ حَائِطَهُ ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّي ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَرُدَّ ، فَقُلْتُ : أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَتَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَسَكَتَ ، فَقُلْتُ : أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَتَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَسَكَتَ ، فَقُلْتُ : أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَتَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : فَلَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي أَنْ بَكَيْتُ ، ثُمَّ اقْتَحَمْتُ الْحَائِطَ خَارِجًا ، حَتَّى إِذَا مَضَتْ خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ كَلاَمِنَا ، صَلَّيْتُ عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ لَنَا صَلاَةَ الْفَجْرِ ، وَأَنَا فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي قَالَ اللَّهُ ،قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْنَا الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْنَا أَنْفُسُنَا ، إِذْ سَمِعْتُ نِدَاءً مِنْ ذِرْوَةِ سَلْعٍ أَنْ أَبْشِرْ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنَّ

اللَّهَ قَدْ جَاءَنَا بِالْفَرَجِ ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ يَرْكُضُ عَلَى فَرَسٍ يُبَشِّرُنِي ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ فَرَسِهِ ، فَأَعْطَيْتُهُ ثَوْبِي بِشَارَةً ، وَلَبِسَتْ ثَوْبَيْنِ آخَرِينَ.

وَكَانَتْ تَوْبَتُنَا نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ثُلُثَ اللَّيْلِ ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ : يَا نَبِيَّ اللهِ أَلاَ نُبَشِّرُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ، فَقَالَ : إِذًا يَحْطِمُكُمُ النَّاسُ وَيَمْنَعُونَكُمُ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ.

قَالَ : وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي شَأْنِي ، تُخْبِرُنِي بِأَمْرِي ، فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ الْمُسْلِمُونَ ، وَهُوَ يَسْتَنِيرُ كَاسْتِنَارِ الْقَمَرِ ، وَكَانَ إِذَا سُرَّ بِالأَمْرِ اسْتَنَارَ ، فَجِئْتُ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ ، أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ أَتَى عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ ، أَمِنْ عِنْدِ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِكَ ؟ قَالَ : بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، ثُمَّ تَلاَ عَلَيْهِمْ {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ} [التوبة] ، حَتَّى بَلَغَ {هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [التوبة] ، قَالَ : وَفِينَا نَزَلَتِ {اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة] ، قَالَ : فَقُلْتُ : يَا نَبِيَّ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنِّي لاَ أُحَدِّثُ إِلاَّ صِدْقًا ، وَأَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ صَدَقَةً إِلَى اللهِ ، وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ ، فَقَالَ : أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ، قَالَ : فَقُلْتُ : فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِيَ الَّذِي بِخَيْبَرَ ، قَالَ : فَمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ بَعْدَ الإِسْلاَمِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللهِ ﷺ حِينَ صَدَقْتُهُ أَنَا وَصَاحِبَايَ ، أَنْ لاَ نَكُونَ كَذَبْنَا فَهَلَكْنَا كَمَا هَلَكُوا ، وَمَا تَعَمَّدْتُ لِكَذْبَةٍ بَعْدُ ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ."[٤٣٨]

فهذه العبادات لها صفات مخصوصة وأوقات مخصوصة ، وليس لنا أن نختار أوقاها أو صفاها على أهوائنا ، وليس لنا أن نختار بعضها ونترك بعض ..

إنَّ لقب أهل السنة ليس وساماً يعلقه العبد على صدره بعد قراءة متن أو حفظ كتاب أو بشهادة ميلاد ، بل هو اعتقاد يتبعه عمل دائم وفق كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ونهج السلف الصالح من الصحابة ..

كم كان عدد فقهاء ومحدثي الصحابة مقارنة بعدد المجاهدين منهم !!

---

[٤٣٨] - صحيح ابن حبان - (٨ / ١٥٦) (٣٣٧٠) وصحيح مسلم- المكنز - (٧١٩٢)

بثى : حزنى الشديد -التنور : الفرن -سجر : أحرق -أصعر : أميل -العطف : الجانب -المغموص :المتهم بالنفاق - المفاز : الصحراء البعيدة عن العمار والماء تفاؤلا من الفوز بالنجاة منها -استلبث : أبطأ

الصحابة كلهم جاهدوا في سبيل الله والفقهاء فيهم مائة أو يزيدون قليلاً ، وفقهاء الصحابة لم يقعدوا مع الخوالف في أوقات الجهاد ، بل كانوا في الصفوف الأولى ..

إنَّ العقيدة التي لا تنتج عملاً مثمراً يعود على المسلمين بالنفع هي عقيدة قاصرة في قلب معتقدها وإن كانت كاملة على الورق ..

إنه لمن المؤسف حقاً أن يقوم رجال للدفاع عن أعراض المسلمين ودمائهم ، ثم يقوم بعض هؤلاء المسلمين بالتعرض لهم والتنقص منهم ، ثم يحتاج هؤلاء المجاهدين من يدفع عنهم أذى المسلمين الذين أُمروا بخدمتهم وخلافتهم في أهليهم بخير !!

رجل يدافع عنك وعن حريمك وأنت جالسٌ في بيتك ، كيف يطيب لك أن تنال منه !!

أيسرك أن المجاهدين قعدوا وأن زوجتك أو أختك يتناوبها علوج الكفار !!

أين عقل هؤلاء !!

إن لقب الطائفة المنصورة ليس حكراً على المجاهدين ، ولكن هم أولى الناس به في هذا الزمان ومن دار في فلكهم ممن يبذل نفسه وماله ووقته وجهده في سبيل نصرة الدين وإعلاء كلمة رب العالمين ، فعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : مَنْ لا يَهْتَمُّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ، وَمَنْ لا يُصْبِحُ وَيُمْسِي نَاصِحًا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِإِمَامِهِ وَلِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ "[٤٣٩] ..

وهذه الأولوية لا تعني أن غيرهم لا يستحق هذا اللقب ، فكل مسلم ينفع الإسلام والمسلمين وهو على الفطرة الإسلامية السليمة والعقيدة الصحيحة ، هو من أهل السنَّة والجماعة ..

قال النووي رحمه الله " " وَيَحْتَمِل أَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَة مُفَرَّقَة بَيْن أَنْوَاع الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ شُجْعَان مُقَاتِلُونَ ، وَمِنْهُمْ فُقَهَاء ، وَمِنْهُمْ مُحَدِّثُونَ ، وَمِنْهُمْ زُهَّاد وَآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَاهُونَ عَنْ الْمُنْكَر ، وَمِنْهُمْ أَهْل أَنْوَاع أُخْرَى مِنْ الْخَيْر ، وَلَا يَلْزَم أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ بَلْ قَدْ يَكُونُونَ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَقْطَار الْأَرْض . وَفِي هَذَا الْحَدِيث مُعْجِزَة ظَاهِرَة ؛ فَإِنَّ هَذَا

---

[٤٣٩] - المعجم الصغير للطبراني - (٢ / ١٣١) (٩٠٧) حسن لغيره

الْوَصْف مَا زَالَ بِحَمْدِ اللَّه تَعَالَى مِنْ زَمَن النَّبِيّ ﷺ إِلَى الْآن ، وَلَا يَزَال حَتَّى يَأْتِي أَمْر اللَّه الْمَذْكُور فِي الْحَدِيث " [٤٤٠]

لقد قدم الإمام رحمه الله المقاتلين لما ذكرنا آنفاً من أن أكثر ألفاظ الحديث تدور حول القتال ، وذكر الفقهاء لأنهم يعلمون الناس دينهم ، وذكر المحدثين لأنهم يحفظون للناس سنَّة نبيهم ، وذكر الزهاد لأن الناس يقتدون بهم ، وذكر الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر لأنهم يحفظون المجتمع المسلم من الضياع والانحراف ، وأهل أنواع الخير خيرهم متعدٍ إلى غيرهم ، فكل هؤلاء ينتفع بهم المسلمون .

إن من يخالف بعض ما يعتقده أهل الحديث قد يكون من الطائفة المنصورة : فنور الدين محمود ، وصلاح الدين وأسد الدين وقطز وبيبرس وقلاوون وأكثر قادة المسلمين في القرون المتأخرة من أمثال عمر المختار والجزائري وعز الدين القسام وغيرهم كثير ، كانوا أشاعرة أو متصوفة ، فهل نخرج هؤلاء خارج دائرة الطائفة المنصورة لأنهم ليسوا على عقيدة أهل الحديث !!

بل إن الإمام النووي الذي نقل عنه يخالف أهل الحديث في بعض الاعتقادات ، فهل هو خارج الدائرة !!

إن أهل الحديث في زمن أحمد كانت لهم خاصية ميّزتهم عن غيرهم ، وهي : جهادهم الكبير لحفظ عقيدة المسلمين ودينهم وجمع الآثار وبيان سقيمها من صحيحها والاغتراب والسفر لذلك مع مواجهة التيارات الفلسفية والكلامية والبدعية التي عصفت بالمسلمين في ذلك الزمان ، مع ما كانوا عليه من صلاح وتقوى وجهاد في سبيل الله بالنفس والمال واللسان ، وقد كان منهم الأبطال في ساحات النزال ، ولذلك استحقوا أن يكونوا من الطائفة المنصورة ، فكلام الإمام أحمد ينبغي أن يصرف إلى الضمنية ، فأهل الحديث من الطائفة المنصورة ، وليسوا هم الطائفة المنصورة كلها ، وحاشا الإمام أحمد أن يقصد استثناء الفقهاء والزهاد وأهل الثغور من هذه الطائفة المباركة وهو من أعلم أهل زمانه بروايات الحديث ومعاني الألفاظ النبوية ، وكلام الإمام النووي يؤيد هذا ..

---

[٤٤٠] - شرح النووي على مسلم - (٦ / ٤٠٠)

وها هو شيخ الإسلام ابن تيمية يقول عن المجاهدين وأهل الثغور في زمانه في مصر والشام من الذين يقاتلون التتار والفرنجة أنهم هم الطائفة المنصورة في ذلك الزمان ، مع ما في أكثر هؤلاء المجاهدين من تصوف وعقيدة غير موافقة تماماً لعقيدة أهل الحديث،وهذا فهم شيخ الإسلام للحديث ، وذلك أن الأمة في زمانه تعرضت لهجمة عسكرية شرسة فكان الذين يصدون الكفار عن بلاد الإسلام ويذودون عن حياض المسلمين هم الطائفة المنصورة ، و لم يكن في عهد الإمام أحمد هذا الغزو ، بل كان المسلمون يطلبون الأعداء في بلادهم ، وإنما كان غزو الإسلام من ناحية هذه البدع والفلسفات الكذب على الدين وتحريف ثوابته وامتُحن الناس في ذلك فانبرى لكل هذا أهل الحديث فكانوا أولى الناس بلقب الطائفة المنصورة ..

وفي زماننا هذا تتعرض الأمة للغزو العسكري من قبل الكفار ، فانبرى لهم المجاهدون ، وتتعرض الأمة لغزو فكري خطير فانبرى له بعض العلماء وطلبة العلم ، وتتعرض الأمة لغزو اقتصادي فكان من بعض التجار وأصحاب الأموال أن جهزوا المجاهدين وأنفقوا على المساكين وصرفوا أموالهم في نشر العلم وخدمة الدين ، وكل هؤلاء يُمتحنون في أنفسهم وأهليهم وأموالهم ويُعرّضون أنفسهم لسخط قوى الكفر والنفاق وبعض جهال المسلمين ، فإن قلنا بأن جميع أهل السنَّة من الطائفة المنصورة فأين خصوصية هؤلاء العاملين !!

أليس هذا من بخس هؤلاء العاملين المجاهدين بالنفس والنفيس حقهم في نيل شرف الدخول في الطائفة المنصورة ..

إن الطائفة المنصورة طبقة خاصة من المسلمين ، ولا أبالغ إذا قلت بأنهم "خاصة المؤمنين" ، وهم من العاملين في خدمة الدين ، وإذا لم يكن المجاهد من أحق الناس بهذه الطائفة في أيامنا هذه ، فلا أدري من يكون !!

هل نحسب الخوالف والمخذِّلين والمرجفين من الطائفة المنصورة وقد احتاج الإسلام إلى النُّصرة فقعدوا في بيوتهم ينالون من المجاهدين !!

لقد توعّد الله القواعد بالعذاب الأليم .. والمتخلف عن فرض العين : من العصاة الآثمين ،
وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - : " مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ[٤٤١]

فكيف يكون هؤلاء العصاة الذين توعّدهم الله بالعذاب الأليم : من الطائفة المنصورة !!

أين الفرق بين من وعده الله بالجنان والحور الحسان ، وبين ومن توعّده الله بالخزي والخسران

أين الفرق بين من وعده الله بالنصر والتمكين ، وبين من وعده الله أن يستبدله بقوم لا يكونون مثله في خذلان الدين !!

أين الفرق بين من قال فيهم {وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ } (٤٩) سورة التوبة، وبين من قال "لئن عشت حتى آكل هذه التمرات ، إنها لحياة طويلة" !!

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بُسَيْسَةَ عَيْنًا يَنْظُرُ مَا صَنَعَتْ عِيرُ أَبِى سُفْيَانَ فَجَاءَ وَمَا فِى الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِى وَغَيْرُ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ لاَ أَدْرِى مَا اسْتَثْنَى بَعْضَ نِسَائِهِ قَالَ فَحَدَّثَهُ الْحَدِيثَ قَالَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- فَتَكَلَّمَ فَقَالَ « إِنَّ لَنَا طَلِبَةً فَمَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا فَلْيَرْكَبْ مَعَنَا ». فَجَعَلَ رِجَالٌ يَسْتَأْذِنُونَهُ فِى ظُهْرَانِهِمْ فِى عُلْوِ الْمَدِينَةِ فَقَالَ « لاَ إِلاَّ مَنْ كَانَ ظَهْرُهُ حَاضِرًا ». فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا الْمُشْرِكِينَ إِلَى بَدْرٍ وَجَاءَ الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « لاَ يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَى شَىْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنَا دُونَهُ ». فَدَنَا الْمُشْرِكُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ ». قَالَ يَقُولُ عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ الأَنْصَارِىُّ يَا رَسُولَ اللَّهِ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ قَالَ « نَعَمْ ». قَالَ بَخٍ بَخٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ ». قَالَ لاَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلاَّ رَجَاءَةَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ « فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا ». فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ ثُمَّ قَالَ

---

[٤٤١] - المعجم الأوسط للطبراني - (٣٩٨١) حسن

لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِى هَذِهِ إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ - قَالَ - فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ. ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ."[442]

أين الفرق بين من لحظاته خير من الدنيا وما فيها ،وبين من يموت على شعبة من نفاق !!

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ ».[443]

أين الفرق بين العامل والخامل ، وبين المتحرك والساكن ، وبين القاعد والمجاهد !!

قال تعالى : {لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا} (٩٥) سورة النساء .[444]

----

[442] - صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٢٤)- العين : الجاسوس

[443] -صحيح مسلم- المكنز - (٥٠٤٠)

[444] - من مقال للشيخ حسين بن محمود بتصرف وزيادات مني

: http://www.alkashf.net/vb/showthread.php?t=٩٤١

حين يشتد الظلام ويطول الليل تكون الحاجة ماسة إلى قبس من النور يبدده ويزيله.
وحين ينتفش الباطل وينتفخ ويتطاول المبطلون تشتد الحاجة إلى وجود طلائع من الناس تحمل الحق وتعيده إلى نصابه وتصرع الباطل وتدمغه وتزهقه، فيتبين للناس حينئذ الرشد من الغي والهدى من الضلال ويميزون بين الظلمات والنور. والعالم اليوم يمر بحالة استثنائية، اضطربت فيها المعايير واختلت الموازين في مختلف نواحي الحياة فالعالم اليوم بحاجة إلى من ينقذه من وهدته وشقائه بحاجة إلى من يأخذ بيده إلى شاطئ السلامة وبر الأمان حتى لا يغرق في ظلمه وظلامه ويقع في سوء فعاله!!
ولا يملك أحد علاجاً ناجحاً ودواءاً ناجعاً للبشرية مما تعانيه إلا المسلمون، المسلمون وحدهم ، هم القادرون على الإنقاذ والعلاج. لا أعني بالمسلمين مسلمة الدار ممن يأخذون الإسلام أمنيات وأحلاماً ، مسلمون لأنهم في بلاد إسلامية أو لأنهم سلالة المسلمين أو لأنهم يحملون وثائق تثبت إسلامهم، ثم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه ولا من الشرع والقرآن إلا رسمه. لا أعني بالمسلمين الذين انسلخوا عن دينهم وهويتهم وانصهروا في أعداء الأمة من اليهود والنصارى.
ولكنني أعني الأمة الربانية المؤمنة الواعية المستيقظة المجاهدة، التي خاطبها الله تعالى بقوله: ؟ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ...؟ البقرة: ١٤٣ والوسط من الناس: هم الخيار العدول.
هذه الأمة الخيرة العادلة هي التي قال الله فيها مبيناً أسباب رفعتها وخيريتها وشرفها في قوله الكريم: ؟ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ...؟ آل عمران: ١١٠.
لم تنل هذه الأمة هذه المكافأة و لم تستحق هذا التكريم إلا بسبب معروفها وإحسانها، فهي الداعية إلى الخير،السابقة إلى الإيمان، المؤمنة بالله، تقدم الخير للبشرية، وتخرجها من الظلمات إلى النور ، المجاهدة في سبيل الله الباذلة نفوسها وأموالها في مرضاة الله جل وعلا.

عَنْ قَتَادَةَ ، قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ فِي حَجَّةٍ حَجَّهَا وَرَأَى مِنَ النَّاسِ رِعَةً سَيِّئَةً ، فَقَرَأَ هَذِهِ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ الْآيَةَ ، ثُمَّ قَالَ : " يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ تِلْكَ الْأُمَّةِ ، فَلْيُؤَدِّ شَرْطَ اللَّهِ مِنْهَا ".[٤٤٥]

والشرط هو أن تقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله وذلك بالدعوة لهذا الدين القويم.

الشرع العظيم الذي بعث الله به نبيه الكريم محمداً ﷺ ومجاهدة المعاندين الصادين عن سبيل الله من اليهود والنصارى وسائر الكافرين والمشركين.

إن واجب الأمة المسلمة أن تدرك وظيفتها ومهمتها في الحياة، إنها أمة داعية إلى الخير والحق والهدى والنور، لا مدعوة إنها أمة قائدة رائدة لا مقودة ولا تابعة.

يريد الله أن تكون القيادة للخير في هذا العالم لا للشر وعلى هذا ينبغي أن تقوم أمة الإسلام بواجبها في التمسك بهذا الدين وتصديره للآخرين ودعوتهم إليه كما لا ينبغي لها ولا يجوز أن تتلقى أو تتسول من الكافرين مناهجهم وطرائقهم وأنظمتهم وأخلاقهم وباطلهم، إنما واجبها أن تكون دائماً معطاءة، ولديها ما تعطيه من الاعتقاد الصحيح، والتصور السليم، والنظام السديد، والخلق القويم، والمعرفة والعلم الصحيح هذا واجبها الذي يحتمه عليها مكانها ومكانتها، وتحتمه عليها غاية وجودها .. واجبها أن تكون في الطليعة دائماً وفي مركز القيادة دائماً في القمة لا في السفح

ومن يتهيب صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

ليس بالأماني فقط وإنما عملاً وإيماناً وجهاداً ودعوة وكفاحاً لا ادعاءاً واتكالاً . إن واجب الأمة أن تضطلع بمهامها وتنهض برسالتها في التمسك بالإسلام والدعوة إليه وإصلاح الخلل والفساد الذي عم الحياة، وإقامة موازين الحق والخير والعدل في دنيا الناس. ولا شك أن هذا طريق مليء بالمتاعب والمشاق لا يصمد فيه ويسير عليه إلا أهل الصدق والإيمان، ممن آمنوا بالله وامتلأت قلوبهم بعظمته وجلاله واستشعروا معيته تعالى وأنه معهم ناصرهم والمدافع عنهم ، وأن أمور الخلق ونواصيهم بيده. أصحاب الصدق واليقين هؤلاء

---

[٤٤٥] - جَامِعُ الْبَيَانِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ لِلطَّبَرِيِّ (٦٩٣٢) فيه انقطاع

يمضون في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والجهاد. يواجهون الشر في عنفوانه وجبروته، ويواجهون طاغوت الشهوات والشبهات ويواجهون في الأمة هبوط أرواحها وكلل عزائمها، يواجهون الدنيا كلها. لا زاد لهم إلا الإيمان ولا عدة لهم إلا الصبر واليقين ولا سند لهم ولا ناصر إلا الله الجبار المنتقم المحيط بالكافرين.

إن الأمة المنصورة التي يكتب الله لها النصر والتمكين ويمدها بالعون والتسديد هي المتصفة بما وصفها الله به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والإيمان، هذه الطائفة تكون قائمة ظاهرة معروفة بين البشر بجهادها واعتصامها بدينها واستمساكها به، وقد جاءت أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ في وصفها وبيانها وفيها بشارة وتبشير للإسلام والمسلمين بالعاقبة الحسنة والنصر المبين فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يزال أناس من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون".

وعن جابر بين سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "لن يبرح هذا الدين قائماً، يقاتل عليه عصابة من المسلمين، حتى تقوم الساعة". وفيه عن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي ، يقاتلون على الحق، ظاهرين، إلى يوم القيامة". وفيه أيضاً عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك".

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : "لا تزال طائفة من أمتي على الدين، ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم؛ إلا ما أصابهم من لأواء، حتى يأتيهم أمر الله وهم كذلك."[٤٤٦]

إن هذه الأحاديث التي تبلغ حد التواتر تذكر مواصفات الطائفة المنصورة الغالبة القاهرة الظافرة ومن أبرز أوصافها:

١- أنها على الحق ملتزمة بالدين الصحيح الذي هو الحق وما عداه باطل وضلال، ملتزمة بدين الله عن علم ومعرفة وبرهان ودليل لا تحيد عنه.

---

[٤٤٦] - مر تخريج الجميع

٢- أنها قائمة بأمر الله وذلك بحمل راية الدعوة إلى الله ونشر الإسلام والدفاع عنه. قائمة بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد واللسان، والقلب، تبذل الغالي والنفيس من أجل إقامة الدين.

٣- أنها المجددة للأمة أمر دينها، هذه الطائفة تحيي ما اندرس من الشرع بإقامة سنة رسول الله وإماتة البدع والخرافات التي يلصقها الناس بالإسلام إما جهلاً وإما كيداً. ،إن من أعظم الفرائض التي تعمل على إقامتها وإحيائها هي الجهاد في سبيل الله الذي يتواطأ العالم اليوم عليه لإلغائه.

٤- إنها ظاهرة إلى قيام الساعة، فالطائفة المجددة واضحة بينة ظاهرة معروفة ثابتة على الحق لا تهادن أو تساوم

٥- إنها صابرة مصابرة ، لا يضرها من خالفها ولا من ناوأها ، عرفوا الحق والتزموا به ولم يلتفتوا إلى خلاف المخالفين. أصحاب هذه الصفات هم الطلائع وهم المنصورون. نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم.

نعيش اليوم مرحلة علو اليهود وفسادهم وعتوهم فهم الأعداء الألداء وهم اليوم أكثر نفيراً، ملئوا الدنيا صخباً وهديراً وحتى لا نقع فريسة للخوف والهلع بسبب علوهم وفسادهم نجد أن الله عز وجل قد بين لنا حقيقتهم وأبان لنا عن شيء من تاريخهم ومستقبلهم .. فبعد أن ذكر الله خيرية الأمة المسلمة التي تقوم بما أوجبه الله عليها.

ذكرت الآيات أهل الكتاب مباشرة بالتقريع والتوبيخ داعية لهم إلى الإيمان بالنبي محمد ﷺ واتباعه إن أرادوا النجاة في الدنيا والآخرة. فقال تعالى: {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (١١٠) سورة آل عمران ولقد أسلم عدد قليل من اليهود في زمن النبي ﷺ ولكن أكثرهم فاسقون قد ملئوا كبراً وغطرسة وعناداً وكفراً ينتفخون كالليوث وهم قرود، ولقد كان لليهود وجود عسكري واقتصادي في القديم إبان نزول القرآن كما لهم اليوم وجود وحضور، مما يفت في عضد بعض المسلمين، فقد تكفل الله بتهوين شأن هؤلاء اليهود في نفوس المسلمين وإبراز حقيقتهم الضعيفة بسبب

كفرهم وجرائمهم، وما كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة فقال جل وعلا: { لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدُبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ } آل عمران:١١١-١١٢.

هذا ضمان من الله عز وجل لعباده المؤمنين بأنه سينصرهم في أي معركة يلتقون فيها بأعدائهم اليهود في كل زمان ومكان، ما اعتصموا بدينهم وتوكلوا على ربهم وأخذوا بالأسباب ،{ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى }: فلن يستطيع اليهود مهما امتلكوا من إمكانات ومهما حشدوا من أمم ودول أن يلحقوا الضرر البالغ بالمسلمين المؤمنين المتمسكين بدينهم وإنما هو أذى عارض يصابون به عند الصدام وألم ذاهب مع الأيام، أما الإبادة والاستئصال فلا.

إن جند الإيمان إذا اشتبكوا مع أعوان الشيطان في قتال فإن الهزيمة مكتوبة على أعداء الله في نهاية المطاف، لا ناصر لهم ولا عاصم من المؤمنين .. لأن الله قد كتب عليهم الذلة فهم في كل أرض يُذّلون. وتاريخ اليهود معروف عبر التاريخ مشردون مطاردون لم يعرفوا الأمن إلا في ظل دولة الإسلام ومع ذلك لم يعاد اليهود أحداً في الأرض عداءهم للمسلمين.

ويبين الله سبب العقاب الذي كتبه على اليهود من الذلة والمسكنة وأنه سبب عام يمكن أن ينطبق على كل من اتصف به ذلك السبب هو العصيان وانتهاك الحرمات والاعتداء على حدود الله {ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُواْ إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنْ اللّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} (١١٢) سورة آل عمران، ثلاثة أمور أساسية وقع فيها اليهود فاستمعوا واعقلوا:

١- الكفر بآيات الله إما بإنكارها، أو تحريفها، أو تعطيل العمل بها، وفي المسلمين اليوم من يفعل ذلك.

٢- وقتل الأنبياء والعلماء والدعاة

٣- والعصيان والاعتداء .. هذه هي الأسباب التي استحقوا بها غضب الله ونقمته وعذابه. [٤٤٧]

===================

[٤٤٧] - http://www.jameataleman.org/msah/hader/ ١١.htm

إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى خلقَ الخلق لعبادته واتّباعِ شريعته، ولم يتركهم هملاً؛ بل أرسل إليهم رسلاً يدعونهم إليه، ويدلونهم عليه، فانقسم العبادُ إلى فريقين؛ فريقٍ هداهُ الله بفضله ورحمته، وفريقٍ أضلّهُ اللهُ بعلمه وعدله. ومضى قدرُ الله وجرت سنته أن يقع التدافع والصراع بين هاتين الفريقين؛ الحقِّ وأنصاره، والباطلِ وأعوانه، وذلك على مر العصور، وكرِّ الدهور، وإلى أن يرث اللهُ الأرضَ ومن عليها، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (٦٢) سورة الأحزاب ، وذلك أن الحقَّ والباطل ضدان لا يجتمعان أبدًا، فوجودُ أحدِهما على أرض الواقع يستلزم –ولا بد– محوَ الآخر أو إضعافه، بتجريده من الأسس التي يرتكزُ عليها، والمبادئِ التي قيامه بها. فلا يتصور في ميدان الواقع أن يتعايشَ الحق والباطل معًا على أرضٍ واحدة من دون غلبة لأحدهما على الآخر، أو سعيٍ لتحقيق هذه الغلبة. ولو فُرضَ أن الحق استكان حقبة من الزمن، وأحجَمَ عن مزاحمة الباطل ومدافعته؛ فإن الباطل لن يقابل هذه الاستكانةَ إلا بصولةٍ يستعلي بها على الحق وأهله، يروم من خلالها النيلَ منهم والقضاءَ عليهم، أو على الأقل تجريدهم من أهم ما يميزهم عن الباطل وأهله، عبر سلسلةٍ من التنازلات والتي لا تبقي لهم من الحق غير اسمه، ومن منهجه غير رسمه؛ ليغدو في نهاية المطاف جزءًا من مملكة الباطل، وذيلاً من أذياله، و بئست النهاية.

والقرآنُ الكريم يزخر بالآيات التي تُقررُ هذه الحقيقة وتأصِّلها. يقول الله سبحانه وتعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} (١٣) سورة إبراهيم.

إنها حقيقةُ المعركة بين الحق والباطل، حقيقةٌ ثابتة مستقرة، لا تتغير بتغير الزمان، ولا تتبدل بتبدلِ المكان، فليس لأهل الأيمان من الرسل وأتباعهم عند ملل الكفر قاطبة إلا أحدُ سبيلين؛ إمّا أن يُخْلُوا لهم الأرض بالقتلِ والتصفية والتشريدِ والطرد والإبعاد؛ ليعيثوا فيها

كفرًا وفسادًا، وإما أن يتنازلوا عن الحقِّ الذي معهم، ويستسلموا للباطل وحزبه، ويذوبوا في مجتمعهم. وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأتباعه.

وقال تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ} (٦١) سورة البقرة

وقال تعالى: {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ} (٦٨) سورة الأنبياء

وقال تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (٢٤) سورة العنكبوت

وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (٣٠) سورة الأنفال

يقول السيِّد رحمه الله: " وهذا التقرير الصادق من العليم الخبير يكشف عن الإصرار الخبيث على الشر وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستقر لأعدائهم. وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة المسلمة في كل أرض وفي كل جيل .. إن وجود الإسلام في الأرض هو بذاته غيظ ورعب لأعداء هذا الدين ولأعداء الجماعة المسلمة في كل حين إن الإسلام بذاته يؤذيهم ويغيظهم ويخيفهم. فهو من القوة ومن المتانة بحيث يخشاه كل مبطل ، ويرهبه كل باغ ، ويكرهه كل مفسد. إنه حرب بذاته وبما فيه من حق أبلج ، ومن منهج قويم ، ومن نظام سليم .. إنه بهذا كله حرب على الباطل والبغي والفساد. ومن ثم لا يطيقه المبطلون البغاة المفسدون. ومن ثم يرصدون لأهله ليفتنوهم عنه ، ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة. ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم ، وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين ، وتتبع هذا المنهج ، وتعيش بهذا النظام.وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا .. أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا. وكلما انكسر

في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها .. والخبر الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام ، وينبهها إلى الخطر ويدعوها إلى الصبر على الكيد ، والصبر على الحرب ، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة والعذاب الذي لا يدفعه عذر ولا مبرر "[٤٤٨].

وتأمَّل قوله تعالى: {قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} (٩١) سورة هود .

فرغم إقرار الباطل بضعف أهلِ الحق المادي، وخلوِّهم من أسباب القوة؛ فليس غير القوة الغاشمة التي لا تعرف أي معنى للرحمة، ولا تأبه بأي رابطة (وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ). بل عندما طلب منهم نبيهم شعيب -عليه الصلاة والسلام- أن يتركوهُ والطائفةَ التي آمنت معه، ويصبروا إلى أن يكون الله وحده هو الذي يحكم بين الطائفتين بأمر قدري من عنده سبحانه -أبوا إلا خيار الطاغوت في كل زمان ومكان، مع الحق وأهله؛ إما الطرد والإبعاد والقتلُ والنكال والعذاب، أو الفتنة عن الدين.

وقال الله تعالى حكايةً عن شعيبٍ عليه السلام: (وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) [الأعراف : ٨٧-٨٩])

فالباطل لا يطيق وجود فئة تؤمن بالله وبرسالتِه في ديارِهم، وإن كانْت هذه الفئة فئةً ضعيفة، مجردةً من كلِّ أسبابِ القوَّةِ الماديّة، بل ولو كانت هذه الفئةُ تدعو الباطلَ إلى الصبرِ إلى أن يكون الله هو الحكمُ بما يقدره بينهما.

[٤٤٨] - فى ظلال القرآن ـــ موافقا للمطبوع - (١ / ٢٢٧)

وقد اقتضت حكمةُ الله –سبحانه– ابتلاءً لعباده وتمحيصًا لهم؛ أن يتسلط الباطلُ وحزبُه على الحقّ وأهله تسلطًا قدريًّا. قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ } (١١٢) سورة الأنعام.

وهذا قضاءٌ كوني واقعٌ لا محيص عنه، ولا دافع له، فكل من استمسك بغرز هذا الدين ، وأخذ على عاتقه تطبيقَ حكمه بين العالمين؛ فلا بد أن ينالهُ قسطٌ من ذلك التسليط، ونصيبٌ من تلكم العداوة. ويتضحُ ذلك جليًّا في قول ورقة بن نوفل للنبي –ﷺ – (لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِى يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا)[٤٤٩] . فكل من سار على درب النبي –ﷺ – وأصحابهِ رضوان الله عليهم، ودعا إلى مثل ما كانوا عليه؛ فلا بدَّ أن يناله نصيب من العداوة، ويصيبَه شيء من الأذى من الباطل وأهله بحسب حاله والتزامه بمنهجهم. ومنشأ هذه العداوة وسببُها؛ أن مجرد رؤيةِ أهل الباطل لأهل الحق، وإن كان الحق في أضعف حالاته وأعجزها –تذكر أهل الباطل بباطلهم، فتقطع عليهم نشوتهم، وتنغصُ عليهم تمتعهم بشهواتِهم، وتوقفهم مع أنفسهم لتفضح هذه الأنفس، وتبينَ ضعفها، وزيف قوتها وذلتها، حيث غدت عبدة ذليلة مهانة لشهواتها وأهوائها.

وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ} (٥٩) سورة المائدة .

فنقمتهم على المؤمنين، كما هو صريحُ الآية، لا سببَ لها غيرَ قيامِ المؤمنين بدينهم، وتمسُّكِهم به، مع عدم قدرتهم على فعل الشيء نفسه؛ لفسقهم المانع لهم من ذلك. وهذا مما يملأُ قلوبَ أهل الباطل حقدًا وغيظًا تتقطع معه قلوبهم، وتتحرق معه نفوسهم. حيثُ هذا العلو والسمو والذي لا يستطيعونه يذكرهم ويشهد عليهم بانحطاطهم وسفلهم، فيودون أن لو فتن أهل الحق عن حقهم وشاركوهم في باطلهم، كما قال العليم بمكنون صدورهم: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ

---

[٤٤٩] – صحيح البخارى- المكنز – (٣)

يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} (٨٩) سورة النساء

ولذا فإن أهل الباطلِ لا يجدون أمامهم فرارًا مما يجدون غير التمادي في سياسة البطش والتنكيل والتشريد والتقتيل، غير مراعين لحرمة ولا حافظين لعهدٍ ولا ذمة تشفيا من الحق وأهله وإرضاءً لأنفسهم المهزومة، وانتصارًا لها.

وإذا كان قد سبق في قضاء الله معاداةُ الباطل للحق وأهله وتسلطهم عليهم بأنواع الأذى وألوان العذاب؛ فقد أمر سبحانه أولياءه بإشهار سيف العداوة والبغضاء في وجه الباطل وأهله، ورفعِ لواء البراءةِ من الكفر وحزبه. قال سبحانه: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (٤) سورة الممتحنة.

قال الشيخ حمد بن عتيق -رحمه الله- (وهاهنا نكتةٌ بديعة في قوله تعالى (إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ) وهي أن الله تعالى قدم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله؛ لأن الأول أهم من الثاني، فإنه قد يتبرأ من الأوثان، ولا يتبرأ ممن عبدها، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه. وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم) إلى أن قال (فعليك بهذه النُكت؛ فإنها تفتح بابًا إلى عداوة أعداء الله، فكم إنسان لا يقع منه الشرك، ولكنه لا يعادي أهله، فلا يكون مسلمًا بذلك إذ ترك دين جميع المسلمين. ثم قال تعالى (كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) فقولُه "بدا" أي ظهر وبان. وتأمل تقديمَ العداوة على البغضاء لأن الأولى أهمُّ من الثانية. فإن الإنسان قد يبغض المشركين ولا يعاديهم، فلا يكون آتيًا بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء، ولا بد أيضًا من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين ظاهرتين بينتين) ا.هـ[٤٥٠].

---

[٤٥٠] - العمدة في إعداد العدة - (١ / ٤٨٥) وكتب ومقالات المقدسي - (١١٧ / ١٠٦)

وقد اتخذ جهادُ أهل الحق للباطل أشكالاً متنوعة، وصورًا متعددة، فتارة يكونُ بالقلم والبيان، وهو جهاد أهل الحق للمنافقين وأهل الزيغ والمبتدعين؛ بكشف خبيئتهم، وتبيين باطلهم، وزيفِ مذهبهم. قال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا} (٥٢) سورة الفرقان.

وتارةً يكون بالسيف والسنان، وهو جهادُ أهل الحق للكفرة والمرتدين؛ حتى يدخلوا في الإسلام، أو يخضعوا ويُذعنوا لحكمه. قال تعالى: {قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ } (٢٩) سورة التوبة

وقال تعالى: {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} (١٩٣) سورة البقرة ، {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} (١٩٣) سورة البقرة

وأهلُ الحق يمارسون الجهاد بنوعيه؛ جهادَ البنان، وجهادَ السنان. ولكنهم يوقنون أن هذا الحق الذي يحملونه لا بد له من درع يحميه، وقوة تنصره وتسانده، وإلا فَقَدَ محله من العقول وتأثيره في القلوب مهما كانت حججه قاطعة وبراهينه ساطعة. ولهذا أمر اللهُ سبحانه أهلَ الحقِّ بإعداد القوة لإرهاب أهل الباطل ومنعهم من التحرش بأهل الحق والتعدي عليهم. قال تعالى: {وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ} (٦٠) سورة الأنفال

ولهذا كان دينُ الله الحق يقومُ على الكتابِ و السيف، فالإسلامُ دين الحق لا يقوم إلا على ساقين؛ علمٍ وجهاد، فإذا اختل أحدهما؛ اضطرب حبله وفسد نظامه وتمكن منه أعداؤه يفعلون به ما يشاءون. فإن قوام الدين بالكتاب الهادي والحديد الناصر كما قال الله تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ} (٢٥) سورة الحديد

ولقد أحسن من قال في مثل هذا:

وَما هُوَ إِلّا الوَحيُ أَو حَدُّ مُرهَفٍ تُزيلُ ظُباهُ أَخدَعَي كُلِّ مائِلِ

فَهَذا دَواءُ الداءِ مِن كُلِّ عالمٍ وَهَذا دَواءُ الداءِ مِن كُلِّ جاهِلِ

فالعاقِلُ ذو الفطرة السليمة ينتفع بالبينة، ويقبل الحق بدليله، أما الظالم التابع لهواه فلا يردَعُه إلا السيف. فالحقُّ الذي لا يملكُ القوّةَ ليطبقَ في واقع الحياة، ودنيا الناس؛ حقٌّ ضائع مهما بلغت براهينُه، وقوَّةُ حججه، وسطوعُ أدلته، بل وكونُه البيانَ الذي لا يقهر، والحقَّ الضائع لا معنى له ولا قيمة حيث يظل حبيسًا مقهورًا لا يجد الناسُ له أثرًا، ولا يسمعون له صوتًا إلا همهماتٍ ضعيفة مشوهة بفعل الباطل وعلوه.

متى تملك القلب الزكيّ وصارمًا وأنفًا حميًّا تجتنبك المظالم.

وعَنْ إِدْرِيسَ الأَوْدِيِّ قَالَ أَخْرَجَ إِلَيْنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِى بُرْدَةَ كِتَابًا وَقَالَ هَذَا كِتَابُ عُمَرَ إِلَى أَبِى مُوسَى رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمَا : أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ افْهَمْ إِذَا أُدْلِىَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ كَلِمَةُ حَقٍّ لاَ نَفَاذَ لَهُ .."[٤٥١].

وأولى الناس وأحقهم بالعلم هم أهل الجهاد، وأولى الناس وأحقهم بالجهاد هم أهل العلم. وهذا ما جاء به رسول الله ﷺ . وقد جاء في الأثر " اثْنَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ ، وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَ النَّاسُ : الْعُلَمَاءُ وَالْأُمَرَاءُ "[٤٥٢]

وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ عُمَرُ رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ مَوْتِهِ : اعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ لَنْ يَزَالُوا بِخَيْرٍ مَا اسْتَقَامَتْ لَهُمْ وُلاَتُهُمْ وَهُدَاتُهُمْ. "[٤٥٣]

وما أدق قول الغزالي رحمه الله: "إن الدنيا مزرعةُ الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدين توأمان، فالدينُ أصلٌ والسلطان حارس. وما لا أصل له فمهزوم، وما لا حارس له فضائع" ا.هـ.[٤٥٤]

دعا المصطفى دهرًا بمكة لم يجب وقد لان منه جانب وخطاب

---

[٤٥١] - السنن الكبرى للبيهقي- المكنز - (١٠ / ١٣٥) (٢٠٩٦٤) حسن

[٤٥٢] - الْعَادِلِينَ مِنَ الْوُلَاةِ (٣٣) وحِلْيَةُ الْأَوْلِيَاءِ (٤٩٨٥) ضعيف

[٤٥٣] - السنن الكبرى للبيهقي- المكنز - (٨ / ١٦٢) (١٧٠٩٤) صحيح

[٤٥٤] - إحياء علوم الدين - (١ / ١٧)

فلما دعا والسيفُ صلتٌ بكفه له أسلموا واستسلموا وأنابوا

والنبي ﷺ الذي جاء بالكتاب والسنة والدعوة إليهما هو كذلك ﷺ الذي جاء بالسّيف وأمر به وحرض عليه قولاً وفعلاً. فعَنِ ابْنِ عُمَرَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي ، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي ، وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ." رواه أحمد[٤٥٥].

وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِى خُطْبَتِهِ « أَلاَ إِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِى يَوْمِى هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلاَلٌ وَإِنِّى خَلَقْتُ عِبَادِى حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِى مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلاَّ بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِىَ بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لاَ يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرَؤُهُ نَائِمًا وَيَقْظَانَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِى أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِى فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ. ..». رواه مسلم[٤٥٦].

وعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إِلاَّ جِهَادًا فِى سَبِيلِى وَإِيمَانًا بِى وَتَصْدِيقًا بِرُسُلِى فَهُوَ عَلَىَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِى خَرَجَ مِنْهُ نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ. وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ لَوْنُهُ لَوْنُ دَمٍ وَرِيحُهُ مِسْكٌ وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلاَ أَنْ يَشُقَّ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا وَلَكِنْ لاَ أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلَهُمْ وَلاَ يَجِدُونَ سَعَةً وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا

---

[٤٥٥] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (٢ / ٣٣٩)(٥١١٤- حسن

[٤٥٦] - صحيح مسلم- المكنز - (٧٣٨٦)

يثلغ : يكسر -اجتال : أضل -الزبر : العقل -الشنظير : سيئ الخلق -نغزك : نعينك

عَنِّى وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدِدْتُ أَنِّى أَغْزُو فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلُ ». مسلم[457]

إن حياته ﷺ كانت تمازُجًا لا يقبلُ الانفكاك بين التعليم والدعوة وبين القتال في سبيل الله، حتى أنه ﷺ خرج بنفسه للغزو سبعًا وعشرينَ مرة مدةَ العشر سنوات التي قضاها عليه الصلاة والسلام في المدينة. أي بمعدل ثلاثِ مراتٍ في السنة الواحدة. فضلاً عن السرايا التي أمر بإرسالها و لم يخرج معها.وهذا يوضح بجلاءٍ أنّ القتالَ في سبيلِ الله هو المحور الذي كانت تدور عليه حياةُ الصدرِ الأول.

قال الماوردي –رحمه الله– وهو يتحدث عن فضائله ﷺ : "منها؛ انتصابه لجهاد الأعداء وقد أحاطوا بجهاته، وأحدقوا بجنباته، وهو في قطر مهجور، وعدد محصور، فزاد به من قل، وعز به من ذل، وصار بإثخانه بالأعداء محبورًا، وبالرعب منه منصورًا. فجمع بين التصدي لشرع الدين حتى ظهر وانتشر، وبين الانتصاب لجهاد العدو حتى قهر وانتصر، والجمعُ بينهما مُعوِزٌ إلا لمن أمدَّهُ اللهُ بمعونته، وأمدَّهُ بلُطفِهِ). ا.هـ.[458]

وهذا التمازج الذي لا يقبل الانفكاك بين الكتاب والسيف، الذي كان عليه ﷺ ، هو ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم من طبيعةِ هذا الدين وما جاء به. وقد قال تعالى: {وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا اسْتَكَانُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ} (١٤٦) سورة آل عمران

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (وسيوفُ المسلمين تنصر هذا الشرع وهو الكتاب والسنة، فعن عمرو بن دينار قال رأيت جابر بن عبد الله وبيده السيف والمصحف وهو يقول أمرنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن نضرب بهذا من خالف ما في هذا ــ يعني المصحف)[459] ا.هـ.

ومن ثم فالإسلام يُسجلُ تاريخ عزِّهِ، ويسطر صفحات مجده أهلُ العلم المجاهدون، ولقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وهم من سجلوا مجد صدر هذه الأمة علماءً دعاةً

---

[457] - صحيح مسلم- المكنز - (٤٩٦٧) -الكلم : الجرح

[458] - http://www.jazan.org/vb/showthread.php?p=٩٧١٧٨٨

[459] - تاريخ دمشق - (٥٢ / ٢٧٩)

مجاهدين لم يُقْعِدهم العلمُ عن الدعوةِ والجهاد، بل كان علمهم وجهادهم متلاحمين متمازجين أعظمَ ما يكون التلاحم والتمازج. فكان المجد في أعقابهم، والعزُّ في إثرهم، وكان علمُهم حجة لهم لا عليهم. وهكذا كان دور أصحاب النبي ﷺ ، وهذا كان أملهم هداية الخلق إلى الحق مع تقويم من أعرض وتعدى، لا عملَ لهم في حقيقةِ الأمر إلا هذا. فلما توفي ﷺ خرجت جموع الصحابةِ لقتال من ارتدّ من العرب عن الإسلام، ثم ما لبثوا أن انتشروا في الآفاق دعاةً مجاهدين يبلغون الإسلام بسيوفهم وبيانهم.

ولقد حضَرَ حجَّةَ الوداع مع الرسول ﷺ أكثر من مئة ألف من الصحابة رضي الله عنهم، بينما المدفونون في البقيع منهم لا يجاوز عددهم المئتين وخمسين صحابيًّا، أما الكثرة الكاثرة فقد قضوا نحبهم في بلاد الله البعيدة جهادًا في سبيل هذا الدين وتمكينًا له في الأرض...!

عَنِ الْأَوْزَاعِيِّ، قَالَ: " كَانَ يُقَالُ: خَمْسٌ كَانَ عَلَيْهَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ: لُزُومُ الْجَمَاعَةِ، وَاتِّبَاعُ السُّنَّةِ، وَعِمَارَةُ الْمَسْجِدِ، وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ " [٤٦٠]"ا.هـــ.

ولقد سار على نهج الصحابة واقتفى أثرهم بين العلم والدعوة والجهاد أئمة الطائفة المنصورة التابعونَ لَهُم بإحسانٍ ليبرهنوا على عظمة هذا الدين في صنعِ الرِّجال، وأنها عظمة تتجاوز حدودَ الزمانِ والمكان. فما أروعَ أن يُسَجِّل العالِمُ مجدَ الإسلام وعزَّهُ بمداده ودمه، والنماذج هنا كثيرةٌ جدا يضيق المقام بذكرها.

فهذا الإمام العلم سيد التابعين سعيد بن المسيب -رحمه الله تعالى- أحد فقهاءِ المدينة السبعة خرج إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: إنَّك عليل!. فقال: استنفر الله الخفيف والثقيل. فإن لم يمكنني الحرب كثَّرتُ السواد، وحفظتُ المتاع.[٤٦١]

وقال العزي في ترجمة المحدث الكبير أبي إسحاق الفزاري -رحمه الله- قال: " كَانَ ثِقَةً، صَاحِبَ سُنَّةٍ، صَالِحاً، هُوَ الَّذِي أَدَّبَ أَهْلَ الثَّغْرِ، وَعَلَّمَهُم السُّنَّةَ، وَكَانَ يَأْمُرُ وَيَنْهَى، وَإِذَا دَخَلَ الثَّغْرَ رَجُلٌ مُبْتَدِعٌ، أَخْرَجَهُ، وَكَانَ كَثِيْرَ الحَدِيْثِ، وَكَانَ لَهُ فِقْهٌ "[٤٦٢].

---

[٤٦٠] - شعب الإيمان - (٤ / ٣٧٢) (٢٦٧١)

[٤٦١] -تفسير القرطبي ـــ موافق للمطبوع - (٨ / ١٥١)

[٤٦٢] - سير أعلام النبلاء (٥٤١/٨)

وقال الذهبي في ترجمة عبد الله بن المبارك: "الإمامُ الحافظ العلامة شيخ الإسلام فخر المجاهدين قدوة الزاهدين، أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم المروزي، والله إني لأحبه في الله، وأرجو الخير بحبه، بما منحه الله من التقوى، والعبادةِ والإخلاص والجهاد، وسعةِ العلم والأثقال والمواساة والفتوة والصفات الحميدة. وعن مُحَمَّدَ بْنِ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ، قالَ: رَأَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ الْمُبَارَكِ، فِي الْمَنَامِ، فَقُلْتُ: أَيُّ الْعَمَلِ وَجَدْتَ أَفْضَلُ . قَالَ: " الْأَمْرُ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ " قُلْتُ: الرِّبَاطُ، وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ: " نَعَمْ " . قُلْتُ: فَأَيُّ شَيْءٍ صَنَعَ بكَ رَبُّكَ ؟ . قَالَ: " غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً تَتْبَعُهَا مَغْفِرَةٌ، وَكَلَّمَتْنِي امْرَأَةٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ – أَوِ امْرَأَةٌ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ – "[٤٦٣]

وقال الذهبي في ترجمةِ أسد بن الفرات رحمه الله تعالى: " أَسَدُ بنُ الفُرَاتِ أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَرَّانِيُّ ثُمَّ المَغْرِبِيُّ ،الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، القَاضِي، الأَمِيْرُ، مُقَدَّمُ المُجَاهِدِيْنَ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الحَرَّانِيُّ، ثُمَّ المَغْرِبِيُّ.

مَضَى أَسَدٌ أَمِيْراً عَلَى الغُزَاةِ مِنْ قِبَلِ زَيَادَةِ اللهِ الأَغْلَبِيِّ مُتَوَلِّي المَغْرِب، فَافْتَتَحَ بَلَداً مِنْ جَزِيْرَةِ صَقِلِّيَّةَ، وَأَدْرَكَهُ أَجَلُهُ هُنَاكَ فِي رَبِيْعٍ الآخِرِ، سَنَةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ وَمائَتَيْنِ.

وَكَانَ مَعَ تَوَسُّعِهِ فِي العِلْمِ فَارِساً، بَطَلاً، شُجَاعاً، مِقْدَاماً، زَحَفَ إِلَيْهِ صَاحِبُ صَقِلِّيَّةَ فِي مائَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِيْنَ أَلْفاً. قَالَ رَجُلٌ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ أَسَداً وَبِيَدِهِ اللِّوَاءُ يَقْرَأُ سُوْرَةَ يس، ثُمَّ حَمَلَ بِالجَيْشِ، فَهَزَمَ العَدُوَّ، وَرَأَيْتُ الدَّمَ، وَقَدْ سَالَ عَلَى قَنَاةِ اللِّوَاءِ وَعَلَى ذِرَاعِهِ.وَمَرِضَ وَهُوَ مُحَاصِرٌ سَرَقُوْسِيَةَ.وَلَمَّا وَلاَّهُ صَاحِبُ المَغْرِبِ الغَزْوَ، قَالَ: قَدْ زِدْتُكَ الإِمْرَةَ، وَهِيَ أَشْرَفُ، فَأَنْتَ أَمِيْرٌ وَقَاضٍ. "[٤٦٤]

وقال الذهبي في ترجمة أبي العرب: " أَبُو العَرَبِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ تَمِيْمٍ المَغْرِبِيُّ ،العَلاَّمَةُ، المُفْتِي، ذُو الفُنُوْنِ، أَبُو العَرَبِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ تَمِيْمِ بن تَمَّام المَغْرِبِيُّ، الإِفْرِيْقِيُّ.كَانَ جدُّه مِنْ أُمَرَاءِ أَفْرِيقيَة.سَمِعَ:أَبُو العَرَبِ مِنْ خَلْقٍ كَثِيْرٍ أَصْحَاب سَحْنُوْن وَغَيْرِهِ، وَصَنَّفَ التَّصَانِيْف.

---

[٤٦٣] – شعب الإيمان – (٦ / ١٦٧)(٤٠١٦) و تاريخ دمشق – (٣٢ / ٤٨٢) وسير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] – (١٥ / ٤٣٤) وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (١٢ / ٢٤٧)

[٤٦٤] – سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] – (١٩ / ٢٠٥)

وَكَانَ أَحَدَ مَنْ عقد الخُرُوجَ عَلَى بني عبيد فِي ثَوْرَة أَبِي يَزِيْدَ عَلَيْهِم.وَلَمَّا حَاصرَوا المهديَّة، سَمِعَ النَّاس عَلَى أَبِي العَرَب هُنَاكَ كتَابِي(الإِمَامَة)لِمُحَمَّدِ بن سَحْنُوْن.فَقَالَ أَبُو العَرَب:كتبتُ بيدِي ثَلاَثَة آلاَف وَخَمْس مائَة كِتَاب، فَوَاللهِ لقرَاءةُ هذين الكتَابَيْن هُنَا أَفضلُ عِنْدِي مِنْ جَمِيْع مَا كتَبْتُ.."[465]

وقد ذكر القاضي عياض رحمه الله تعالى أنه في هذا الخروج على الدولة العبيدية لم يتخلّف من فقهاء المدنيين المشهورين إلا أبو ميسرةَ لعماه، ولكنه مشى شاهرًا للسلاح في القيروان مع الناس لاجتماع المشيخة على الخروج.

وذكر الذهبي رحمه الله أنه في موقعة واحدة مع العبيديين استَشْهَد خمسة وثمانون نفسًا من العلماء والزهاد، ويوم أن نهضت الأمة لجهاد الصليبيين إعلاءً لكلمة الله، ثم ردًّا لأراضيها السليبة، وحقوقِها المضاعة، كانَ العلماءُ العاملون في مقدمةِ ركب الجهاد، وأُسر منهم من أُسر، وقتل منهم من قتل.

قال ابن خلكان: حتى وافى -أي السلطان- الفرنج على الرملة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ثلاثٍ وسبعين، وكانت الكثرةُ على المسلمين في ذلك اليوم، فلما انهزموا لم يكن لهم حصنٌ قريبٌ يأوون إليه، فطلبوا جهةَ الديارِ المصرية، وضلّوا في الطريق وتبددوا، وأُسر منهم جماعة، منهم الفقيهُ عيسى الهكّاري، وكان ذلك وهنًا عظيمًا جبرهُ الله تعالى بوقعة حطينَ المشهورة.[466]

وقال ابن كثير عن هذه الوقعة: "وأُسر الفقيهان الأخوان؛ ضياءُ الدين عيسى وظهير الدين، فافتداهما السلطان بعد سنتين بتسعين ألف دينار" ا.هـ[467].

ولما توجَّهَ المسلمونَ لفتح بيت المقدس شارك العلماء بقوّة، حتى قيل بأنّه لم يتخلف أحدٌ من أهلِ العلم عن الحضور والمشاركةِ في الفتح. قال ابن كثير: "وطار في الناس أن السلطان عزم على فتحِ بيت المقدس، فقصده العلماء والصالحون تطوعًا، وجاءوا إليه، وكان على رأسِ هؤلاء العلماء المجاهدين للصليبيين المشاركين في فتح بيت المقدس وغيره

---

[465] - سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع] - (29 / 387)(217)

[466] - وفيات الأعيان - (7 / 168)

[467] - البداية والنهاية لابن كثير محقق - موافق للمطبوع - (12 / 365)

من الغزوات –المقادسة الحنابلة خصوصًا عمدائهم الكبار رحمهم الله تعالى، كالشيخ العالم العامل الزاهد القدوة أبي عمر المقدسي، وأخيه الإمام الموفق صاحب المغني، وابن خالهم الحافظِ الكبير عبد الغني، وأخيه العماد" ا.هـ[٤٦٨].

وأما جهادُ شيخ الإسلام ابن تيمية للتتار فهو علمٌ في رأسه نار. قال ابن كثير –رحمه الله– في كلامه على هجوم التتار على دمشق: "وكان الشيخ تقي الدين ابن تيمية يدور كل ليلة على الأسوار يحرض الناس على الصبر والقتال، ويتلو عليهم آياتِ الجهاد والرِّباط"[٤٦٩].

وقال عنهُ الذهبي: "نصرَ السنة بأوضح حجج وأبهر براهين، وأوذي في ذات الله من المخالفين، وأُخيف في نصر السنة المحضة، حتى أعلى الله مناره، وجمع قلوب أهل التقوى على محبته، والدعاءِ له، وكبس أعدائه، وهدى به رجالاً كثيرة من أهل الملل والنحل، وجبل قلوب الملوك والأمراء على الانقياد له غالبًا، وعلى طاعته، وأحيى به الشام، بل الإسلام بعد أن كان ينثلم، خصوصًا في كائنة التتار. وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي، فلو حلفتُ بين الركنِ والمقام؛ لحلفت أني ما رأيت بعينيَّ مثله، وأنه ما رأى مثل نفسه" ا.هـ.[٤٧٠]

أما الفصلُ بين العلمِ والجهاد، والدعوةِ باللسان والدعوة بالسنان، فحاشا أن يكون منهجَ الطائفةِ المنصورة، إذ هو فصامٌ نكد، وطامّةٌ كبرى، وبدعةٌ منكرة، ودخنٌ في الدين، أورث ما يُدمِي القلب، ويُدمِع العين، ويملأ النفوس حسرة وأسى.

وإن المتأمِّلَ لسيرة النبي ﷺ ؛ ليَلحَظُ أن النبي –ﷺ – ومنذ مطلع فجر هذه الدعوة يسعى لامتلاك أسباب القوة، ويتجلى ذلك واضحًا في عرضه –ﷺ – نفسَهُ في تلك المرحلة المكية على القبائل بُغيَةَ أن يجدَ قبيلةً تقومُ دونَه بسيوفِها، وتقاتلُ عنه ليتمكنَ من المضي في أمر ربه.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، مِنْ فِيهِ قَالَ : لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَعْرِضَ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، خَرَجَ وَأَنَا مَعَهُ ، وَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

[٤٦٨] – البداية والنهاية لابن كثير محقق – موافق للمطبوع – (١٢ / ٣٩٤)

[٤٦٩] – البداية والنهاية لابن كثير محقق – موافق للمطبوع – (١٤ / ١٣)

[٤٧٠] - http://www.islamstory.com/

، فَدُفِعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الْعَرَبِ ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانَ مُقَدَّمًا فِي كُلِّ خَيْرٍ ، وَكَانَ رَجُلًا نَسَّابَةً فَسَلَّمَ ، وَقَالَ : مِمَّنِ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ رَبِيعَةَ . قَالَ : وَأَيُّ رَبِيعَةَ أَنْتُمْ ؟ أَمِنْ هَامِهَا أَيْ مِنْ لَهَازِمِهَا ؟ فَقَالُوا : مِنَ الْهَامَةِ الْعُظْمَى ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَأَيُّ هَامَتِهَا الْعُظْمَى أَنْتُمْ ؟ قَالُوا : مِنْ ذُهْلٍ الْأَكْبَرِ قَالَ : مِنْكُمْ عَوْفٌ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : لَا حُرَّ بِوَادِي عَوْفٍ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمْ جَسَّاسُ بْنُ مُرَّةَ حَامِي الذِّمَارَ ، وَمَانِعُ الْجَارَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمْ بِسْطَامُ بْنُ قَيْسٍ أَبُو اللِّوَاءَ ، وَمُنْتَهَى الْأَحْيَاءِ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمُ الْحَوْفَزَانُ قَاتِلُ الْمُلُوكِ وَسَالِبُهَا أَنْفُسَهَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمُ الْمُزْدَلِفُ صَاحِبُ الْعِمَامَةِ الْفَرْدَةِ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمْ أَخْوَالُ الْمُلُوكِ مِنْ كِنْدَةَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَمِنْكُمْ أَصْحَابُ الْمُلُوكِ مِنْ لَخْمٍ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَلَسْتُمْ مِنْ ذُهْلٍ الْأَكْبَرِ ، أَنْتُمْ مِنْ ذُهْلٍ الْأَصْغَرِ قَالَ : فَقَامَ إِلَيْهِ غُلَامٌ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ يُقَالُ لَهُ دَغْفَلٍ حِينَ تَبَيَّنَ وَجْهُهُ ، فَقَالَ : إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْلَهُ وَالْعَبْوُ لَا نَعْرِفُهُ أَوْ نَجْهَلُهُ . يَا هَذَا ، قَدْ سَأَلْتَنَا فَأَخْبَرْنَاكَ ، وَلَمْ نَكْتُمْكَ شَيْئًا ، فَمِمَّنِ الرَّجُلُ ؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَنَا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ الْفَتَى : بَخٍ بَخٍ ، أَهْلُ الشَّرَفِ وَالرِّيَاسَةِ ، فَمِنْ أَيِّ الْقُرَشِيِّينَ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ وَلَدِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ ، فَقَالَ الْفَتَى : أَمْكَنْتَ وَاللَّهِ الرَّامِي مِنْ سَوَاءِ الثُّغْرَةِ . أَمِنْكُمْ قُصَيٌّ الَّذِي جَمَعَ الْقَبَائِلَ مِنْ فِهْرٍ ، فَكَانَ يُدْعَى فِي قُرَيْشٍ مُجَمِّعًا ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْكُمْ – أَظُنُّهُ قَالَ – هِشَامٌ الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافٌ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْكُمْ شَيْبَةُ الْحَمْدِ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ مُطْعِمُ طَيْرِ السَّمَاءِ الَّذِي كَانَ وَجْهُهُ الْقَمَرَ يُضِيءُ فِي اللَّيْلَةِ الدَّاجِيَةِ الظَّلْمَاءِ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْ أَهْلِ الْإِفَاضَةِ بِالنَّاسِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : فَمِنْ أَهْلِ الْحِجَابَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْ أَهْلِ السِّقَايَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْ أَهْلِ النَّدَاوَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا ، قَالَ : فَمِنْ أَهْلِ الرِّفَادَةِ أَنْتَ ؟ قَالَ : فَاجْتَذَبَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زِمَامَ النَّاقَةِ رَاجِعًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ الْغُلَامُ :

صَادَفَ دَرُّ السَّيْلِ دَرًّا يَدْفَعُهْ يَهْضِبُهُ حِينًا وَحِينًا يَصْدَعُهْ

أَمَا وَاللَّهِ لَوْ ثَبَتَّ لَأَخْبَرْتُكَ مَنْ قُرَيْشٌ قَالَ : فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ . قَالَ عَلِيٌّ : فَقُلْتُ : يَا أَبَا بَكْرٍ لَقَدْ وَقَعْتَ مِنَ الْأَعْرَابِيِّ عَلَى بَاقِعَةٍ قَالَ : أَجَلْ أَبَا حَسَنٍ مَا مِنْ طَامَّةٍ إِلَّا وَفَوْقَهَا

طَامَّةٌ ، وَالْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ قَالَ : ثُمَّ دُفِعْنَا إِلَى مَجْلِسٍ آخَرَ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ ، فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ فَسَلَّمَ ، فَقَالَ : مِمَّنِ الْقَوْمُ ؟ قَالُوا : مِنْ شَيْبَانَ بْنِ ثَعْلَبَةَ ، فَالْتَفَتَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي هَؤُلَاءِ غَرَرُ النَّاسِ ، وَفِيهِمْ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو ، وَهَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ ، وَالْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ ، وَالنُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ ، وَكَانَ مَفْرُوقٌ قَدْ غَلَبَهُمْ جَمَالًا وَلِسَانًا ، وَكَانَتْ لَهُ غَدِيرَتَانِ تَسْقُطَانِ عَلَى تَرِيبَتِهِ وَكَانَ أَدْنَى الْقَوْمِ مَجْلِسًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَيْفَ الْعَدَدُ فِيكُمْ ؟ فَقَالَ مَفْرُوقٌ : إِنَّا لَنَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ ، وَلَنْ تُغْلَبَ أَلْفٌ مِنْ قِلَّةٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَكَيْفَ الْمَنْعَةُ فِيكُمْ ؟ فَقَالَ الْمَفْرُوقُ : عَلَيْنَا الْجَهْدُ وَلِكُلِّ قَوْمٍ جَهْدٌ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ ؟ فَقَالَ مَفْرُوقٌ : إِنَّا لَأَشَدُّ مَا نَكُونُ غَضَبًا حِينَ نَلْقَى ، وَإِنَّا لَأَشَدُّ مَا نَكُونُ لِقَاءً حِينَ نَغْضَبُ ، وَإِنَّا لَنُؤْثِرُ الْجِيَادَ عَلَى الْأَوْلَادِ ، وَالسِّلَاحَ عَلَى اللِّقَاحِ ، وَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، يُدِيلُنَا مَرَّةً وَيُدِيلُ عَلَيْنَا أُخْرَى ، لَعَلَّكَ أَخَا قُرَيْشٍ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَدْ بَلَغَكُمْ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ أَلَا هُوَ ذَا ، فَقَالَ مَفْرُوقٌ : بَلَغَنَا أَنَّهُ يَذْكُرُ ذَاكَ ، فَإِلَى مَا تَدْعُو يَا أَخَا قُرَيْشٍ ؟ فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَجَلَسَ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُظِلُّهُ بِثَوْبِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " أَدْعُوكُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَإِلَى أَنْ تُؤْوُونِي وَتَنْصُرُونِي ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ ظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ ، وَكَذَّبَتْ رُسُلَهُ ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ " ، فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو : وَإِلَامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ ، فَوَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ كَلَامًا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا ، فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَى فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ فَقَالَ مَفْرُوقٌ : وَإِلَامَ تَدْعُونَا يَا أَخَا قُرَيْشٍ زَادَ فِيهِ غَيْرُهُ فَوَاللَّهِ مَا هَذَا مِنْ كَلَامِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى رِوَايَتِنَا قَالَ : فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ فَقَالَ مَفْرُوقُ بْنُ عَمْرٍو : دَعَوْتَ وَاللَّهِ يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، وَلَقَدْ أَفِكَ قَوْمٌ كَذَّبُوكَ وَظَاهَرُوا عَلَيْكَ . وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَشْرَكَهُ فِي الْكَلَامِ هَانِئُ بْنُ قَبِيصَةَ ، فَقَالَ : وَهَذَا هَانِئٌ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ دِينِنَا ، فَقَالَ هَانِئٌ : قَدْ

سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ إِنِّي أَرَى أَنَّ تَرْكَنَا دِينَنَا واتِّبَاعَنَا عَلَى دِينِكَ لِمَجْلِسٍ جَلَسْتَهُ إِلَيْنَا لَيْسَ لَهُ أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ أَنَّهُ زَلَلٌ فِي الرَّأْيِ ، وَقِلَّةُ نَظَرٍ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ الزَّلَّةُ مَعَ الْعَجَلَةِ ، وَمِنْ وَرَائِنَا قَوْمٌ نَكْرَهُ أَنْ يُعْقَدَ عَلَيْهِمْ عَقْدٌ ، وَلَكِنْ نَرْجِعُ وَتَرْجِعُ وَنَنْظُرُ وَتَنْظُرُ . وَكَأَنَّهُ أَحَبَّ أَنْ يَشْرَكَهُ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ ، فَقَالَ : وَهَذَا الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ شَيْخُنَا وَصَاحِبُ حَرْبِنَا ، فَقَالَ الْمُثَنَّى بْنُ حَارِثَةَ : سَمِعْتُ مَقَالَتَكَ يَا أَخَا قُرَيْشٍ ، وَالْجَوَابُ فِيهِ جَوَابُ هَانِئِ بْنِ قَبِيصَةَ فِي تَرْكِنَا دِينَنَا وَمُتَابَعَتُكَ عَلَى دِينِكَ ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَزَلْنَا بَيْنَ صُرَيَّيْنِ الْيَمَامَةِ ، وَالسَّمَامَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " مَا هَذَانِ الصُّرَيَّانِ ؟ " فَقَالَ : أَنْهَارُ كِسْرَى وَمِيَاهُ الْعَرَبِ ، فَأَمَّا مَا كَانَ مِنْ أَنْهَارِ كِسْرَى فَذَنْبُ صَاحِبِهِ غَيْرُ مَغْفُورٍ وَعُذْرُهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ ، وَأَمَّا مَا كَانَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَذَنْبُ صَاحِبِهِ مَغْفُورٌ وَعُذْرُهُ مَقْبُولٍ ، وَإِنَّا إِنَّمَا نَزَلْنَا عَلَى عَهْدٍ أَخَذَهُ عَلَيْنَا أَنْ لَا نُحْدِثَ حَدَثًا وَلَا نُؤْوِي مُحْدِثًا وَإِنِّي أَرَى أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ يَا قُرَشِيُّ مِمَّا يَكْرَهُ الْمُلُوكُ ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ نُؤْوِيَكَ وَنَنْصُرَكَ مِمَّا يَلِي مِيَاهَ الْعَرَبِ فَعَلْنَا . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : مَا أَسَأْتُمْ فِي الرَّدِّ إِذْ أَفْصَحْتُمْ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ دِينَ اللَّهِ لَنْ يَنْصُرَهُ إِلَّا مَنْ حَاطَهُ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ ، أَرَأَيْتُمْ إِنْ لَمْ تَلْبَثُوا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى يُورِثَكُمُ اللَّهُ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَيُفْرِشَكُمْ نِسَاءَهُمْ أَتُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَتُقَدِّسُونَهُ ؟ " فَقَالَ النُّعْمَانُ بْنُ شَرِيكٍ : اللَّهُمَّ فَلَكَ ذَلِكَ قَالَ : فَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا " ، ثُمَّ نَهَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَابِضًا عَلَى يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ يَقُولُ : يَا أَبَا بَكْرٍ أَيَّةُ أَخْلَاقٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَا أَشْرَفُهَا بِهَا يَدْفَعُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بَأْسَ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ ، وَبِهَا يَتَحَاجَزُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ . قَالَ : فَدُفِعْنَا إِلَى مَجْلِسِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ ، فَمَا نَهَضْنَا حَتَّى بَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ سُرَّ بِمَا كَانَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَمَعْرِفَتِهِ بِأَنْسَابِهِمْ.[٤٧١]

والحديثُ ظاهر الدلالة بأنه ﷺ كان ينشد السيف الذي ينصر به دعوته، بل لما أعلن القوم استعدادهم أن ينصروه ﷺ من العرب دون الفرس؛ رفض ﷺ مبايعتهم مصرًّا أن تكونَ النصرة بالسيف مصلتة على كل من قد يقف أمام الدعوة من عرب أو عجم.

---

[٤٧١] - دلائل النبوة للبيهقي - (٢ / ٢٩٧)(٦٩٥)

ألا فليتأمل الذين يريدون نصرة الدين بقتال الصليبيين دون قتال أعوانهم من بني جلدتنا من المرتدين، ألهم في هذه النصرة حظٌّ أو نصيب؟.

إنما أمر الله سبحانه وتعالى من البراءةِ من المشركين والعداوةِ للكافرين له صور متنوعة، وأشكال متعددة، لكن أعظم مظاهره وأبرزَ معالمه على الإطلاق هو القتالُ والجهادُ في سبيلِ الله، ولكنه شاقٌ عسير على النفوس، ولذلك لم يتصدّ لهُ إلا طائفةٌ من أهل الحقّ اصطفاها الله سبحانه وتعالى. هذه الطائفة خطت لنفسها المضي في طريقٍ تقاعسَ عنه الجمُّ الغفير، وأحْجَمَ عن سلوكِ دربه الكثير. طريقٍ مكروهٍ لقلوب البريات، محبوبٍ لخالق الأرض والسماوات. طريقٍ قامت أرضهُ على الجماجم والأشلاء، ورُويت تربته بطاهر الدماء. طريقٍ بدايته آلام ومشاق وأحزان، وخاتمته نعيمٌ وراحةٌ وغُفران. طريقٍ السير فيه عظيمُ التكاليف؛ مفارقةٌ للأهل والأوطان، هجر للأحباب والخلان، هجرة للواحد الديان. طريقٍ كَثُرَ عنه المخذلون، وعَظُم فيه المخالفون. طريقٍ مُمِحِّصٍ للقلوب، وفاضحٍ للنُّفوس... إنّه طريقُ القتال، وسبيلُ النِّزال، يا لَهُ من طريق موفّقٌ من هُدِي لسلوكه، محرومٌ والله من ضلَّ عن سبيله.

قال رسولُ الله ﷺ : (لا تزالُ طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحقِّ ظاهرين إلى يوم القيامة).

وعن جابر بن سَمُرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتلُ عليه عصابة من المسلمين حتى تقومَ الساعة).

ومن حديث عقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: قال ﷺ : (لا تزال عصابةٌ من أمتي يقاتلون على أمرِ الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : (لا تزالُ طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوئهم، حتى يقاتل آخرُهم المسيحَ الدجال)[٤٧٢].

كلماتٌ من نور الوحي ومعين الرسالة ترسم بريشة الحقيقة سبيل هذه الطائفة المصطفاة، وتحددُ معالم طريقها، وعنوانَ منهجِها، ودامغةً في الوقت نفسه كل متخاذل من أهل فقه

---

[٤٧٢] - حر تخريجها

الذل والصغار، وتقعيد الخنوع للواقع وضغطه، فالقتال في سبيل الله شرطُ الطائفةِ المنصورة، وأساس صحة الانتساب إليها، وإن رغمت أنوف!.

إنه القتال قدرُ كل من أراد الانتساب لهذه الطائفة المنصورة. وقولهُ ﷺ (لا تزال) و (يقاتلون) و(حتى يقاتل آخرهم الدجال) يدلُّ على أن هذه الطائفةَ المقاتلة طائفةٌ ممتدة كحبَّاتِ العقد يأخذ خلفُها عن سلفِها، ويفضي سابقها للاحقها في تتابع واتصالٍ تامين ليس بينهما فراغ؛ لتظل الرايةُ مرفوعة دائمًا وأبدًا، فهي وحدةٌ واحدة لها أول ولها آخر عبر عمر الأمة كله.

وقد ترجم كثيرٌ من الأئمة لأحاديث الطائفة المنصورة بما يدل على ما ذكرناه من كون القتال قدر الطائفة المنصورة. قال الإمام أبو داود في سننه (باب في دوام الجهاد). وقال ابنُ الجارود رحمه الله في المنتقى (باب دوام الجهاد إلى يوم القيامة).

هذا القتال هو أخص أوصافِ أهل هذه الطائفة المنصورة، وألصقُها بهم، فهو شعارهم ودثارهم، وهو دنياهم وآخرتهم، وهو فراغهم وشغلهم، وهو حلهم وترحالهم، عكفوا عليه، وتنادوا إليه، فكان التسابق زرافاتٍ ووحدانًا. قال تعالى: {فَإِذَا انسَلَخَ الأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} (٥) سورة التوبة.

وقال تعالى: (قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ).

وقد جاء التعبير عن هذه الصفة الحَدِّية من صفات الطائفة المنصورة بلفظ القتال، و لم يأت بلفظ الجهاد، قاطعًا الطريق على من أُشربوا في قلوبهم حبَّ التأويل –والذي حقيقته التحريف– ليمنعهم من تحريف هذه الصفة عن حقيقتها إرضاءً لشهواتِهم وخضوعًا لشبهاتهم، وليضعَهم في مواجهَةِ أنفسهم مواجهةً يتبعُها إما القيام بأمر الله وتحقيق شرط

صحة النسبة للطائفة المنصورة وأهلها، وإما التخاذل والتقهقر وبطلان النسبة وانكشاف الادّعاء.

بل وقع في بعض روايات الحديث أن ذكر النبي ﷺ للقتال إنما هو لزعم بعضهم ألاَّ جهاد وأن الحرب قد وضعت أوزارها. فعَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ ، أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ نُفَيْلٍ ، أَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي أَسَمْتُ الْخَيْلَ ، وَأَلْقَيْتُ السِّلَاحَ ، وَوَضَعَتِ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، قُلْتُ : لَا قِتَالَ . فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : " الْآنَ جَاءَ الْقِتَالُ ، لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى النَّاسِ ، يَزِيغُ اللَّهُ قُلُوبَ أَقْوَامٍ ، فَيُقَاتِلُونَهُمْ ، وَيَرْزُقُهُمُ اللَّهُ مِنْهُمْ ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، أَلَا إِنَّ عُقْرَ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "[٤٧٣].

إنه قدرُ القتال، وسبيلُ المواجهة مع الباطل حقيقةٌ كان النبي ﷺ يصدع بها في وجه أعدائه والدعوة في أصعب ظروفها، وأحلك مراحلها، من قلةٍ في العدد وضعفٍ في العُدة.

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو ، قَالَ : قُلْتُ : مَا أَكْثَرُ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ ؟ قَالَ : قَدْ حَضَرْتُهُمْ وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ فِي الْحِجْرِ ، فَذَكَرُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ ، فَقَالُوا : مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا ، وَشَتَمَ آبَاءَنَا ، وَعَابَ دِينَنَا ، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا ، وَسَبَّ آلِهَتَنَا ، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ ، أَوْ كَمَا قَالُوا ، فَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ ، إِذْ طَلَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَأَقْبَلَ يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، فَمَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ ، فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ ، قَالَ : وَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَضَى ﷺ ، فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ ، ثُمَّ مَضَى ﷺ ، فَمَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ ، غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا ، ثُمَّ قَالَ : أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ. قَالَ : فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ لَكَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَطْأَةً قَبْلَ ذَلِكَ يَتَوَقَّاهُ بِأَحْسَنِ مَا يُجِيبُ مِنَ الْقَوْلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ : انْصَرِفْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ ، انْصَرِفْ رَاشِدًا ، فَوَاللَّهِ مَا كُنْتَ جَهُولاً. فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا

---

[٤٧٣] - صحيح ابن حبان - (١٦ / ٢٩٦) (٧٣٠٧) صحيح

كَانَ مِنَ الْغَدِ اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ ، وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ ، وَبَيْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَأَحَاطُوا بِهِ ، يَقُولُونَ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا – لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ. قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، وَقَالَ وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَهُ يَقُولُ وَهُوَ يَبْكِي : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ؟ ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَأَشُدُّ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ."[٤٧٤].

قال البيهقي رحمه الله: " وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ : أَنَّهُ ﷺ أَوْعَدَهُمْ بِالذَّبْحِ ، وَهُوَ الْقَتْلُ فِي مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ ، ثُمَّ صَدَقَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِزَمَانٍ ، فَقَطَعَ دَابِرَهُمْ ، وَكَفَى الْمُسْلِمِينَ شَرَّهَمْ" ا.هـــ.[٤٧٥]

تلكم الحقيقة كان النبي ﷺ يغرس بذورها في نفوس أصحابه ولا سيما في تلك المرحلة التي لم يؤذن لهم فيها بالقتال، وأمروا فيها بالعفو والصفح وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فأثمر ذلك الغراس وأينعت ثمرته في نفوس الصحابة رضوانُ الله عليهم. فأدركوا حقيقةَ الصراعِ بينهم وبين الكفر، وأن هذه المرحلة مرحلةٌ مؤقتة ما تلبثُ أن تزول. وأن القتال بينهم وبين معسكر الباطل وحزبه أمرٌ كائنٌ لا محالة، ذلكم هو قدر هذه الدعوة منذ يومها الأول. وأن السيف هو الفيصلُ بينهم وبين أعدائهم، وهو من سيزيحُ هذه الرؤوسَ عن طريق الحق وأهله.

وعَنْ جَابِرٍ ، قَالَ : مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ سَبْعَ سِنِينَ ، يَتَتَبَّعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ بِعُكَاظَ وَمَجَنَّةَ وَالْمَوَاسِمِ بِمِنًى ، يَقُولُ : مَنْ يُؤْوِينِي وَيَنْصُرَنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالاَتِ رَبِّي ؟ حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ أَوْ مِنْ مِصْرَ فَيَأْتِيهُ قَوْمُهُ ، فَيَقُولُونَ : احْذَرْ غُلاَمَ قُرَيْشٍ ، لاَ يَفْتِنُكَ. وَيَمْشِي بَيْنَ رِحَالِهِمْ وَهُمْ يُشِيرُونَ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ ، حَتَّى بَعَثَنَا اللَّهُ مِنْ يَثْرِبَ ، فَآوَيْنَاهُ وَصَدَّقْنَاهُ ، فَيَخْرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا وَيُؤْمِنُ بِهِ وَيُقْرِئُهُ الْقُرْآنَ ، وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ

---

[٤٧٤] – صحيح ابن حبان – (١٤ / ٥٢٥) (٦٥٦٧) صحيح

[٤٧٥] – دَلاَئِلُ النُّبُوَّةِ لِلْبَيْهَقِيِّ (٥٧٨)

فَيُسْلِمُونَ بِإِسْلاَمِهِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الأَنْصَارِ إِلاَّ فِيهَا رَهْطٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يُظْهِرُونَ الإِسْلاَمَ ، ثُمَّ إِنَّا اجْتَمَعْنَا ، فَقُلْنَا : حَتَّى مَتَى نَتْرُكُ النَّبِيَّ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ ؟ فَرَحَلَ إِلَيْهِ مِنَّا سَبْعُونَ رَجُلاً ، حَتَّى قَدِمُوا عَلَيْهِ فِي الْمَوْسِمِ فَوَاعَدْنَاهُ بَيْعَةَ الْعَقَبَةِ ، فَاجْتَمَعْنَا عِنْدَهَا مِنْ رَجُلٍ وَرَجُلَيْنِ ، حَتَّى تَوَافَيْنَا ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللهِ عَلاَمَ نُبَايِعُكَ ؟ قَالَ : تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ ، وَعَلَى الأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَنْ يَقُولَهَا لاَ يُبَالِي فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِيَ ، وَتَمْنَعُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَلَكُمُ الْجَنَّةُ ، فَقُمْنَا إِلَيْهِ فَبَايَعْنَاهُ ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ وَهُوَ مِنْ أَصْغَرِهِمْ ، فَقَالَ : رُوَيْدًا يَا أَهْلَ يَثْرِبَ ، فَإِنَّا لَمْ نَضْرِبْ أَكْبَادَ الإِبِلِ إِلاَّ وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَأَنَّ إِخْرَاجَهُ الْيَوْمَ مُنَازَعَةُ الْعَرَبِ كَافَّةً ، وَقَتْلُ خِيَارِكُمْ ، وَأَنْ تَعَضَّكُمُ السُّيُوفُ ، فَإِمَّا أَنْ تَصْبِرُوا عَلَى ذَلِكَ وَأَجْرُكُمْ عَلَى اللهِ ، وَإِمَّا أَنْتُمْ تَخَافُونَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ جُبْنًا ، فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ أَعْذَرُ لَكُمْ ، فَقَالُوا : أَمِطْ عَنَّا فَوَاللَّهِ لاَ نَدَعُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَبَدًا ، فَقُمْنَا إِلَيْهِ ، فَبَايَعْنَاهُ ، فَأَخَذَ عَلَيْنَا ، وَشَرَطَ أَنْ يُعْطِيَنَا عَلَى ذَلِكَ الْجَنَّةَ."[٤٧٦]

لله درك يا ابن زرارة على هذه المقالة! يا لها من كلمات تنبئُ عن معرفة بحقيقة الصراع بين الحق والباطل ، ومنذ اللحظةِ الأولى قبل البيعة. كلماتٌ خرجت من فِيٍّ من سلمت فطرتُه، و لم تلوثها تلكم المتاهات النظرية، والسفسطات الكلامية، والفلسفاتِ العقيمة.

كلماتٌ نسوقها إلى أولئك الذين ما عقلوا طبيعة هذا الدين، و لم يعوا بعدُ حقيقته، وليتهم اكتفوا بتخاذلهم وقعودهم عن الجهاد؛ لهان المصابُ إذن، ولما انشغلنا بتوجيه اللوم لهم، ولكنهم أبوا إلا أن يضفوا على هذا القعود والتخاذل الصبغة الشرعية، فخرجوا على الأمة بمناهج دخيلة على ما كان عليه سلف الأمة وعلماؤها. كانت بمترلة معول الهدم في بنيان هذا الدين شعروا أو لم يشعروا، حقنوا أجساد أبناء هذه الأمة بجرعات من التخدير والتثبيط، وعقدوا على ناصية رؤوسهم ثلاثًا، وكلما هم أبناء الأمة لينفضوا غبار الذل الذي تغشاهم، ويهبوا نصرة لدينهم، ودفاعًا عن حرماهم؛ نادوا عليهم أن ارقدوا عليكم

---

[٤٧٦] - صحيح ابن حبان - (١٤ / ١٧٢) (٦٢٧٤) صحيح

ليلٌ طويل، إن الدواء لما ترونه في جسد أمتكم من جراح وما تحسون فيه من آلام إنما هو بأن تُغمدوا سيوفكم، وتكسروا رماحكم وتلزموا دوركم...

هكذا يُخدّرُ أبناءُ هذه الأمة! وهكذا توأد فيهم روح الجهاد. وبماذا! إنه بالسلاح الذي يستنهض به أبنائها ليحاربوا أعدائهم، يُخَدَّرون بحقن شعار التصفية، ويثبطون تحت دعاوى التربية. كلماتُ حق أريد بها باطل. عن أي تصفية يتكلمون! وهل التصفية لما التصق بهذا الدين مما ليس منه إلا بالجهاد؟ قلِّب بصرك أينما شئتَ في بلاد المسلمين، هل ترى تربَّعَ على عروشها من يحكمُ بشريعة رب العالمين؟ أو أخذ على نفسه نُصرة هذا الدين والذود عن حياضه والدفاع عن حرماته؟ لا أظن إلا وسيرتد إليك بصرك كليلا حسيرًا، ولن ترى إلا حربًا ضروسًا لتقويض بنيان هذا الدين، وسعيًا حثيثًا لاستئصال شأفة المجاهدين الصادقين، وموالاة للكافرين، وبراءةً من الموحدين، و والله ما رأينا ولا سمعنا أحدًا من هؤلاء الأدعياء قام مقام صدقٍ فكشف لأبناء هذه الأمة عوار هؤلاء الطواغيت، ولا حرض على قتالهم و وجوب جهادهم، بل ما رأينا منهم إلا إضفاء الشرعية على حكمهم، وتحريمَ الخروجِ عليهم، ونبزَ كل من يحاول جهادهم بأبشع الألقاب وأشنع الصفات.

إن المجاهدين لو كانوا في أمة تعرف لأبنائها حقهم، وتقدرهم حق قدرهم، لما تركوهم يمشون على الأرض ولغسّلوا عن أقدامهم. فيا أسود جزيرة محمد ﷺ اصبروا على ما أقامكم الله فيه، واعلموا أن الله ما ابتلاكم إلا وهو يريد بكم خيرًا. وأُقسم بالذي لا إله غيره أن دماء إخواننا لن تذهب سدى بإذن الله. ألا فارتقبوا يا طواغيت آل سلول. وإن غدًا لناظره لقريب.

أم أن التصفية التي يقصدون والتنقية التي ينشدون طباعة كتاب من هاهنا، وإخراج جزء من هناك يتكسبون الرزق من خلالها حتى أضحوا بهذه المهنة يعرفون، وبها يُسكرون ثم لتنحر الأمة بعد ذلك، ولتغتصب أراضيها، وليعتدي على مقدساتها، فبئست التصفيةُ والله!

إن الأمة اليوم لا تحتاجُ إلى مزيدٍ من المصنفات والمؤلفات، فمكتباتُها تزخر بعشرات الآلاف من المجلدات، وإنما هي في حاجة إلى مناراتٍ تضيء لها الطريق وتنير لها السبيل،

بحاجة إلى قدوات يروون بدمائهم ترابَ أرضها؛ فتدب روح الحياة في صفوف أبنائها من جديد.

وعن أي تربية يتحدثون؟ وهل التربيةُ على التوحيد الصافي والكفر بالطاغوت والولاء للمؤمنين والبراء من الكافرين، وبذل النفوس والمهج رخيصة فداءً لهذا الدين إلا في ساحات الجهاد وميادين القتال؟! وهل كان جل تربية نبينا محمد ﷺ لأصحابه إلا في ساحات الجهاد؟

روى البخاري عَنْ أَبِى إِسْحَاقَ قَالَ سَمِعْتُ الْبَرَاءَ – رضى الله عنه – يَقُولُ أَتَى النَّبِىَّ – ﷺ – رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالْحَدِيدِ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ وَأُسْلِمُ . قَالَ « أَسْلِمْ ثُمَّ قَاتِلْ » . فَأَسْلَمَ ثُمَّ قَاتَلَ ، فَقُتِلَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « عَمِلَ قَلِيلاً وَأُجِرَ كَثِيرًا » [٤٧٧].

فتأمل كيف أمره النبي ﷺ بالإسلام ومن ثم أمره بالقتال تربية له على التضحية والفداء لهذا الدين، و لم يأمره بالرجوع إلى المدينة حتى يتربى كما يزعم هؤلاء.. وهذا في فرض الكفاية وجهاد الطلب، فكيف بالعدو الصائل وجهاد الدفع؟.

إن العلم الشريف عند أهل الطائفة المنصورة ليس بحفظ المتون، وجمع الفنون، وكثرة التصنيف، ومجالس الوعظ والتدريس والإفتاء مع ترك القيام لله بالأمر الذي يحبه ويرضاه من صدع بحق، وأمرٍ بمعروف ونهي عن منكر، وغضبٍ صادق إذا انتُهكتْ محارم الله، وإعلاءٍ لكلمةِ الله دعوة وجهادًا. فمن كان حظه من العلم ما ذكر، مع تضييعه لواجبات الدين الكبار إيثارًا للسلامة أو إخلادًا للراحة والدعة، أو حبًّا للدنيا وتثاقلاً للأرض، أو ركونًا للذين ظلموا؛ فقد خان الرسالةَ، وضيع الأمانة، ومن ثمّ خرج عن حد العلم الشريف ورسمه، وفارق تلك القافلة المباركة؛ قافلة العلم الشريف التي يقف على رأسها الأنبياءُ والمرسلون، فأما أن ينتظمه رسمهم أو يشمله حدهم أو أن يجمعه وإياهم وصفٌ واحد. ولمثل هذا يقال: لست والله عالمًا أو حكيمًا، إنما أنت تاجرٌ في العلوم، فبغير القتال تبقى الفتنة، وهيهات أن يكون الدين كله لله. ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون.

---

[٤٧٧] – صحيح البخارى– المكنز – (٢٨٠٨)

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: " وَلَيْسَ بَعْدَ الْإِيمَانِ بِاَللَّهِ وَرَسُولِهِ فَرْضٌ آكَدُ وَلَا أَوْلَى بِالْإِيجَابِ مِنْ الْجِهَادِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ بِالْجِهَادِ يُمْكِنُ إظْهَارُ الْإِسْلَامِ وَأَدَاءُ الْفَرَائِضِ ، وَفِي تَرْكِ الْجِهَادِ غَلَبَةُ الْعَدُوِّ وَدُرُوسُ الدِّينِ ، وَذَهَابُ الْإِسْلَامِ ، إلَّا أَنَّ فَرْضَهُ عَلَى الْكِفَايَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّا ."[٤٧٨]

فإذا قعد أهلُ الحقِّ عن نصرة الحق، ودفعِ الباطل، وإزالتِهِ بسيوفهم، جهلاً منهم بمعاني الحق ومقتضياته ولوازمه، أو غفلة منهم عن حقيقةِ الصراع، وعن طبيعة الباطل وصفته، أو استسلامًا لقراءَةٍ فاسدةٍ في نواميس الكون وسننه الإلهية، أو خداعًا بأوهام وأمانيَّ باطلة، أو خضوعًا لمتاهاتٍ نظرية، وفلسفاتٍ جدلية، وأطروحاتٍ إنشائية، تدورُ في حَلَقة مفرغة تبدأ من حيث انتهت، وتنتهي من حيث بدأت. أو خوَرًا وضعفًا، وعجزًا عن القيامِ بالقتال وتحمُّلِ أعبائِه -فإن سننَ الله لا تُحابي أحدًا أيًّا كان، ومن ثم فليس غير الذل والهوان وفتنة المسلمين عن دينهم مع تبدُّل أحكام الدين وطمس معالمه، وتغيير حقائقه والتلاعب بها. وغير ذلك من العقوبات القدرية التي تترل بمن خذل الحقّ وأسلمه، وهذا فضلاً عن وعيدِ الآخرة.

قال تعالى: {إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٣٩) سورة التوبة

قال ابن العربي رحمه الله: " هذا تهديدٌ شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير، فوجب بمقتضاها النفيرُ للجهاد، والخروجُ إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي العليا، فالعذاب الأليم هو الذي في الدنيا لاستيلاء العدو على من لم يستول عليه، وبالنار في الآخرة. وزيادة على ذلك استبدال غيركم، كما قال تعالى (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)" ا.هـ.[٤٧٩]

[٤٧٨] - أحكام القرآن للجصاص - (٧ / ٤٠)

[٤٧٩] - أحكام القرآن لابن العربي - (٤ / ٢٦٣) وأحكام القرآن لابن العربي - (٤ / ٣٠١)والتفسير المنير ـــ موافقـــا للمطبوع - (١٠ / ٢١٩) والجامع لأحكام القرآن للقرطبي - (١ / ٢٤٣٢)

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – : " مَا تَرَكَ قَوْمٌ الْجِهَادَ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ " . رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ. [٤٨٠]

والعذاب، كما هو ظاهرٌ من النصوص، هو عذابُ الدنيا بالذل والهوان والصغار الذي يُضرب على البلاد والعباد، وهو بعدُ عذابُ الآخرة الذي لا يقارن، به ولا يدانيه عذاب الدنيا و بئس المصير.

فإذا لم يكن لأهل الكفر مع أهل الإيمان غيرُ خيارين اثنينِ لا ثالث لهما: إما الفتنةُ عن الدين، وإما السيف. فإنه كذلك ليس لشرع الله مع المؤمنين غير خيارين اثنين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لأمره بقتال الكفر ودفعه بحد السيف، وإما التعرض لعذاب الله وغضبه وسخطه في الدنيا والآخرة، مع استبدالهم بمن يكون أولى منهم وأجدر وأحقُّ بفضل الله. فتعيَّنَ شرعًا وعقلاً وواقعًا كونُ القتالِ قدر الطائفةِ المنصورة.

إن أصحاب الطائفة المنصورة من أكثر الناس مراعاةً لفقه مراتب الأعمال، فهم إذا ثبت في حقهم من الفروض العينيات؛ فإنهم لا يقدمون بين يديه شيئًا من فروض الكفايات فضلاً عن غيره من المستحبات والمباحات. وبيان ذلك فيما يتعلق بشأن الجهاد والقتال؛ أن الجهاد في أصله فرضٌ كفائي، فإذا قام به من تتحقّقُ بهم الكفاية سقط الوجوب عن الآخرين، والفضل فيه لمن قام به دون غيره. ولذا كان الاشتغال به حال كونه فرض كفاية مشروطًا بأن لا يضيِّع العبد فرضَ عين أو فرض كفاية أهمَّ منه في حقه إن وجد.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لحديث سَعِيدٍ الْخُدْرِىَّ – رضى الله عنه – قَالَ قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَىُّ النَّاسِ أَفْضَلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ » . قَالُوا ثُمَّ مَنْ قَالَ « مُؤْمِنٌ فِى شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِى اللَّهَ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ »[٤٨١] . قال ابن حجر: " "وكأن المراد بالمؤمن من قام بما تعين عليه القيام به ثم حصل هذه الفضيلة، وليس المراد من اقتصر على الجهاد وأهمل الواجبات

[٤٨٠] – المعجم الأوسط للطبراني –(٣٩٨١) حسن

[٤٨١] – صحيح البخارى– المكتر – (٢٧٨٦)

العينية، وحينئذ فيظهر فضل المجاهد لما فيه من بذل نفسه وماله لله تعالى، ولما فيه من النفع المتعدي " " ا.هـــ[٤٨٢].

ويتعين الجهادُ عند أهل الطائفة المنصورة في مواضع ثلاث[٤٨٣]:

أ – إِذَا الْتَقَى الزَّحْفَانِ ، وَتَقَابَل الصَّفَّانِ ، حَرُمَ عَلَى مَنْ حَضَرَ الاِنْصِرَافُ ، وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْمُقَامُ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥)وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) [الأنفال : ٤٥-٤٦]} .

ب – إِذَا هَجَمَ الْعَدُوُّ عَلَى قَوْمٍ بَغْتَةً ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمُ الدَّفْعُ وَلَوْ كَانَ امْرَأَةً أَوْ صَبِيًّا ، أَوْ هَجَمَ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ ، وَلَيْسَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى دَفْعِهِ ، فَيَتَعَيَّنُ عَلَى مَنْ كَانَ بِمَكَانٍ مُقَارِبٍ لَهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوا مَعَهُمْ إِنْ عَجَزَ مَنْ فَجَأَهُمْ الْعَدُوُّ عَنِ الدَّفْعِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَمَحَل التَّعَيُّنِ عَلَى مَنْ بِقُرْبِهِمْ إِنْ لَمْ يَخْشَوْا عَلَى نِسَائِهِمْ وَبُيُوتِهِمْ مِنْ عَدُوٍّ بِتَشَاغُلِهِمْ بِمُعَاوَنَةِ مَنْ فَجَأَهُمُ الْعَدُوُّ ، وَإِلاَّ تَرَكُوا إِعَانَتَهُمْ .

وَعِنْدَ الشَّافِعِيَّةِ يُعْتَبَرُ مَنْ كَانَ دُونَ مَسَافَةِ الْقَصْرِ مِنَ الْبَلْدَةِ كَأَهْلِهَا ، وَمَنْ عَلَى الْمَسَافَةِ يَلْزَمُهُ الْمُوَافَقَةُ بِقَدْرِ الْكِفَايَةِ إِنْ لَمْ يَكْفِ أَهْلُهَا ، وَمَنْ يَلِيهِمْ . وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَفْجَأْهُمُ الْعَدُوُّ فَلاَ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِمْ ، يَسْتَوِي فِي ذَلِكَ الْمُقِل مِنْهُمْ وَالْمُكْثِرُ . وَمَعْنَاهُ : أَنَّ النَّفِيرَ يَعُمُّ جَمِيعَ النَّاسِ مِمَّنْ كَانَ مِنْ أَهْل الْقِتَال حِينَ الْحَاجَةِ لِمَجِيءِ الْعَدُوِّ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ يَجُوزُ لأَحَدٍ التَّخَلُّفُ إِلاَّ مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى تَخَلُّفِهِ لِحِفْظِ الْمَكَانِ وَالأَهْل وَالْمَال ، وَمَنْ يَمْنَعُهُ الأَمِيرُ مِنَ الْخُرُوجِ ، أَوْ مَنْ لاَ قُدْرَةَ لَهُ عَلَى الْخُرُوجِ أَوِ الْقِتَال [٤٨٤] .

وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِينَ أَرَادُوا الرُّجُوعَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ يَوْمَ الأَحْزَاب فَقَال : {وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا} (١٣) سورة الأحزاب .

---

٤٨٢ – فتح الباري لابن حجر – (٦ / ٦)

٤٨٣ – الفقه الإسلامي وأدلته – (٨ / ٦) والموسوعة الفقهية الكويتية – (١٦ / ١٣١)

٤٨٤ – ابن عابدين ٣ / ٢٢١ ، وفتح القدير ٥ / ١٩٠ ، والدسوقي ٢ / ١٧٤ ، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٣ ، وروضة الطالبين ١ / ٢١٥ ، ومغني المحتاج ٤ / ٢١٩ ، والمغني ٨ / ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، وكشاف القناع ٣ / ٣٧.

ج – إِذَا اسْتَنْفَرَ الإِمَامُ قَوْمًا لَزِمَهُمُ النَّفِيرُ مَعَهُ إِلاَّ مَنْ لَهُ عُذْرٌ قَاطِعٌ ؛ لِقَوْل اللَّهِ تَعَالَى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} (٣٨) سورة التوبة

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ – رضى الله عنهما – قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا » .

وَذَلِكَ لأَنَّ أَمْرَ الْجِهَادِ مَوْكُولٌ إِلَى الإِمَامِ وَاجْتِهَادِهِ ، وَيَلْزَمُ الرَّعِيَّةَ طَاعَتُهُ فِيمَا يَرَاهُ مِنْ ذَلِكَ "[٤٨٥]

قال أبو بكر الجصاص رحمه الله: " وَمَعْلُومٌ فِي اعْتِقَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ إذَا خَافَ أَهْلُ الثُّغُورِ مِنْ الْعَدُوِّ ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِمْ مُقَاوِمَةٌ لَهُمْ فَخَافُوا عَلَى بِلَادِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ أَنَّ الْفَرْضَ عَلَى كَافَّةِ الْأُمَّةِ أَنْ يَنْفِرُ إلَيْهِمْ مَنْ يَكُفُّ عَادِيَتَهُمْ عَنْ الْمُسْلِمِينَ .وَهَذَا لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ ، إذْ لَيْسَ مِنْ قَوْلِ أَحَدٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إبَاحَةُ الْقُعُودِ عَنْهُمْ حَتَّى يَسْتَبِيحُوا دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَسَبْيَ ذَرَارِيِّهِمْ "[٤٨٦].

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: " وَإِذَا دَخَلَ الْعَدُوُّ بِلَادَ الْإِسْلَامِ فَلَا رَيْبَ أَنَّهُ يَجِبُ دَفْعُهُ عَلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إذْ بِلَادُ الْإِسْلَامِ كُلُّهَا بِمَنْزِلَةِ الْبَلْدَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ النَّفِيرُ إلَيْهِ بِلَا إذْنِ وَالِدٍ وَلَا غَرِيمٍ ، وَنُصُوصُ أَحْمَدَ صَرِيحَةٌ بِهَذَا وَهُوَ خَيْرٌ مِمَّا فِي الْمُخْتَصَرَاتِ ."[٤٨٧].

ونصوصُ العلماء في تقرير الفرضية العينية للجهاد في حالة نزول العدو ببلد من بلدان المسلمين كثيرةٌ جدا يصدق بعضها بعضًا، لا يختلف علماء الإسلام المحققون في هذا.

فإذا تعين الجهاد فهو مقدمٌ عند أهل الطائفة المنصورة على غيره من النوافل، كما أنه مقدمٌ على غيره من الواجبات الكفائية أيًّا كانت بلا أدنى نزاع، بل ومقدم على غيره من الواجبات العينية عند عدم إمكان الجمع بينه وبينها وهذا مقررٌ من الوجوه الآتية:

الوجه الأول: أن الجهاد إذا تعين فتاركه فاسقٌ مرتكبٌ كبيرة،قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ

[٤٨٥] – حاشية الدسوقي ٢ / ١٧٥ ، وجواهر الإكليل ١ / ٢٥٢ ، والمغني ٨ / ٣٥٢ ، والمحلى ٧ / ٢٩١ .

[٤٨٦] – أحكام القرآن للجصاص – (٧ / ٣٧)

[٤٨٧] – الفتاوى الكبري لابن تيمية – (٨ / ٤٠٠)

الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) }. [التوبة : ٣٨ - ٣٩]

فقوله تعالى "إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ " دالٌ على توجه الوعيد الشديد في حق القادر على الجهاد التارك له عند تعينه.

قال القرطبي رحمه الله: "وهذا تهديد شديد، ووعيد مؤكد في ترك النفير"[٤٨٨]

قال ابن العربي: "ومن محققات الأصول أن الأمر إذا ورد فليس في وروده أكثرَ من اقتضاء الفعل، فأما العقاب عند الترك فلا يؤخذ من نفس الأمر، ولا يقتضيه الاقتضاء، وإنما يكون العقاب بالخبر عنه؛ كقوله: إن لم تفعل كذا عذبتك بكذا، كما ورد في هذه الآية، فوجب بمقتضاها النفيرُ إلى الجهاد، والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم، على أن تكون كلمةُ الله هي العليا" ا.هـ[٤٨٩].

وقد وردت هذه الآيات في حق من استنفرهم النبي -ﷺ - لقتال الروم في غزوة تبوك بعيدًا عن بلاد المسلمين وبيضتهم، فكيف بمن قعد عن الجهاد عند نزول العدو بلاد المسلمين ذاتها، وحلولهم بالعُقر من الديار، واستباحتهم للبيضة، والاستيلاء عليها.

ومن علامات الكبائر التي نص عليها الأئمة أن يرد فيها وعيد في الآخرة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَوْلُهُ : {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ} قَالَ : الْكَبَائِرُ : كُلُّ ذَنْبٍ خَتَمَهُ اللَّهُ بِنَارٍ أَوْ غَضَبٍ ، أَوْ لَعْنَةٍ ، أَوْ عَذَابٍ..[٤٩٠]

قال ابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى: "الكبيرة التسعون والحادية والثانية والتسعون بعد الثلاثمئة؛ تَرْكُ الْجِهَادِ عِنْدَ تَعَيُّنِهِ بِأَنْ دَخَلَ الْحَرْبِيُّونَ دَارَ الْإِسْلَامِ أَوْ أَخَذُوا مُسْلِمًا وَأَمْكَنَ تَخْلِيصُهُ مِنْهُمْ ، وَتَرْكُ النَّاسِ الْجِهَادَ مِنْ أَصْلِهِ ، وَتَرْكُ أَهْلِ الْإِقْلِيمِ تَحْصِينَ ثُغُورِهِمْ بِحَيْثُ يُخَافُ عَلَيْهَا مِنْ اسْتِيلَاءِ الْكُفَّارِ بِسَبَبِ تَرْكِ ذَلِكَ التَّحْصِينِ) .

---

[٤٨٨] - تفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع - (٨ / ١٤١)

[٤٨٩] - أحكام القرآن لابن العربي - (٤ / ٢٦٣)

[٤٩٠] الدر المنثور للسيوطي - موافق للمطبوع - (٤ / ٣٥٩) وتفسير ابن كثير - دار طيبة - (٢ / ٢٨٣) وتفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع - (٥ / ١٥٩) وتفسير الطبري - مؤسسة الرسالة - (٨ / ٢٤٦) (٩٢١٢) حسن

ثم قال : " عَدُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ ظَاهِرٌ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ الْفَسَادِ الْعَائِدِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ مَا لَا يُتَدَارَكُ خَرْقُهُ وَعَلَيْهَا يُحْمَلُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَالْأَحَادِيثِ مِنْ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ ، فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ أَحَدًا تَعَرَّضَ لِعَدِّ ذَلِكَ مَعَ ظُهُورِهِ . "[491]

إذا تبين ذلك، فإذا تعين الجهاد؛ فتاركه القادر عليه مرتكب كبيرة، فاسق أشد فسقًا من الزاني والسارق والشارب، حيث خذل الدين، وأسلم البلاد والعباد لأعداء الله ورسوله ﷺ ، مع ما يترتب على ذلك من الفساد المتعدي.

وبناءً على ذلك؛ فغير مقبول ممن تعلق به هذا الحكم أن ينشغل بغير الجهاد من الأعمال، إذ انشغاله بهذه الأعمال -أيًّا كانت- لا يرفع عنه وصف الفسق المتعلق به من جراء تخلفه عن الجهاد المتعين.

الوجه الثاني: أن الفرائض مقدمة على النوافل.

فالفرائض التي فرضها الله على عباده، عند أهل الطائفة المنصورة، هي الأصل والأساس في تعبد المكلف لربه ومولا، وهي من ثم أحب إلى الله وأقوم في نيل رضاه، وتارك الفرائض اشتغالاً عنها بالنوافل عاص لله لم يخرج بعد من دائرة العصيان أيا كانت تلك النوافل التي اشتغل بها عن الفرائض، وأيا كان مبلغ اجتهاده فيها.

وفي الحديثِ القدسي الصحيح عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِى وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِشَىْءٍ أَحَبَّ إِلَىَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِى يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِى يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِى يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِى يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِى يَمْشِى بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِى لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِى لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَىْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِى عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ »[492] ..

فنص الحديث على أن الفرائض، ومنها الجهاد، أحبُّ ما تقرب به العبد إلى الله سبحانه وتعالى. وقد اتفق أهل العلم بلا خلاف على أن الفرائض مقدمة على غيرها من النوافل،

---

[491] – الزواجر عن اقتراف الكبائر – (٣ / ١٤٧) والزواجر عن اقتراف الكبائر – (٣ / ١٥٠)

[492] – صحيح البخارى– المكنز – (٦٥٠٢)

وأن الانشغال بالنوافل مع تضييع الفرائض عملٌ معكوس وجهد ضائع. ولا شك أن المراد من التقرب بالنوافل أن تقع ممن أدى الفرائض لا من أخل بها. كما قال بعض الأكابر: مَنْ شَغَلَهُ الْفَرْضُ عَنِ النَّفْلِ فَهُوَ مَعْذُورٌ وَمَنْ شَغَلَهُ النَّفْلُ عَنِ الْفَرْضِ فَهُوَ مَغْرُورٌ [٤٩٣]..

بل مجرد التسوية بين جنس الفرائض وجنس النوافل ممنوعة بيقين، فلا يجوز أن يسوى بين الواجب والمندوب لا في القول ولا في الفعل ولا في الاعتقاد، كما لا يُسَوَّى بين الحرام والمكروه ، بل ولا بين المباح وبين المندوب والمكروه. قال الشاطبي رحمه الله:" المندوب من حقيقة استقراره مندوبًا أن لا يسوى بينه وبين الواجب، لا في القول ولا في الفعل، كما لا يسوى بينهما في الاعتقاد "[٤٩٤].

والخلاصة؛ أن أعلى رتب مصالح الندب دون أدنى رتب مصالح الواجب.

وقَالَ مُحَمَّدُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ بنِ أَبِي سُكَيْنَةَ:أَمْلَى عَلَيَّ ابْنُ الْمُبَارَكِ سَنَةَ سَبْعٍ وَسَبْعِيْنَ وَمائَةٍ، وَأَنفَذَهَا مَعِي إِلَى الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ مِنْ طَرَسُوْسَ:

يَا عَابِدَ الحَرَمِيْنِ لَوْ أَبْصَرْتَنَا * لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فِي العِبَادَةِ تَلْعَبُ
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ جِيْدَهُ بِدُمُوْعِهِ * فَنُحُوْرُنَا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كَانَ يُتْعِبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ * فَخُيُوْلُنَا يَوْمَ الصَّبِيْحَةِ تَتْعَبُ
رِيْحُ العَبِيْرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيْرُنَا * رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالغُبَارُ الأَطْيَبُ
وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِيِّنَا * قَوْلٌ صَحِيْحٌ صَادِقٌ لاَ يُكْذَبُ:
لاَ يَسْتَوِي وَغُبَارُ خَيْلِ اللهِ فِي * أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلهبُ
هَذَا كِتَابُ اللهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا * لَيْسَ الشَّهِيْدُ بِمَيِّتٍ لاَ يُكْذَبُ

فَلَقِيْتُ الفُضَيْلَ بِكِتَابِهِ فِي الحَرَمِ، فَقَرَأَهُ، وَبَكَى، ثُمَّ قَالَ: صَدَقَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَنَصَحَ[٤٩٥].

---

[٤٩٣] – شرح سنن أبي داود ـــ عبد المحسن العباد – (١ / ٩) وفتح الباري لابن حجر – (١٨ / ٣٤٢)

[٤٩٤] – الموافقات – (٤ / ٩٧)

[٤٩٥] – تفسير ابن كثير – دار طيبة – (٢ / ٢٠٣) وسير أعلام النبلاء (٤١٣/٨) وتاريخ الإسلام للإمام الذهبي – (١٢ / ٢٤٠)

فتأمل كيف وصف انشغال الإمام الفضيل بن عياض بالعبادة ومجاورة الحرم باللعب والباطل مقارنةً بتركه للقتال في سبيل الله، هذا مع كون الجهاد المتحدث عنه فرض كفاية لا فرض عين. فكيف لو رأى الإمام ابن المبارك -رحمه الله- حال القاعدين عن الجهاد المتعين انشغالاً بنوافل وتطوعات، بماذا يا ترى سيصف أعمالهم التي قعدوا بها عن هذا الجهاد..؟

الوجه الثالث: أن الواجبات العينية تقدَّمُ على الواجبات الكفائية.

وهو الوجه الثالث الذي يتقرر به أن الجهاد إذا تعين فإنه يقدم على غيره من الأعمال. وتقديمُ الواجبات العينية على الواجبات الكفائية أصلٌ مقررٌ عند أهلِ الطائفة المنصورة، وهو من العدل الذي أُمروا به في أمرهم كله. ومن ثم يضعون كل شيءٍ موضعه بلا شطط أو كلمة غير واضحة فينالون رضوان الله بالمسارعة إلى محابِّه واجتناب مساخطه.

قال الغزالي رحمه الله وهو يتكلم عن شروط الاشتغال بالمناظرة الفقهية، وهي من فروض الكفاية، قال: "الأول؛ أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعيان، ومن عليه فرضُ عينٍ فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحق؛ فهو كذاب. ومثاله من يترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها، ويقول غرضي أستر عورة من يصلي عريانًا ولا يجد ثوبًا" إلى أن قال رحمه الله "فلا يكفي في كون الشخص مطيعًا كون فعله من جنس الطاعات ما لم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب" ا.هـ[٤٩٦].

فنصَّ رحمه الله على أن من اشتغل بفرص كفاية، مع عدم تفرغه من فرض العين أنه كذاب، وإن زعم أن قصده الحق.

الوجه الرابع الذي يتقرر به تقديم الجهاد عند تعينه على غيره :

أن الواجب المضيَّق يقدم على الواجب الموسَّع، والفوري يقدم على المتراخي، وما يخشى فواته على ما لا يخشى فواته.

وقد ذكر القرافي رحمه الله : (الْفَرْقُ التَّاسِعُ وَالْمِائَةُ بَيْنَ قَاعِدَةِ الْوَاجِبَاتِ وَالْحُقُوقِ الَّتِي تُقَدَّمُ عَلَى الْحَجِّ وَبَيْنَ قَاعِدَةِ مَا لَا يُقَدَّمُ عَلَيْهِ) وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَعْرِفَةِ قَاعِدَةٍ فِي

---

[٤٩٦] - إحياء علوم الدين - (١ / ٤٦)

التَّرْجِيحَاتِ – وَضَابِطُ مَا قَدَّمَهُ اللَّهُ – تَعَالَى – عَلَى غَيْرِهِ مِنْ الْمَطْلُوبَاتِ وَهِيَ أَنَّهُ إذَا تَعَارَضَتْ الْحُقُوقُ قُدِّمَ مِنْهَا الْمُضَيَّقُ عَلَى الْمُوَسَّعِ ؛ لِأَنَّ التَّضْيِيقَ يُشْعِرُ بِكَثْرَةِ اهْتِمَامِ صَاحِبِ الشَّرْعِ بِمَا جَعَلَهُ مُضَيَّقًا ، وَأَنَّ مَا جَوَّزَ لَهُ تَأْخِيرَهُ وَجَعَلَهُ مُوَسَّعًا عَلَيْهِ دُونَ ذَلِكَ . وَيُقَدَّمُ الْفَوْرِيُّ عَلَى الْمُتَرَاخِي ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ بِالتَّعْجِيلِ يَقْتَضِي الْأَرْجَحِيَّةَ عَلَى مَا جُعِلَ لَهُ تَأْخِيرُهُ ، وَيُقَدَّمُ فَرْضُ الْأَعْيَانِ عَلَى الْكِفَايَةِ ؛ لِأَنَّ طَلَبَ الْفِعْلِ مِنْ جَمِيعِ الْمُكَلَّفِينَ يَقْتَضِي أَرْجَحِيَّةَ مَا طُلِبَ مِنْ الْبَعْضِ فَقَطْ وَلِأَنَّ فَرْضَ الْكِفَايَةِ يَعْتَمِدُ عَدَمَ تَكَرُّرِ الْمَصْلَحَةِ بِتَكَرُّرِ الْفِعْلِ ، وَالْأَعْيَانِ يَعْتَمِدُ تَكَرُّرَ الْمَصْلَحَةِ بِتَكَرُّرِ الْفِعْلِ ، وَالْفِعْلُ الَّذِي تَتَكَرَّرُ مَصْلَحَتُهُ فِي جَمِيعِ صُوَرِهِ أَقْوَى فِي اسْتِلْزَامِ الْمَصْلَحَةِ مِنْ الَّذِي لَا تُوجَدُ الْمَصْلَحَةُ مَعَهُ إلَّا فِي بَعْضِ صُوَرِهِ وَلِذَلِكَ يُقَدَّمُ مَا يُخْشَى فَوَاتُهُ عَلَى مَا لَا يُخْشَى فَوَاتُهُ ، وَإِنْ كَانَ أَعْلَى رُتْبَةً مِنْهُ كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِ الْمُؤَذِّنِ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ قِرَاءَةَ الْقُرْآنِ لَا تَفُوتُ . " ا.هـــ.[٤٩٧]

وبهذه الوجوه الأربعة المتقدمة يتقرر أن الجهاد إذا تعين فهو مقدم عند أهل الطائفة المنصورة على غيره من النوافل، كما أنه مقدم على غيره من الواجبات الكفائية أيًّا كانت بلا أدنى نزاع. بل ومقدمٌ على غيره من الواجبات العينية عند عدم إمكان الجمع بينه وبينها؛ كالصلاة والصيام والحج وغيرِها.

وقد وصف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله فقهَ مراتب الأعمال بأنها حقيقة الدين، وحقيقة العمل بما جاءَت به الرسل، وبأنه خاصةُ العلماءِ بهذا الدين فقال رحمه الله: " فتفطن لحقيقة الدين ، وانظر ما اشتملت عليه الأفعال من المصالح الشرعية ، والمفاسد ، بحيث تعرف ما مراتب المعروف ، ومراتب المنكر ، حتى تقدم أهمها عند الازدحام ، فإن هذا حقيقة العلم بما جاءت به الرسل ، فإن التمييز بين جنس المعروف ، وجنس المنكر ، أو جنس الدليل ، وغير الدليل ، يتيسر كثيرًا . فأما مراتب المعروف والمنكر ، ومراتب

---

[٤٩٧] – أنوار البروق في أنواع الفروق – (٤ / ٢١٣) والفروق مع هوامشه – (٢ / ٣٣١)

الدليل ، بحيث يقدم عند التزاحم أعرف المعروفين ، وينكر أنكر المنكرين ، ويرجح أقوى الدليلين ، فإنه هو خاصة العلماء بهذا الدين . "ا.هـ[498].

يتبين مما سبق أن المجاهدين، أهل الطائفة المنصورة، فيما ذهبوا إليه لم يأتوا ببدع من القول أو مستحدَث من الفعل كيف ودربهم دربٌ مسلوك، وسبيل مطروق، أسلافهم فيه خير من وطئ الحصى من الأنبياء والمرسلين والتابعين لهم بإحسان، وهم بهم يقتدون، ولآثارهم يقتفون. أقدامُهم في الثرى، وهاماتهم في الثريا، ونفوسهم ترى إراقة دماء الحياة دون إراقة ماء المُحيّا.

ساروا وحاديهم قولُ الزبير رضي الله عنه: "نحنُ أمةٌ لا نموتُ إلا قتلاً، فمالي أرى الفرش قد كثر عليها الأموات".

يردد السالك لدربهم قولَ الأول[499]:

ولستُ أُبالي حين أقتلُ مُسلماً على أي جنبٍ كانَ في اللهِ مصرعي

وذلكَ في ذاتِ الإله وإن يشأ يبارِك على أوصالِ شِلوٍ مُمَزع

أو قولَ الآخر[500]:

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْعٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا

أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً بِحَرْبَةٍ تَنْفُذُ الأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا

حَتَّى يَقُولُوا إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَثِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

أو قولَ الجمع المبارك[501]:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

فأئمتهم قد أوضحوا لهم الحجة، ورسموا لهم المحجة، وعبّدوا لهم دربهم، وحذَّرُوهم مِن بُنيّاته، وخطّوا لهم خطة الهدى والرشاد، تقدَّمُوهُم في المسير، وسَبَقُوهُم في الوصول، وقد ضَرَبُوا لهم موعِدَ اللقاء مع من وفى دون من نكص.

---

[498] - اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم - (٢ / ٨٩)

[499] - صحيح البخارى- المكنز - (٣٠٤٥)

[500] -المعجم الكبير للطبراني - (١٨ / ٤٦٩)(١٩٤)

[501] - صحيح البخارى- المكنز - (٢٨٣٤)

{وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١٠٠) سورة التوبة. فهم يخافون أشدَّ الخوف من أن يتخلّفوا عن هذا الموعد ويفوتَهم الوفاء ؛ فيُحرموا اللقاء، فهاجسهم أبدًا: غدًا ألقى الأحبة، محمّدًا وصحبه.

فأرواحهم تهيم هناك لا هنا.

جِسْمِي مَعِي غَيْرَ أَنَّ الرُّوحَ عِنْدَكُمُ فَالْجِسْمُ فِي غُرْبَةٍ وَالرُّوحُ فِي وَطَنِ

فَلْيَعْجَبِ النَّاسُ مِنِّي أَنَّ لِي بَدَنًا لَا رُوحَ فِيهِ وَلِي رُوحٌ بِلَا بَدَنِ[٥٠٢]

وأنّى لمن هذا شأنهم أن يقعدهم ابتلاءٌ عن النفير، أو تثني عزائمهم محنةٌ عن الجهاد؛ بل يبادرون ويساقبون ويرددون وهم يُنحرون تقديمًا لبرهان المحبة الصادق:

فَلَيتَكَ تَحلو وَالحَياةُ مَريرَةٌ وَلَيتَكَ تَرضى وَالأَنامُ غِضابُ

وَلَيتَ الَّذي بَيني وَبَينَكَ عامِرٌ وَبَيني وَبَينَ العالَمينَ خَرابُ

إِذا صَحّ مِنكَ الوُدَّ فَالكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذي فَوقَ التُرابِ تُرابُ

إنَّ المجاهدين، أهل الطائفة المنصورة، ليسوا بقومٍ ضاقت عليهم أنفسهم فتبرموا بها وأرادوا لها خلاصًا، أو قومٍ سُدَّت عليهم سبلُ العيش ومنافذُ الرزق، أو أسرى عاهاتٍ نفسية تعشقُ الموت لذاته، وتسعى له بكل سبيل، وقد رأت الدنيا سوداء مظلمة، كلا وربي!

وإنما هم قومٌ عرفوا واجبهم، وحقيقةَ المراد منهم؛ فشمروا عن ساق الاجتهاد، وسلكوا سبيلَ الجهاد، ولم يتعللوا بواهي العلل، وساقط الحجج، ليعذروا في ترك هذا الواجب، بل هانت عليهم أنفُسهم في ذاتِ الله، وعايَنُوا العاقبة وأيقنوا بها، فآثروا الباقية على الفانية، والآجلة على العاجلة، فكان منهم المسارعة لبذل الغالي والرخيص، والنفسِ والنفيس، محبة لمولاهم وتقرّبًا لخالقهم، وقد رأوا أن الدنيا بما فيها أحقرُ مِن أن تُقعِدَهم عن نيلِ محبة الله ورضاه. فمضوا وحاديهم {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} (٥٤) سورة المائدة،

---

[٥٠٢] - البداية والنهاية لابن كثير محقق - موافق للمطبوع - (١٣ / ١٤٧)

فجادوا بنفوسهم يوم أن ضنَّ بها الكثيرون، وبذلوا دماءهم رخيصة يوم أن بخل بها المدعون.

وهذا والله إنما هو محض فضل من الله عليهم، {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (٤) سورة الجمعة، وفضل الله هذا لا يوفق له كلُّ أحد؛ فأهلُه هم المصطفون الأخيار، المفضلون على غيرهم من العالمين، والله أعلم حيث يضع فضله ومنته، فالمجاهدون هم خيرة الله من خلقه، لبّوا نداء خالقهم لإمضاء العقد وتسليم المبيع: {إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (١١١) سورة التوبة

وهم المتأسون المقتدون بسيِّد الخلق -ﷺ- القائل: " يَضْمَنُ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِهِ لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَإِيمَانًا بِي وَتَصْدِيقًا بِرَسُولِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ نَائِلًا مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَهَيْئَتِهِ حِينَ كُلِمَ، لَوْنُهُ دَمٌ، وَرِيحُهُ مِسْكٌ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا قَعَدْتُ خِلَافَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ أَبَدًا، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ سَعَةً فَأَحْمِلُهُمْ، وَلَا يَجِدُونَ سَعَةً، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِّي . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوَدَدْتُ أَنِّي أَغْزُو فِي سَبِيلِ اللهِ، فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ، ثُمَّ أَغْزُو فَأُقْتَلَ " [٥٠٣]

ورحم الله القائل؛ "إنما هو بذل الروح وإلا فلا تشتغل في الترهات"[٥٠٤].

إن أول قدم في الطريق بذلُ الروح... هذه الجادة فأين السالك..؟

ورحم الله الشيخَ أبا أنس الشامي يوم أن قال لي يومًا مثبتًا ومسليًّا: "يا فلان! سنبقى نحفرُ بالصخر حتى نصنع مجدًا لأمتنا"

قال لي صاحبي والبينُ قد حلا ودمعي مرافقٌ لشهيقي

---

[٥٠٣] - شعب الإيمان - (٦ / ١٠٠)(٣٩٣١) وصحيح مسلم- المكنز - (٤٩٦٧)

[٥٠٤] - http://www.startimes٢.com/f.aspx?t=١٤٥٤٥٨٨٢

ما تُرى تصنع في الطريق بعدي؟ قلتُ أبكي عليك طول الطريق

والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، والحمد لله ربِّ العالمين.[٥٠٥]



٥٠٥ - مـــــــــــــن خطبـــــــــــــة لأبي مـــــــــــــصعب رحمـــــــــــــه الله .
http://١٦٣,٢٠٠,٧٥,٩٤/vb/showthread.php?p=٥٦١٩٠٠

وأخيراً أختم بذكر منهاج الفرقة الناجية ، والطائفة الظاهرة ، وهو كما يلي :

١. الفرقة الناجية : هي التي تلتزم منهاج الرسول ﷺ في حياته ، ومنهاج أصحابه من بعده ، وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله ، وبيَّنه لصحابته في أحاديث الصحيحة ، وأمر المسلمين بالتمسك بهما ، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا : كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي ، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ "[٥٠٦].

٢. الفرقة الناجية تعود إلى كلام الله ورسوله ، حين التنازع والاختلاف عملاً بقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً} (٥٩) سورة النساء. وقال تعالى : {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} (٦٥) سورة النساء.

٣. الفرقة الناجية لا تقدم كلام أحد على كلام الله ورسوله عملاً بقوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (١) سورة الحجرات .

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ : تَمَتَّعَ النَّبِيُّ ﷺ [٥٠٧] فَقَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ : نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَا يَقُولُ عُرَيَّةُ ؟ قَالَ : يَقُولُ : نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَنِ الْمُتْعَةِ . فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أُرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُولُ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ ، وَيَقُولُ : نَهَى أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. "[٥٠٨].

---

[٥٠٦] - المستدرك للحاكم(٣١٩) صحيح لغيره

[٥٠٧] - متعة الحج

[٥٠٨] - مسند أحمد (عالم الكتب) - (١ / ٨٤٨)٣١٢١- صحيح

٤. الفرقة الناجية تعتبر التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة ، كالدعاء والاستعانة والاستغاثة[٥٠٩] وقت الشدة والرخاء والذبح والنذر والتوكل والحكم بما أنزل الله ، وغير ذلك من أنواع العبادة ،هو الأساس الذي تبنى عليه الدولة الإسلامية الصحيحة ؛ ولا بدّ من إبعاد الشرك ومظاهره الموجودة في أكثر البلاد الإسلامية ، لأنه من مقتضيات التوحيد ، ولا يمكن النصر لأي جماعة تهمل التوحيد ، ولا تكافح الشرك بأنواعه ، أسوة بالرسل جميعاً وبرسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٥. الفرقة الناجية : يحيون سنن الرسول ﷺ في عبادتهم وسلوكهم وحياتهم ، فأصبحوا غرباء بين قومهم ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِىِّ -ﷺ- قَالَ « إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ...». رواه مسلم[٥١٠] .

وعَنِ ابْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ : " إِنَّ الْإِيمَانَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ، فَطُوبَى يَوْمَئِذٍ لِلْغُرَبَاءِ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ .... "[٥١١].

وعَنْ شُرَحْبِيلَ بْنِ شَرِيكٍ ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيَّ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِي ، يَقُولُ : " طُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ عِنْدَ فَسَادِ النَّاسِ "[٥١٢]

٦. الفرقة الناجية : لا تتعصب إلا لكلام الله وكلام رسوله المعصوم ، الذي لا ينطق عن الهوى ؛ أما غيره من البشر ، مهما علت رتبته فقد يخطئ، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ "[٥١٣].

وعَنِ الْحَكَمِ بْنِ عُتَيْبَةَ قَالَ : " لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ "[٥١٤]

---

[٥٠٩] - إلا ما ورد النص باستثنائه فلا يحرم

[٥١٠] - صحيح مسلم- المكتز - (٣٩٠)

[٥١١] - السُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي (٢٩٢) صحيح لغيره

[٥١٢] - السُّنَنُ الْوَارِدَةُ فِي الْفِتَنِ لِلدَّانِي (٢٩٣) صحيح

[٥١٣] - المستدرك للحاكم(٧٦١٧) صحيح

[٥١٤] - جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (١٠٨٣) صحيح

وعَنْ مُجَاهِدٍ قَالَ : " لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ إِلَّا وَهُوَ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ "[٥١٥]

وقَالَ أبو بَكْرِ بْنَ خُزَيْمَةَ : لَيْسَ لِأَحَدٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَوْلٌ إِذَا صَحَّ الْخَبَرُ عَنْهُ ، سَمِعْتُ أَبَا هِشَامٍ الرِّفَاعِيَّ يَقُولُ : سَمِعْتُ يَحْيَى بْنَ آدَمَ يَقُولُ : لَا يُحْتَاجُ مَعَ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى قَوْلِ أَحَدٍ وَإِنَّمَا كَانَ يُقَالُ : سُنَّةُ النَّبِيِّ ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِيُعْلَمَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَهُوَ عَلَيْهَا "[٥١٦]

٧. الفرقة الناجية : تحترم الأئمة المجتهدين ، ولا تتعصب لواحد منهم ، فمن لم يملك أدوات الاجتهاد جاز له تقليد أي واحد منهم ، ومن كان له بصر بالمذاهب والأدلة ، ورأى حديثا يخالف مذهبه وعمل به بعض الفقهاء المعتبرين عمل بالحديث الصحيح ، وترك قول إمامه ، لأن الجميع متفق على أنه إذا صح الحديث فهو مذهبي ، يعني ضمن القواعد والضوابط التي وضعها الإمام ، ولا يوجد ما يخالفه مثله أو أعلى منه .

وقال ابن القيم : " وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى – مِنهُمْ أَبُو عَمْرِو بْنُ الصَّلَاحِ ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ حَمْدَانَ – : مَن وَجَدَ حَدِيثًا يُخَالِفُ مَذْهَبَهُ فَإِنْ كَمُلَتْ آلَةُ الِاجْتِهَادِ فِيهِ مُطْلَقًا أَوْ فِي مَذْهَبِ إمَامِهِ أَوْ فِي ذَلِكَ النَّوْعِ أَوْ فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ فَالْعَمَلُ بِذَلِكَ الْحَدِيثِ أَوْلَى ، وَإِنْ لَمْ تَكْمُلْ آلَتُهُ وَوَجَدَ فِي قَلْبِهِ حَزَازَةً مِن مُخَالَفَةِ الْحَدِيثِ بَعْدَ أَنْ بَحَثَ فَلَمْ يَجِدْ لِمُخَالَفَتِهِ عِنْدَهُ جَوَابًا شَافِيًا فَلْيَنْظُرْ : هَلْ عَمِلَ بِذَلِكَ الْحَدِيثِ إمَامٌ مُسْتَقِلٌّ أَمْ لَا ؟ فَإِنْ وَجَدَهُ فَلَهُ أَنْ يَتَمَذْهَبَ بِمَذْهَبِهِ فِي الْعَمَلِ بِذَلِكَ الْحَدِيثِ ، وَيَكُونُ ذَلِكَ عُذْرًا لَهُ فِي تَرْكِ مَذْهَبِ إمَامِهِ فِي ذَلِكَ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . "[٥١٧]

قلت : وإذا لم يكن أهلا لمعرفة الصحيح من الضعيف (وهو العاميِّ المحضُ) ، فلا يترك مذهبه الذي ينتسب إليه ، ولا يعمل بهذا الحديث ، وهو في هذه الحال معذور ، وليس مخالفاً لسنَّة الرسول ﷺ

---

[٥١٥] - جَامِعُ بَيَانِ الْعِلْمِ (١٠٨٤) صحيح

[٥١٦] - الْمَدْخَلُ إِلَى السُّنَنِ الْكُبْرَى لِلْبَيْهَقِيِّ (١٦)

[٥١٧] - إعلام الموقعين عن رب العالمين - (ج ٥ / ص ١١١)

وذلك لأنه مقلِّد ، فمن غير المعقول أن يترك قول إمام مذهبه لهــذا الــذي صــحح الحديث اليوم ، وما يدريه أنه لا تنطبق عليه الشروط السابقة ، فقــد يكــون الــذي صححه غير مسلَّم له به ، فكيف يوجب عليه تقليده ،وهو كذلك غــير معــصوم ، والكلُّ تقليد ، وهذا ربما لم يسلِّم له أقرب الناس إليه بذلك ، والإمام المتبوع ســلمت له الأمة .

ومن ثَمَّ لا يجوز اتهامه بأنه مخالف للسنَّة النبوية ، كما يدعي ذلك بعــض المنــسوبين للعلم !!!

كما أنه لا يقال بحق هذا المقلِّد – والذي لا يستطيع التمييز بين الغث والسمين– مــا كان يقوله بعض السلف الصالح : أنا أقول له قال رسول الله ﷺ ، وهو يقول لي قــال أبو حنيفة أو الشافعي ، فهذا الكلام اليوم قائم على مغالطة مفضوحة ، فهل أبو حنيفة أو الشافعي يتبعون غير الرسول ﷺ ؟ أو غير سنته ؟!!

٨. الفرقة الناجية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ،وفق القواعد والضوابط الشرعية المعتبرة .

٩. الفرقة الناجية : تدعو المسلمين أن يكونوا من المتمسكين بسنَّة الرسول ﷺ وأصحابه ،حتى يكتب لهم النصر وحتى يدخلوا الجنَّة بفضل الله وشفاعة رسوله ﷺ .

١٠. الفرقة الناجية : تنكر القوانين الوضعية التي هي من وضع البشر، لمخالفتها حكم الإسلام ، وتدعو إلى تحكيم كتاب الله الذي أنزله الله لسعادة البشر في الدنيا والآخرة ، وهو أعلم سبحانه وتعالى بما يصلح لهم ،وهو ثابت لا تتبدل أحكامه على مدى الأيام ،ولا يتطور حسب الزمان ،وإن سبب شقاء العالم عامة والعالم الإسلامي خاصة وما يلاقيه من متاعب وذل وهوان ومصائب ، تركه الحكم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولا عزَّ للمسلمين إلا بالرجوع إلى تعاليم الإسلام ، أفراداً وجماعات وحكومات ، عملاً بقوله تعالى : {... إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} (١١) سورة الرعد.

١١. الفرقة الناجية : تدعو المسلمين جميعاً إلى الجهاد في سبيل الله ، وهو واجب على كل مسلم حسب طاقته واستطاعته ، ويكون الجهاد بما يلي :

١.**الجهاد باللسان والقلم** : بدعوة المسلمين وغيرهم إلى التمسك بالإسلام الصحيح ، والتوحيد الخالي من الشرك ، الذي انتشر في كثير من البلاد الإسلامية ، والذي أخبر عنه الرسول ﷺ بأنه سيقع بين المسلمين ، فعَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- « إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِىَ الأَرْضَ ».

أَوْ قَالَ « إِنَّ رَبِّى زَوَى لِىَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِى سَيَبْلُغُ مَا زُوِىَ لِى مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ وَإِنِّى سَأَلْتُ رَبِّى لأُمَّتِى أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَإِنَّ رَبِّى قَالَ لِى يَا مُحَمَّدُ إِنِّى إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ وَلاَ أُهْلِكُهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَلاَ أُسَلِّطُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ بِأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَحَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَسْبِى بَعْضًا وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِى الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِى أُمَّتِى لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِى بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِى الأَوْثَانَ وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِى أُمَّتِى كَذَّابُونَ ثَلاَثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِىٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لاَ نَبِىَّ بَعْدِى وَلاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى عَلَى الْحَقِّ ».[٥١٨] .

٢. **الجهاد بالمال** : ويكون بالإنفاق على نشر الإسلام ، وطبع الكتب الداعية إليه على الوجه الصحيح ،ويكون بتوزيع المال على المؤلفة قلوبهم من ضعفاء المسلمين لتثبيتهم ويكون بتصنيع وشراء الأسلحة والمعدات للمجاهدين ، وما يلزمهم من طعام وكساء وغير ذلك .

[٥١٨] - سنن أبي داود - المكتر - (٤٢٥٤) صحيح -البيضة : مجتمعهم وموضع سلطانهم

٣. **الجهاد بالنفس** : ويكون بالقتال والاشتراك في المعارك لنصرة الإسلام ، ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِىَّ -ﷺ- قَالَ : « جَاهِدُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَأَلْسِنَتِكُمْ ». [٥١٩]

❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁❁

[٥١٩] - سنن أبي داود - المكنز - (٢٥٠٦) صحيح

وانظر منهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة ص ٦ – ١١، وانظر كتاب أحاديث الطائفة الظاهرة وتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين – لعفانة

أهم المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم
٢. أيسر التفاسير لأسعد حومد
٣. التفسير الحديث لدروزة- موافق للمطبوع
٤. التفسير القرآني للقرآن ــ موافقا للمطبوع
٥. التفسير المنير ــ موافقا للمطبوع
٦. التفسير الواضح ــ موافقا للمطبوع
٧. التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي
٨. تفسير ابن أبي حاتم
٩. تفسير ابن كثير - دار طيبة
١٠. تفسير الطبري - مؤسسة الرسالة
١١. تفسير الطبري -طبع دار هجر
١٢. تفسير القرطبي ــ موافق للمطبوع
١٣. فى ظلال القرآن ــ موافقا للمطبوع
١٤. أحكام القرآن لابن العربي
١٥. أحكام القرآن للجصاص
١٦. آيات الأسماء والصفات
١٧. أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة
١٨. إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة
١٩. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم
٢٠. شرح الطحاوية - ط الأوقاف السعودية (٧٩٢)
٢١. شرح الطحاوية - ط دار السلام (٧٩٢)
٢٢. شرح العقيدة الواسطية
٢٣. أخبار مكة للفاكهي
٢٤. اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة
٢٥. الآحاد والمثاني لابن أبي عاصم
٢٦. الترغيب والترهيب للمنري

٢٧. السنن الكبرى للإمام النسائي الرسالة
٢٨. السنن الكبرى للبيهقي- المكتر
٢٩. المجالسة وجواهر العلم (٣٣٣)
٣٠. المدخل إلى السنن الكبرى
٣١. المستدرك للحاكم مشكلا
٣٢. المسند الجامع
٣٣. المعجم الأوسط للطبراني
٣٤. المعجم الصغير للطبراني
٣٥. المعجم الكبير للطبراني
٣٦. تهذيب الآثار للطبري
٣٧. جامع الأصول في أحاديث الرسول
٣٨. دلائل النبوة للبيهقي
٣٩. سنن أبي داود - المكتر
٤٠. سنن ابن ماجه- المكتر
٤١. سنن الترمذى- المكتر
٤٢. سنن الدارقطني- المكتر
٤٣. سنن الدارمى- المكتر
٤٤. سنن النسائي- المكتر
٤٥. شرح مشكل الآثار (٣٢١)
٤٦. شرح معاني الآثار (٣٢١)
٤٧. شعب الإيمان (٤٥٨)
٤٨. صحيح ابن حبان
٤٩. صحيح ابن خزيمة
٥٠. صحيح البخارى- المكتر
٥١. صحيح مسلم- المكتر
٥٢. غاية المقصد فى زوائد المسند ١
٥٣. كشف الأستار
٥٤. مجمع الزوائد

٥٥. مسند أبي عوانة مشكلا
٥٦. مسند أبي يعلى الأسد
٥٧. مسند أحمد (عالم الكتب)
٥٨. مسند أحمد – المكنز
٥٩. مسند البزار كاملا
٦٠. مسند الحميدي – المكنز
٦١. مسند الشاشي ٣٣٥
٦٢. مسند الشاميين ٣٦٠
٦٣. مسند الطيالسي ٢٠٤
٦٤. مسند عبد بن حميد
٦٥. مصنف ابن أبي شيبة
٦٦. مصنف عبد الرزاق مشكل
٦٧. معرفة الصحابة لأبي نعيم (٤٣٠)
٦٨. موسوعة السنة النبوية
٦٩. آداب الزفاف
٧٠. السلسلة الصحيحة
٧١. السلسلة الضعيفة
٧٢. إبراز الحكم من حديث رفع القلم
٧٣. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد
٧٤. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم
٧٥. شرح ابن بطال
٧٦. شرح النووي على مسلم
٧٧. شرح رياض الصالحين لابن عثيمين
٧٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري
٧٩. فتح الباري لابن حجر
٨٠. فيض القدير، شرح الجامع الصغير، الإصدار ٢
٨١. معالم السنن للخطابي ٢٨٨
٨٢. الفتاوى الكبري لابن تيمية

٨٣. الفقه الإسلامي وأدلته
٨٤. الموسوعة الفقهية الكويتية
٨٥. فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة
٨٦. فتاوى يسألونك لعفانة١-١٢
٨٧. مجموع الفتاوى لابن تيمية
٨٨. السنة لابن أبي عاصم
٨٩. العمدة في إعداد العدة
٩٠. نيل الأوطار
٩١. غياث الأمم في التياث الظلم
٩٢. المغني لابن قدامة
٩٣. عون المعبود شرح سنن أبي داود
٩٤. مجموعة التوحيد
٩٥. مشكاة المصابيح
٩٦. مدارج السالكين
٩٧. مسند أبي يعلى
٩٨. الوسطية في ضوء القرآن الكريم ، للشيخ ناصر العمر.
٩٩. تاريخ دمشق لابن عساكر
١٠٠. سير أعلام النبلاء [مشكول + موافق للمطبوع]
١٠١. وفيات الأعيان
١٠٢. البداية والنهاية لابن كثير محقق - موافق للمطبوع
١٠٣. تاريخ الإسلام للإمام الذهبي
١٠٤. قواعد في التكفير
١٠٥. كتاب " شروط لا إله إلا الله ".
١٠٦. صفة الطائفة المنصورة لأبي بصير
١٠٧. http://www.alkashf.net/vb/showthread.php?t=٩٤١
١٠٨. http://www.jameataleman.org/msah/hader/١١٤.htm
١٠٩. http://٩٤,٧٥,٢٠٠,١٦٣/vb/showthread.php?p=٥٦١٩٠٠
١١٠. منهاج الفرقة الناجية والطائفة المنصورة

١١١.	أحاديث الطائفة الظاهرة وتحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويـــل الجـــاهلين — لعفانة

الفهرس العام